
دراسات تاريخية
من
القرآن الكريم
(٣)
في بلاد الشام
دكتور
محمد بيومي مهران
دار النهضة العربية
للطباعة والنشر

دراسات تاريخية من القرآن الكريم

(٣)

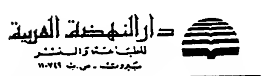
في بلاد الشام

دكتور
محمد بيومي مهران
أستاذ تاريخ مصر والشرق القديم
ورئيس قسم التاريخ والآثار المصرية والاسلامية
كلية الآداب - جامعة الاسكندرية

دار النهضة العربية
للطباعة والنشر
بيروت - ص.ب ١١٠٧٤٩

الطبعة الثانية

١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م



* الإدارة : بيروت ، شارع مدحت باشا ، بناية كريدية ، تلفون : ٣٠٣٨١٦/ ٣٠٩٨٣٠/ ٣١٢٢١٣
برقياً : دانهضة ، ص . ب ٧٤٩-١١
تلكس : NAHDA 40290 LE
29354 LE

* المكتبة : شارع البستاني ، بناية اسكندراني رقم ٣ ، غربي الجامعة العربية ، تلفون : ٣١٦٢٠٢

* المستودع : بئر حسن ، تلفون : ٨٣٣١٨٠

بسم الله الرحمن الرحيم
والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين
سيدنا محمد وآله

تقديم

تحدثنا في الجزء الأول من هذه الدراسات عن النبوات في بلاد العرب، ومن ثم فقد قدمنا دراسة تاريخية عن أبي الأنبياء إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام وكذا عن هود وصالح وشعيب عليهم السلام، هذا إلى جانب دراسة أحداث تاريخية جاء ذكرها في القرآن الكريم، كقصة سيل العرم وأصحاب الأخدود وأصحاب الفيل.

ثم خصصنا الجزء الثاني من هذه السلسلة «دراسات تاريخية من القرآن الكريم» لدراسة تاريخ النبوات في أرض الكنانة، ومن ثم فقد قدمنا دراسة عامة عن النبوة والنبوات، ثم دراسة مفصلة عن تاريخ النبيين الكريمين يوسف وموسى عليهما السلام، فضلاً عن تاريخ بني إسرائيل في مصر.

وفي هذا الجزء الثالث من هذه السلسلة نتحدث عن تاريخ النبوات في

بلاد الشام، ومن ثم فإن حديثنا في هذا الجزء إنما سيكون عن الأنبياء الكرام: داود وسليمان، ثم أيوب وإلياس واليسع وزكريا ويحيى، ثم ختمنا هذا الجزء الثالث بسيرة المسيح عيسى بن مريم رسول الله، صلوات الله عليهم أجمعين.

وإني لكبير الأمل في الله تعالى أن يكون في هذه الدراسة بأجزائها الثلاثةبعض النفع، والله من وراء القصد، وهو الهادي إلى سواء السبيل.

«وما توفيقي إلاَّ بالله عليه توكلت وإليه أنيب».

الإسكندرية في ١٢ ربيع الأول عام ١٤٠٨ هـ.
٤ نوفمبر عام ١٩٨٧ م.

الكِتَابُ الرَابِع

داوُد وسُليمان عَليهما السَّلام

البَابُ الأول

سِيرة دَاوُد عَلَيهِ السَّلام

الفصل الأول

بنو إسرائيل فيما بين عهدي ودأود عليهما السلام

(١) دخول بني إسرائيل كنعان :

آل أمر بني إسرائيل بعد موت موسى عليه السلام إلى يوشع بن نون خادم موسى وفتاه[١]، ومنذ تلك اللحظة بدأ كتبة التوراة يضعوه في مكانة لا تقل عن مكانة موسى نفسه[٢]، فكما كلم الرب موسى من قبل، كلم يوشع من بعد[٣]؛ وكما آثر موسى بمعجزة انفلاق البحر في مصر، فقد آثر يوشع بمعجزة شق الأردن في كنعان، هذا فضلاً عن معجزة أخرى يتعطل فيها مسير الأفلاك بإشارة من يوشع، فإذا الشمس تتوقف عن مغيبها عند «جبعون»، وإذا القمر لا يبزغ في حينه على وادي أيلون[٤].

---

(١) خروج: ٢٤/ ١٣، عدد: ٢٧/ ١٢ - ٢٣، تثنية: ١/ ٢٨.

(٢) يذهب بعض المفسرين إلى أن يوشع قد بعث بعد موسى نبياً (انظر تفسير الطبري: ١٠/ ١٩٢، تفسير الطبري: ٦/ ٧٠، تفسير ابن كثير: ٢/ ٧٤، تفسير الكشاف: ١/ ٦٢٢) وبديهي أن هذا من اجتهادات المفسرين، ولكن الذي يلزمنا هنا هو كلام الله عز وجل، وليس ما درج المفسرون أن يقدموا فإنما هو احتهاد، وفوق كل ذي علم عليم، وليس في كتاب الله نص صريح على نبوة يوشع أو يشوع هذا.

(٣) يشوع: ١/ ١ - ٢.

(٤) خروج: ١٤/ ٢١، يشوع: ٣/ ١٤ - ١٧، ١٠/ ١٢ - ١٤، مختصر تفسير ابن كثير: ١/ ٥٠٤، محمد بيومي مهران: إسرائيل: ٢/ ٦٠١، ٦١٠، وكذا.

J. Gray, Israel, In Near Eastern Mythology, N. Y, 1969, P. 111

وقد بدأ يشوع بخطط لغزو كنعان، وبدأ بمدينة أريحا، ومن ثم فقد عبر بنو إسرائيل الأردن في «مقابل أريحا»[1]، وهي المخاضة المعروفة بالمغطس أو الحجلة، على مبعدة ميلين جنوبي كوبري اللنبي، ويبدو أن العبور كان في الربيع عندما كان النهر ضحلاً كما يفهم من بعض نصوص التوراة، وإن ذهب نص آخر إلى أن «المياه المنحدرة من فوق وقفت، وقامت ندا واحداً، بعيداً جداً عن أدام المدينة»[2]، فسار القوم في الأرض الجافة، وأما مدينة «أدام» هذه فيمكن أن توجد «بتل الدامية»، على مبعدة ميل واحد جنوبي اتصال يبوق بالأردن، وهناك يوجد جرف من الحجر الجيري يكوّن عند الزلزال شقاً في النهر يسدّه تماماً لفترة ما ويمنع تدفق مياه الأردن لمدة تزيد عن عشرين ساعة، الأمر الذي حدث مثيل له في عام ١٩٣٧ م[3].

وأيا ما كان الأمر، فلقد عبر بنو إسرائيل الأردن، وعسكروا في «الجلجال» عند تخم أريحا الشرقي[4]، ثم سرعان ما تقدموا نحو المدينة الحصينة، ذات الأسوار العالية، وطبقاً لرواية التوراة، فلقد دار القوم حول أريحا مرة كل يوم، على مدى سبعة أيام، وفي اليوم السابع يدور القوم دورتهم السابعة، ويضرب الكهنة بالأبواق، وتسقط أسوار أريحا، وتحرق المدينة وكل من فيها وما فيها «من رجل وامرأة وطفل وشيخ، حتى البقر والغنم والحمير»، ما عدا «الذهب والفضة وآنية النحاس فقد جعلوها في خزانة بيت الرب»، وأما «رحاب» الزانية التي خانت قومها ووطنها، وأخفت

---

(١) يشوع: ٣/ ١٦.

(٢) يشوع: ٣/ ١٥ - ١٦.

(٣) J. Garstang, Jashua, Judges, The Faundations of Bible.

J. Finegan, P. Cit, P. 155 وكذا History, London, 1931, P. 136 F

(٤) يشوع: ٤/ ١٩، ٢٤.

جواسيس يشوع في بيتها وسهلت مهمتهم، فقد كافأها بنو إسرائيل بأن أبقوا عليها، هي وبيت أبيها، كما أسكنوها في وسط إسرائيل، ولم يكتف يشوع بكل ما فعله بأريحا، وإنما هو يصب اللعنات على من يعيد بناء المدينة، وإلاً «فبِبكره يؤسسها، وبصغيره ينصب أبوابها»[١]، هذا ويذهب الكثير من العلماء إلى أن سقوط أريحا لم يكن بسبب ضرب كهنة يهود بأبواقهم، ثم الدوران حول المدينة طيلة أيام سبعة، وإنما بسبب زلازل وقعت في المدينة[٢].

وكانت الضربة التالية من نصيب «عاي» التي سقطت عن طريق خدعة يهودية، ثم «ضربوهم حتى لم يبق منهم شارد ولا منقلب»[٣] وإن كان البعض يعتبر ذلك مجرد خيال يهودي لأنه لم تكن هناك مدينة وقت ذاك باسم «عاي»، وأن حضائر «مدام جوديت ماركيت كروز» في موقع عاي، وهي التل الحالية على مبعدة ١٣ ميلاً شمال غرب أريحا، تشير إلى بقايا مدينة من عصر البرونز المبكر قد دمرت تماماً حوالى عام ٢٢٠٠ قبل الميلاد، كما أن اسم «عاي» يعني الخراب، ومن هنا يرى العلماء أن التفسير المحتمل لرواية التوراة هو الخلط بين عاي وبيت إيل (بيتين) على مبعدة ميل من عاي[٤]، وعلى أية حال، وطبقاً لرواية التوراة، فلقد امتد هذا المد الإسرائيلي سعيراً، فأحرق بالنار المدن الكنعانية، وقتل أهلها برمتهم، من رجال ونساء وأطفال، بل وفي حمى لا واعية، إنطلق هذا المد مجنوناً، فلم يسلم من يده

---

(١) يشوع: ٦/ ١ - ٢٧.

(٢) J. Finegan ,Op. Cit, P. 158. وكذا T. R. Glover, Ancient World 1968, P. 134

(٣) يشوع: ٧/ ٣، ٨/ ١٣ - ٢٩.

(٤) W. F. Albright, A J A, 40, P. 158 and B A S O R, 118, P. 31

وكذا Judith Marquet-Krause, Les Voulles de Ay (et-Tell), 1944-1935, 2 Vols 1949 وكذا

J. Finegan, Op-Cit, P. 159-160

شيء ، حتى السائمة لم يستبق يشوع من البهائم واحدة ، البقر والغنم والحمير أحرقها يشوع أباد يشوع كل شيء باستثناء المعادن وسبائك الفضة والذهب .

وتقدم يشوع فاستولى على جبعون (الجيب الحالية ، ٨ أميال شمال غرب القدس) ولبنه (تل بورناط شمالي غرب بيت جيرين أو تل الصافية) ولخيش (تل الدوير) وجازر (تل الجزر ، ١٧ ميلاً جنوب شرق حيفا) وعجلون (خربة عجلا قرب أربد) وحبرون (مدينة الخليل ، ١٩ ميلاً جنوب غرب القدس) ودبير (تل بيت مرسيم ، ١٢ ميلاً جنوب غرب الخليل) وحاصور (تل القدح ، ٩ أميال شمال بحر الجليل) ، ثم تزعم التوراة بعد ذلك أن يشوع استولى على أملاك ٣١ ملكاً في كنعان ، وأنه أخذ كل الأرض حسب ما كلم الرب موسى وأعطاها ملكاً لبني إسرائيل[١] ، على أن الباحثين إنما يكادون يجمعون الآن على أن غزو كنعان إنما كان بعيداً عن التمام على أيام يشوع ، ذلك لأن هناك كثيراً من المدن الحصينة في طول البلاد وعرضها ولم تخضع لبني إسرائيل ، فضلاً عن مجموعات من القبائل ، بل إن احتلال كنعان حين تم ، إنما تم عن طريق جهود كل سبط في الدفاع عن منطقته ، وأن ذلك استغرق فترة تزيد عن القرن من الزمان ، ومن هنا فليس صحيحاً ما روته توراة يهود من أن الغزو قد تم في جيل واحد أو في خمسة أو سبعة أعوام ، وإنما استمر طوال عهد القضاة ، وحتى بداية عصر الملوك الأول ، حيث تم الاستيلاء على أورشليم ومجدو وتعناك وبيت شان ومنطقة دورو جارز ، بل إن أورشليم لم يتم الإستيلاء عليها إلا على أيام داود ، وجازر على أيام سليمان وبقوات مصرية[٢] .

(١) يشوع : ٩/ ٣ـ٧ ، ١٠/ ١ ـ ١١ ، ١١/ ٢٣ ، ١٢/ ١ ـ ٢٤ ، محمد بيومي مهران ، إسرائيل : ٢/ ٦١٢ـ٦٢٢ ، وكذا J. Finegan, Op.Cit, P. 160-164 وكذا A. Lods, P-cit, P. 332 وكذا J. B. Pritchard, BA, 19, 1956, P. 65 - 75 and UMB, 21, 1957, P. 3-26, 1958, P. 12, 24

(٢) يشوع : ١٤/ ١٠ ـ ١١ ، صموئيل ثان : ٥/ ٦ ـ ٩ ، ملوك أول : ٩/ ١٦ ، وكذا Op.cit, P. 242 وكذا O Roux, I. EPdtein, Op.cit, P. 33 .

وهكذا يمكننا القول إن ما تمتليء به صفحات سفر يشوع من غزوات لا تعدو ما اعتاده الرحل أن يمارسوه من غارات قبلية على السكان المستقرين الآمنين في كنعان، والذين كانوا يعيشون في تلك الفترة شيعاً وأحزاباً، لا تربطهم رابطة ولا يجمعهم حلف واحد، فإذا أضفنا إلى ذلك حروب رعمسيس الثالث ضد شعوب البحر، وانشغال مصر بتلك الحروب، فضلاً عن ضياع دولة الحيثيين على أيدي شعوب البحر، هذا إلى جانب ما كان يمر به العراق القديم من فترة ضعف تشبه تلك التي كانت تمر بها مصر في أخريات أيام الأسرة العشرين، وهكذا كانت الظروف التي كانت تمر بها دول الشرق الأدنى القديم وشعوبه، والتخلخل الموجود في سورية وفلسطين في أعقاب غزوات شعوب البحر، الأمر الذي أعطى بنو إسرائيل فرصة شن بعض الغارات البربرية الناجحة في بعض مدن شرق فلسطين بدرجة تكفي لأن يبدأ يشوع من تنظيم حياة قومه السياسية والدينية، وأن يقسم الأرض المحتلة بين الأسباط طبقاً لعدد كل سبط، وأن يشيد في شيلوه (سيلون الحالية، ١٧ ميلاً شمال القدس) محراباً مركزياً يتخذه مركزاً للتابوت الذي كان يستخدم كرمز لوحدة القوم السياسية والدينية[١].

(٢) عصر القضاة:

يبدأ عصر القضاة بموت يشوع بن نون وينتهي بقيام الملكية على يد طالوت (شاؤل في التوراة) وتستغرق هذه المرحلة من تاريخ بني إسرائيل ما بين أربعة قرون وقرن واحد من الزمان، على اختلاف في الرأي[٢]، والرأي

---

(١) I. Epstein, Op-Cit, P. 33'.

(٢) أعمال الرسل: ١٣/ ٢٠، شاهين مكاريوس: المرجع السابق ص: ٨، فيليب حتي: المرجع السابق ص: ١٩٥، باروخ سبينوزا: المرجع السابق ص: ٢٩ ـ ٢٩٤، وكذا O. Eissfeldt, The Period F The Judges. In CAH, II, Part, 2, 1975, P.1 وكذا Groy, Op.cit, P. 112 553 وكذا M. B. Bowton, the Early period of The Judges in Israel, Cambridge. 1965.

عندي أنها لا تعدو القرن ونصف القرن ، إذا اعتمدنا على الرأي الذي يرجع الخروج على أيام مرنبتاح حوالي عام ١٢١٤ ق. م، وقيام ملكية طالوت حوالي عام ١٠٢٠ ق. م، آخذين في الاعتبار فترة التيه وعهد يشوع بن نون.

وأيا ما كان الأمر، فلقد كانت القبيلة أو السبط هي أساس النظام الاجتماعي عند بني إسرائيل، وطبقاً لرواية التوراة فقد كانت الأرض المفتوحة تقسم على إحدى عشرة قبيلة، بينما وزعت القبيلة الإثني عشر، وهي قبيلة لاوي رهط موسى، على القبائل الأخرى للخدمة الدينية، وهذه القبائل كانت بدورها تقسم إلى عشائر، ولكنها تتجمع حول هيكل مركزي في «شيلوه» الأمر الذي دفع بعض العلماء إلى أن يقارن هذا النظام القبلي العبراني بمجلس «الأمفكتيون» اليوناني (Amphictyony) والذي يقوم على مبدأ مماثل من المركزية الدينية، وكانت سلطة الكاهن الأكبرعظيمة، ولكن من المبالغة أن نزعم وجود حكومة «ثيوقراطية» فإن سلطته لم تكن سياسية، وإنما كان يتصدر القوم أثناء الأزمات الأزمات زعماء محليون هم «القضاة» الذين حكموا بني إسرائيل طوال القرن ونصف القرن التاليين لدخولهم فلسطين، وكانت سلطة القضاة عارضة محدودة المدى والمدة، وهي في هذا النظام تذكرنا بسلطة زعماء النظام البدوي الذي تتميز به الحياة السامية في مراحلها الأقدم عهداً[1].

ولم يكن القضاة قضاة بالمعنى المفهوم، ولم يكونوا مشرعين بالمعنى القديم، وإنما كانوا طبقة من الأبطال المحاربين والمنقذين أقامهم الرب «ليخلصوهم من يد ناهبيهم»، ولم يكونوا خلفاء لبعضهم البعض، بل إننا

---

(١) يشوع: ٨/ ١، ٨، ١٠، موسكاتي: الحضارات السامية القديمة ص: ١٤ - ١٤١، وكذا M. Noth, Das System der Zwolf Staemme Israels, 1930, P. 39-60 وكذا M. F. Unger

Op.-Cit, P. 1015.

لنشهد أكثر من واحد في وقت واحد، ولم يكن في إسرائيل ملوك في تلك الأيام، حتى إذا كانوا من الكهنة، وكان الواحد من هؤلاء القضاة يطلق عليه أحياناً لقب ملك أو قاض[1]، والحق أنك لا تجد واحداً من القضاة استطاع أن يبسط سلطانه على جميع بني إسرائيل، فكل واحد من هؤلاء الحكام والشيوخ كان يتسلم قيادة زمرة واحدة، عندما تهدد هذه الزمرة تهديداً مباشراً، وهو إذا ما كتب له النصر، لم يحتفظ حتى بقيادة تلك الزمرة[2]، هذا وتفيد روايات التوراة عنهم أنها تختلف بينها بدرجة كبيرة، فبينما يبدوا بعضها ذو أهمية تاريخية مثل شعر انتصار «دبورة» أو قصة «أبيمالك»، يبدو بعضها الآخر ذو صفة أسطورية لا أقل ولا أكثر، وأما أبطال هذه القصص فلا يظهرون أبداً كمصلحين دينيين، بل إن «شمعون» لم يكن حتى زعيماً، كما أن هذه الروايات مستقلة تماماً إحداها عن الأخرى، ولم يعد ممكناً أن نقول بالتأكيد ما هو الترتيب التاريخي للأحداث المسجلة[3] من عصر القضاة، والذين بلغ عددهم خمسة عشر قاضياً، أولهم «عثنيئيل» وآخرهم صموئيل النبي[4].

ومن حوالي منتصف القرن الحادي عشر قبل الميلاد، أصبح «عالي» الكاهن قاضياً لإسرائيل في «شيلوه» ولمدة ٤٠ سنة، لم يستطع فيها بنو إسرائيل أن يوقفوا قوة الفلسطينيين[5]، وكان أولى المعارك بينهما في أفيق

(١) نجيب ميخائيل: المرجع السابق ص: ٣٢٥.

(٢) جوستاف لوبون: المرجع السابق ص: ٣٥.

(٣) A. Lods, P - Cit, P. 335

(٤) انظر: محمد بيومي مهران إسرائيل: ٢/ ٦٣٠ - ٦٥٧.

(٥) الفلسطينيون هم: «برست» (بلستي) أحد شعوب البحر، وقد اختلف العلماء في مواطنهم الأصلي، فمن قائل أنهم شعب هندي أوربي أتى من كريت، ولكنه لم ينشأ بها أصلاً، ومن قائل إن موطنهم الأصلي كريت، ومن قائل إنهم ساميون، ولكن الإسرائيليون يشيرون إلى

(تل المخمر، أكيلا شرقي حيفا) فلقد تجمع الإسرائيليون في «أبنزير» على حافة الجبال في مواجهة أفيق، وأحضروا معهم التابوت المقدس من شيلوه ليضمنوا وجود ربهم بينهم، ولكن المعركة انتهت بهزيمتهم، وسقط من بني إسرائيل ثلاثون ألف رجل، وأخذ التابوت، ومات ابناعالي الكاهن، مما أثار في نفوس بني إسرائيل التشاؤم والذعر، ولما وصل الخبر إلى عالي سقط عن الكرسي فانكسرت رقبته ومات[1].

وقد كانت نتيجة الهزيمة مروعة، فلقد دمر الفلسطينيون المعبد الرئيسي في شيلوه، والذي كان يجمع القبائل الإسرائيلية جميعاً، فضلاً عن أخضاع

= أنهم قوم لا يختتنون، وهذا ينأى بهم عن الساميين والمصريين، ومن قائل إنهم ينتسبون إلى القومية الإليرية، ومن قائل إنهم يتشابهون مع البلاسجيين وأن لغتهم لهجة لوية، ومن قائل إنهم من آسيا الصغرى من منطقة سيليسيا الغربية، والأكثر احتمالاً، المنطقة أعلى وأسفل نهر كاليكادنوس في الجزء الشرقي، ومن قائل غير ذلك، ويبدو لي أن الذين يرجعون بهم إلى آسيا الصغرى أقرب الآراء إلى الاحتمال، لأن أغلب شعوب البحر من هذه المنطقة، ولأن الأدلة العلمية في صالح هذا الرأي أكثر من غيره، وقد اشترك الفلسطينيون مع غيرهم من شعوب البحر في غزو الامبراطورية المصرية ومصر نفسها على أيام رعمسيس الثالث، وقد هزموا هزيمة منكرة في معركتين، بحرية وبرية، وقد صورت المناظر المصرية رؤساءهم ملتحين، وجنودهم دون لحى، وبأغطية رأس ذات ريش، وسيوف طويلة عريضة وخناجر وحراب مثلثة وتروس مستديرة وحراب، وقد سمح لهم الفرعون بعد هزيمتهم بالاستقرار في ساحل فلسطين فيما بين يافا وغزة، وكانت أهم مدنهم غزة وعسقلان وأشدود وعقرون وجت، وقد نظمت بشكل ممالك أو دويلات مدن، ولكنها كانت تشكل جميعاً إتحاد تحت زعامة أشدود، وقد احتفظ التاريخ باسمهم على فلسطين، لا لأنهم أصبحوا غالبية السكان فيها ولأنهم بسطوا نفوذهم عليها جميعاً، ولكن ربما لأنهم آخر من نزلها ولكثرة ترديد التوراة لاسمهم بسبب تهديدهم ليهود وغلبتهم عليهم، وقد بلغوا ذروة قوتهم عليهم جميعاً، ولكن ربما لأنهم آخر من نزلها ولكثرة ترديد التوراة لاسمهم بسبب تهديدهم لليهود وغلبتهم عليهم، وقد بلغوا ذروة قوتهم في النصف الثاني من القرن الحادي عشر قبل الميلاد (انظر عن التفصيلات والمراجع: محمد بيومي مهران: إسرائيل ٢/ ٥٨٧ ـ ٥٩٦).

(١) صموئيل أول: ٤/ ٤ ـ ١، وكذا M. Noth, Op. Cit., P. 165-166 وكذا C. Roth, OP. Cit., P.14 وكذا W. F. Albright, Archaeology and the religion of Israel, Baltimore, 1953, P. 104-188

قبائل بني إسرائيل نفسها لسلطانهم، وإقامة الثكنات العسكرية الفلسطينية في المناطق الإسرائيلية، واحتلال الجبال الرئيسية في غرب الأردن، وإقامة النصب التذكارية لنصرهم في «جبعة بنياوين» (تل الفول، ٥ كيلاً شمالي القدس)، وأخيراً فلقد نزعوا سلاح إسرائيل حين منعوهم من صناعة أسلحة جديدة، وهكذا قوى الفلسطينيون امتيازاتهم السياسية عن طريق تفوقهم في السلاح، وضعف أعدائهم فيه، بل منعه عنهم، فضلاً عن القضاة على فكرة الثورة بين بني إسرائيل ضدهم[1].

(٣) قيام ملكية طالوت:

يذهب الباحثون إلى أنه من أخريات القرن الحادي عشر قبل الميلاد، وبعد هزيمة أفيق المروعة تجمعت كل العوامل الضرورية لإنهاء نظام حكم القضاة وقيام الحكم الملكي عند بني إسرائيل، والتي كان منها (أولاً) ضغط الفلسطينيين على الإسرائيليين، والذي كان أقوى العوامل لتجميع قوى بني إسرائيل وإنشاء مملكة، بل ربما كان الأصح أن تهديد الفلسطينيين للكيان الإسرائيلي من أساسه هو السبب في قيام الملكية الإسرائيلية، ومنها (ثانياً) أن بني إسرائيل كانوا يعيشون بين أقوام يحكمون بملوك، فالآدميون والعمونيون والمؤابيون كان لهم ملوك والفلسطينيون كان لهم أقطاب أشبه بالملوك، كما كان للفينيقيين ممالك مدن، مما دفع بني إسرائيل إلى المطالبة بملك يحارب حروبهم، ويكون لهم قاضياً كذلك، ومنها (ثالثاً) أن الكهنوت الإسرائيلي كانت قد تسلمته أياد ضعيفة منذ أيام «فيخاض» ومما

(١) صموئيل أول: ١٠/ ٥، ١٣/ ٣ - ٢٢، M. Noth Op. Cit, P. 166-167 وكذا O. Eissfeld Op. Cit, P. 571-572 وكذا W. F: Albright Op. Cit, P. 103 F وكذا H. Kjaer, The Exavation of Shilo In J Pos, 10, 1930, G. E. Wright, Biblical

يؤيد هذا أن «عالي» الكاهن لم يكن من بيت «العازار» الابن الأكبر لسيدنا هارون عليه السلام، والذي يجب أن تستمر الخلافة في نسله، وإنما كان من بيت الابن الأصغر «إيثمار» ومنها (رابعاً) أن ولدي عالي الكاهن (حفني وفيخاص) لم يكتفيا بطمعهما الجشع، بل كانا يرتكبان أقذر أنواع العبادة الوثنية وسط كروم شيلوه، حتى أنهما، رغم أنهما متزوجين، لم يترددا عن إفساد النسوة اللاتي كن يترددن على المعبد للقيام بالخدمات التي كانت تتطلب عملاً لا يليق بالنساء[1].

ومنها (خامساً) أن هناك نصاً في التوراة يجعل الحكم في إسرائيل ملكياً[2]، ومنها (سادساً) التهديد العموني لحدود إسرائيل الشرقية، ولعل هذا السبب، بجانب التهديد الفلسطيني وتدمير للكثير من مدن إسرائيل، كان السبب المباشر لقيام الملكية الإسرائيلية[3]، وهكذا أدى التهديد الخارجي، والاضطراب الداخلي إلى أن يضطر شيوخ إسرائيل إلى الإجتماع والمطالبة بتتويج ملك على شعب إسرائيل، وهكذا اختار لهم «صموئيل النبي» ملكاً على إسرائيل هو «شاؤل بن قيس» من سبط بنيامين، ومع ذلك، فإن رواية التوراة إنما تشير إلى أنه تردد كثيراً في إجابة شيوخ إسرائيل إلى ما يطلبون، بل «[2]لقد ساء الأمر في عيني صموئيل»، وحذر قومه من غضب الرب، إن هو رضي فملك عليهم ملكاً، ولكن احتجاج صموئيل كان عديم الجدوى، إذ أصرّ شيوخ إسرائيل على رأيهم، ومع ذلك فما كان عند صموئيل النية في إقامة ملك مستقل حقيقة، بل كان كل ما يرجوه أن يكون قائداً حربياً وزعيماً

---

(١) صموئيل أول: ٢/ ٢٢ ـ ٢٥، ف. ب. ماير: حياة صموئيل النبي ـ القاهرة ١٩٦٧ ص ٣٥، ٦٥ (مترجم).

(٢) تثنية ١٧/ ١٤ ـ ١٥.

(٣) انظر: محمد بيومي مهران: إسرائيل ٢/ ٦٦١ ـ ٦٦٧.

وسنداً لكل الشعب يخلصهم من سيطرة الفلسطينيين ثم بعد ذلك يخضع لصموئيل طوال حياته[1].

على أن الاتجاه القرآني، كما بين ذلك بشيء من التفصيل فيما بعد، يذهب إلى أن الملأ من بني إسرائيل قد طلبوا من نبيهم أن يختار لهم ملكاً يقاتلون معه عدوهم، فحذرهم نبيهم من أن السوابق التاريخية تفيد أنهم ليس لهم صبر على القتال، ولا شجاعة يقفون بها أمام أعدائهم، ومع ذلك فقد أعلمهم أن الله تعالى قد اختار لهم طالوت ملكاً.

هذا وقد وصف طالوت في التوراة بأنه «شاب حسن، ولم يكن في بني إسرائيل أحسن منه، من كتفه فما فوقه، كان أطول من كل الشعب»، وفي الواقع فإن اختيار شخص بالذات ليكون ملكاً على إسرائيل، ليس امراً سهلاً، لأن اختياره من إحدى القبائل القوية فيه ما فيه من مساس بقدر القبائل الأخرى، وقد يثير حرباً أهلية، كما أن المعارك الأخيرة بين بني إسرائيل والفلسطينيين قد حطمت من قوة «أفرايم» وهي التي كانت سيادتها على القبائل الأخرى حتى ذلك الوقت أمراً لا نزاع عليه، ومن ثم فإن اختيار طالوت «شاؤل في التوراة» كان موفقاً، فبالإضافة إلى مميزاته الجسمانية، وكذا العلمية كما جاء في القرآن الكريم، فقد كان من سبط «بنيامين» أضعف الأسباط الإسرائيلية، الأمر الذي كان لا يسبب له حقداً من الأسباط الآخرى، هذا إلى أن خيامه إنما كانت تقع بين أفرايم ويهوذا، أي أنها تقع في مكان وسط إلى حد ما بين القبائل الشمالية والجنوبية[2].

---

(١) صموئيل أول: ٨/ ١ - ٢٢، حسن ظاظا: الفكر الدين الإسرائيلي ص ٤٠، وكذا Lods, Op. Cit, P. 395. وكذا H. R. Hall, Op. Cit, P. 292.

(٢) صموئيل أول: ٩/ ١ - ٢، محمد بيومي مهران: إسرائيل ٢/ ٦٦٨ - ٦٧٤ وكذا W. Kelle, TTe Bibleas History 1967, P. 179.

ومن عجب أن يزعم الحاخام «أبشتين» أن اختيار شاؤل (طالوت) ملكاً على إسرائيل إنما يعتبر أول ملك دستوري في التاريخ، لأنه تم برضى عام من بني إسرائيل[1]، والحق أن الأحداث التاريخية لا تتفق ومزاعم «أبشتين»، فالنبي صموئيل وليس بنو إسرائيل، هو الذي اختار شاؤل ملكاً، اعتماداً على سلطته الدينية، حيث فرضه عليهم كممثل معتمد لرب إسرائيل هذا إلى أن القوم لم يقبلوه جميعاً، فلقد رفضه «بنو بليعال» الذين ازدروه وقالوا: كيف يخلصنا هذا فاحتقروه، ولم يقدموا له هدية فكان كأصم، «على حد تعبير التوراة»[2]، وكما أشار إلى ذلك القرآن الكريم[3]، كما أن اختياره كان تجنباً لحرب أهلية يمكن أن تنشب، لو وقع الاختيار على واحد من أبناء القبائل القوية دون الأخرى، ومن هنا كان اختياره من أضعف أسباط بني إسرائيل.

وأما أنه كان أول ملك دستوري في التاريخ، فيكذبه، أننا حتى لو صدقنا ذلك، فإن شاؤل قد اختير ملكاً قبيل بداية الألف الأولى قبل الميلاد بأعوام قلائل، بينما نعرف أن هناك ما يدل على تواجد التفكير الديمقراطي منذ الألف الثالثة قبل الميلاد في العراق القديم، وأن انتخاب الحاكم الذي كان يرأس حكومة المدينة إنما كان يتم بناءً على قرارات الجمعية العمومية، والتي تتكون من جميع المواطنين، وربما بما فيهم النساء كذلك[4]، هذا فضلاً عن أن مصر الفرعونية قد عرفت منذ النصف الثاني من الألف الثالثة قبل الميلاد، إنما لها من الديمقراطية ومن العدالة الإجتماعية على أيام الثورة الإجتماعية الأولى، حتى أصبح الملك يوصف بأنه ليس أكثر من «ابن امرأة

---

(١) I. Epstein Judaism. 1970. P. 35.

(٢) صموئيل أول ١٠/ ١١ - ٢٧.

(٣) سورة البقرة آية ٢٤٧.

(٤) T. Jacolison, Primitive Democracy in Ancient Mesopotamis, JNES. II, 1943, P. 165.

من تاتســـي. طفــل من نخــن» مرة، وبأنــه «ابــن الإنســان» مرة أخرى، لإقناع القوم بأن حاكمهــم ليس من بيوت الإمــارة والملك، وإنمـا هو من الشعب وربيب الشعب وصديق الشعب، ثم هو قبل ذلك وبعده، رجل يخدم مصالح الدولة ويرعى شئونها، ويعمل على وحدتها، ويمتلـيء قلبه بحب رعاياه، والرغبة في العمل من أجل مصالحهم[1]، وهكذا يبدو واضحاً أن ما ادعاه الحاخام «أبشتين» من تمجيد لقومه اليهود، إنما كان ادعاء عريضاً إلى حد كبير.

هـذا وقـد اختلف المؤرخـون في فتـرة حكم طالــوت (شــاؤل) فهناك من يرى أنهـا في الفتـرة (١٠٣٠ - ١٠٠٤ ق. م.) ومــن يرى أنهــا في الفترة (١٠٢٥ - ١٠١٣ ق.م.) ومـن يرى أنهـا في الفتـرة (١٠٢٠ - ١٠٠٤ ق. م.) ومن يرى أنها في الفترة (١٠٢٠-١٠٠٠ ق.م.) ومن يرى أنها في الفترة (١٠٠٠ - ٩٨٥ ق. م.)[2] وأما قصــة طالــوت في القــرآن الــكريم فقــد جاءت في سورة البقـرة، قال تعالـى: **﴿ألـم تر إلـى المــلأ من بنـــي إســـرائيل من بعد موسى إذ قالوا لنبـي لهـم ابعـث لنـا ملـكاً نقاتـل في سبيل الله قال هل عسيتم إن كتب عليكم القتال ألا تقاتلوا، قالوا وما لنا ألا نقاتـل في سبيل الله وقـد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا، فلما كتب عليهم القتال تولوا إلا قليلاً منهـم والله عليم بالظالمين، وقال لهم نبيّهم إن الله قد بعث لكم طالوت ملكاً قالوا أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ولـم يؤت سعـة من المال قال إن الله**

---

(٢) محمد بيومي مهران: الثورة الإجتماعية الأولى في مصر الفراعنة ص: ٢٠٠ - ٢١٠، أحمد بدوي: في موكب الشمس: ٢/ ١٢٠، وكذا A. Gardiner Op. - cit, P. 120 وكذا J. A. Wilson, Op. - cit, P. 115 - 116, ANET, 1960, P. 415.

(٢) محمد بيومي مهران: إسـرائيل: ٢/ ٦٧٣ - ٦٧٤، وكذا W. Albright, The Archaeology of Palestine, P. 120 وكذا Historical Atlas f The Holy Land, N. Y, 1959, P. 81 وكذا W. Keller, Op- cit, P. 181 وكذا O. Eissfeld, Op. Cit P. 575 وكذا I. Epstein, Op. Cit, P. 35

اصطفاء عليكم وزاده بسطة في العلم والجسم والله يؤتي ملكه من يشاء والله واسع عليم، وقال لهم نبيّهم إن آية ملكه أن يأتيكم التابوت فيه سكينة من ربكم وبقية مما ترك آل موسى وآل هارون تحمله الملائكة إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين﴾[1].

وقد اختلف المفسرون في نبيّ إسرائيل الذي طلبوا منه أن يبعث لهم ملكاً، فروي عن قتادة أنه يوشع بن نون، قال ابن كثير في تفسيره: هو بعيد لأن هذا كان بعد موسى بزمن طويل، وكان ذلك في زمن داود عليه السلام، وقد كان بين داود وموسى ما يزيد على ألف سنة، وقول ابن كثير صحيح، لكنه بالغ كثيراً في تقديره الفترة بين موسى وداود، وهي التي يحددها الباحثون المحدثون ما بين أربعة قرون وقرن ونصف، وقد رجحنا من قبل أنها تقارب القرنين من الزمان، وقال السدّي إنه شمعون، وقال مجاهد وغيره إنه شمويل[2] (صموئيل) وهو الأرجح، هذا وقد ذهب بعض المفسرين إلى أن سبب تنصيب ملك على بني إسرائيل أن جالوت رأس العمالقة وملكهم، وهو جبار من أولاد عمليق، أو ملك الكنعانيين على رأي آخر، وكان قومه يسكنون ساحل بحر الروم بين مصر وفلسطين، قد ظهروا على بني إسرائيل وسبوا أولادهم وأسروا من أبناء ملوكهم أربعمائة وأربعين نفساً، وضربوا عليهم الجزية وأخذوا توراتهم، فلما كتب على بني إسرائيل القتال تولوا،

---

(١) سورة البقرة آية: ٢٤٦ ـ ٢٤٨، وانظر تفسير الطبري: ٥/ ٢٩١ ـ ٣٢٨، تفسير النسفي: ١/ ١٢٤ ـ ١٢٥، تفسير روح المعاني: ٢/ ١٦٦ ـ ١٦٨، تفسير الكشاف: ١/ ٣٧٨ ـ ٣٧٩، تفسير الفخر الرازي: ٦/ ١٨١ ـ ١٩٣، تفسير القرطبي ص: ١٠٥١ ـ ١٠٥٨، تفسير الطبرسي: ٣/ ٢٧٥ ـ ٢٨٤، تفسير القاسمي: ٢/ ٦٤١ ـ ٦٧٤، في ظلال القرآن: ٢/ ٢٦٦ ـ ٢٦٩، تفسير المنار: ٢/ ٣٧٢ ـ ٣٧٣، تفسير ابن كثير: ١/ ٤٤٩ ـ ٤٥٢ (دار الكتب العلمية ـ بيروت ١٩٨٦) تفسير الجلالين ص: ٤٣ ـ ٤٤، صفوة التفاسير: ١/ ١٥٦ ـ ١٥٨.

(٢) تفسير ابن كثير: ١/ ٤٤٩ (ط ١٩٨٦)، تفسير البحر المحيط: ١/ ٣٧٠، تفسير النسفي: ١/ ١٢٤.

إلا ثلاثمائة وثلاثة عشر، بعدد أهل بدر، وقد رفض بنو إسرائيل طالوت ملكاً لأنه من سبط بنيامين، والنبوة كانت عندهم في سبط لاوي، والملكية في سبط يهوذا، ولكن اختياره إنما كان بسبب علمه ليتمكن من معرفة أمور السياسة، وجسامة بدنه ليعظم خطره في القلوب، ويقدر على مقاومة الأعداء ومكابدة الحرب[1].

وأما آية ملكه أن يأتيهم التابوت فيه سكينة من ربهم وبقية مما ترك آل موسى وآل هارون، قال النسفي: هي رضاض الألواح وعصا موسى وثيابه وشيء من التوراة ونعلا موسى وشمامة هارون عليهما السلام، تحمله الملائكة قال ابن عباس: جاءت الملائكة تحمل التابوت بين السماء والأرض حتى وضعته بين يدي طالوت والناس ينظرون، وقال السدي: أصبح التابوت في دار طالوت فآمنوا بنبوة شمعون وأطاعوا طالوت، وقال عبد الرزاق عن بعض أشياخه: جاءت به الملائكة تسوقه على عجلة على بقرة، وقيل على بقرتين، وذكر غيره أن التابوت كان بأريحا، وكان المشركون لما أخذوه وضعوه في بيت آلهتهم تحت صنمهم الكبير، فأصبح التابوت على رأس الصنم فأنزلوه فوضعوه تحته، فأصبح كذلك فسمروه تحته، فأصبح الصنم مكسور القوائم ملقى بعيداً، فعلموا أن هذا أمر من الله

---

(١) تفسير البحر المحيط: ١/ ٣٧١ - ٣٧٢، ونلاحظ على هذا الرأي عدة أمور، منها (أولاً) أن جالوت هو ملك الفلسطينيين، وليس العماليق أو الكنعانيين، ومنها ثانياً أن بحر الروم وهو البحر الأبيض المتوسط لم يكن يسمى في تلك الفترة «بحر الروم» بل إن الروم حتى ذلك الوقت لم يكونوا قد ظهروا في العالم كقوة لها كيان يسمى باسمها البحر المتوسط، وعلى أي حال، فقد كان المصريون يسمون البحر المتوسط باسم «الأخضر العظيم» (وأج - ور: وفي الدولة الوسطى سموه «واج ور إن حاونبو» وفي الدولة الحديثة «بايم خاروه»، ومنها ثالثاً أن الكهانة، وليس النبوة، هي التي كانت في سبط لاوي فقط، بل أن صموئيل النبي الذي أختار طالوت ملكاً من سبط أفرايم، كما أن الملك لم يكن بعد في يهوذا، فالقضاة لم يكونوا جميعاً من يهوذا إن أول ملك لإسرائيل كان من سبط بنيامين وهو طالوت.

لا قبل لهم به ، فأخرجوا التابوت من بلدهم ، فوضعـوه في بعض القـرى ، فأصاب أهلها داء في رقابهم ، فأمرتهم جارية من سبي بني إسرائيل أن يردوه إلى بني إسرائيل حتى يخلصوا من هذا الداء ، فحملوه على بقرتين فسارتابه ، لا يقربه أحد إلا مات ، حتى اقتربتا من بلد بني إسـرائيل ، فكسرتـا النيرين ورجعتا ، وجاء بنو إسرائيل فأخذوه ، فقيل إنه تسلمه داود عليه السلام وأنه لما قام إليهما حجل من فرحه بذلك ، وقيل شابان منهم فالله أعلم ، وقيل كان التابوت بقرية من قرى فلسطين يقال لها «أذدوه»[1] .

(٤) حروب طالوت وظهور داود :

بدأ طالوت يعد العدة لقتال أعدائه الفلسطينيين الذين كانوا يسيطرون على البلاد ، منذ انتصارهم في معركة أفيق ، واستيلائهم على التابـوت[2] ، وتجريدهم من السلاح ، فضلاً عن إقامة القلاع في أماكن مختلفة من البلاد

(١) تفسير ابن كثير: ١/ ٤٥١ (ط ١٩٨٦) .

(٢) التابوت : وتطلق عليه التوراة تابوت العهد أو تابوت الشهادة أو التابوت المقدس أو تابوت إلّه إسرائيل أو تابوت يهوه ، وهو عبارة عن صندوق صنعه موسى بأمر ربه من خشب السنط، طوله ذراعان ونصف وعرضه ذراع ونصف ، وارتفاعه ذراع ونصف ، ومغشى بذهب نقي من الداخل والخارج ، وعليه إكليل من ذهب وأربع حلقـات ذهبية ، ولـه عصـوان من السنـط مغشيان بالذهب لحمل التابوت ، وكانت مسئولية حراسته لبنـي فهـات من الـلاويين رهـط موسى ، ويذهب البعض إلى أن فكرة التابوت مستعارة من المصريين ، بينما يرى آخرون أنها مستعارة من الكنعانيين ، وعلى آية حال ، فلقد كان للتابوت مكانة ممتازة عند بني إسرائيل ، وطبقاً للتقاليد الإسرائيلية فقد كانوا يحملونه معهم أثناء المعارك الحربية ، حتى عصر داود ، على الأقل ، وكان يستقبل بالتهليـل والتكبير ليتحقق النصر ، ويقع الذعر في قلوب الأعـداء الذين كانوا يخافون منه ويقولون «جاء الله إلى المحلة» ، وفي أوقات الهدنة كان التابوت يودع في أحـد أمـاكن العبـادة أو في خيمـة ، في بيت إيل وشيلـوه وبيت شمس ويعـاريم وأورشليم ، وطبقاً لوجهة نظر سفر التثنية ، فإن قدسية التابوت كانت في كونه يحمل ألـواح الشريعة ، ومن ثم سمي «تابوت العهد أو تابوت الشريعة أو الشهادة» ، وطبقاً لرواية التوراة فهو عرش يهوه ، وكان التابوت على رأس الإسرائيليين عندما دخلوا كنعان بقيادة يوشع بن نون ، وأنهم حملوه عندما عبروا الأردن ، فانشق تيار النهر فوق المياه المنحدرة ، وعبر الشعب =

للسيطرة عليها تماماً، والتي كان من أهمها تلك التي عند «بيت شان» (بيسان) للسيطرة على الطريق الموصل بين نهر الأردن ووادي يزرعيل، والتي عند «مخماس» و «جبعة» بين جبل أفرايم وأورشليم، والتي في جنوب القدس عند «بيت لحم» هذا فضلاً عن تعيين موظفين فلسطينيين لجمع الضرائب المفروضة على شعب بني إسرائيل المهزوم، كما كانوا يراقبونهم من مراكز المراقبة الثابتة[1]، وعلى أية حال، فلقد بدأ طالوت في أعداد العدة، فجهز جيشاً كثيفاً، بالغ المفسرون والمؤرخون في تقدير اعداده حتى وصلوا به إلى ثمانين ألفاً[2]، غير أن طالوت إنما أجرى لهم اختباراً، كان من نتيجته أن ترك الجيش وتقاعس عن القتال جميع رجال إسرائيل، إلا أقل القليل ممن عصم الله، وإلى هذا يشير القرآن الكريم في قوله تعالى: **﴿فلما فصل طالوت بالجنود قال: إن الله مبتليكم بنهر، فمن شرب منه فليس مني، ومن لم**

= على اليابسة، ثم بقي مدة في خيمة في الجلجال ثم في شيلوه، حيث بقي فيها أكثر من ثلاثة قرون، ثم وقع في أيدي الفلسطينيين في موقعة أفيق، وعندما أعاده الفلسطينيون لهم بقي في قرية يعاريم، ثم نقل منها على أيام داود إلى القدس، ثم وضع في هيكل سليمان بعد بنائه حتى أزاله «منسى» ووضع بدله تمثالاً، ثم أعاده «يوشيا» وبقي حتى مرحلة السبي البابلي عام ٥٨٦ ق. م، ثم اختفى، ولا يعلم أحد هل أخذه البابليون أم أن اليهود أخفوه في مكان ما ثم ضاع، وهناك تقاليد أثيوبية تذهب إلى أنه نقل إلى أكسوم في أثيوبيا، وليس هناك دليل على صحة تلك التقاليد (انظر عن التفصيلات والمراجع، محمد بيومي مهران إسرائيل: ٤/ ١٢٤ - ١٣٣).

(١) H. R. Hall, P - cit, P. 423.

(٢) تذهب رواية التوراة إلى أن هذا الحدث كان مع جدعون أحد قضاة إسرائيل، وليس مع طالوت، وأن عدد جنوده كانوا اثنين وثلاثين ألفاً، بقي منهم على العهد ثلاثمائة، وأن الحرب كانت ضد المدينيين، وليس الفلسطينيين، وأن المدينيين كانوا قد أذاقوا الإسرائيليين العذاب ألواناً، حتى اضطروهم إلى ترك قراهم ومنهم إلى الكهوف والمغاور والحصون، ومع ذلك فإن جدعون استطاع بمئاته، الثلاث أن يقتل من أعدائه في الجولة الأولى ١٢٠ ألف، وفي الجولة الثانية ١٥ ألف، وبدهي أن هذا من تحريفات التوراة (انظر محمد بيومي مهران: إسرائيل: ٢/ ٦٣٥ - ٦٤٠، قضاة: ٦/ ٧ - ٨/ ٢١).

يطعمه فإنه مني، إلا من اغترف غرفة بيده، فشربوا منه إلا قليلاً، فلما جاوزه هو والذين آمنوا معه قالوا لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده، قال الذين يظنون أنهم ملاقوا الله كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين﴾[1].

وقال ابن عباس: من اغترف بيده روى، ومن شرب منه لم يرو، وقال السدي: كان الجيش ثمانين ألفاً، فشرب منه ستة وسبعون ألفاً، وتبقى معه (أي طالوت) أربعة آلاف، على أن هناك روايات أخرى تذهب إلى أن من بقي على العهد مع طالوت ثلاثمائة وبضعة عشر نفراً، قيل ثلاثمائة وتسعة عشر، أو ثلاثمائة وثلاثة عشر، عدة أهل بدر، روى البراء بن عازب: كنا نتحدث أن أصحاب محمد ﷺ الذين كانوا معه يوم بدر ثلاثمائة وبضعة عشر، عدة أصحاب طالوت الذين جاوزوا معه النهر، وما جاوزه معه إلا مؤمن، وأما النهر ففي رواية عن ابن عباس أنه نهر بين الأردن وفلسطين، يعني نهر الشريعة المشهور[2].

وعلى أية حال فلقد دارت رحى الحرب بين بني إسرائيل والفلسطينيين، وكادت الهزيمة تحقيق بالأولين، لولا نصر الله وشجاعة داود عليه السلام الذي قتل جالوت قائد الفلسطينيين، وطبقاً لرواية التوراة فلقد كان جالوت (جليات) يخرج إلى الميدان صباح مساء طيلة أربعين يوماً دون أن يجرؤ واحد من بني إسرائيل على منازلته، حتى اضطر طالوت أن ينادي بين قومه «إن من يقتل هذا الرجل يغنيه الملك غنى جزيلاً، ويعطيه بنته

---

(١) سورة البقرة آية: ٢٤٩.

(٢) تفسير الكشاف: ١/ ٢٩٤ - ٢٩٦، تفسير الطبري: ٥/ ٢٤٦ - ٢٤٨، تاريخ الطبري: ١/ ٤٦٧ - ٤٧٢، تفسير القرطبي ص: ١٠٦٢ - ١٠٦٣، تفسير المنار: ٢/ ٣٨٢ - ٣٨٩، تفسير النسفي: ١/ ١٢٥ - ١٢٦، تفسير ابن كثير: ١/ ٤٥٢ (بيروت ١٩٨٦)، صحيح البخاري: ٨/ ٢٢٨، مسند الإمام أحمد: ٤/ ٢٩٠، تاريخ ابن الأثير: ١/ ١٢٣.

ويجعل بيت أبيه حراً في إسرائيل» ومن ثم فقد خرج له داود بن يسى، وهو ما يزال بعد غلاماً، ويتغلب على جالوت «فتمكن داود من الفلسطينيين بالمقلاع والحجر، وضرب الفلسطيني وقتله ولم يكن سيف بيد داود»[1]، ويشير القرآن الكريم إلى هذا الحادث في قوله تعالى: **﴿ولما برزوا لجالوت وجنوده قالوا ربنا أفرغ علينا صبراً وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين، فهزموهم بإذن الله وقتل داود جالوت وآتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء، ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين﴾**[2].

وهكذا استطاع داود عليه السلام بمقلاعه، وهو ما يزال بعد غلاماً، أن يقتل بطل الفلسطينيين جالوت[3]، وأن يكون سبباً في انتصار قومه على الفلسطينيين،

---

(١) صموئيل أول: ١٧/ ١ - ٥٤، محمد بيومي مهران إسرائيل: ٢/ ٦٨٠ - ٦٨٧، ثم قارن: ٢/ ٦٣٥ - ٦٤٠.

(٢) سورة البقرة آية: ٢٥٠ - ٢٥١، وانظر تفسير الطبري: ٥/ ٣٥٤ - ٣٧٦، تفسير الطبرسي: ٢/ ٢٨٩ - ٢٩٢، تفسير الكشاف: ١/ ٢٩٦ - ٢٩٧، تفسير روح المعاني: ٢/ ١٧٢ - ١٧٤، الجواهر في تفسير القرآن الكريم: ١/ ٢٢٩ - ٢٣٠، محمد جواد مغنية: التفسير الكاشف: ٢/ ٣٨٢ - ٣٨٣، تفسير المنار: ٢/ ٣٨٩ - ٣٩٤، تفسير القرطبي ص: ١٠٦٤ - ١٠٦٩، الدر المنثور في التفسير بالمأثور: ١/ ٣١٨ - ٣١٩، تفسير النسفي: ١/ ١٢٥ - ١٢٦، تفسير ابن كثير: ١/ ٤٥٢ - ٤٥٤، هذا وروى في تفسير قوله تعالى **﴿ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض﴾** أخرج ابن جرير عن ابن عمر قال، قال رسول الله ﷺ: «إن الله ليدفع بالمسلم الصالح عن مائة أهل بيت من جيرانه البلاء» وأخرج ابن مردوية عن عبادة بن الصامت مرفوعاً قال، قال رسول الله ﷺ: «الأبدال في أمتي ثلاثون، بهم ترزقون، وبهم تمطرون، وبهم تنصرون»، قال قتادة: إني لأرجو أن يكون الحسن منهم (تفسير ابن كثير: ١/ ٤٥٣ - ٤٥٤).

(٣) يروي تاريخ النبوة الشريف حادثاً يشبه ذلك، فبينما كان المسلمون محاصرين في غزوة الأحزاب (٥ هـ = ٦٢٧ م) وقد وجاءتهم جنود من فوقهم ومن أسفلهم، حتى زاغت الأبصار، وبلغت القلوب الخناجر، وظن الناس بالله الظنون، وزلزل المؤمنون زلزالاً شديداً، وبدأ فريق من المنافقين يستأذنون النبي ﷺ في العودة إلى بيوتهم لأنها عورة، وما هي بعورة، =

= ولكنهم يريدون الفرار من المعركة، في هذا الجو المليء بالخوف والفزع، اقتحم عمرو بن ود، وكان أشجع قريش، ويحسب نفسه كفؤاً لألف رجل، اقتحم الخندق بجواده مع مجموعة من فرسان قريش، فركز رمحه في للأرض، وأخذ يصول ويجول، ويطلب المبارزة، فما برز له أحد، فقد كان مقاتلاً غادراً فاتكاً وبطلاً مغوار، لم يبارز أحد إلا صرعه، وهكذا أخذ ينادي من يبارز، فلا يتقدم أحد غير الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، قائلاً: أنا لها يا رسول الله، فقال رسول الله ﷺ: اجلس إنه عمرو، ثم نادى عمرو: ألا رجل يبرز، ثم جعل يؤنبهم فيقول: أين جنتكم التي تزعمون أنه من قتل منكم دخلها، أفلا تبرزون إليّ رجلاً، فقام علي فقال: أنا يا رسول الله، فقال النبي ﷺ: إنه عمر، ثم نادى الثالثة فقام على كرم الله وجهه في الجنة، فقال يا رسول الله أنا، فقال النبي ﷺ: إنه عمرو، فقال علي: وإن كان عمرا، فأذن له رسول الله ﷺ وقال له: أدن مني فعممّه ﷺ بيده الشريفة، وقال: اللهم احفظه من بين يديه ومن خلفه، وعن يمينه وعن شماله، ثم رفع ﷺ يديه إلى السماء بمحضر من أصحابه وقال: «اللهم إنك أخذت مني حمزة يوم أحد، وعبيدة يوم بدر، فاحفظ اليوم عليا، رب لا تذرني فرداً وأنت خير الوارثين»، وبرز الإمام علي لعمر، فقال النبي ﷺ: «الآن برز الإيمان كله للشرك كله»، فقال عمرو لعلي: من أنت، قال علي بن أبي طالب، فقال عمرو، وقد أعرض عن الإمام علي استخفافا به، إن أباك كان صديقي ونديمي، وإني والله ما أحب أن أقتلك، فقال الإمام: لكني والله ما أكره أن أقتلك، ثم قال يا عمرو: قد كنت تعاهد الله لقريش، ألا يدعوك رجل إلى واحدة من ثلاث إلا قبلتها، قال أجل، قال: فإني أدعوك إلى الله عز وجل وإلى رسوله والإسلام فتشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، فقال عمرو: لا حاجة لي في ذلك، هات الثانية، قال الإمام: فترجع إلى بلادك، فإن يك محمداً صادقاً كنت أسعد الناس به، وإن يك كاذباً كان الذي تريد، قال عمرو: إذن تتحدث عني نساء قريش أنني جبنت وخنت قوماً رأسوني عليهم، هات الثالثة، قال الإمام: الحرب، قال عمرو: هذه خصلة ما كنت أظن أن أحداً من العرب يروّعني بها، فقال الإمام: كيف أقاتلك وأنت فارس، وأنا راجل، فاقتحم عن فرسه وعقره وسل سيفه كأنه شعلة نار، ثم اندفع نحو الإمام علي مغضباً، واستقبله عليّ برقبته فضربه في الدرقة فشقها وأثبت فيها السيف، وضربه الإمام علي كرم الله وجهه في الجنة، على حبل العاتق فسقط عمرو، وثار العجاج وبانت سوأة عمرو، وسمع سيدنا ومولانا رسول الله ﷺ التكبير، فعرف أن عليا قتل عمرا، وأقبل الإمام علي رضي الله عنه على رسول الله ﷺ ووجهه يتهلل، فعانقه النبي ﷺ ودعا له، فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لعلي: هلا سلبته درعه، فإن ليس في العرب درع خير منها، فقال الإمام علي: إني حين ضربته استقبلني بسوأته واستحيت ابن عمي أن استلبه، على أن رواية أخرى تذهب إلى أن الإمام علي ضرب عمرا على ساقيه فقطعهما جميعاً، فسقط على الأرض فأخذ علي بلحيته فذبحه وأخذ رأسه إلى رسول الله ﷺ =

ومن ثم فقد أخذ يملأ أعين الناس وآذانهم وقلوبهم ، ثم يصبح ذا مكانة عالية بين قومه الإسرائيليين ، مما أثار عليه حقد طالوت وأخذ يسعى إلى قتله ، بينما هو في مسيس الحاجة إليه وإلى أمثاله من الرجال الشجعان ، ولم تشفع له صداقته لولده ناثان وإصهاره للملك ، وعلى أي حال ، فما أن يمضي حين من الدهر ، حتى يقتل طالوت وأولاده الثلاثة في معركة جبل جلبوع (حوالي عام ١٠٠٠ ق. م)[١] ويصبح داود عليه السلام ملكاً على بني إسرائيل .

وأما متى كانت سنوات حكم داود، فذلك موضع فلاخف بين المؤرخين، فهناك من يرى أنها كانت في الفترة (١٠١٠ - ٩٥٥ ق . م) ومن يرى أنها في الفترة (١٠٠٤ - ٩٦٢ ق . م) ومن يرى أنها في الفترة (٩٨٥ - ٩٦٣ ق . م) ومن يرى أنها في الفترة (١٠١٢ - ٩٧٢ ق . م) ومن يرى أنها في الفترة (١٠٠٠ - ٩٦٠ ق . م) وهذا ما نميل إليه ونأخذ به[٢] .

= فألقاها بين يديه ، فقام أبو بكر وعمر فقبلا رأس علي ، وروى أن النبي ﷺ قال في قتل علي لعمرو : لضربة علي يوم الخندق أفضل من عمل الثقلين ، وروى أن حذيفة بن اليمان قال : لو قسمت فضيلة علي بقتل عمرو يوم الخندق بين المسلمين أجمعهم لو سعتهم ، وقال ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ **وكفى الله المؤمنين القتال** ﴾، وقال : بعلي بن أبي طالب (سورة الأحزاب آية : ٩ - ٢٧ ، تفسير القرطبي ص : ٥٢١٠ - ٥٢٤٤ ، ابن كثير : السيرة النبوية ٢/ ٢٠٢ - ٢٠٧ ، ابن هشام : سيرة النبي ص : ٢٢٤ - ٢٢٦ ، تاريخ الطبري : ٢/ ٥٧٣ - ٥٧٤ ، الواقدي : المغازي : ٢/ ٤٧٠ - ٤٧٢ ، البلاذري : أنساب الأشراف : ١/ ٣٤٥ ، ابن سعد : الطبقات الكبرى : ٢/ ٤٩ ، السهيلي الروض الأنف : ٦/ ٣١٦ - ٣٢٠ ، عماد الدين خليل : دراسة في السيرة ص : ٢١٢ - ٢١٣ ، السيرة النبوية للندوي ص : ٢٨٧ - ٢٨٨) .

(١) صموئيل أول : ٢٨/ ٣ - ٢٥ ، ٣١/ ٧ - ١٢ ، جيمس فريزر المرجع السابق ص : ٤٣ - ٥١ ، محمد بيومي مهران إسرائيل : ٢/ ٦٨٧ - ٦٨٩ ، وكذا M. Noth, Op. - cit, P. 177 - 178 وكذا H. R. Hall, P - cit, P. 359.

(٢) فيليب حتي : المرجع السابق ص ٣٠٣ .

وكذا W. F. Albright, The Biblical Historical Atlas of The Holy Land, N. Y, 1959, P. 81 وكذا Period From Abrahamo Ezra, N. Y. 1963, P. 120-122 وكذا G. Raux, Ancient Iraq, 1966, P. 454 وكذا I. Epstin, Judaism, 1970, P. 35

الفصل الثاني

داود الرسول النبي

لمع اسم داود عليه السلام، كما رأينا من قبل، وسطع نجمه، وتعلق الشعب به والتفوا حوله، وتنادوا بزعامته، وأصبح ملء أسماع الناس وأبصارهم، وهم عن طالوت منصرفون، وما أن يمضي حين من الدهر حتى يقتل طالوت وولداه ويصبح داود ملكاً على بني إسرائيل[1]، ثم تمضي فترة لا ندري مداها على وجه اليقين، يختار الله تعالى بعدها عبده داود رسولاً نبياً[2]،

---

(١) تروي التوراة أن داود كان ابن ثلاثين سنة حين ملك، وملك أربعين سنة، في حبرون ملك على يهوذا سبع سنين وستة أشهر، وفي أورشليم ثلاثاً وثلاثين سنة على جميع إسرائيل ويهوذا (صموئيل ثان: ٥/ ٤ ـ ٥).

(٢) هناك فروق بين النبوة والملك، منها أن النبوة لا تكون بالإرث، فولد النبي لا يكون نبيا بطريق الإرث عن أبيه، بل هي بمحض الفضل الإلهي والاصطفاء الرباني، ومنها أن النبوة لا تعطي لكافر أبداً، وإنما تعطي لمؤمن فحسب، بخلاف الملك فقد يعطي لغير المؤمن، ومنها أن النبوة خاصة بالرجال، ولا تكون للنساء، لقوله تعالى: **﴿وما أرسلنا قبلك إلا رجالاً نوحي إليهم﴾** وإن كان ابن خزم يرى أن هذه الآية الكريمة خاصة بالرسل دون الأنبياء، ومن ثم فلم يدع أحد أن الله تعالى قد أرسل امرأة، وأما النبوة وهي لفظة مأخوذة من الإنباء وهو الإعلام، فمن أعلمه الله عز وجل بما يكون قبل أن يكون، أو أوحى إليه منبئيا بأمر ما فهو نبي بلا شك، فأمرها مختلف، وقد جاء في القرآن الكريم بأن الله تعالى قد أرسل ملائكة إلى نساء فأخبرهن بوحي حق من الله تعالى، كما حدث مع أم إسحاق وأم موسى وأم المسيح عليهم السلام، ومنها أن النبوة مجالها الدعوة إلى الإيمان بالله واليوم الآخر والعمل الصالح، والملك قد يتعارض مع هذه الدعوة لأنه مظهر من مظاهر العظمة الدنيوية التي جاءت بالتزهيد عنها الأنبياء عليهم السلام، ولكن قد يجمع الله النبوة والملك لرجل واحد، كما حدث مع =

وكان قد بلـغ سن الكمـال أربعين سنـة[1] وأنـزل عليه الزبـور، فيه مواعظ وأذكار، وآتاه الله الحكمة وفصل الخطـاب، وهـكذا أسس داود، وكذا ولده سليمان من بعده، مملكة التوحيد، تؤمن بالله ربـاً، وبالإسـلام ديناً، وسط عالم مشرك، ولم يجتمع النبوة والملك لأحد قبلهما أو بعدهما من بني إسرائيل، هذا وقد ذكرت قصتهما في القرآن الكريم مطولـة أحيانـاً[2]، ومختصرة أحياناً أخرى، وأحياناً يذكران معـاً، وأحيانـاً يفـرد أحدهمـا عن الآخر، ففي سورة البقرة يحكي الله تعالى أن داود كان في جيش طالوت، وأنه قتل جالوت، وأن الله آتاه من أجل ذلك الكتاب والحكمة وعلمه مما يشاء[3]، وفي سورتي النساء والأنعـام يذكران معـاً علـى أنهمـا من الأنبياء الذين أوحى الله إليهم وأنهما من نسل إبراهيم عليه الصلاة والسلام[4].

هذا وقد خص الله تعالى داود عليه السلام بكثير من المعجزات، منها **(أولاً) تسخير الجبال معه يسبحن بكرة وعشيا** قال تعالى: **﴿إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشي والإشراق﴾**[5]، ومنها **(ثـانياً) ترجيع الطير معه كلمـا قرأ**

= داود وسليمان عليهما السلام (انظر ابن حزم: الفصل في الملك والأهواء والنحل: ٥/ ٨٧، محمد بيومي مهران: النبوة والأنبياء عند بني إسرائيل ص: ٧١ - ٧٧، محمد علي الصابوني: النبوة والأنبياء ص: ١٠ - ١١).

(١) يكاد يجمع العلماء على أن النبوة لا تكون إلا بعد بلوغ سن الأربعين، وقد أبطل ابن قيم الجوزية ما ذهب إليه البعض من أن عيسى بعث وهو في الثلاثين من عمره، وأما قوله تعالى في حق يحيى: **﴿وآتيناه الحكم صبياً﴾** فالمراد الفهم والفقه في الدين كما فسره ابن عباس، وهو غير الحكمة المفسرة بالنبوة في آية البقرة: ٢٥١، وسنعود للموضوع ثانية عند الحديث عن يحيى وعيسى (زاد المعاد: ١/ ٢١، تفسير الكشاف: ٢/ ٥٠٤، عويد المطرفي: داود وسليمان في القرآن والسنة - مكة المكرمة: ١٩٧٩ ص: ٣٣).

(٢) سورة الأنبياء آية: ٧٨-٨٢، النمل آية: ١٥ - ٤٤، سبأ آية: ١٠ - ١٤، ص آية: ١٧ - ٢٦.

(٣) سورة البقرة آية: ٢٤٩ - ٢٥١.

(٤) سورة النساء آية: ١٦٣ - ١٦٤، الأنعام آية: ٨٤.

(٥) سورة ص آية: ١٨.

الزبور، قال تعالى: ﴿ وَالطير محشورة كل له أواب ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿ وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير وكنا فاعلين ﴾[2]، ويقول المفسرون عن هذه الآية إن الله تعالى قد وهب داود من الصوت مالم يهبه لأحد، حتى أنه كان إذا ترنم بقراءة كتابه الزبور يقف الطير في الهواء يرجع بترجيعه، ويسبح بتسبيحه، وكذا الجبال تجيبه وتسبح معه كلما سبح بكرة وعشيا، وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ سمع صوت أبي موسى الأشعري يقرأ من الليل، فوقف فاستمع لقراءته ثم قال ﷺ: «لقد أوتي هذا مزماراً من مزامير آل داود»[3].

ويقول الأستاذ سيد قطب، طيب الله ثراه كان داود عليه السلام أوابا رجاعاً إلى ربه بالطاعة والعبادة والذكر والاستغفار، وقد آتاه الله من فضله مع النبوة والملك، قلباً ذاكراً، وصوتاً رخيماً يرجع به تراتيله التي يمجد فيها ربه، وبلغ من قوة استغراقه في الذكرى، ومن حسن حظه في الترتيل، أن تزول الحواجز بين كيانه وكيان هذا الكون، وتتصل حقيقته بحقيقة الجبال والطير في صلتها كلها ببارئها، وتمجيدها له وعبادتها، فإذا الجبال تسبح معه، وإذا الطير مجموعة عليه، تسبح معه لوملاها ومولاه ﴿ إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشى والإشراق، والطير محشورة كل له أواب ﴾، ولقد يقف الناس مدهوشين أمام هذا النبأ: الجبال الجامدة تسبح مع داود بالعشى والإشراق، حينما يخلو إلى ربه يرتل تراتيله في تمجيده وذكره، والطير تتجمع على نغماته لتسمع له وترجع معه أناشيده، لقد يقف الناس مدهوشين للنبأ، إذ يخالف مألوفهم، ويخالف ما اعتادوا أن يحسوه من العزلة بين

(١) سورة ص آية: ١٩.

(٢) سورة الأنبياء آية: ٧٩.

(٣) صحيح البخاري: ٩/ ٢٤١، صحيح مسلم: ٢/ ١٩٢.

جنس الإنسان وجنس الطير، وجنس الجبال، ولكن فيم الدهش؟ وفيم العجب؟ إن لهذه الخلائق كلها حقيقة واحدة وراء تميز الأجناس والأشكال والصفات والسمات، حقيقة واحدة يجتمعون فيها ببارىء الوجود كله، أحيائه وأشيائه جميعاً، وحين تصل صلة الإنسان بربه إلى درجة الخلوص والإشراق والصفاء، فإن تلك الحواجز تنزاح، وتنساح الحقيقة المجردة لكل منهم، فتتصل من وراء حواجز الجنس والشكل والصفة والسمة التي تميزهم وتعزلهم في مألوف الحياة، وقد وهب الله عبده داود هذه الخاصية، وسخر الجبال معه يسبحن بالعشي والإشراق، وحشر عليه الطير ترجع مع ترانيمه تسبيحاً لله، وكانت هذه هبة فوق الملك والسلطان، مع النبوة والاستخلاص[1]، قال ابن عباس: كانت الطير تسبح معه إذا سبح، وكان إذا قرأ لم تبق دابة إلا استمعت لقراءته، وبكت لبكائه[2].

ومنها (ثالثاً) إلانة الحديد له، فكان بين يديه كالعجين أو كالطين المعجون يصرفه بيده كيف يشاء من غير نار، ولا ضرب بمطرقة، وقيل لان الحديد في يده لما أوتي من شدة القوة[3]، قال تعالى: **﴿ولقد آتينا داود منا فضلاً يا جبال أوبي معه والطير، وألنا له الحديد، أن أعمل سابغات وقدر في السرد، واعملوا صالحاً إني بما تعملون بصير﴾**[4]، وفي قوله تعالى **﴿وألنا له الحديد﴾** قال الحسن البصري وقتادة والأعمش وغيرهم: كان الله تعالى قد ألان الحديد لداود حتى كان يفتله بيديه لا يحتاج إلى نار ولا مطرقة، وقال الإمام الفخر الرازي: ألان الله لداود الحديد حتى كان في يده كالشمع وهو في قدرة الله يسير، فإنه يلين بالنار حتى يصبح كالمداد الذي يكتب به، فأي عاقل يستبعد

---

(١) في ظلال القرآن: ٥/ ٣٠١٧ (بيروت ١٩٨٢).

(٢) زاد المسير: ٦/ ٤٣٦.

(٣) تفسير النسفي: ٣/ ٣١٩.

(٤) سورة سبأ: آية: ١٠ ـ ١١.

ذلك على قدرة الله ، قال قتادة : فكان أول من عمل الدروع من زرد ، وإنما كانت قبل ذلك من صفائح ، وفي سياق الآية العاشرة من سورة سبأ ، التي ابتدأها الله تعالى بقوله : ﴿ **ولقد آتينا داود منا فضلاً** ﴾، ثم ذكر في آخرها ﴿ **وألنا له الحديد** ﴾، ما يشعر بأن الله تعالى قد ألان الحديد تفضلاً منه وكرماً ، وآية على الإعجاز من الآيات التي يمنحها الله لأنبيائه ، ولو أن إلانة الحديد بالنار ، كما يقع للناس جميعاً ، لما ذكرها الله في سياق الإمتنان على داود ، ولما جعلها الله نعمة يختصه بها ، وقد يقال إنه أول من اهتدى إلى أثر النار في إلانة الحديد ، ولم يكن ذلك معروفاً قبل داود ، فكان هذا من نعم الله على داود أولاً ، ثم أصبح من سنن الطبيعة ثانياً أو بعد ذلك ، ولكننا لا نذهب كما يقول الدكتور النجار ، لمثل هذا المذهب ما دام فضل الله على أنبيائه بالمعجزات الخارقة أمراً مقرراً لهم ، وواجباً في حقهم[1] .

ومن ثم يذهب العلامة سيد قطب إلى أنه في ظل هذا السياق يبدو أن الأمر كان خارقة ليست من مألوف البشر ، فلم يكن الأمر أمر تسخين الحديد حتى يلين ويصبح قابلاً للطرق ، إنما كان والله أعلم معجزة يلين بها الحديد من غير وسيلة اللين المعهودة ، وإن كان مجرد الهداية لإلانة الحديد بالتسخين يعد فضلاً من الله يذكر ، ولكننا إنما نتأثر بجو السياق وظلاله ، وهو جو معجزات ، وهي ظلال خوارق خارقة على المألوف ، ثم يقول تعالى : ﴿ **أن أعمل سابغات وقدر في السرد** ﴾ والسابغات الدروع ، روى أنها كانت تعمل قبل داود عليه السلام صفائح ، الدرع صفيحة واحدة فكانت تصلب الجسم وتثقله ، فألهم الله داود أن يصنعها رقائق متداخلة متموجة لينة يسهل تشكيلها وتحريكها بحركة الجسم ، وأمر بتضييق تداخل هذه الرقائق لتكون

---

(١) تفسير ابن كثير : ٣/ ٨٣٨ ـ ٨٣٩ ، تفسير الفخر الرازي : ٢٥/ ٢٤٥ ، تفسير النسفي : ٣/ ٣١٩ ـ ٣٢٠ ، تفسير القرطبي : ١٤/ ٢٦٦ ، محمد الطيب النجار تاريخ الأنبياء في ضوء القرآن الكريم والسنة النبوية ـ الرياض ١٩٨٣ ص : ٢٣٤ ـ ٢٣٥ .

محكمة لا تنفذ فيها الرماح، وهو التقدير في السرد، وكان الأمر كله إلهاماً وتعليماً من الله[1].

هذا وقد روى الحافظ ابن عساكر عن وهب بن منبه أن داود عليه السلام كان يخرج متنكراً، فيسأل الركبان عنه وعن سيرته، فلا يسأل أحداً إلا أثنى عليه خيراً في عبادته وسيرته وعدله، قال وهب: حتى بعث الله ملكاً في صورة رجل فلقيه داود عليه السلام، فسأل كما كان يسأل غيره، فقال: هو خير الناس لنفسه ولأمته، إلا أن فيه خصلةٍ لو لم تكن فيه لكان كاملاً، قال: ما هي، قال: يأكل ويطعم عياله من مال المسلمين، يعني بيت المال، فعند ذلك نصب داود إلى ربه عز وجل في الدعاء أن يعلمه عملاً بيده يستغني به ويغني به عياله، فألان الله عز وجل له الحديد، وعلمه صنعة الدروع، فعمل الدروع وهو أول من عملها، فقال الله تعالى: **﴿أن أعمل سابغات وقدر في السرد﴾**، يعني مسامير الحلق، قال: وكان يعمل الدرع فإذا ارتفع من عمله درع باعها، فتصدق بثلثها، واشترى بثلثها ما يكفيه وعياله، وأمسك الثلث يتصدق به يوماً بيوم إلى أن يعمل غيرها[2].

هذا وقد كشفت حفريات «سير فلندرز بتري» عن مناجم للحديد في جمة وعصيون جابر[3]، على مقربة من خليج العقبة، ترجع إلى أيام داود وسليمان عليهما السلام، ويبدو أن داود قد استولى عليها من الآدوميين بعد هزيمته إياهم.

---

(١) في ظلال القرآن: ٥/ ٢٨٩٧ - ٢٨٩٨.

(٢) تفسير ابن كثير: ٣/ ٨٣٩.

(٣) وليم أولبرايت: آثار فلسطين - ترجمة زكي اسكندر ومحمد عبد القادر، القاهرة ١٩٧١ م ص: ١٢٨، وكذا

W. Keller, The Bible as History, 1967, P. 198 - 199.

ومنها رابعاً قوّى الله تعالى ملكه وجعله منصوراً على أعدائه، مهاباً في قومه، قال تعالى: ﴿**وشددنا ملكه**﴾، ويذهب بعض المفسرين في معنى الآية الكريمة أن الله قواه وجعله منصوراً على جميع أعدائه ومناوئيه، فكان لا يقوم له معارض إلا غلبه، قال مجاهد: كان أشد أهل الدنيا سلطاناً، وقال السُّدي: كان يحرسه كل يوم أربعة الآف، وقال بعض السلف بلغني أنه كان يحرسه في كل ليلة ثلاثة وثلاثون ألفاً، وقال غيره أربعون ألفاً، وقد ذكر ابن جرير وابن أبي حاتم رواية عن ابن عباس أن نفرين من بني إسرائيل استعدى أحدهما على الآخر إلى داود عليه الصلاة والسلام أنه اغتصبه بقرا، فأنكر الآخر ولم يكن للمدعي بيّنة فأرجأ أمرهما، فلما كان الليل أمر داود عليه السلام في المنام بقتل المدعي، فلما كان النهار طلبهما وأمر بقتل المدعي، فقال يا نبّي الله علام تقتلني وقد اغتصب هذا بقري، فقال له إن الله تعالى أمرني بقتلك فأنا قاتلك لا محالة، فقال والله يا نبي الله إن الله لم يأمرك بقتلي لأجل هذا الذي ادعيت عليه، وإني لصادق فيما ادعيت، ولكني كنت قد اغتلت أباه وقتلته ولم يشعر بذلك أحد، فأمر به داود عليه السلام فقتل، قال ابن عباس: فاشتدت هيبته في بني إسرائيل، وهو الذي يقول الله عز وجل: ﴿**وشددنا ملكه**﴾[1]، وعلى أي حال فإن التاريخ يحدثنا أن الله تعالى كتب له النصر المبين على الفلسطينيين أقوى أعدائه وأكثرهم أهمية، وأشدهم خطراً كما كتب له نجْحا بعيد المدى في طردهم من مناطق بني إسرائيل، بل إنه وصل إلى مدنهم ذاتها، كما كتب له نصراً مؤزراً على ممالك مؤاب وعمون وأدوم، فضلاً عن الأراميين[2]، كما سنفصل ذلك في الفصل التالي.

---

(١) تفسير ابن كثير: ٤/ ٤٦ ـ ٤٧ (دار الكتب العلمية ـ بيروت ١٩٨٦)، تفسير النسفي: ٤/ ٣٦ (ط دار الفكر).

(٢) انظر التفصيلات عن دولة داود عليه السلام (محمد بيومي مهران إسرائيل: ٢/ ٦٩٣ ـ ٧٣٤).

ومنها خامساً أن الله تعالى آتاه الحكمة وفصل الخطاب، والحكمة، فيما يرى كثير من المفسرين النبوة[1] أو هي في رأي آخر، الزبور وعلم الشرائع أو هي كل كلام وافق الحق فهو حكمة[2]، وأما فصل الخطاب فهو الحكم في القضايا التي تقع بين الناس في عهده، وقد بيّنه الله تعالى في قوله جل ثناؤه: ﴿**يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق**﴾[3]، وقال مجاهد والسُّدي: هي إصابة القضاء وفهم ذلك، وقال مجاهد أيضاً: هي الفصل في الكلام وفي الحكم وهذا يشتمل كل ذلك، وهو المراد، وقد اختاره ابن جرير، وقيل فصل الخطاب قطعه والجزم فيه برأي لا تردد فيه، وذلك مع الحكمة ومع القوة غاية في الكلام والسلطان في عالم الإنسان، وعن أبي موسى أول من قال: «أما بعد» داود عليه السلام وهو فصل الخطاب، وكذا قال الشعبي: فصل الخطاب «أما بعد»، فإن من تكلم في الأمر الذي له شأن، يفتتح بذكر الله وتمجيده فإذا أراد أن يخرج إلى الغرض المسوق له فصل بينه وبين ذكر الله بقوله ﴿**أما بعد**﴾[4].

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى الآيات الكريمة من سورة «ص» (٢١ ـ ٢٥) والتي ثار جدل حول تفسيرها، يقول تعالى: ﴿**وهل أتاك نبؤا الخصم إذ تسوروا المحراب، إذ دخلوا على داود ففزع منهم قالوا لا تخف خصمان بغى بعضنا على بعض فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط واهدنا إلى سواء الصراط، إن هذا أخي له تسع وتسعون نعجة ولي نعجة واحدة قال أكفلنيها**

---

(٣) انظر تفسير ابن كثير: ٤/ ٤٧، تفسير روح المعاني: ٢/ ١٧٣، تفسير أبي السعود: ١/ ١٨٦، فتح القدير للشوكاني: ١/ ٢٦٦، زاد المسير لابن الجوزي: ١/ ٣٠٠، الراغب الأصفهاني المفردات في غريب القرآن ص: ١٢٨.

(٢) تفسير النسفي: ٤/ ٣٦ ـ ٣٧.

(٣) سورة ص آية: ٢٦.

(٤) تفسير ابن كثير: ٤/ ٤٧، تفسير النسفي: ٤/ ٣٧، في ظلال القرآن: ٥/ ٣٠١٧، عويد المطرفي المرجع السابق ص: ٥٠.

وعزني في الخطاب، قال لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه وإن كثيراً من الخلطاء ليبغي بعضهم على بعض، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم، وظن داود إنما فتناه فاستغفر ربه وخر راكعاً وأناب، فغفرنا له ذلك وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب﴾[1] .

وتفسير الآيات الكريمة أن رجلين يمتلك أحدهما تسعاً وتسعين نعجة ، ويمتلك الآخر نعجة واحدة ، وقد نازعه فيها صاحب التسع والتسعين ، وقد دخل الخصمان على داود من غير المدخل المعتاد ، فقد دخلا عليه من فوق الجدران ، وهي طريقة توحي في أعراف الناس بشر يقع من هذا التسوّر ، فما يتسوّر المحراب هكذا مؤمن ولا أمين ، كما أن دخولهما كان في غير وقت جلوسه للحكم ، وإنما في وقت خلوته إلى نفسه ، واعتزال مجتمعه وأمته في هذا اليوم ، إرضاء لرغبة نفسه في حبه لعبادة ربه ، فقد كان داود يخصص بعض وقته للتصرف في شئون الملك ، وللقضاء بين الناس ، ويخصص البعض الآخر للخلوة والعبادة وترتيل أناشيده تسبيحاً لله في المحراب ، وكان إذا دخل المحراب للعبادة والخلوة لم يدخل إليه أحد حتى يخرج هو إلى الناس ، روى عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن الحسن البصري قال : إن داود جزأ الدهر أربعة أجزاء ، يوماً لنسائه ، ويوماً للعبادة ، ويوماً للقضاء بين بني إسرائيل ، ويوماً لبني إسرائيل ، وروى نحوة عن السُّدي فيما أخرجه الحكم في المستدرك والطبري في التفسير[2] .

ومن ثم فقد فزع داود من الخصمين ظناً منه أنهما يريدان به شراً ، فلما

---

(١) سورة ص آية : ٢١ ـ ٢٥ .

(٢) انظر تفسير الطبري : ٢٣/ ١٤٧ ـ ١٤٨ ، تفسير الدر المنثور : ٥/ ٣٠١ ، تفسير الظلال : ٥/ ٣٠١٨ ، المستدرك للحاكم : ٢/ ٥٨٦ ، تاريخ الطبري : ١/ ٤٨٢ ، عويد المطرفي المرجع السابق ص : ٥٢ ـ ٥٣ .

ظهر أنهما جاءا من خصومة ليحكم بينهما فيها، استغفر ربه من هذا الظن وخر ساجداً منيباً إلى الله تعالى، فغفر الله له ذلك الظن، لأنه ما كان ينبغي من مثله وكما هو معلوم حسنات الأبرار سيئات المقربين، وربما كان استغفاره لأن انقطاعه للعبادة يوماً كاملاً عن أمته، واختلاءه بنفسه ذلك اليوم كله، يؤدي حتماً تركه النظر في ذلك اليوم في أمر رعيته وأمته التي استودعه لله عز وجل رعاية مصالحها، فجاءه مثال من حاجتها إليه في كل وقت ليقوم بإصلاح ذات بينها، وإقرار التراحم والتآخي بين أفرادها حتى يكونوا على هدى من ربهم، كما يدل على ذلك قول الخصمين له «واهدنا إلى سواء الصراط» ثم بيّن الله تعالى لداود عليه السلام مهمته في هذه الحياة الدنيا، باعتباره ملكاً على بني إسرائيل، ونبيّاً مرسلاً، إذ الملك يقتضي خلافته لله تعالى في الأرض بالنظر في مصالح رعيته والحكم بينهم بالعدل، وفصل قضاياهم بما يرفع الظلم والبغي عن ضعفائهم، إذا حاوله كبراؤهم وأقوياؤهم[1]، وذلك لا يتم على الوجه المطلوب إلا إذا وضع نفسه قريباً منهم في كل آن، قال تعالى: ﴿**يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله، إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب**﴾[2]، فأخبره أنه جعله خليفة في الأرض وأمره بالحكم بين الناس والفصل في قضاياهم بالحق، والنبوة تعود الملك وتحرسه عن أن تندبه مطالب الدنيا عن سبيل الحق والعدل، وتسلك به مسالك الطهر والتزام الهدى[3].

على أن رواية أخرى تذهب إلى أن الخطأ الذي وقع من داود أنه سمع

---

(١) جاء في بعض الآثار «السلطان ظل الله في أرضه»، وقال الخليفة عثمان بن عفان: «إن الله ليـزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن» البداية والنهاية: ٢/ ١٠.

(٢) سورة ص آية: ٢٦.

(٣) عويد المطرفي المرجع السابق ص: ٥٣ ـ ٥٤.

أحد الخصمين وهو صاحب النعجة الواحدة، ولم يسمع حجة الخصم الآخر وهو صاحب التسع والتسعين نعجة، وتسرع من أجل ذلك في الحكم دون أن يمعن النظر ويرى حجة الخصم الآخر، ومن أجل ذلك استغفر ربه من هذا الخطأ الذي وقع فيه نتيجة السهو، وهو خطأ لا يتنافى مع العصمة[1]، ولعل عذر داود عليه السلام، أن القضية كما عرضها أحد الخصمين تحمل ظلماً صارخاً مثيراً لا يحتمل التأويل، ومن ثم اندفع داود يقضي على أثر سماعه لهذه المظلمة الصارخة، ولم يوجه إلى الخصم الآخر حديثاً، ولم يطلب إليه بياناً، ولم يسمع له حجة، ولكنه مضى يحكم «قال لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه وإن كثيراً من الخلطاء ليبغي بعضهم على بعض، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم»، ويبدو أنه عند هذه المرحلة اختفى عنه الرجلان فقد كانا ملكين جاءا للإمتحان إمتحان النبي الملك الذي ولاه الله أمر الناس ليقضي بينهم بالحق والعدل، وليتبين الحق قبل إصدار الحكم، وقد اختارا أن يعرضا عليه القضية في صورة صارخة مثيرة، ولكن القاضي عليه ألا يستثار، وعليه ألا يتعجل، وعليه ألا يأخذ بظاهر قول واحد قبل أن يمنح الآخر فرصة للإدلاء بقوله وحجته، فقد يتغير وجه المسألة كله أو بعضه، وينكشف أن ذلك الظاهر كان خادعاً أو كاذباً أو ناقصاً، وعند هذا تنبه داود إلى أنه الابتلاء، «وظن داود إنما فتناه»، وهنا أدركته طبيعته إنه أواب «فاستغفر ربه وخر راكعاً وأناب»[2].

على أن بعض كتب التفسير قد خاضت مع الإسرائيليات حول هذه الفتنة خوضاً كبيراً تتنزه عنه طبيعة النبوة، ولا يتفق إطلاقاً مع حقيقتها، حتى الروايات التي حاولت تخفيف تلك الأساطير سارت معها شوطاً، وهي لا

---

(١) محمد الطيب النجار المرجع السابق ص: ٣٩.

(٢) في ظلال القرآن: ٥/ ٣٠١٨.

تصلح للنظر من الأساس، ولا تتفق مع قول الله تعالى: **﴿وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب﴾**، كما أن التعقيب القرآني الذي جاء بعد القصة يكشف كذلك عن طبيعة الفتنة، ويحدد التوجيه المقصود بها من الله لعبده الذي ولاه القضاء والحكم بين الناس **﴿يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب﴾**، فهي الخلافة في الأرض، والحكم بين الناس وعدم اتباع الهوى، واتباع الهوى، فيما يختص بنبي، هو السير مع الانفعال الأول، وعدم التريث والتثبت والتبيّن مما ينتهي إلى الاستطراد فيه إلى الضلال، أما عقب الآية المصور لعاقبة الضلال فهو حكم عام مطلق على نتائج الضلال عن سبيل الله، وهو نسيان الله والتعرض للعذاب الشديد يوم الحساب[1].

على أن بعض المفسرين والمؤرخين قد أسرفوا على أنفسهم، فذهبوا إلى أن هذين الخصمين اللذين تسوّرا المحراب على داود عليه السلام، إنما هما ملكان أرسلهما الله تعالى إليه لينتبه إلى خطئه من محاولة ضم امرأة «أوريا» إليه، وعنده تسع وتسعون امرأة، ومن ثم فهم يرون أن أهل زمان داود عليه السلام كان يسأل بعضهم بعضاً أن ينزل له عن امرأته فتزوجها إذا أعجبته، وكان لهم عادة في المواساة بذلك، وكان الأنصار يواسون المهاجرين بمثل ذلك، فاتفق أن داود عليه السلام وقعت عينه على امرأة أوريا فأحبها فسأله النزول له عنها، فاستحى أن يرده ففعل فتزوجها، وهي أم سليمان، فقيل له إنك، مع عظم منزلتك وكثرة نسائك، لم يكن ينبغي لك أن تسأل رجلاً ليس له إلا امرأة واحدة النزول عنها لك، بل كان الواجب عليك مغالبة هواك وقهر نفسك والصبر على ما امتحنت به، على أن رواية

---

(١) في ظلال القرآن ٥/ ٣٠١٨.

أخرى تذهب إلى أن أوريا خطب تلك المرأة، ثم خطبها داود، فآثره أهلها، فكانت زلته أن خطب على خطبة أخيه المؤمن، مع كثرة نسائه[1]، على أن هناك رواية ثالثة تذهب إلى أن خطئه داود كانت أنه لما بلغه حسن امرأة أوريا، فتمنى أن تكون له حلالاً، فاتفق أن أوريا سار إلى الجهاد فقتل، فلم يجد له من الهم ما وجده لغيره[2].

على أن هناك رواية رابعة اندفعت في هذه الحماقة، جرياً وراء إسرائيليات باطلة، وقد نسي أصحابها ما في هذا الصنيع من إلصاق تهمة شنيعة برسول كريم، ونبي جليل، تقول هذه الرواية أنه بينما كان داود عليه السلام في خلوة عباده، جاءه الشيطان وقد تمثل في صورة حمامة من ذهب حتى وقع عند رجليه وهو يصلي، فمدّ يده ليأخذه فتنحى فتبعه، فتباعد حتى وقع في كوة، فذهب ليأخذه فطار من الكوة، فنظر أين يقع فيبعث في أثره، فأبصر امرأة تغتسل على سطح لها، فرأى امرأة من أجمل النساء خلقاً، فحانت منها التفاتة فأبصرته، فألقت شعرها فاستترت به، فزاده ذلك فيها رغبة (وفي رواية أخرى، فما زال يتبع الحمامة حتى أشرف على امرأة تغتسل، فأعجبه خَلْقها وحسنها، فلما رأت ظله في الأرض جللت نفسها بشعرها فزاده ذلك أيضاً إعجاباً بها، فسأل عنها فأخبر أن لها زوجاً غائباً بمسلحة كذا وكذا، فبعث إلى صاحب المسلحة أن يبعث أوريا (أهريا) إلى عدو كذا وكذا، فبعثه ففتح له، ثم بعثه إلى أخرى حتى قتل في الثالثة، وتزوج داود امرأته[3]، فلما دخلت عليه لم تلبث عنده إلا يسيراً حتى بعث الله ملكين في

---

(1) تفسير النسفي ٤/ ٣٧ - ٣٨، تفسير البيضاوي ٥/ ١٧ - ١٩.

(2) الكامل لابن الأثير ١/ ١٢٦.

(3) قال مقاتل بلغنا أنها أم سليمان (تاريخ الطبري ١/ ٤٨٢) وقال ابن كثير: وكانت لداود مائة امرأة، منهن امرأة أوريا أم سليمان بن داود التي تزوجها بعد الفتنة (البداية والنهاية ٢/ ١٥).

صورة إنسيّين، فوجداه في يوم عبادته، فمنعهما الحرس أن يدخلا عليه، فتسوّرا عليه المحراب، ففزع منهما فقالا: لا تخف خصمان بغي بعضنا على بعض فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط واهدنا إلى سواء الصراط، قال قصا على قصتكما، فقال أحدهما: إن هذا أخي له تسع وتسعون نعجة ولي نعجة واحدة، فهو يريد أن يأخذها ليكمل بها نعاجه مائة، فقال للآخر ما تقول، فقال إن لي تسعاً وتسعين نعجة، ولأخي هذا نعجة واحدة، فأنا أريد أن آخذها منه فأكمل بها نعاجي مائة، قال: وهو كاره، قال وهو كاره، قال: إذا لا ندعك وذاك، قال: ما أنت على ذلك بقادر، قال: إن ذهبت تروم ذلك ضربنا مثات هذا وهذا (الأنف والجبهة) فقال يا داود، أنت حق أن يضرب منك هذا وهذا حيث لك تسع وتسعون امرأة، ولم يكن لأوريا إلا امرأة واحدة، فلم تزل به تعرضه للقتل حتى قتل، وتزوجت امرأته، قال فنظر فلم ير شيئاً، فعرف ما وقع فيه، وما ابتلى به، فخر ساجداً فبكى، فمكث يبكى ساجداً أربعين يوماً، لا يرفع رأسه إلا لحاجة لا بد منها، حتى أوحى الله إليه بعد أربعين يوماً، يا داود: ارفع رأسك فقد غفرت لك...»[1].

وقريب من هذا ما رواه السيوطي في الدر المنثور، وخلاصته أن داود عليه السلام أمر في يوم عبادته ألا يدخل عليه أحد، وبينما هو يقرأ في الزبور، إذ جاء طائر مذهب كأحسن ما يكون الطير من كل لون، ولما حاول داود عليه السلام الإمساك به طار منه على كوة المحراب، ولما أراد مرة ثانية الإمساك به طار خارج الحجرة، فنظر داود ليراه أي ذهب فإذا به يرى امرأة تستحم عارية، فلما رأت ظله حركت رأسها فغطت كل جسدها، فأرسل إليها وعندما جاءت علم منها أنها امرأة رجل محارب يدعى أوريا، فأرسل إلى قائد الجيش أن يجعل أوريا من حملة التابوت، الذين كانوا في مقدمة

(١) في تاريخ الطبري ١/ ٤٧٩ ـ ٤٨١، وانظر روايات أخرى في: تاريخ الطبري ١/ ٤٨١ ـ ٤٨٤، الكامل لابن الأثير ١/ ١٢٥ ـ ١٢٦، تاريخ اليعقوبي ١/ ٥٢ ـ ٥٣.

الجيش، وكان من يوضع أمامه لا يرجع حتى يقتل، ولما قتل زوجها وانقضت عدتها خطبها داود لنفسه، ولكنها اشترطت عليه إن ولدت غلاماً أن يكون الخليفة من بعده، وكتبت بذلك كتاباً أشهدت عليه خمسة من بني إسرائيل، وقد أنجبت له سليمان، فإنما شبّ تسوّر عليه الملكان المحراب، فكان شأنهما ما قص الله في كتابه، وخر داود ساجداً، فغفر الله له وتاب عليه[1].

وهكذا تابع بعض المؤرخين والمفسرين رواية توراة اليهود المتداولة اليوم، إلى حد ما، حين صورت النبي الأواب الذي آتاه الله الحكمة وفصل الخطاب، وهو يتمشى فوق سطح قصره، فيرى امرأة رائعة الجمال، وهي تستحم عارية، فيسأل عنها بعضاً من بطانته، ويعرف أنها «بتشبع» امرأة أوريا الحثي، فيرسل إليها من يأتيه بها، ثم ينال منها وطره، وهي مطهرة من طمثها، وسرعان ما تحبل المرأة من فورها، وحين تتأكد من حملها تخبر داود بالأمر، فيرسل إلى زوجها يستدعيه من ميدان القتال، حتى إذا ما ظهر الحمل بعد ذلك على المرأة ظن الناس أنه من زوجها، غير أن أوريا يأبى أن يدخل على امرأته، ويصر على العودة إلى ميدان القتال، ومن ثم يأمر داود بأن يوضع أوريا في وجه العدو، وأن له مثلاً برجل يملك نعجة واحدة، وآخر يملك غنماً وبقراً كثيراً، ثم جاء للغني ضيف فأخذ نعجة الرجل الفقير، وهيأ منها طعاماً لضيفه، فحكم داود بأن يقتل الرجل الفاعل ذلك، ويرد النعجة أربعة أضعاف فقال ناثان لداود: أنت هو الرجل[2].

وهكذا تنتهي رواية العهد القديم الكذوب عند هذا الحد المحزن، فهل كان النبي الأواب كذلك؟ وهل هذا الاتهام يتجسم مع ما هو معروف عن

---

(1) الدر المنثور في التفسير بالمأثور ٥/ ٣٠٠ - ٣٠٦.

(2) صموئيل الثاني ١١/ ١ - ٢٧، ١٢/ ١ - ٢٥، وانظر: محمد بيومي مهران: إسرائيل ٣/ ٢٠٣ - ٢٠٥.

داود عليه السلام، من خلق كريم منذ حداثة سنه؟ وهل من البر أن يخون الإنسان، أي إنسان، رجالاً في أعراضهم في وقت تدق فيه الحرب طبولها، إنه التناقض إذن، وهو لحن يميز اليهود عن سائر البشر، ولا بأس على الذين يقتلون الأنبياء بغير حق[1]، أن يدمروا سمعه من لم يقتلوهم أيضاً بغير حق، وكم من حوادث رهيبة تسجلها التوراة من هذا النوع دون تعقيب عليها، مع أن أحداثها تدور في بيوت الأنبياء[2].

ومن عجب أننا نقرأ في سفر صموئيل الثاني، نفس السفر الذي روي القصة الكذوب، نقرأ على لسان داود عليه السلام «يكافئني الرب حسب بري، حسب طهارة يدي، يرد علي، لأنني حفظت طرق الرب، ولم أعصي إلهي، لأن جميع أحكامه أمامي وفرائضه لا أحيد عنها، وأكون كاملاً لديه، وأتحفظ من إثمي، فيرد الرب على كبرى، وكطهارتي أمام عينيه»[3]، هذا فضلاً عن نصوص أخرى من التوراة نفسها تصف داود عليه السلام، وكأنه يعمل المستقيم في عيني الرب، وأنه الأسوة الحسنة لغيره[4]، وأنه كان «يجري قضاء وعدلاً لكل شعبة»[5]، وأن الرب كان معه حيث توجه[6]، لأنه

---

(١) انظر: سورة البقرة: آية ٦١، ٨٧، ٩١، آل عمران: آية ١١٢، المائدة: آية ٧٠، وانظر: تفسير الطبري ٢/ ١٣٩ - ١٤٢، ٣٢٣ - ٣٢٤، ٣٥٠ - ٣٥٤، ٧/ ١١٦ - ١١٨، ١٠/ ٤٤٧، تفسير ابن كثير ١/ ١٤٥ - ١٤٧، ١٧٥ - ١٧٩، ٢/ ٧٧ - ٨٦، ٣/ ١٤٨، تفسير المنار ١/ ٢٧٣ - ٢٧٦، ٣١١، ٣١٧ - ٣١٨.

(٢) تكوين ١٢/ ١٤ - ٢٠، ١٩/ ٣٠ - ٣٨، ٢٠/ ١ - ١٨، ٢٦/ ١ - ١١، ٣٤/ ١ - ٣٠، ٣٥/ ٢٢، ٣٨/ ٣٠٦، صموئيل ثان ١٣/ ١ - ٣٩، ١٥/ ١ - ١٦/ ٢٣، وانظر: محمد بيومي مهران: إسرائيل - الكتاب الثالث - التوراة والأنبياء ص ١٦٢ - ٢١٨.

(٣) صموئيل ثان ٢٢/ ٢١ - ٢٥.

(٤) ملوك أول ١١/ ٣٨، ١٥/ ٣، ملوك ثان ١٨/ ٣، هوشع ٣/ ٥.

(٥) صموئيل ثان ٨/ ١٥.

(٦) ملوك أول ٣/ ٣ - ٦.

كان يسير أمام الرب بأمانة وبر واستقامة، وأنه كان يحفظ فرائضه ووصاياه ويسلك طريقه[1]، وأنه كان الناقل لشريعة الرب لشعبه إسرائيل[2]، هذا إلى أن التوراة إنما تشير بوضوح إلى أن الرب إنما قد اصطفى من شعبه إسرائيل سبط يهودا، ومن سبط يهوذا بيت داود، ثم اصطفى من بيت داود، داود نفسه، ومن أولاد داود ولده سليمان[3]، هذا إلى أن داود عليه السلام إنما هو صاحب المزامير المشهورة في التوراة، وأخيراً فهو، في مقام النبوة عند بني إسرائيل، إنما يأتي مباشرة بعد إبراهيم وموسى عليهما السلام[4].

وأما في القرآن الكريم، فقد وصف داود عليه السلام بأنه **﴿نعم العبد إنه أواب﴾**[5]، **﴿وآتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء﴾**[6]، **﴿وآتينا داود زبوراً﴾**[7]، **﴿ولقد آتينا داود وسليمان علماً وقالا الحمد لله الذي فضلنا على كثير من عباده المؤمنين﴾**[8] **﴿ولقد آتينا داود منا فضلاً يا جبال أوبي معه والطير وألنا له الحديد أن أعمل سابغات وقدر في السرد واعملوا صالحاً إني بما تعملون بصير﴾**[9]، **﴿واذكر عبدنا داود ذا الأيد إنه أواب﴾**[10]، وفي هذه

---

(1) ملوك أول ٣/ ١٤.

(2) إشعياء ٥٥/ ٣ - ٦.

(3) أخبار أيام أول ٢٨/ ٤ - ٥.

(4) محمد بيومي مهران: إسرائيل ٣/ ٢٠٣ - ٢١٠.

(5) سورة ص: آية ٣٠.

(6) سورة البقرة: آية ٢٥١. وانظر: تفسير الطبري ٥/ ٣٧١ - ٣٧٢، تفسير المنار ٢/ ٣٩٢ - ٣٩٣، تفسير روح المعاني ٢/ ١٧٣ - ١٧٤، الدر المنثور ١/ ٣١٩، تفسير الطبرسي ٢/ ٢٩١ - ٢٩٢، الجواهر في تفسير القرآن الكريم ١/ ٢٣٠، تفسير ابن كثير ١/ ٤٤٧، تفسير الكشاف ١/ ٢٩٦.

(7) سورة النساء: آية ١٦٣.

(8) سورة النمل: آية ١٥.

(9) سورة سبأ: آية ١٠ - ١١.

(10) سورة ص: آية ١٧.

الآية يذكر الله تعالى عن عبده ورسوله داود عليه الصلاة والسلام أنه كان ذا أيد، والأيد: القوة في العلم والعمل، قال ابن عباس: الأيد القوة، وقال مجاهد: الأيد القوة في الطاعة، وقال قتادة: أعطى داود عليه السلام قوة في العبادة وفقها في الإسلام، وقد ذكر لنا أنه عليه السلام كان يقوم ثلث الليل، ويصوم نصف الدهر، وهذا ثابت في الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أحب الصلاة إلى الله تعالى صلاة داود، وأحب الصيام إلى الله عز وجل صيام داود، كان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه وينام سدسه، وكان يصوم يوماً ويفطر يوماً، ولا يفر إذا لاقى»، وإنه كان أوابا، وهو الرجاع إلى الله عز وجل في جميع أموره وشؤونه[1].

وانطلاقاً من كل هذا، فالقصة التوراتية وما سار على نهجها من قصص، عن علاقة داود عليه السلام، بزوجة «أوريا» الحثي، لا يتصور صدق وقائعها من رجل عادي ذي خلق، وفضلاً عن نبي كريم ورسول جليل، ومن هنا فقد أخطأ بعض المفسرين خطأ كبيراً، إذ فسروا ما جاء في سورة ص عن الخصمين اللذين اختصما إليه على نحو قريب مما جاء في التوراة[2]، مع أن العبارة التي ذكرت بها القصة في القرآن لا تدل على شيء من ذلك، ومن هنا فقد ختمت هذه الآيات الكريمة بقوله تعالى: ﴿ **وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب** ﴾، وبدهي أنه لا يمكن أن تكون الزلفى وحسن المآب للزناة القتلة، ومن هنا رأينا السُّدي يروي عن سيدنا الإمام علي بن أبي طالب، كرم الله وجهه في الجنة، أنه قال: «لو سمعت رجلاً يذكر أن داود عليه السلام قارف من تلك المرأة محرماً لجلدته ستين ومائة»، لأن حد قاذف الناس ثمانون، وحد قاذف الأنبياء ستون ومائة، وفي رواية النسفي

(١) تفسير ابن كثير ٤/ ٤٥ - ٤٦، تفسير النسفي ٤/ ٣٦.

(٢) انظر: تفسير مقاتل ٣/ ١٢٦٦ - ١٢٦٨.

قال الإمام علي «من حدثكم بحديث داود عليه السلام على ما يرويه القصاص جلدته مائة وستين»، وهو حد الفرية على الأنبياء، بل إن ابن العربي يرى أن من قال إن نبيّاً زنى فقد كفر[1]، كما أنكرت جمهرة المفسرين هذه التهمة الكذوب بالإجماع، كما أن أحداً على الإطلاق لم يقل بأن النبي المعصوم قد قارف من تلك المرأة محرماً[2].

وروى النسفي أنه حدث بذلك عمر بن عبد العزيز، وعنده رجل من أهل الحق فكذب المحدث به وقال: إن كانت القصة على ما في كتاب الله فما ينبغي أن يلتمس خلافها، وأعظم بأن يقال غير ذلك، وإن كانت على ما ذكرت وكف الله عنها ستراً على نبيّه، فما ينبغي إظهارها عليه، فقال عمر: لسماعي هذا الكلام أحب إليّ مما طلعت عليه الشمس، وقال النسفي: والذي يدل عليه المثل الذي ضربه الله بقصته عليه السلام ليس إلا طلبه إلى زوج المرأة أن ينزل له عنها فحسب، وإنما جاءت على طريق التمثيل والتعريض دون التصريح لكونهما أبلغ في التوبيخ من قبل أن التأمل إذا أداه إلى الشعور بالمعرض به كان أوقع في نفسه وأشد تمكناً من قلبه وأعظم أثراً فيه، مع مراعاة حسن الأدب بترك المجاهرة[3].

---

(1) تفسير القرطبي ص ٥٦٢٥ ـ ٥٦٢٦، علي عبد الواحد وافي: الأسفار المقدسة في الأديان السابقة للإسلام ـ القاهرة ١٩٦٤ ص ٤٣ ـ ٤٤.

(2) انظر: تفسير ابن كثير ٤/ ٤٧ ـ ٥٠، تفسير البحر المحيط ٧/ ٣٩٣. تفسير القاسمي ١٤/ ٥٠٨٩ ـ ٥٠٩٠، تفسير البيضاوي ٢/ ١٠٧ ـ ١١٠، تفسير الفخر الرازي ٢٦/ ١٨٨ ـ ١٩٨، تفسير القرطبي ١٥/ ١٦٦، الدر المنثور ٥/ ٣٠٠ ـ ٣٠٦، الإكليل للسيوطي ص ١٨٥، ابن خرم: المرجع السابق ٤/ ١٨، تفسير النسفي ٤/ ٣٧ ـ ٣٩.

(3) تفسير النسفي ٤/ ٣٨.

الفَصْلُ الثَّالِث

دَاوُد ـ مَلِكُ بَني إِسرَائيل

١ ـ داود فيما قبل الملكية :

تروي التوراة أن داود كان حامل سلاح شاؤل (طالوت)، كما كان طلق اللسان فصيحاً، خفيف الروح، شجاعاً بل مقاتلاً جباراً، وداود بن يس من سبط يهوذا، موطنه بيت لحم، ونسبه ينتهي إلى يهوذا بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام، وقد أرسله الله حين غضب على شاؤل ليكون ملكاً على إسرائيل، مختاراً إياه من بين أولاد يس الستة على رأي، والسبعة على رأي آخر، بل والثلاثة عشر، فيما تروي المصادر العربية، وكان أشقر مع حلاوة العينين، وحسن المنظر، وفي المصادر العربية عن وهب بن منبه كان قصيراً أزرق قليل الشعر، طاهر القلب نقيّه[١]، وكان قبل اشتراكه في الحرب ضد جالوت وقومه مكلفاً بالعناية بأغنام أبيه، وقد أظهر في القيام بهذه المهمة إخلاصاً نادراً، وشجاعة فائقة فقد قتل أسداً ودبّاً هاجما القطيع[٢]، وقد جاء في تاريخ الطبري أنه أتى أباه ذات يوم فقال يا أبتاه: ما أرمي بقذافتي شيئاً إلا صرمته، قال أبشر يا بني إن الله جعل رزقك

---

(١) صموئيل أول ١٦/ ١ ـ ١٧/ ١٢، أخبار أيام أول ٢/ ١٥، تاريخ الطبري ١/ ٤٧٢، ٤٧٦، ابن كثير: البداية والنهاية ٢/ ١٠، الكامل لابن الأثير ١/ ١٢٣.

(٢) صموئيل أول ١٧/ ٣٤ ـ ٣٦.

في قذافتك ، ثم أتاه مرة أخرى فقال : يا أبتاه لقد دخلت بين الجبال فوجدت أسداً رابضاً فركبت عليه وأخذت بأذنيه فلم يهجني ، فقال أبشر يا بني ، فإن هذا خير يعطيكه الله ، وكان داود راعياً ، وكان أبوه خلّفه يأتي إلى أبيه وإلى أخوته بالطعام[1] .

وقد بدأ نجم داود يسطع بين قبائل بني إسرائيل منذ أن قتل جالوت ، فقّرت به عين الملك ، ووعده بأن يزوجه ، ابنته الكبرى «ميرب» ولكنه زوجها إلى «عدريئيل المحولي» ولما أحبته أختها «ميكال» وعده بها على أن يمهره إياها مائة غلفة من الفلسطينيين[2] ، ولكن يبدو أن الشعبية التي اكتسبها داود قد جعلت الملك يعدل عن الإصهار إليه ، وإن كانت الرواية العربية تذهب إلى أن طالوت رجع فأنكح داود ابنته ، وأجرى خاتمه في ملكه ، فمال الناس إلى داود وأحبوه[3] ، ومن ثم فقد بدأ طالوت يخاف داود «وصار شاؤل (طالوت) عدواً لداود لكلَ الأيام»[4] بل «وكلم ، شارل يوناثان ابنه وجميع عبيده أن يقتلوا داود» ، ولكنه سرعان ما يعفو عنه نتيجة توسلات ولده يوناثان ، صديق داود ، غير أنه سرعان ما يغير رأيه مرة أخرى ويفكر في قتل داود ، فيطعنه بالرمح ولكنه يخطئه ، فيفر داود من أمامه ، فيزداد غضب طالوت ، وتتأجج نار الغيرة في صدره فيرسل إلى داود من يقتله في بيته «فأخبرت داود ميكال امرأته قائلة إن كنت لا تنجو بنفسك هذه الليلة فإنك تقتل غداً ، فأنزلت ميكال داود من الكوة فذهب هارباً ونجا» ، ووضعت في مكانه على الفراش الترافيم ولبدة المغري وغطته بثوب[5] ، وفي الرواية

(١) تاريخ الطبري ١/ ٤٧٢ ، تاريخ ابن الأثير ١/ ١٢٣ .
(٢) صموئيل أول ١٨/ ٧ - ٢٩ .
(٣) تاريخ الطبري ١/ ٤٧٣ ، تاريخ ابن الأثير ١/ ١٢٤ .
(٤) صموئيل أول ١٨/ ٢٩ .
(٥) صموئيل أول ١٩/ ١ - ١٧ .

العربية أن داود لما علم أن طالوت يريد قتله، جعل في مضجعه زق خمر وسجاه، ودخل طالوت إلى منام داود، وقد هرب داود، فضرب الزق ضربة خرقة فوقعت قطرة من الخمر في فيه فقال: يرحم الله داود ما كان أكثر شربه الخمر ، فلما أصبح طالوت علم أنه لم يصنع شيئاً، فخاف داود أن يغتاله فشدّد حجابه وحراسه، ثم إن داود أتاه من المقابلة في بيته وهو نائم، فوضع سهمين عند رأسه وعند رجليه، فلما استيقظ طالوت بصر السهام فقال: يرحم الله داود هو خير منى، ظفرت به وأردت قتله وظفر بي فكف عني، وأذكى عليه العيون فلم يظفروا به، وركب طالوت يوماً فرأى داود فركض في إثره، فهرب داود منه واختفى في غار في الجبل[٢].

وهكذا اضطر داود للفرار من مكان إلى آخر، معرضاً حياته للخطر، ومع ذلك فلم يذهب إلى موطنه في بيت لحم (٥ أميال جنوب القدس) وإنما ذهب إلى صموئيل النبي في الرامة (رامة الله) ومن هناك إلى «نوب» (مدينة الكهنة) حيث يعيش «أخيمالك» الكاهن، الذي دفع حياته، وكذا مدينته بما فيها من رجال ونساء وأطفال وماشية، ثمناً لإيوائه داود[٣]، وهكذا ضيق طالوت الخناق على داود، حتى اضطره أن يودع أباه وأمه عند ملك مؤاب، وأن يلجأ هو إلى ملك «جت» الفلسطيني، وحين لم يأمن مكره، لجأ هو، إلى مغارة «عدلام» حيث جمع هناك من حوله أربعمائة رجل من مريدية[٤].

---

(١) تاريخ الطبري ١/ ٤٧٣، تاريخ ابن الأثير ١/ ١٢٤.

(٢) تاريخ الطبري ١/ ٤٧٣، تاريخ ابن الأثير ١/ ١٢٤.

(٣) صموئيل أول ١٩/ ١٨ - ٢٢/ ٢٣، قارن: تاريخ الطبري ١/ ٢٧٣، تاريخ ابن الأثير ١/ ١٢٤.

(٤) صموئيل أول ٢١/ ١٠ - ١٥، ٢٢/ ١ - ٥، وانظر: محمد بيرمي مهران: إسرائيل ٢/ ٦٩٧ - ٧٠١.

٢ ـ اختيار داود ملكاً على يهوذا :

سرت الأنباء من كل أرجاء البلاد، كما تسري النار في الهشيم، بأن طالوت قد مات، وأن أولاده الثلاثة (يوناثان وأبيناداب وملكيشوع) لقوا نفس المصير، وأن الإسرائيليين قد هزموا شر هزيمة في معركة جبل جلبوع (حوالي عام ١٠٠٠ ق.م) وأن البلاد قد عادت مرة أخرى تحت النّير الفلسطيني[١]، وقد أدى ذلك إلى قيام صراع مرير بين القبائل الإسرائيلية على السلطة، خاصة وأن صموئيل النبي كان قد مسح داود أثناء حياته خليفة لطالوت، وإن لم يناد به ملكاً على إسرائيل، وفي نفس الوقت كان «إيشبعل» بن شاؤل (طالوت) قد اعتبر نفسه الخليفة الشرعي لأبيه بعد وفاته، فضلاً عن وفاة إخوته الكبار، وكان يسانده في ذلك «أبنير» قائد جيش أبيه، وأحد أمراء بيته، ومن ثم فقد نودي به ملكاً في «محنايم» (شمالي عجلون بميلين) عاصمة منطقة أفرايم في أرض جلعاد، جنوب يبوق، حيث ذكرى أعمال أبيه شاؤل الجرئية منذ سنوات مضت ما تزال باقية هناك، وعلى أية حال، فقد شملت ملكية إيشبعل مناطق غير محددة لقبائل الجبال في شرق الأردن وفي الجليل والسامرة، وقد أطلق إيشبعل على نفسه، كما فعل أبوه من قبل، لقب «ملك إسرائيل» وأدعى أنه يحكم كل القبائل الإسرائيلية، ولكن بما أن القبائل الجنوبية قد انفصلت (تحت حكم داود) عن القبائل الأخرى، فإن التصور السياسي لإسرائيل تحت حكم «إيشبعل» إنما كان يشمل فقط الجزء الأكبر من القبائل فحسب[٢].

وفي نفس الوقت كانت يهوذا قد مسحت داود ملكاً على بيت يهوذا في

---

(١) H. R. Hall. The Ancient History of the Near East. 1963. P. 359, CAH, III. 1965. P. 426.
M. Noth. op-cit. p. 177 - 180. وكذا

(٢) M. Noth. Op - cit. p. 181 - 184.

حبرون (مدينة الخليل) أو ممرا[1]، وليس هناك من شك في أن شخصية داود نفسه كان لها دور كبير في إغراء القبائل الجنوبية لاتخاذ هذه الخطوة، فقد كان لتأثيره الشخصي أثر كبير، ما في ذلك ريب، كما أنه كحامل لدرع طالوت قد جعل منه شخصاً محبوباً لكل من حوله، وهو بالنسبة للقبائل الجنوبية رجل من دائرتهم، وقد برهن بنفسه، بعد انفصاله عن طالوت، أنه بالتأكيد رجل من القبائل الجنوبية، وإن كان النظام الملكي قد انتهى سريعاً، فإن طالوت هو الملام لفشله، وقد ساهم المركز الخاص والثابت للقبائل الجنوبية بدور أساسي في الموقف دون شك، وقد استغل داود هذا الموقف لصالحه، كما كانت شخصية داود وعلاقاته وحاشيته الحربية، هي الأساس في تنصيبه ملكاً على كل بيت يهوذا، هذا فضلاً عن أن رجال الدين كانوا موالين له، كما أن اختيار النبي صموئيل له من قبل، قد لاقى قبولاً حسناً من غالبية القوم[2].

وأما الفلسطينيون، أعداء بني إسرائيل، فكانوا يرقبون الموقف عن كثب، وكان يهمهم في الدرجة الأولى أن تظل فلسطين تحت سيادتهم تماماً، وربما رأوا في قيام مملكتين إسرائيلين منفصلتين مما يحقق أعراضهم، بل ربما كان الفلسطينيون من وراء قيام هاتين المملكتين، الواحدة في حبرون، وعلى رأسها داود، والأخرى في الشمال، وعلى رأسها «إيشبعل» وربما كانت هذه المملكة الشمالية تحت السيادة الفلسطينية، وفي كل الحالات فإن الوضع الجديد كان في مصلحة الفلسطينيين الذين ما كانوا أبداً بكارهين أن يروا أعداءهم الإسرائيليين ضعافاً عن طريق الانقسام الداخلي[3]،

---

(1) صموئيل ثان ٢/ ٤.

(2) M. Noth, op - cit, p. 182 - 183 وكذا H. R. Hall, CAH, III, Cambridge, 1965, P. 427.

(3) K. M. Kenyon, Archaeology in the Holy Land, Lond, 1970, P. 240. وكذا The Jewish Encyclopdedia, 1903, P. 452.

والذي يقضي بالتأكيد على تحالف القبائل الاثني عشر، كوحدة سياسية وحربية، خاصة وأن داود، ومن ورائه القبائل الجنوبية كانوا يعملون على استمرار هذا التحالف، ومن هنا فقد سكت الفلسطينيون مؤقتاً على ما يجري من أحداث، لأنهم لم يجدوا سبباً لمساعدة طرف على آخر، كما كانوا قانعين بترك مواليهم من بني إسرائيل يحطم بعضهم البعض الآخر[١].

٣ ـ داود وتوحيد إسرائيل :

كان طموح داود أعظم وأكبر من أن تكفيه منطقة ضئيلة في أقصى جنوب فلسطين، كالتي اعترفت بسلطانه، فبدأ يرنوا بناظرية إلى الشمال، الذي استقل تحت حكم إيشبعل الضعيف، وكان الصدام بين الحزبين المتنافسين أمراً لا مفر منه، وهكذا بدأ داود يعد عدته سياسياً وعسكرياً لاستعادة وحدة إسرائيل، ومن ثم فإنه لا يكتفي بعلاقاته الودية مع القبائل الجنوبية، ولكنه يمدها إلى شرق الأردن، ومن ثم فقد تزوج من ابنة ملك «جشور» الأرامي، لأن مملكته كانت مجاورة ليابيش جلعاد، حيث لجأ إيشبعل وتحصن هناك، كما أنه دخل في حلف مع ملك عمون، ليطبق كماشته على إيشبعل، ونقرأ في التوراة أن داود بدأ يتفاوض مع رجال عدوه ويدفعهم إلى الانضمام إليه، وقد أجابه كثيرون، وهكذا أصبح الموقف العام في يهوذا ضد إسرائيل، بل وبدأت يهوذا تستغل مشاكل إسرائيل لمصلحتها[٢].

ثم سرعان ما لبثت يهوذا وإسرائيل، تحت حكم داود وإيشبعل، أن

---

(١) M. Noth, Op - cit, p. 183. وكذا H. R. Hall, Op - cit, P. 427.

(٢) صموئيل ثان ٢/ ٨، محمد بيومي مهران: إسرائيل ٢/ ٧٠٦ ـ ٧١٠، إسماعيل راجي الفاروقي: أصول الصهيونية في الدين اليهودي ـ القاهرة ١٩٦٤ ص ٤٤ ـ ٤٥، وكذا S. A. Cook, CAH, II, 1931, P. 373.

غرقتا في اشتباكات عسكرية في منطقة الحدود، وعندما قرر «جبنير» قائد جيش إيشبعل، غزو مملكة داود الصغيرة، وضمها لمملكة إسرائيل، فقد هزم في «جبعون» على يد «يوآب» قائد جيش داود[1]، وقد كشفت البعثات الأمريكية عام ١٩٥٦ م أسوار مدينة «جبعون» (٧ أميال شمالي القدس)، كما اكتشفت كذلك مشهد المعركة الدموية في تلك الأيام الخوالي من بداية الألف الأولى قبل الميلاد، وطبقاً لرواية التوراة، فلقد حدث قتال عنيف في هذه البقعة يداً بيد بين أعوان المتنافسين[2]، وسرعان ما قتل إيشبعل، وخلص حكم بني إسرائيل لداود وحده، ودانت له الأسباط جميعاً[3] «وجاء جميع شيوخ إسرائيل إلى الملك، إلى حبرون، فقطع الملك داود معهم عهداً في حبرون أمام الرب، ومسحوا داود ملكاً على إسرائيل، وكان داود ابن ثلاثين سنة حين ملك، وملك أربعين سنة، في حبرون ملك على يهوذا سبع سنين وستة أشهر، وفي أورشليم ملك ثلاثاً وثلاثين سنة على جميع إسرائيل ويهوذا»[4]، وقد أشرنا من قبل إلى الآراء المختلفة التي دارت حول تحديد الفترة التي حكم فيها داود عليه السلام، وارتضينا أن نأخذ بما ذهب إليه «وليم أولبرايت» من أنها في الفترة (١٠٠٠ - ٩٦٠ ق. م)[5].

٤ - داود والفلسطينيون:

لم يتقبل الفلسطينيون عن رضى اتحاد قوى اليهودية وإسرائيل في دولة

---

(١) W. Keller, op - cit, P. 188.

(٢) صموئيل ثان ٢/ ١٣ - ٣٢، وكذا J. B. Pritchard, BA, 19, 1956, P. 62 - 75, UMB, 21, 1957, P. 3-26 وكذا W. Keller, op - cit, p. 188.

(٣) صموئيل ثان ٢ / ١٣ - ٤/ ١٢، وكذا M. Noth, op - cit, p. 186 وكذا The Jewish Encyclopaedia, 4, P. 461.

(٤) صموئيل ثان ٥/ ٣.

(٥) W. F. Alleright. op - cit. p. 120 - 122.

واحدة، تحت زعامة داود، البطل الجديد، ومن ثم فقد بدأوا يفكرون في مقاومة هذه الوحدة، التي كانت، دونما ريب، تمثل تهديداً خطيراً لسيطرتهم على فلسطين»[1]، ونقرأ في التوراة «وسمع الفلسطينيون أنهم مسحوا داود ملكاً على إسرائيل، فصعد جميع الفلسطينيين ليفتشوا على داود، واحتلوا وادي الرفائيين»[2] (وادي البقاع جنوب غربي القدس على الأرجح) ذلك لأن منطقة القدس هي التي تفصل المناطق التي تحتلها إسرائيل عن تلك التي تحتلها يهوذا، وبهذا قطعوا اتصال داود بالأسباط الشماليين أو على الأقل عملوا على منع تجميع جيوش المملكتين.

وشرع داود يستعد بفرقته من الجنود المحترفين، وربما قام بهجوم مفاجىء قرب وادي جبعون، نجح فيه في قهر الفلسطينيين تماماً، وهزيمتهم باستخدام أسلوبهم الحربي، فلم يواجههم، كما فعل طالوت، بالجانب الأكبر من قواته، وإنما بفرقة من المحترفين التي ربما كانت قد عززت وتطورت أثناء حكم داود في يهوذا[3]، وكان لديهم الفهم المحترف لفن

(١) M. Noth, op - cit, p. 187.

(٢) صموئيل ثان ٥/ ١٧ - ١٨.

(٣) كان جيش إسرائيل على أيام داود يتكون من عنصرين هما: (١) السبا (Saba) أي أفراد الحرس الملكي، وهم جماعة من رجال القبائل الأقوياء يستدعون بصوت النفير، وبرفع الأعلام أو إشعال النار على التلال، وهي قوات بدون زي موحد كان تجميعها ووضعها تحت السلاح يعتمد على الإرادة الفردية الجيدة، وكان داود يستخدمهم ضد الشعوب المجاورة في شرق الأردن، وكانوا يحملون مع التابوت إلى أرض المعركة، ومن الواضح أن داود كان ينظر إلى التابوت بأهمية كبيرة، فهو إلى جانب قيمته الدينية، إنما كان يمثل تحالف القبائل الإسرائيلية جميعاً.

(٢) الجبوريم (Gibborim) وهي القوات الدائمة وقد تكونت نواتها الأولى من ستمائة مقاتل كانوا قد تجمعوا حول داود عندما هرب عن طالوت، وكانوا يسمون «رجال داود الأقوياء» وإن لم يكونوا جميعاً من بني إسرائيل، بل إن معظمهم من شعوب أجنبية (ومنهم أوريا الحثي) وكانوا ينتمون إلى داود شخصياً، وليس إلى القبائل الإسرائيلية، وكانوا سلاحه في خطواته =

الحرب، وهكذا هزم داود الفلسطينين بهذا الجهاز السريع الحركة، وبمهارته المنقطعة النظير[1]، ولكن سرعان ما قام الفلسطينيون بمحاولة ثانية، بعد أن قدّروا، نتيجة للجولة السابقة، القوة والمهارة الحربية لداود، ولم يعدوا كل قوتهم لمواجهته، ومن ثم فسرعان ما ظهروا في وادي رفائيم، وهزمهم داود مرة أخرى في مكان تصفه التورة بأنه «مقابل أشجار البكا»[2]، وربما أطبق داود بقواتهم عليهم من الشمال، من جانب دولة إسرائيل، فجأة، كا حدث من قبل، وعلى أية حال، فطبقاً لرواية التوراة، فلقد قام داود «بضرب الفلسطينين من جبع إلى مدخل جازر» وإن ذهبت رواية أخرى إلى أنه ضربهم» من جبعون إلى جازر، مقتفياً أثرهم حتى حدود بلادهم[3].

وهكذا كتب لداود النصر المبين على أقوى أعدائه، وأكثرهم أهمية، كما كتب له نجْماً بعيد المدى في طردهم من المناطق الإسرائيلية بل إننا لنسمع عن حرب دقت طبولها عند «جت»، إحدى المدن الخمسة الرئيسية في الاتحاد الفلسطيني، بل وقد أصبحت مدينة «جت» فيما بعد مدينة إسرائيلية تحت حكم داود[4].

غير أن تلك الانتصارات التي حققها داود ضد الفلسطينين، كما جاءت في التوراة، لم تجعل الفلسطينين تابعين لداود سياسياً، صحيح أنها أجبرتهم على الاعتراف بسيادة داود على الجزء الأكبر من فلسطين، ولكنه صحيح كذلك أنهم بقوا في إقليمهم الصغير على ساحل البحر المتوسط، القوة

= الأولى نحو عرش إسرائيل، وقد أحرز بهم انتصارات هامة، كانتصاره على الفلسطينيين وكاحتلاله «دولة المدينة أورشليم».

(1) M. Noth, op - cit, p. 187 - 188.

(2) صموئيل ثان ٥/ ٢٣.

(3) صموئيل ثان ٥/ ٢٥، أخبار أيام أول ١٤/ ١٦، وكذا: M. Noth, op - cit, p. 188 - 189.

(4) A Lods, op - cit, p. 360.

الوحيدة التي لم يقدر لداود أن يخضعها، ولعل السبب في ذلك فيما يرى بعض الباحثين، أن مصر، رغم أنها كانت تمر بفترة ضعف في تلك الآونة، قد أعطت الفلسطينيين من تأييدها، ما يمنع داود من ضمهم إلى نفوذه، بل إن السهل الساحلي الفلسطيني لم يصبح أبداً جزءاً من الأملاك الإسرائيلية، هذا فضلاً عن أن الفلسطينيين سرعان ما يظهرون مرة أخرى كجماعة مستقلة في القرن الثامن والسابع قبل الميلاد[1].

٥ ـ داود ومؤاب وعمون وآرام وأدوم:

كانت مؤاب أول قوة، من أعداء إسرائيل القدامى، هوجمت وهزمت وأصبحت ولاية تابعة لداود عليه السلام، وطبقاً لرواية التوراة، فلقد «أصبح المزابيون عبيداً لداود يقدمون هدايا»، وإن استمر النظام الملكي فيها قائماً كما كان من قبل، مع الاعتراف بالتبعية لداود عليه السلام[2].

وكانت عمون هي القوة التالية التي ضربها داود، ولعل السبب المباشر للصدام بين داود وبنحمون إنما هو إساءة العمونيين لرسل داود الذين كانوا في مهمة ودية بمناسبة تغيير السلطة في عمون، حيث قام «حانون» ملك عمون الجديد «فأخذ عبيد داود وحلق أنصاف لحاهم وقص ثيابهم من الوسط إلى أستاههم، ثم أطلقهم»[3]، ومن ثم فقد أدرك العمونيون، بعد فعلتهم هذه، أن الحرب مع بني إسرائيل أصبحت أمراً لا مفر منه، ومن هنا فقد بدأوا يطلبون معونة جيرانهم الأراميين في «أرام بيت رحوب» وأرام «صوبة» وفي معكة وطوب[4]، وأتى هؤلاء بحشد كامل مَن الرجال والمعدات لمساعدة

---

(١) صموئيل ثان ٥/ ١٧ ـ ٢٥ وكذا M. Noth, op - cit, p. 194 وكذا K. M. Kenyon, op - cit, p. 244.

(٢) صموئيل ثان ٨/ ٢، وكذا H. R. Hall, op - cit, p. 430 وكذا M. Noth, op - cit, p. 194.

(٣) صموئيل ثان ١٠/ ١ ـ ٥.

(٤) انظر عن هذه الولايات الأرامية في شرق الأردن (محمد بيومي مهران: إسرائيل ٢/ ٥٣٩ ـ ٥٤٢).

العمونيين ضد الهجوم الإسرائيلي المرتقب، وقد نجحت قوات داود بقيادة «يؤاب» في هزيمة هؤلاء الآراميين، ثم «رجع يواب عن بني عمون وأتى إلى أورشليم»[1].

ويعلم «هدد عزره ملك صوبة بذلك، فيستدعي «أرام الذي في عبر النهر» إلى «حيلام» (ربما كانت عليم أو علمه في سهل حوران) ويتقدم قائده «شوبك» لملاقاة بني إسرائيل، وينجح داود، الذي كان على رأس جيشه هذه المرة، في إحراز النصر، وفي العام التالي يأمر داود قائده «يؤاب» بالاتجاه نحو عمون، وسرعان ما يحاصر يؤاب «ربة» (ربه عمون»[2]، غير أنه لا يستطيع إخضاعها، ومن ثم يطلب نجدة من داود، الذي يسرع لإنقاذ قائده بنفسه، فيستولي على قلعة المدينة، ويعاقب العمونيين بقسوة، وطبقاً لرواية التوراة، فإن داود أمر بحرق المغلوبين، وسلخ جلودهم ووشرهم بالمنشار، بعد أن وضعهم تحت نوارج وفؤوس من حديد (وبدهي أن ذلك من تحريفات التوراة، فما كان النبي الأواب يفعل ذلك أبداً)، ثم وضع التاج العموني، بما فيه من ذهب وأحجار كريمة، على رأسه، وبعبارة أخرى، فلقد أصبح داود ملكاً على عمون[3].

ثم اتجه جيش داود بعد ذلك إلى أدوم، وطبقاً لرواية التوراة، «فإن يؤاب وكل إسرائيل أقاموا في أدوم ستة أشهر، حتى أفنوا كل ذكر في أدوم»، وهكذا هزمت قوات إسرائيل أدوم، وقتل «حداد الثاني»، وهو الملك الثامن

---

(١) صموئيل ثان ١/ ٦ - ١٤ وكذا M. Noth, the History of Israel, London, 1965, p. 195.

(٢) ربة أوربة عمون: هي عاصمة العمونيين، وقد سميت في العصر الإغريقي «فيلادلفيا» نسبة إلى ملك مصر «بطليموس الثاني فيلادلفيوس» (٢٨٤ - ٢٤٦ ق. م)، وهي في موقع تشغله حالياً عاصمة المملكة الأردنية الهاشمية «عمان» حيث يوجد في اسمها جزء من اسم العمورتين (محمد بيومي مهران) إسرائيل ٢/ ٥٥٧).

(٣) صموئيل ثان ١٢/ ٢٦ - ٣١، وكذا M. Noth, op - cit, p. 195.

من سلسلة ملوك أدوم، ولكن ولده «هدد»، والذي ربما كانت أمه مصرية، قد استطاع الهروب إلى مصر، حيث تزوج هناك من أميرة مصرية «أخت تخفنيس الملكة»، وعاش ضيفاً على فرعون إلى أن مات داود عليه السلام، حيث بدأ الأمل يعاوده في استعادة حقه الشرعي في عرش أدوم[1].

وقد نجح داود إلى حد بعيد في تنظيم أدوم، كولاية تحت إمرته، ورغم أنها كانت بعيدة نسبياً عن دولته، إلا أنها كانت مهمة بالنسبة إليه، فهي تمكنه من الوصول إلى خليج العقبة، ومن ثم إلى البحر الأحمر، هذا فضلاً عن أنها كانت تحتوي على كثير من الرواسب المعدنية على حدود وادي العربة، ومن هنا كانت أدوم ذات أهمية اقتصادية كبيرة بالنسبة إلى داود، ذلك لأن الصحراء العربية والتي تمتد من نهاية جنوب البحر الميت وحتى خليج العقبة إنما كانت غنية بمعدني النحاس والحديد، وقد استغل داود ذلك أفضل استغلال، «وهيأ داود حديداً كثيراً للمسامير لمصاريع الأبواب والوصل، ونحاساً كثيراً بلا وزن»[2].

٦ ـ دولة داود ومدى اتساعها:

لا ريب في أن داود عليه السلام قد كتب له نجْحا بعيد المدى في أن يخلص قومه الإسرائيليين من النير الفلسطيني، وفي أن يحقق لهم الاستقلال التام، بل وأن يوجد لنفسه نفوذاً في مؤاب وأدوم وعمون، وفي أن تقدم له الهدايا ـ وليس الجزي ـ من أرامي دمشق، وفي أن يقيم علاقات المودة مع «توعي» ملك حماة، ضد عدوهما المشترك «هدد عزر» ملك الأراميين في صوبة، ومع ذلك فعلينا ألا نبالغ كثيراً في تقدير سعة مملكة داود عليه

(١) صموئيل ثان ٨/ ١٣، ملوك أول ١١/ ١٤ ـ ٢٢، وكذا H. R. Hall, op - cit, p. 431 وكذا W. M. F. Petrie, Egypt and Israel, London, 1925, p. 65.

(٢) أخبار أيام أول ٢٢/ ٤، وكذا W. Keller, op - cit, p. 188 وكذا M. Noth, op - cit, p. 196.

السلام، فنطلق عليها وصف «إمبراطورية»، كما أراد أن يصفها بعض المؤرخين المحدثين[1]، أو نبالغ في حدودها كما فعل بعض الكتاب المصريين المحدثين، فجعلها تمتد من نهر الفرات إلى البحر المتوسط، ومن دمشق إلى الخليج العربي[2]، بل إن هناك من زعم، دونما أي دليل، أن داود وسليمان عليهما السلام قد أقاما دولة تشمل الشام كله، والجزيرة العربية كلها[3]، الأمر الذي يدعونا إلى مناقشته بشيء من التفصيل عند الحديث عن دولة سليمان عليه السلام.

وعلى أية حال، فربما كان تحديد الدكتور الحاخام «أبشتين» أقل مبالغة من غيره، فقد ذهب إلى أن دولة داود كانت تمتد من فينيقيا (لبنان) في الغرب، إلى حدود الصحراء العربية في الشرق، ومن نهر العاص (الأورنت) في الشمال إلى خليج العقبة في الجنوب[4]، وأما التوراة فقد ذهبت إلى أن مملكة إسرائيل كانت في أقصى اتساع لها «من دان إلى بئر سبع»[5]، ومن ثم فالتوراة التي اشتهرت بمبالغاتها فيما يتصل بمملكة إسرائيل، إنما تحدد لها من الشمال مدينة «دان» وتقع عند سفح جبل حرمون عند تل القاضي حيث منابع الأردن على مبعدة ثلاثة أميال غربي بانياس[6]، ومن الجنوب «بئر سبع» الحالية، ولم تشر التوراة إلى حدود لإسرائيل من الغرب أو الشرق، هذا أو قد ذهب المسعودي إلى أن ملك داود

(١) O. Eissfeldt, The Hebrew Kingdom, in CAH, II, Part, 2, Cambridge, 1975, P. 583.

(٢) علي إمام عطية: الصهيونية العالمية وأرض الميعاد ص ٦٣.

(٣) جمال عبد الهادي ووفاء رفعت: ذرية إبراهيم عليه السلام وبيت المقدس - الرياض ١٩٨٦ ص ٢٥٥ - ٢٥٦، ٢٥٩، ٢٧٠.

(٤) I. Epstein, Judaism, 1970, p. 35.

(٥) قضاة ٢٠/ ١، صموئيل أول ٣/ ٢٠، صموئيل ثان ٢٤/ ١٥ أخبار أيام أول ٢١/ ٢، وكذا M. F. unger, op - cit, p. 236.

(٦) قاموس الكتاب المقدس ١/ ٣٥٦ - ٣٥٧.

إنما كان على فلسطين والأردن، كما جاء في مروج الذهب (١/ ٧٠).

ولعل من الجدير بالإشارة أن فينيقيا كانت ـ وخاصة على أيام «حيرام» (٩٨٠ ـ ٩٣٦ ق. م) الذي عاصر داود وسليمان وكان ذا نشاط كبير في الاقتصاد والفن والعمارة في إسرائيل ـ دولة مستقلة، وليست هناك أية إشارة في التوراة أو الوثائق التاريخية إلى أن حيرام كان خاضعاً لداود، كما أن هناك ما يشير إلى محاولة داود توطيد علاقاته بحماة من أقصى الشمال، فضلاً عن الفلسطينيين في الغرب، وأن السيطرة الإسرائيلية على أيام داود لم تكتمل بالاستيلاء على كل فلسطين، وحتى الجزية، فيما يبدو، لم تكن ترسل إلى القدس، أضف إلى ذلك أن الفلسطينيين الجنوبيين قد وضعوا أنفسهم، راغبين لا مكرهين، تحت حماية فراعين مصر الشماليين في تانيس، والذين كانوا يتبعون سياسة نشطة في فلسطين في تلك الأيام، حتى إن «شيشنق، مؤسس الأسرة الثانية والعشرين، عندما غزا يهوذا بعد موت سليمان عليه السلام، لم يذكر المدن الفلسطينية، مما يدل على أنها كانت تحت الحكم المصري من قبل»[١].

ومن ثم يذهب «هربرت ويلز» إلى أن أرض الميعاد (المزعومة) لم تقع يوماً ـ ولن تقع، في قبضة العبرانيين، هذا فضلاً عن أن ما وطد ملك داود، وهيأ له شيئاً من الاتساع، أن أمور مصر كانت في عهده مرتبكة، فخفت هيمنتها على فلسطين وبلاد الشام، وكانت أمور آشور مرتبكة كذلك، وقد منح هذا كله لداود عليه السلام شيئاً من الحرية والنشاط وممارسة السيادة[٢].

---

(١) ج. كونتنو: الحضارة الفينيقية ـ ترجمة محمد عبد الهادي شعيرة ص ٧١، وكذا H. R. Hall, op - cit, p. 431

(٢) H. G. Wells, the outline of History, London, 1965, p. 279

وأياً مـا كان الأمر، فإن حكم داود ـ وكذا سليمان، عليهما السلام، إنما يمثل فترة الرخاء الوحيدة التي قدّر للشعوب العبرانية أن تعرفها على مرّ الدهور، وهي تقوم على محالفة وثيقة الأواصر مع مدينة «صور» الفينيقية التي يلوح أن ملكها «حيرام» كان رجلاً قد أوتى نصيباً كبيراً من الذكاء والقـدرة على المغامرة، وكان يبغي أن يكفل للتجار في البحر الأحمر طريقاً آمناً عبر منطقة التلال العبرانية، وكان الأصل في التجارة الفينيقية أن تذهب إلى البحر الأحمر عن طريق مصر، بيد أن مصر كانت في تلك الفتـرة تمـر بحالـة من الفوضى، هذا وقد أنشأ حيرام أوثـق العلاقـات مع داود وسليمـان عليهمـا السلام، وقد أنشئت بمساعدة حيرام أسوار أورشليم وقصرها ومعبدها، وفي مقابل ذلك بني حيرام سفنه على البحر الأحمر وسيّرها فيه، وأخذ سيل جسيم من التجارة يتدفق خلال أورشليم نحو الشمال والجنـوب[1]، بخاصـة وأن داود عليه السلام قد سيطر تماماً على طرق لقوافل القادمة من بلاد العـرب الجنوبية والتي كانت تمر في مملكته عند النهاية الشمالية لخليج العقبة على الجانب الشرقي لوادي عربة، وحتى غوطة دمشق، ثم ترتبط بالطرق المؤدية إلى شمال سورية فآسيا الصغرى، وتلك التي كانت تمر بالصحراء الغربية إلى «ميزوباتاميا»، مما كان له أكبر الأثر في حالة دولة داود الاقتصادية، بل إن هناك من يذهب إلى أن حروب داود إنما كانت لهذا الغرض، على الرغم من أن المصادر المتبقية من عهده لا تعطي أهمية لذلك[2]، وهذا ما نرفضه تماماً، ذلك أن داود، وإن كان ملك اليهود القدير، فهو قبل ذلك وبعده نبيّ الله ورسوله، وما كان الأنبياء أبداً يحاربون من أجـل أسبـاب اقتصـادية، وإنما كانت حروبهم كلها جهاداً في سبيل الله ونشر كلمة «لا إله إلا الله».

---

(١) H. G. Wells, Ashort History of the World, p. 76.

(٢) O. Eissfeldt, op - cit, p. 583

٧ ـ وراثة العرش والخلافات العائلية :

لم تكن هناك قاعدة عامة قد وضعت بعد لخلافة العرش في دولة إسرائيل الجديدة ، ولكن مما لا شك فيه أن الابن الأكبر كان صاحب الحق في ذلك ، إلا أن مكانة الأم ورغبة الملك واختيار الشعب والموافقات الدينية قد تكون سبباً في اختيار أحد أخوته الصغار[١] .

ويذهب بعض الباحثين إلى أنه ربما كانت فكرة داود عليه السلام عندما طلب «ميكال» ابنة طالوت (شاؤل) لتكون زوجة له ، إنما كان يبغي من وراء ذلك أن الابن الأكبر من هذا الزواج ، تكون له الأفضلية على بقية إخوته من علات ميكال ، وربما يستطيع هذا الابن المرتقب أن يجذب إليه عواطف هؤلاء الذين كانوا يؤيدون بيت شاؤل ، بصفته حفيداً لشاول ، ولكن «لم يكن لميكال بنت شاؤل ولد إلى يوم موتها»[٢] ، وهكذا ضاع الأمل في أن يكون خليفته داود هو في نفس الوقت حفيد شاؤل (طالوت) ، وأما بالنسبة لبقية أبناء داود فطبقاً للقانون الإسرائيلي ـ كما قررته التوراة في سفر التثنية[٣] ، فإن للابن الأكبر نصيب الأسد في ميراث أبيه ، بصرف النظر عن مكانة الأم بين علاتها من زوجات الأب ، ومن هنا كان من الطبيعي أن يخلف داود على عرش إسرائيل أكبر ولده ، ولكن هنا في حالة داود عليه السلام ، مؤسس الملكية والبيت المالك ، فإن الابن الأكبر ، الذي ولد بعد اعتلائه العرش مباشرة ، ربما كانت له أفضلية خاصة ، ولكن أبناء داود أنفسهم ما كانوا

---

(١) A. Lods, op - cit, p. 364.

(٢) صموئيل ثان ٦/ ٢٣ .

(٣) تثنية ٢١/ ٥ ـ ١٧ ، وانظر عن «البكورية» عند بني إسرائيل (تكوين ٢٥/ ٣١ ، تثنية ٢١/ ١٧ ، خروج ٢٢/ ٢٩ ، قاموس الكتاب المقدس ١/ ١٨٧ ، محمد بيومي مهران : إسرائيل ١/ ١٨٩ ـ ١٩٢) .

يعيرون المظهر الأخير أية أهمية خاصة، وإنما كانوا يعتبرون أنفسهم جميعاً خلفاء محتملين للعرش، طبقاً لترتيب أعمارهم[1].

وهناك في التوراة قائمة بستة أبناء ولدوا في حبرون، أثناء فترة ملكية داود على يهوذا وهم «وكان بكره أمنون من أخينوعم اليزرعيلية، وثانية كيلاب من أبيجايل، والثالث أبشالوم ابن معكة بنت تلماي ملك جشور، والرابع أدونيا بن جحيث، والخامس شفطيا بن أبيطال، والسادس يثر عام من عجلة»[2]، ولكن نظراً لأن داود كانت له زوجتان، على الأقل، تعتبران أقدم من الأخريات (أخينوعم وأبيجايل)، وطبقاً لرواية التوراة في صموئيل الأول (٢٥/ ٤٢ - ٤٣) فربما كان البعض من هؤلاء الأبناء أكبر قليلاً من الآخرين، وأن القائمة السابقة كانت إضافة لإحصاء أبناء داود الذين ولدوا في أورشليم[3]، وهم طبقاً لرواية صموئيل الثاني (٥/ ١٣ - ١٦): شموع وشوباب وناثان وسليمان وبيجار والبشوع ونافج ويافيع والبشمع والبداع وأليفلط».

هذا ويوصف «أمنون» صراحة في سفر صموئيل الثاني (٣/ ٢) بأنه ابن داود البكر، ومن ثم فقد اعتبر نفسه، كما اعتبره إخوته كذلك، ولياً للعهد أو الملك القادم، غير أنه لم يكن حكيماً بما فيه الكفاية، كما لم يكن كريماً ولا عفيفاً، وطبقاً لرواية التوراة في صموئيل الثاني (إصحاح ١٣ - ١٤) فقد اعتدى على أخته غير الشقيقة، مما دفع أبشالوم إلى أن يثأر لعرض شقيقته «تامار» فيقتله، ثم هرب عند أخواله في جشور، وبقي هناك ثلاث سنوات[4]، ومن ثم فقد أصبح كيلاب الابن الثاني لداود ولياً للعهد، ولكنه

(١) M. Noth, op - cit, p. 200.

(٢) صموئيل ثان ٣/ ٢ - ٥.

(٣) M. Noth, op - cit, p. 200

(٤) انظر عن قصة أمنون وأخته ثامار (صموئيل ثان ١٣/ ١ - ٣٩، محمد بيومي مهران: إسرائيل ٣/ ٢١١ - ٢١٣).

سرعان ما يختفي لسبب لا ندريه على وجه اليقين، ومن ثم فقد أصبح أبشالوم الابن الثالث لداود ولياً للعهد، ولكنه بدوره سرعان ما يختفي في ثورة دامية، كما سنرى، ومن ثم تصبح ولاية العهد من حق الابن الرابع «أدونيا»، ولكنه لم يصل إلى العرش أبداً، حيث سيكون ذلك من نصيب سليمان، الابن العاشر كما سنشير إلى ذلك بالتفصيل فيما بعد.

٨ ـ ثورة أبشالوم:

بدأ أبشالوم يعدّ العدة لاعتلاء عرش أبيه، وكان أول ما فعله أن حصل ـ بمساعدة يؤاب ـ على عفو أبيه المطلق عن جريمته بقتل أخيه أمنون، ومن ثم فقد عاد أبشالوم من جشور إلى أورشليم، وبدأ يبث الدعوة لنفسه بين المقربين إليه، ثم سرعان ما نجح في اكتساب عطف وتأييد القبائل الإسرائيلية وخاصة يهوذا قبيلة أبيه، وحين استوثق من النجاح ذهب إلى حبرون بإذن من أبيه، بحجة الوفاء بنذر كان قد نذره إبان إقامته في «جشور»، وهناك في حبرون أعلن عصيانه ونادى بنفسه ملكاً على إسرائيل، ومن أسف أن القوم سرعان ما انضموا إليه ضد داود، بل إن ثورة أبشالوم سرعان ما ضمت إليها «أخيتوفل» وهو واحد من مستشاري داود المقربين[1].

وتعلل بعض المصادر الإسلامية سرعة استجابة اليهود لأبشالوم، بأن قصة امرأة أوريا الحثي كانت سبباً في إزالة طاعة داود عن بني إسرائيل واستخفوا بأمره ووثب عليه ابن يقال له «إيشا» وأمه ابنة طالوت، فدعى إلى نفسه، فكثر أتباعه من أهل الزيغ من بني إسرائيل، فلما تاب الله على داود اجتمع إليه طائفة من الناس، فحارب ابنه حتى هزمه، ووجه إليه بعض قواده

(١) صموئيل ثان ١٣/ ٢٩، ١٤/ ١ ـ ٣، ١٥/ ٧ ـ ١٠، ماير: حياة داود ص ٣٦٢ (مترجم)، وانظر: تاريخ اليعقوبي ١/ ٥٣.

وأمره بالرفق به والتلطف لعله يأسره ولا يقتله ، وطلبه القائد وهو منهزم فاضطره إلى شجرة فقتله ، فحزن عليه داود حزناً شديداً وتنكر لذلك القائد[1] .

ويذهب بعض المؤرخين المحدثين إلى أن القبائل الإسرائيلية ربما كانت غير راضية عن اتساع أملاك داود التي بدأت تمتد إلى ما وراء مناطقها ، ذلك لأن ضم إسرائيل لعديد من المدن المستقلة ذات المستوى الحضاري المتقدم ، والتي تمتلك صناعات هامة ، فضلاً عن سيطرتها على أراض كبيرة وغنية تمر خلالها طرق القوافل ، كل ذلك أدى إلى رخاء مفاجيء في إسرائيل ، تمتعت به طبقة خاصة صغيرة من رجال البلاط وكبار الموظفين وقادة الجيش والتجار ، بينما لا يتمتع العامة من القوم ممن كانوا يعملون جنوداً عاديين في الجيش بمثل هذا الرخاء ، مما جعلهم غير راضين عن الوضع الجديد المفاجيء ويتقبلون دعاوي أبشالوم ضد أبيه[2] ، أضف إلى ذلك ، فيما يرى البعض ، التوتر القائم بين يهوذا وإسرائيل ، والذي ظل قائماً أبداً ، ورغم أنه لم يكن السبب الرئيسي للثورة ، إلا أنه لعب دوراً هاماً فيها ، بخاصة وأن يهوذا حيث قامت الثورة في حبرون ، بدأت تحس أن داود بدأ يفضل إسرائيل عليها[3] ، وأخيراً فلعل من أسباب الثورة ذلك الاتجاه العدائي من القبائل الإسرائيلة ، التي اعتادت النظام القبلي ، ضد سياسة المركزية التي بدأت تسير عليها مملكة داود[4] .

ومع ذلك فإن أسباب ثورة أبشالوم ما زالت تنتظر مزيداً من الوضوح ،

---

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ١/ ١٢٧ ، وانظر: تاريخ الطبري ١/ ٤٨٤ .

(٢) O. Eissfeld, op-cit, P. 585-586 A. Alt, Die staatenluildung der Israeliten in Palastina, munchen, 1953, P. 56 Fl.

(٣) Eissfldt, op - cit, p. 586.

(٤) W. Albright, Archaeology and Religion of Israel, p. 158.

ذلك لأن حركة السخط التي قام بها «شبع بن بكري» من سبط بنيامين[1] (سبط طالوت) ضد داود، بعد انتصاره على ولده أبشالوم، إنما قد استمدت قوتها من المعارضة الدائمة بين قبائل الشمال والجنوب، ورغم أن داود عليه السلام قد كتب له نجْحا بعيد المدى في القضاء على كليهما، وأن القضاء على ثورة شبع كان أسرع من القضاء على ثورة أبشالوم، فالذي لا شك فيه أن الأمور في إسرائيل ربما كانت سوف تتغير كثيراً بسبب هاتين الثورتين، لولا وجود شخصية داود القوية[2]، ذلك لأن التنافس بين قبائل الشمال والجنوب كان أقوى عوامل هدم مملكة إسرائيل، وهو تنافس لم يقض عليه أبداً، بل هو نفسه الذي قضى على الدولة[3].

وأياً ما كان الأمر، فإن ثورة أبشالوم إنما كانت جد خطيرة، حتى إن داود عليه السلام لم يجد بجواره غير حرسه الخاص وحتى اضطر إلى أن يعبر الأردن إلى «محانيم» تحت حماية التابوت مع رجاله، حتى لا يفاجأ بأبشالوم وأتباعه في العاصمة أورشليم[4]، بل إن بعض المصادر العربية جعلته يلحق بأطراف الشام، بل إن الخيال ذهب بهم إلى أن يصلوا به إلى خيبر وما إليها من بلاد الحجاز[5]، بينما ذهب آخرون إلى أن داود هرب ماشياً على رجليه حتى صعد عقبة طور سيناء، وبلغ منه الجوع حتى لحقه رجل معه خبز وزيت فأكل منه، ودخل أبشالوم مدينة أبيه، وصار إلى داره وأخذ سراري أبيه فوطئهن وقال: ملكني الله على بني إسرائيل، وخرج معه اثنا عشر ألفاً فطلب داود ليقتله، فهرب داود حتى جاز نهر الأردن[6]، وهكذا يبدو واضحاً مدى

(١) صموئيل ثان ٢٠/ ١ - ٢٢.

(٢) O. Eissfeldt, op - cit, p. 586.

(٣) سبتينو موسكاتي: المرجع السابق ص ١٤١.

(٤) صموئيل ١٥/ ١٤ - ١٦/ ١٤.

(٥) تاريخ ابن خلدون ٢/ ١١١ (بيروت ١٩٨١).

(٦) تاريخ اليعقوبي ١/ ٥٣ (بيروت ١٩٨٠).

اضطراب الروايات في تحديد المكان الذي لجأ إليه داود عليه السلام، فهو في رواية لجأ إلى محانيم في عبر الأردن، وهو في رواية ثانية إنما يلجأ إلى خيبر في شمال غرب الجزيرة العربية، وفي رواية ثالثة صعد إلى عقبة طور سيناء، بل إن نفس الرواية سرعان ما تعكس الاتجاه وتذهب به إلى الشرق، فتعبر به الأردن، وبدهي أن اضطراب هذه الروايات إنما يقلل من قيمتها التاريخية، ويجعلها في مظان الشك وهواتف الريبة، فضلاً عن الشك في القصة من أساس، وهذا ما نميل إليه ونرجحه.

وعلى أية حال، فإن أبشالوم، طبقاً لرواية التوراة، قد استطاع أن يستولى على أورشليم، وأن يغتصب عرش أبيه بل إنه حتى لم يتورع عن أن ينتهك عرض أبيه بمشورة أخيتوفل على مرأى من الناس «فنصبوا لأبشالوم الخيمة على السطح، ودخل أبشالوم إلى سراري أبيه أمام جميع إسرائيل»[1]، غير أن بني إسرائيل بدأوا بعد ذلك يعودون إلى داود والانضمام إلى جيشه تدريجياً، ربما نتيجة لما بذله بعض المخلصين له من جبرون، وربما نيجة لغرور أبشالوم وأخطائه الكثيرة، وإصغائه للحمقى من المقربين إليه، وما ترك ذلك سن آثار سيئة في نفوس الناس.

وأياً ما كان السبب، فإن أبشالوم قد حاول بكل ما وسعته المحاولة من أن يمنع عودة أبيه إلى أورشليم، ومن ثم فقد جمع أنصاره قبل تفاقم الأمر، وزحف بهم إلى شرق الأردن، حيث كان أبوه في جلعاد، وقد اجتمع إليه عدد كبير من الأنصار، وهكذا بدأ القتال في «وعر أفرايم» قرب محانيم على الأرجح، وأثبت رجال داود أنهم أعلى كعباً من رجال القبائل الإسرائيلية الذين التفوا حول أبشالوم، ودارت الدائرة على أبشالوم الذي أمر الملك بعدم قتله، «وكانت هناك مقتلة عظيمة في ذلك اليوم، قتل عشرون ألفاً،

(١) صموئيل ثان ١٦/ ٢٢ وانظر: تاريخ اليعقوبي ١/ ٥٣.

وكان القتال هناك منتشراً على وجه كل الأرض، وزاد الذين أكلهم الوعر من الشعب على الذين أكلهم السيف في ذلك اليوم»، وقتل أبشالوم أثناء هروبه، على الرغم من أوامر الملك الصريحة على ملأ من الشعب بعدم قتله، وكما يقول الطبري: وجه داود في طلبه قائداً من قواده (يؤاب) وتقدم إليه أن يتوقي حتفه، ويتطلف لأسره، فطلبه القائد وهو منهزم، فاضطره إلى شجرة فركض فيها، وكان ذا جمّة، فتعلق بعض أغصان الشجرة بشعره فحبسه، ولحقه القائد فقتله مخالفاً لأمر داود، فحزن عليه داود حزناً شديداً، وتنكر للقائد، وربما طبقاً لرواية التوراة أن رجلاً رأى أبشالوم معلقاً من رأسه في شجرة كبيرة ملتفة الأغصان فأخبر القائد يؤاب الذي أمره بقتل أبشالوم على أن يعطيه عشرة من الفضة ومنطقة، لكن الرجل رفض أن يقتل ابن الملك، بعد أن سمع الملك يوصي بعدم قتله، ولو أعطاه ألفاً من الفضة، ومن ثم فقد تقدم يؤاب «وأخذ ثلاثة سهام بيده ونشبها في قلب أبشالوم، وهو بعد حي في قلب البطمة، وأحاط بها عشرة غلمان حاملوا سلاح يؤاب وضربوا أبشالوم وأماتوه»، وقد أدى ذلك كله إلى حزن داود المرير على ولده، حتى «صعد إلى علية الباب وكان يبكي ويقول، وهو يتمشى، يا ابني يا أبشالوم يا ابني يا ابني أبشالوم، يا ليتني مت عوضاً عنك يا أبشالوم ابني يا ابني»، وهكذا لم يعد أمام القبائل الإسرائيلية سوى المناداة بداود ملكاً عليها مرة ثانية[1].

٩ ـ التعداد العام ونتائجه:

تروي التوراة أن رب إسرائيل غضب على شعبه إسرائيل «فأهاج عليهم داود قائلاً: امض واحص إسرائيل ويهوذا، فقال الملك ليؤاب رئيس الجيش الذي عنده: طف في جميع أسباط إسرائيل من دان إلى بئر سبع

(١) صموئيل ثان ١٨/ ١ ـ ١٩/ ٤١، تاريخ الطبري ١/ ٤٨٤، تاريخ ابن خلدون ١/ ١١١، تاريخ اليعقوبي ١/ ٥٣، الكامل لابن الأثير ١/ ١٢٧.

وعدوا الشعب فاعلم عدد الشعب» ، ويقوم يوآب بالمهمة التي تستغرق ستة أشهر وعشرين يوماً. «وكان إسرائيل ثمان مئة ألف بأس مستل السيف ، ورجال يهوذا خمس مئة ألف رجل» ، غير أن رب إسرائيل سرعان ما يرسل جاد النبي ليخيِّر داود بين «سبع سني جوع في أرضك ، أم تهرب ثلاثة أشهر بين أعدائك ، أم يكون ثلاثة أيام وباء في أرضك» ، ويترك داود الخيرة لربه «الذي يجعل وباء في إسرائيل من الصباح إلى الميعاد فمات من الشعب من دان إلى بئر سبع ، سبعون ألف رجل ، وبسط الملاك يده على أورشليم ليهلكها ، فندم الرب[1] عن الشر ، وقال للملاك المهلك للشعب كفى ، الآن رويدك»[2] .

ومن عجب أن التوراة لم تقدم لنا هنا سبباً مقنعاً لغضب يهوه على شعبه ، وإن أشارت أن ذلك إنما كان بسبب خطايا داود ، ومن ثم فهو يقول ، ملتمساً عفو ربه ورحمته بشعبه «ها أنا أخطأت ، وأنا أذنبت ، وأما هؤلاء الخراف فماذا فعلوا؟ فلتكن يدك علي وعلى بيت أبي» ، ثم تعود مرة أخرى فتروي نفس الرواية ، ولكنها تقدم أرقاماً للإحصاء تختلف عن المرة الأولى «فإسرائيل كان ألف ألف ومئة ألف رجل مستلى السيف ، ويهوذ أربع مئة وسبعين ألف رجل مستلى السيف» ، هذا بخلاف سبطي لاوي وبنيامين[3] ، والتعارض هنا بين نصوص التوراة ليس أمراً جديداً علينا فنظائره كثيرة .

(١) من المؤلم أن توراة اليهود ، وليست توراة موسى ، كثيراً ما تصور يهوه (الله) ليس معصوماً ، وأنه كثيراً ما يقع في الخطأ ثم يندم على خطئه ، حدث ذلك عندما فكر في إهلاك اليهود عن بكرة أبيهم ، مما اضطر موسى إلى أن ينصحه فينتصح ، ثم هناك ندمه على اختيار شاؤل (طالوت) ملكاً ، غير أن أشنع أخطائه خلقه الإنسان ، ثم ندم على ذلك (انظر : تكوين ٦/ ٦ ، خروج ١٢/ ١٤ ، ٣٢/ ١٠ ، صموئيل أول ١٥/ ١١ ، إرميا ١٨/ ٧ - ١٠ ، عاموس ٧/ ١ - ٦ ، يونان ٣/ ٩ - ١٠ ، محمد بيومي مهران : إسرائيل ٤/ ١٢ - ١٤) .

(٢) صموئيل ثان ٢٤/ ١ - ١٧ .

(٣) أخبار أيام أول ٢١/ ٥ - ٦ ، محمد بيومي مهران : إسرائيل ٢/ ٧٣٨ - ٧٤٠ .

وعلى أي حال، فإن التوراة تجعل التعداد الذي قام به داود، بأمر من رب إسرائيل، سبباً من البلايا التي أنزلها رب إسرائيل بإسرائيل، وإن كنا لا ندري لم يغضب رب إسرائيل من قيام ملك إسرائيل بهذا التعداد، الذي تقوم به شعوب كثيرة[1]، حتى يفرض عليه واحدة من بلايا ثلاثة: أقلها وباء يروح ضحيته سبعون ألف رجل، غير أن الإمام الطبري يروي عن «وهب بن منبه» أن سبب غضب الرب أن داود فعل ذلك دون أمر من ربه، فعتب الله عليه ذلك وقال: قد علمت أني وعدت إبراهيم أن أبارك فيه وفي ذريته حتى أجعلهم كعدد نجوم السماء، وأجعلهم لا يحصى عددهم، فأردت أن تعلم عدد ما قلت، إنه لا يحصى عددهم، فاختاروا بين أن أبتليكم بالجوع ثلاث سنين أو أسلط عليكم العد ثلاثة أشهر أو الموت ثلاثة أيام، فاستشار داود في ذلك بني إسرائيل فقالوا: ما لنا بالجوع ثلاث سنين صبراً، ولا بالعدو ثلاثة أشهر، فليس لهم بقية، فإذا كان لا بد فالموت بيده لا بيد غيره، فذكر وهب أنه مات منهم في ساعة من نهار ألوف كثيرة، لا يدري ما عددهم، فلما رأى داود ذلك شق عليه ما بلغه من كثرة الموت، فتبتل إلى الله ودعاه فقال: يا رب أنا آكل الحُماض (أي ما في جوف الأترجة) وبنو إسرائيل يضرسون، أنا طلبت ذلك فأمرت به بني إسرائيل، فما كان من شيء فبى، واعف عن بني إسرائيل، فاستجاب الله لهم ورفع عنهم الموت»[2].

والغريب في هذه الرواية أنها تناقض رواية التوراة في أمور، منها أن التعداد هنا كان بأمر داود، مع أن رواية التوراة صريحة في أن الذي أمر

(1) لعل أول شعوب العالم التي قامت بعمل تعداد عام إنما هم المصريون، وقد قام به الملك «دن» (وديمو» رابع ملوك الأسرة الأولى الفرعونية، وذلك قبل عام ٣٠٠٠ ق. م، ولأول مرة في التاريخ، وبالمناسبة فإن آخر تعداد تم في مصر كان في نوفمبر عام ١٩٨٦، وبلغ سكان مصر أكثر من ٥٠ مليون.

(2) تاريخ الطبري ١/ ٤٨٥، وانظر تاريخ اليعقوبي ١/ ٥٥-٥٦، تاريخ ابن خلدون ١/ ١١١.

بالتعداد إنما هو رب داود، وليس داود، ومنها أن بني إسرائيل هنا هم الذين اختاروا الموت عقاباً لهم، وفي رواية التوراة أن داود ترك الخيّرة لأمر ربه، فاختار لهم الموت، ومنها أن عدد القتلى هنا غير معروف وإن كان ألوفاً كثيرة، مع أنه في رواية التوراة قد حدد بسبعين ألفاً، ومنها أن داود اعتذر هنا بأنه يأكل الحماض وبنو إسرائيل يضرسون، وفي رواية التوراة اعتراف صريح «ها أنا أخطأت وأنا أذنبت، وأما هؤلاء الخراف فماذا فعلوا» والأعجب أننا ما ندري لوهب بن منبه مصدراً في روايته هذه غير التوراة، ولم يقل لنا الإمام الطبري، أو وهب بن منبه، عن مصدر آخر غير التوراة اعتمد عليه في روايته هذه، فما بالك والتوراة نفسها موضع شك كبير.

١٠ ـ وفاة داود عليه السلام:

وتنتهي أيام داود، النبي الأواب، في هذه الدنيا، وينتقل عليه السلام إلى جوار ربه، راضياً مرضياً عنه من ربه الكريم، «واضطجع داود مع آبائه ودفن في مدينة داود»، وفي الواقع فإن دفن النبي الأواب في مدينة أورشليم[1] (مدينة داود) لأمر غريب، ذلك لأن هناك عبارة طالما تكررت في التوراة، وهي أن فلاناً قد انضم إلى قومه» أو «انضم إلى آبائه»[2]، وربما لا تعدو أن تكون إشارة إلى عقيدة القوم في أن الموتى من أسرة ما، يجب أن يدفنوا في مكان واحد، ليبقوا كما كانوا على قيد الحياة[3]، ومن هنا فقد كان من المنتظر أن يدفن داود في مقابر أسرته في «بيت لحم»، وهو الحريص على التقاليد، والتي يستطيع قارىء التوراة أن يقدم الكثير من الأدلة عليها، بل إن داود لينقل عظام شاؤل، وكذا ولديه، من يابيش

(١) يذهب ابن خلدون في تاريخه (١/ ١١٢) إلى أن داود دفن في بيت لحم.

(٢) تكوين ٢٥/ ٨، قضاة ٢/ ١.

(٣) S. Yeipin, J NES, 7, 1948, P. 30.

جلعاد، ليدفنوا» في أرض بنيامين في صيلع في قبر قيس أبيه»[1]، ومع في ذلك فإن داود نفسه الذي كان مخلصاً للعادات والتقاليد إلى هذا الحد، لم يدفن في مقبرة أسلافه في بيت لحم، وإنما في مقبرة جديدة في القدس (مدينة داود)، وقد يقال إن ذلك تم بدون رغبة منه أو أنه لم يترك تعليمات فيما يختص بمكان دفنه، ولكن هناك عبارات في التوراة يفهم منها أن الرجل المحتضر كان يوصي أقرباءه بدفنه في مقبرة الأسرة[2]، وأن داود الذي أعطى تعليماته النهائية لولده وخليفته سليمان فيما يختص بأعدائه لم ينس بطبيعة الحال التعليمات الخاصة بمكان دفنه[3].

ويذهب بعض الباحثين إلى أن السبب في دفن داود في القدس، وليس في بيت لحم. والأمر كذلك بالنسبة إلى خلفائه المباشرين الاثني عشر، هو تقليد الملك داود لجيرانه من الملوك، ذلك أنه منذ القرن الثالث عشر، وحتى القرن السادس أو السابع قبل الميلاد على الأقل كان العرف السائد في كل حوض شرق البحر المتوسط هو أن يدفن الملوك في قصورهم، أو على مقربة منها، وليس داخل أسوار مدنهم فحسب[4]، وإني لأظن، وليس كل الظن إثماً، أن المؤرخين قد أخطأوا كثيراً في تفسير الأحداث الخاصة بداود عليه السلام، فهم يتعاملون معه على أنه ملك إسرائيل فحسب، ونسوا، أو تناسوا، أنه قبل ذلك وبعده نبيّ الله ورسوله، وطبقاً لهذه الحقيقة التي يتغافل عنها البعض، يمكننا تفسير مكان دفن داود عليه السلام في القدس، وليس في بيت لحم، اعتماداً على ما روي عن سيدنا ومولانا محمد رسول الله ﷺ من أن الأنبياء يدفنون حيث يموتون، فلقد حدث أبو بكر الصديق أنه

---

(١) قضاة ٨/ ٣٢، صموئيل ثان ١٩/ ٣٧ - ٣٨، ٢١/ ١١ - ١٤.

(٢) تكوين ٤٩/ ٢٩ - ٣٣.

(٧) S. Yeivin, The Sepulchers of the Kings of the House of David, JNES, 7, 1948, P. 31.

(٣) S. Yeivin, p - cit, p. 36 - 38.

سمع رسول الله ﷺ يقول: «ما قبض نبي إلا دفن حيث قبض»، وفي رواية «ما مات نبيّ إلا دفن حيث قبض».

هذا وكان عمر داود عليه السلام، فيما وردت به الأخبار عن رسول الله ﷺ مائة سنة[1]، فقد جاء من الأحاديث الواردة في خلق آدم أن الله لما استخرج ذريته من ظهره، فرأى فيهم الأنبياء عليهم السلام، ورأى فيهم رجلاً يزهر فقال أي رب من هذا، قال ابنك داود، قال أي رب كم عمره، قال ستون عاماً، قال رب زد في عمره، قال لا إلا أن أزيده من عمرك، وكان عمر آدم ألف عام، فزاده أربعين عاماً، فلما انقضى عمر آدم جاءه ملك الموت، فقال بقي من عمري أربعون سنة، ونسي آدم ما كان وهبه لولده داود، فأتمها الله لآدم ألف سنة، ولداود مائة سنة» (رواه الإمام أحمد عن ابن عباس، والترمذي عن أبي هريرة وصححه، وابن خزيمة وابن حبان، ورواه الحاكم في المستدرك وقال صحيح على شرط مسلم)[2]، وقال الطبري: وأما بعض أهل الكتاب فإنه زعم أن عمره كان سبعاً وسبعين سنة[3]؛ وأما رواية التوراة فتجعل عمره سبعين عاماً «كان داود ابن ثلاثين سنة حين ملك، وملك أربعين سنة»[4] وبدهي أن رواية التوراة، وكذا رواية بعض أهل الكتاب كما نقلها الطبري وغيره، غير صحيحة، أو كما يقول ابن كثير فهذا غلط مردود عليهم، وأما مدة ملكه، وهي أربعون سنة[5]، فقد يقبل منهم، لأنه ليس عندنا ما ينافيه ولا ما يقتضيه[6].

(١) تاريخ الطبري ١/ ٤٨٥.
(٢) ابن كثير. البداية والنهاية ١/ ٨٧ - ٨٨، ٢/ ١٦.
(٣) تاريخ الطبري ١/ ٤٨٥، وانظر: تاريخ اليعقوبي حيث يذهب إلى أن داود عليه السلام مات وله مائة وعشرون سنة، وكان ملكه أربعين سنة (تاريخ اليعقوبي ١/ ٥٦).
(٤) صموئيل ثان ٥/ ٤.
(٥) صموئيل ثان ٥/ ٤ - ٦، أخبار أيام أول ٢٩/ ٢٦ - ٢٧.
(٦) ابن كثير: البداية والنهاية ٢/ ١٦، الكامل لابن الأثير ١/ ١٢٨، تاريخ المسعودي ١/ ٧٠، تاريخ الطبري ١/ ٤٨٥.

الفصل الرابع

داود بين آي الذكر الحكيم وروايات التوراة

داود عليه السلام، نبي الله ورسوله إلى بني إسرائيل، وأحد الدوحة الطاهرة من ذرية أبي الأنبياء إبراهيم الخليل عليه السلام، التي جعل الله فيها النبوة والكتاب، قال تعالى: **﴿ومن ذريته داود وسليمان﴾**[1]، وقال تعالى: **﴿ولقد أرسلنا نوحاً وإبراهيم وجعلنا في ذريتهما النبوة والكتاب﴾**[2]، فكل كتاب أنزل من السماء على نبي من الأنبياء: بعد إبراهيم، فمن ذريته وشيعته[3]، وكان من هذه الكتب «الزبور» الذي أنزل على داود عليه السلام، وكما أن داود: من ذرية إبراهيم، فهو كذلك واحد من فروع تلك الشجرة المباركة التي ينتسب إليها المسيح عليه السلام[4]، فضلاً عن أن داود هو والد سليمان، نبي الله ورسوله، صلوات الله وسلامة عليهم أجمعين.

ومن أجل هذا وغيره، فإن القرآن الكريم إنما يصف سيدنا داود عليه السلام بقوله تعالى: **﴿ووهبنا لداود سليمان نعم العبد أنه أواب﴾**[5]،

(١) سورة الأنعام: آية ٨٤.

(٢) سورة الحديد: آية ٢٦.

(٣) ابن كثير: البداية والنهاية في التاريخ ١/ ١٦٧ (بيروت ١٩٦٥).

(٤) متى ١/ ١ - ١٦، لوقا ٣/ ٢٣ - ٢٨.

(٥) سورة ص: آية ٣٠، وانظر: تفسير ابن كثير ٤/ ٥١ (بيروت ١٩٨٦)، تفسير النسفي ٤/ ٤٠، تفسير القرطبي ص ٥٦٣٦ - ٥٦٣٧.

﴿وأتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء﴾[1]، ﴿وآتينا داود زبورا﴾[2]، ﴿ولقد آتينا داود وسليمان علماً، وقالا الحمد لله الذي فضلنا على كثير من عباده المؤمنين﴾[3]، ﴿ولقد آتينا داود منا فضلاً يا جبال أوبي معه والطير وألنا له الحديد، أن أعمل سابغات وقدر في السرد واعملوا صالحاً إني بما تعملون بصير﴾[4]، و ﴿ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض وآتينا داود زبوراً﴾[5] ، ثم يأمر الله تعالى نبيّه وحبيبه مولانا وسيدنا محمد رسول الله ﷺ أن **﴿اصبر على ما يقولون، واذكر عبدنا داود ذا الأيد إنه أواب، إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشي والإشراق، والطير محشورة كل له أواب، وشددنا ملكه وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب﴾[6]** .

هذا هو رأي الإسلام في داود عليه السلام، كما جاء في القرآن الكريم، وليس هناك من ريب في أنه ليس لمسلم بعد رأي الإسلام رأي .

---

(١) سورة البقرة: آية ٢٥١، وانظر: تفسير النسفي ١/ ١٢٦، تفسير الطبري ٥/ ٣٧١ - ٣٧٢، تفسير الكشاف ١/ ٢٩٦، تفسير المنار ٢/ ٣٩٢-٣٩٣، تفسير روح المعاني ٢/ ١٧٣ - ١٧٤، الدر المنثور في التفسير بالمأثور للسيوطي ١/ ٣١٩، تفسير الطبرسي ٢/ ٢٩١ - ٢٩٢، الجواهر في تفسير القرآن الكريم ١/ ٢٣٠، تفسير القرطبي ص ١٠٦٤ - ١٠٦٦، تفسير ابن كثير ١/ ٤٥٣.

(٢) سورة النساء: آية ١٦٣، وانظر، تفسير الألوسي ٤/ ١٦ - ١٧، في ظلال القرآن ٦/ ٢٤، تفسير الطبرسي ٦/ ٣٩٩ - ٤٠٢، تفسير النسفي ١/ ٢٦٣، تفسير القرطبي ص ٢٠١٣، تفسير ابن كثير ٢/ ٤٢١ - ٤٢٢، (القاهرة ١٩٧٠) تفسير المنارة ٥/ ٥٧.

(٨) سورة النمل: آية ١٥، وانظر: تفسير النسفي ٣/ ٢٠٤، تفسير ابن كثير، ٣/ ٥٧٢ - ٥٧٣ (بيروت ١٩٨٦)، الدر المنثور ٥/ ١٠٣، تفسير الطبري ١٩/ ٨٧، صفوة التفاسير ٢/ ٤٠٤.

(٤) سورة سبأ: آية ١٠ - ١١، وانظر تفسير القرطبي ص ٥٣٤٦ - ٥٣٥٠، تفسير النسفي ٣/ ٣١٩ - ٣٢٠، تفسير ابن كثير ٣/ ٨٣٨ - ٨٣٩، تفسير الفخر الرازي ٢٥/ ٢٤٥، زاد المسير لابن الجوزي ٦/ ٤٣٦، حاشية الصاوي على تفسير الجلالين ٣/ ٢٩٤.

(٥) سورة الإسراء: آية ٥٥، تفسير النسفي ٢/ ٣١٧، تفسير ابن كثير ٣/ ٧٦ - ٧٧.

(٦) ص: آية ١٧ - ٢٠، وانظر تفسير النسفي ٤/ ٣٦ - ٣٧، تفسير ابن كثير ٤/ ٤٥ - ٤٧، تفسير القرطبي ص ٥٦٠٢ - ٥٦٠٨.

ولكن: ما هو رأي التوراة في داود عليه السلام؟

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة، بادىء ذي بدء، إلى أن التوراة تنظر إلى داود، على أنه ملك اليهود القدير، قبل أن يكون نبي الله ورسوله الكريم، ومن ثم فإنها لم ترتفع إلى مستوى داود النبي، الأمر الذي صوّره القرآن في جلاء ووضوح، وإن حاولت في بعض الأحايين أن تتخلص من السقوط المريع الذي وصلت إليه بشأن النبي الأواب، فوصفته بما يتفق إلى حد ما ومكان النبوة السامي، كما نرى في بعض آيات من أسفار صموئيل الثاني (٨/ ١٥، ٢٢/ ٢١ - ٢٥) والملوك الأول (٣/ ٣ - ١٦، ١٤، ١١/ ٣٨، ١٥/ ٣) والملوك الثاني (١٨/ ٣) وأخبار الأيام الأول (٢٨/ ٤ - ٥) وإشعياء (٣/ ٥، ٥٥/ ٣ - ٦) وهوشع (٣/ ٥) وغيرها.

وعلى أية حال، فليست هناك صورة تجمع بين النقيضين اللذين لا التقاء بينهما، كالصورة التي تقدمها التوراة عن داود عليه السلام، ملك اليهود القدير، فهو الشجاع قاتل جالوت (جليات) الجبار بمقلاعه دون سيف في يده[١]، وبدا يصبح مطارداً من الفلسطينيين يوماً ما، ولكنه سرعان ما يشترك معهم في حروبهم ضد عدوهم يوماً آخر، بل ويضع سيفه تحت تصرفهم ضد مواطنيه اليهود[٢]، وهو يعمل حامل سيف طالوت (شاؤل) الإسرائيلي يوماً ما، ثم حارساً للملك الفلسطيني «أخيش» يوماً آخر[٣]، وهو قد بدأ حكمه تحت سيادة الفلسطينيين، ثم أنهاه وقد قضى على نفوذهم في المناطق الإسرائيلية تماماً، وهو عدو شاؤل (طالوت) اللدود، ثم هو في نفس الوقت زوج ابنته، وحبيب ولده «يوناثان»، وكثير من فتيان وفتيات

(١) صموئيل أول ١٧/ ٥٠.

(٢) صموئيل أول ٢٩/ ٢ - ١٢.

(٣) صموئيل أول ٢٨/ ١ - ٢.

إسرائيل[1]، وهو يعمل مغنياً في بلاط شاؤل لأنه يجيد العزف على القيثار، ويغني أغانيه العجيبة بصوته الرخيم، ولكنه في نفس الوقت الفارس المغوار، حامل سلاح الملك وقاتل أعدائه[2].

وهو قاس غليظ القلب، كما كان الناس في وقته، وكما كانت قبيلته، وهي صورة مستحبة في أذهان اليهود، خلعوها على إلههم «يهوه» من بين ما خلعوا عليه من صفات، ولكنه في نفس الوقت كان مستعداً لأن يعفو عن أعدائه، كما كان يعفو عنهم قيصر والمسيح، وكان يقتل الأسرى جملة، كأنه ملك من ملوك الآشوريين، بل إنه حتى ليبالغ في القسوة حين يأمر بحرق المغلوبين، وسلخ جلودهم، ووشرهم بالمنشار[3]، وعندما يطلب منه شاؤل مائة غلفة من الفلسطينيين مهراً لابنته ميكال، إذ به يقتل مائتي رجل من الفلسطينيين ويقدم غلفهم مهراً لابنة شاؤل هذه[4]، وحين يوصي ولده سليمان، وهو على فراش الموت، بأن يجدر بالدم إلى الهاوية شيبة شمعي بن جبرا، الذي لعنه منذ سنين طويلة[5].

وهو يأخذ النساء من أزواجهن غصباً، مستغلاً في ذلك جاهه وسلطانه، فهو يشترط لمقابلة «أبنير»، قائد جيوش شاؤل، أن يأتي بابنة شاؤل ميكال، والتي كان قد خطبها من أبيها، ودفع مهرها رؤوس مائتين من الفلسطينيين من زوجها «فلطيئيل بن لايش» الذي أدمى قلبه فراقها، ثم سار وراءها، وهو يبكي، حتى «بحوريم»، ولم يرجع من ورائها إلا بتهديد من

(١) صموئيل أول ١٨/ ١ - ٧.
(٢) صموئيل أول ١٦/ ٢١ - ٢٣.
(٣) صموئيل ثان ١٢/ ٢٩ - ٣١.
(٤) صموئيل أول ١٨/ ٢٥ - ٢٨.
(٥) ملوك ثان ٢/ ٩.

«أبنير وخوف منه[1]، ثم هو يأخذ «بتشبع» امرأة قائده» أوريا الحثي» من زوجها، ويأتي بها إلى نسائه، فيضطجع معها، وهي مطهرة من طمثها، وحين تحس المرأة أن ثمرة اللقاء بدأت تتحرك في بطنها، يرسل إلى زوجها فيستدعيه من ميدان القتال، حتى إذا ما ظهر الحمل ظن الناس أنه من زوجها، ولما رفض الرجل أن يدخل إلى فراش زوجه الدافىء، بينما أخوة له يقتلون ويُقتلون في ساحة الوغى، وأصر على أن ينام على عتبة بيت الملك مع النائمين، وألا يضاجع امرأته أبداً، حتى يقضي الله أمراً كان مفعولاً، فإذا بدا ود يرسل به إلى الصف الأول، مع أمر واضح صريح، أن «اجعلوا أوريا في وجه الحرب الشديدة، وارجعوا من ورائه فيضرب ويموت»، وحين يتم له ذلك يضم المرأة إلى حريمه، ثم هو يقبل بعد ذلك زجر «ناثان» على فعلته، ولكنه مع ذلك يحتفظ بالمرأة في حريمه[2].

وهو يعفو عن «طالوت» (شاؤل) عدة مرات، ولا يسلبه إلا درعه، في نفس الوقت الذي كان في مقدوره أن يسلبه حياته، وهو يعفو عن «مفيبوشت»، حفيد طالوت، وقد يكون من المطالبين بالعرش، عرش عمه وجده من قبل، بل ويعينه على أمره[3]، وهو يعفو عن ولده «أبشالوم»، أن قبض عليه بعد قتله أخيه أمنون، ثم بعد قيامه بثورة مسلحة، وبعد أن دنس عرضه على ملأ من القوم، وبعد أن طارده حتى شرق الأردن، لولا أن يوآب قتله، رغم أوامر داود الصريحة بعدم قتله[4]، بل إنه ليعفو عن «شاؤل» الذي

---

(1) صموئيل ثان ٣/ ١٢ - ١٦، ثم قارن: صموئيل أول ١٩/ ١١ - ١٧، حيث يروي كيف أن ميكال هي التي أنقذت زوجها داود من مؤامرات أبيها شاؤل، وأنها أخرجته من كوة في الدار، ليفر بنفسه من أبيها ورجاله، وقد وضعت في مكانه في الفراش الترافيم، كما أشرنا من قبل، وبدهي أن هذا نوع من تناقضات التوراة وتعارض نصوصها لبعضها البعض.

(2) صموئيل ثان ١١/ ٢ - ٢٩، ١٢/ ١ - ١٢.

(3) صموئيل ثان ٤/ ٤ - ٥.

(4) صموئيل ثان ١٦/ ٣٢، ١٨/ ٣٣.

كان يسعى لقتله، بعد أن تمكن منه مرات، وفي أمان مطلق، ومناعة تامة[1]، ومن ثم يذهب «ول ديورانت» طبقاً لأوصاف التوراة هذه لداود، إلى أن ذلك وصف رجل حقيقي، لا رجل خيالي، اكتملت فيه عناصر الرجولة المختلفة، ينطوي على جميع بقايا الهمجية، وعلى كل مقومات الحضارة[2].

وبدهي أن هذا ليس رأينا، ولم ولن يكون، فحاشا النبي الأواب أن يكون هكذا، ولكنه رأى توراة اليهود المتداولة اليوم، ذلك لأن داود عليه السلام، فيما نعتقد ونؤمن به الإيمان كل الإيمان، هو نبيّ الله ورسوله الكريم، قبل أن يكون ملك اليهود القدير، ومن ثم فنحن لا نرضى للنبيّ الكريم، إلا ما ارتضاه له رب العزة والجلال في كتابه الكريم، وقد أشرنا إليه من قبل، ولكننا نقدم هذه الصورة ليعرف القارىء الكريم، رأى التوراة، كتاب اليهود المقدس، حتى في أنبياء بني إسرائيل وملوكهم، ولأننا ندرس حياة داود الملك النبي ذلك لأننا نقدم هنا دراسة تاريخية دينية، وليس من شك في أن الجانب التاريخي، وليس الديني، إنما يعتمد على التوراة، كواحد من مصادر تاريخ الملك داود، وليس النبي داود، ومع ذلك، فإننا إن اتفقنا معها في بعض الأمور، فإننا نختلف معها في الكثير من هذه الأمور، وبخاصة فيما يتعلق بالأنبياء وعصمتهم، تلك الصفوة المختارة من عباد الله الذين بعثوا بأمر من ربهم هداة راشدين، واختارهم الله سبحانه وتعالى، مبشرين ومنذرين، واصطفاهم من خلقه، وصدق الله حيث يقول: **﴿الله أعلم حيث يجعل رسالته﴾**[3]، هذا فضلاً عن اختلافنا مع توراة يهود فيما

---

(١) صموئيل أول ٢٤/ ٢ - ٢٢.

(٢) ول ديورانت: قصة الحضارة ٢/ ٣٣١ - ٣٣٢ (القاهرة ١٩٦١)، نجيب ميخائيل: المرجع السابق ص ٣٦٢ - ٣٧٣، محمد بيومي مهران: إسرائيل ٢/ ٦٩٣ - ٦٩٧.

(٣) سورة الأنعام: آية ١٢٤.

يتصل بالحقائق التاريخية، ذلك لأن من كتبوا التوراة[1]، كانوا بشراً مثلنا، وهم كمؤرخين، لا يختلفون عن نظائرهم من معاصريهم في الشرق القديم، وبدهي أنه ليس هناك تاريخ لا يحتمل المناقشة، بل لا يحتمل أن نخطئه.

(١) انظر عن كتابة التوراة (محمد بيومي مهران: إسرائيل ٣/ ١٨ - ١٠٦).

البَابُ الثاني

سِيرَة سُلَيمان عَلَيْهِ السَّلام

الفصل الأول

سليمان ـ الرسول النبي

١ ـ وراثة سليمان داود :

جاء ذكر سيدنا سليمان عليه السلام في كثير من آي الذكر الحكيم[١] ، وهو أحد أنبياء بني إسرائيل ، شأنه في ذلك شأن أبيه داود عليه السلام ، فلقد كان سليمان ، كما كان أبوه داود ، عليهما السلام ، نبيّاً ملكاً ، فقد جمع الله لكل منهما النبوة والملك ، وأعطاه خيّري الدنيا والآخرة ، فكان نبيّاً ملكاً ، قال تعالى : ﴿ **وورث سليمان داود** ﴾[٢] ، قال ابن كثير : أي في الملك والنبوة ، وليس المراد وراثة المال ، إذ لو كان كذلك لم يخص سليمان وحده من بين سائر أولاد داود ، فإنه قد كان لداود مائة امرأة ، ولكن المراد بذلك وراثة الملك والنبوة ، فإن الأنبياء لا تورث أموالهم ، كما أخبر بذلك سيدنا رسول الله ﷺ في قوله الشريف : «نحن معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه فهو صدقة»[٣] ، وقال النسفي : ورث النبوة والملك دون سائر بنيه ، وكانوا تسعة عشر ، قالوا أوتى النبوة مثل أبيه فكأنه ورثه ، وإلا فالنبوة لا تورث[٤] ، وقد

(١) انظر : سورة البقرة (١٠٢) والنساء (١٦٣) والأنعام (٨٤) والأنبياء (٧٨ ـ ٨٢) والنمل (١٥ ـ ٤٤) وسبأ (١٢ ـ ١٤) وص (٣٠ ـ ٤٠) .

(٢) سورة النمل : آية ١٦ .

(٣) تفسير ابن كثير ٣/ ٥٧٣ (ط بيروت ١٩٨٦) ، صحيح البخاري ٨/ ١٨٥ ، صحيح مسلم ٥/ ١٥٣ ، مسند الإمام أحمد ١/ ٤ .

(٤) تفسير النسفي ٣/ ٢٠٤ .

أشرنا من قبل أن النبوة لا تكون بالإرث ، فولد النبي لا يكون نبيّاً بطريق الإرث عن أبيه ، بل هي بمحض الفضل الإلهي والاصطفاء الرباني[1] ، ويقول صاحب الظلال : أن داود أوتي الملك مع النبوة والعلم ، ولكن الملك لا يذكر في صدد الحديث عن نعمة الله عليه وعلى سليمان ، إنما يذكر العلم ، لأن الملك أصغر من أن يذكر في هذا المجال ، ومن ثم فالمفهوم في الوراثة أنها وراثة العلم ، لأنه هو القيمة العليا التي تستأهل الذكر[2] ، ويقول الطبري أن سليمان ورث أباه داود في العلم الذي كان آتاه الله في حياته ، والملك الذي كان خصه به على سائر قومه ، فجعله له بعد أبيه ، دون سائر ولد أبيه[3] .

ويقول الفخر الرازي في التفسير الكبير : أما قوله تعالى : ﴿**وورث سليمان داود**﴾ فقد اختلفوا فيه ، فقال الحسن البصري : المال ، لأن النبوة عطية مبتدأة ولا تورث ، وقال غيرَه : بل النبوة ، وقال آخَرون : بل الملك والسياسة ولو تأمل الحسن لعلم أن المال إذا ورثه الولد فهو أيضاً عطية مبتدأة من الله تعالى ، ولذلك يرث الولد إذا كان مؤمناً ، ولا يرث إذا كان كافراً أو قاتلاً ، ولكن الله تعالى جعل سبب الإرث فيمن يرث الموت على شرائط، وليس كذلك النبوة ، لأن الموت لا يكون سبباً لنبوة الله ، فمن هذا الوجه يفترقان ، وذلك لا يمنع من أن يوصف بأنه ورث النبوة لما قام به عند موته ، كما يرث الولد المال إذا قام به عند موته ، ومما يبيّن ما قلناه أنه تعالى لو فصل فقال : وورث سليمان داود ماله لم يكن لقوله «وقال يا أيها الناس علمنا منطق الطير» معنى ، وإذا قلنا وورث مقامه من النبوة والملك حسن

---

(١) محمد علي الصابوني : النبوة والأنبياء ص ١٠ ، محمد بيومي مهران : النبوة والأنبياء عند بني إسرائيل ص ٧١ - ٧٧.

(٢) في ظلال القرآن ٥/ ٢٦٣٤ .

(٣) تفسير الطبري ١٩/ ١٤١ .

ذلك، لأن تعليم منطق الطير يكون داخلاً في جملة ما ورثه، وكذلك قوله تعالى: ﴿**وأوتينا من كل شيء**﴾ لأن وارث الملك يجمع ذلك، ووارث المال لا يجمعه، وقوله تعالى: ﴿**إن هذا لهو الفضل المبين**﴾ لا يليق أيضاً إلا بما ذكرنا دون المال الذي قد يحصل للكامل والناقص، وما ذكره الله تعالى من جنود سليمان بعده، لا يليق إلا بما ذكرناه، فبطل بما ذكرنا قول من زعم أنه لم يرث إلا المال، فأما إذا قيل: وورث المال والملك معاً، فهذا لا يبطل بالوجوه التي ذكرناها، بل بظاهر قوله ﷺ: «نحن معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة»[1].

وقال قتادة في قوله تعالى: ﴿**وورث سليمان داود**﴾ ورث نبوته وملكه وعلمه، وهذه الثلاثة هي المذكورة في حق داود عليه السلام في آية البقرة (٢٥١) ﴿**وآتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء**﴾، ويدخل في هذا أيضاً ما أخبر الله تعالى به في سورة النمل (١٥) مما أكرم الله به هذين النبيين الكريمين من عظيم المنح، وجزيل الفضل في قوله تعالى: ﴿**ولقد آتينا داود وسليمان علماً**﴾، وهذا يشمل على ما شرفهما الله به من النبوة والرسالة وما يسر لكل منهما من علوم الدنيا والآخرة[2]، أو هو، كما يقول الطبري، علم كلام الطير والدواب، وغير ذلك مما خصهم الله بعلمه»[3]، وقالا الحمد لله الذي فضلنا على كثير من عباده المؤمنين»، يقول النسفي: والكثير المفضل عليه من لم يؤت علماً أو من لم يؤت مثل علمهما، وفيه أنهما فضلاً على كثير، وفضل عليهما كثير، وفي الآية دليل على شرف العلم وتقدم حملته وأهله وأن نعمة العلم من أجل النعم، وأن من أوتيه فقد أوتى خيراً كثيراً، وفضلاً على كثير من عباده، وما سماهم رسول الله ﷺ ورثة الأنبياء إلا لمداناتاهم لهم

---

(١) تفسير الفخر الرازي ٢٤/ ١٨٦.

(٢) عويد المطرفي: المرجع السابق ص ٦٤.

(٣) تفسير الطبري ١٩/ ١٤٠.

في الشرف والمنزلة لأنهم القوامون بما بعثوا من أجله، وفيها أنه يلزمهم لهذه النعمة الفاضلة أن يحمدوا الله على ما أوتوه، وأن يعتقد العالم أنه إن فضل على كثير، فقد فضل عليه مثلهم[1]. ويقول الفخر الرازي: وأما قوله تعالى: ﴿**الحمد لله الذي فضلنا على كثير من عباده المؤمنين**﴾، ففيها أبحاث، أحدها: أن الكثير المفضل عليه هو من لم يؤت علماً مثل علمهما، وفيه أنهما فضلاً على كثير، وفضل عليهما كثير، وثانيهما: في الآية دليل على علو مرتبة العلم، لأنهما أوتيا من الملك ما لم يؤت غيرهما، فلم يكن شكرهما على الملك كشركهما على العلم، وثالثها: أنهم لم يفضلوا أنفسهم على الكل وذلك يدل على حسن التواضع، ورابعها: أن الظاهر يقتضي أن تلك الفضيلة ليست إلا ذلك العلم، ثم العلم بالله وبصفاته أشرف من غيره، فوجب أن يكون هذا الشكر ليس إلا على العلم،، ثم إن هذا العلم حاصل لجميع المؤمنين فيستحيل أن يكون ذلك سبباً لفضيلتهم على المؤمنين، فإذن الفضيلة هو أن يصير العلم بالله وبصفاته جلياً بحيث يصير المرء مستغرقاً فيه بحيث لا يخطر بباله شيء من الشبهات، ولا يغفل القلب عنه في حين من الأحيان، ولا ساعة من الساعات[2].

٢ ـ من أحكام سليمان:

يذهب كثير من المؤرخين والمفسرين إلى أن سليمان عليه السلام قد تولى الملك صبّياً لما يفع، ومن ثم فقد ذهب فريق منهم إلى أنه كان في الثانية عشرة أو الثالثة عشرة[3]، عندما خلف أباه في الحكم، ومع ذلك، فقد

---

(١) تفسير النسفي ٣/ ٢٠٤.

(٢) تفسير الفخر الرازي ٢٤/ ١٨٥ ـ ١٨٦.

(٣) تاريخ اليعقوبي ١/ ٥٦، المسعودي ١/ ٧١، تاريخ ابن الأثير ١/ ١٢٨، ثم قارن ابن خلدون: حيث يذهب إلى أنه كان في الثانية والعشرين من عمره حين ولي الحكم (تاريخ ابن خلدون ٢/ ١١٢).

كان، مع حداثة سنه، من ذوي الفطنة والذكاء، وقد أعطاه الله الحكمة وحسن القضاء منذ الصغر، وقد ذكر القرآن الكريم طرفاً من ذلك النبوغ والذكاء الذي كان عند سليمان، وذلك في الفتوى التي عرضت على أبيه داود، فأفتى فيها كل منهما بوجه يختلف عن الآخر، وكانت فتوى سليمان أضمن للحق وأقرب إلى الصواب، كما قال تعالى: ﴿ **وداود وسليمان إذ يحكمان في الحرث إذ نفشت فيه غنم القوم وكنا لحكمهم شاهدين. ففهمناها سليمان وكلا آتينا حكماً وعلماً** ﴾، فقوله تعالى: ﴿ **ففهمناها سليمان** ﴾ يدل على أن ما أفتى به سليمان كان أقرب إلى الصواب، وقوله تعالى: ﴿ **وكلا آتينا حكماً وعلماً** ﴾ يدل على أن داود وسليمان كانا على جانب عظيم من الحكمة والعلم[1]، وقال أبو حيان: والظاهر أن كلا من داود سليمان حكم بما ظهر له، وهو متوجه عنده، فحكمهما باجتهاد، وهو قول الجمهور[2].

وخلاصة القصة، كما يقدمها لنا أصحاب التفسير، أن زرعاً دخلت فيه غنم لقوم لبلاد فأكلته وأفسدته، فجاء المتخاصمون لداود، وعنده سليمان، وقصوا عليه القصة، فحكم داود بالغنم لصاحب الزرع عوضاً عن حرثه الذي أتلفته الغنم ليلاً، فقال سليمان: غير هذا أرفق، تدفع الغنم لصاحب الزرع فينتفع بألبانها وأولادها وأشعارها، وتدفع الحرث إلى أهل الغنم يقومون بإصلاحه حتى يعود كما كان، ثم يترادان بعد ذلك، فيعود لأهل الغنم غنمهم، ولأهل الحرث حرثهم، فقال داود: قد أصبت القضاء فيما قضيت[3]، ثم أمضى حكم سليمان لما فيه من حفظ أصول المال

---

(١) سورة الأنبياء: آية ٧٨ - ٧٩، محمد علي الصابوني: المرجع السابق ٢٨٣.

(٢) انظر: تفسير البحر المحيط ٦/ ٣٣٠، تفسير النسفي ٣/ ٨٥، تفسير أبي السعود ٦/ ٧٨ - ٨٠.

(٣) جاء في تفسير النسفي والفخر الرازي: قال الحسن البصري هذه الآية محكمة، والقضاة بذلك يقضون إلى يوم القيامة، غير أن النسفي يذهب إلى أن هذا كان في شريعتهم، فأما في شريعتنا فلا ضمان عند أبي حنيفة وأصحابه بالليل أو بالنهار، إلا أن يكون مع البهيمة سائق أو =

لصاحبيهما، ويقول صاحب الظلال: كان حكم داود وحكم سليمان اجتهاداً منهما في القضية، وكان الله حاضراً حكمهما، فألهم سليمان حكماً أحكم، وفهمه ذلك الوجه وهو أصوب، ولقد اتجه داود في حكمه إلى مجرد التعويض لصاحب الحرث، وهذا عدل فحسب، ولكن حكم سليمان تضمن مع العدل البناء والتعمير، وجعل العدل دافعاً إلى البناء والتعمير، وهذا هو العدل الحي الإيجابي في صورته البانية الدافعة، وهو فتح من الله وإلهام يهبه من يشاء، ولقد أوتى داود وسليمان كلاهما الحكمة والعلم» وكلا آتينا حكماً وعلماً، وليس في قضاء داود من خطأ، ولكن قضاء سليمان كان أصوب، لأنه من نبع الإلهام.

وقريب من هذه القصة التي جاءت في القرآن الكريم، ما رواه الإمام أحمد عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ «بينما امرأتان معهما ابنان لهما، إذ جاء الذئب فأخذ أحد الابنين، فتحاكما إلى داود، فقضى به للكبرى، فخرجتا فدعاهما سليمان فقال: هاتو السكين أشقه بينكما، فقالت الصغرى: يرحمك الله هو ابنها لا تشقه، فقضى به للصغرى»[1]. وهناك قصة أخرى أوردها الحافظ ابن عساكر في ترجمة سليمان عليه السلام من تاريخه بسنده

= قائد، وعند الشافعي. لا ضمان بالنهار لأن لصاحب الماشية تسييب ماشيته بالنهار، وحفظ الزرع بالنهار على صاحبه، وإن كان ليلاً يلزمه الضمان لأن حفظها بالليل عليه، وقال الجصاص إنما ضمنوا لأنهم أرسلوها ونسخ الضمان بقوله ﷺ: «جرح العجماء جبار، واحتج الشافعي بما روي عن البراء بن عازب أنه قال: كانت ناقة ضارية فدخلت حائطاً فأفسدته، فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ فقضى أن حفظ الحوائط بالنهار على أهلها، وأن حفظ الماشية بالليل على أهلها، وأن على أهل الماشية ما أصابت ماشيتهم بالليل»، وقال مجاهد: كان هذا صلحاً، وما فعله داود كان حكماً، والصلح خير» (تفسير النسفي ٣/ ٨٥، تفسير الفخر الرازي ٢٢/ ١٩٩).

(١) الحديث أخرجه أيضاً البخاري ومسلم في صحيحهما، وبوّب له النسائي في كتاب القضاء، وانظر: تفسير ابن كثير ٣/ ٢٩٩، تاريخ الطبري ١/ ٤٨٦ - ٤٨٧.

عن ابن عباس ملخصها: «أن امرأة حسناء في زمان بني إسرائيل، راودها عن نفسها أربعة من رؤسائهم فامتنعت على كل منهم، فاتفقوا فيما بينهم عليها، فشهدوا عند داود عليه السلام أنها مكنت من نفسها كلباً لها قد عودته ذلك منها، فأمر برجمها، فلما كان عشية ذلك اليوم جلس سليمان واجتمع معه ولدان مثله، فانتصبت حاكماً وتزيا أربعة منهم بزي أولئك، وآخر بزي المرأة، وشهدوا عليها بأنها مكّنت من نفسها كلباً، فقال سليمان. فرقوا بينهم، فسأل أولهم ما كان لون الكلب، فقال أسود، فعزله، واستدعى الآخر فسأله عن لونه، فقال أحمر، وقال الآخر أغبش، وقال الآخر أبيض، فأمر عند ذلك بقتلهم، فحكى ذلك لداود عليه السلام، فاستدعى من فوره بأولئك الأربعة فسألهم عن لون ذلك الكلب، فاختلفوا عليه فأمر بقتلهم»[1].

٣ ـ من معجزات سليمان:

منح الله سبحانه وتعالى عبده ورسوله سليمان عليه السلام كثيراً من المعجزات، منها (أولاً) **أن الله تعالى علمه منطق الطير، وسائر لغات الحيوان،** فكان يفهم عنها ما لا يفهمه سائر الناس، وربما تحدث معها، كما كان الأمر مع الهدهد والنمل وغيرهما، روي ابن عساكر قال: مرّ سليمان بعصفور يدور حول عصفورة، فقال لأصحابه أتدرون ما يقول، قالوا وما يقول يا نبي الله، قال يخطبها إلى نفسه ويقول: زوجيني أسكنك أي غرف دمشق شئت قال سليمان عليه السلام لأن غرف دمشق مبنية بالصخر لا يقدر أن يسكنها أحد، ولكن كل خاطب كذاب»[2].

وروى النسفي وأبو السعود: يحكي أن سليمان مرّ على بلبل في شجرة

(١) تفسير ابن كثير ٣/ ٢٩٩.

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية ٢/ ١٨ ـ ١٩.

يحرك رأسه ويميل ذنبه فقال لأصحابه: أتدرون ما يقول، قالوا الله ونبيّه أعلم، قال يقول: إذا أكلت نصف تمرة فعلى الدنيا العفاء، وصاحت فاختة فأخبر أنها تقول: ليت ذا الخلق لم يخلقوا، وصاح طاوس فقال يقول: كما تدين تدان، وصاح هدهد فقال يقول: استغفروا الله يا مذنبين وصاحت رخمة فقال تقول: سبحان ربي الأعلى ملء سمائه وأرضه، وصاح قمري فأخبر أنه يقول: سبحان ربي الأعلى وقال: الحدأة تقول كل شيء هالك إلا الله، والديك يقول: اذكروا الله يا غافلين، والنسر يقول: يا ابن آدم عش ما شئت آخرك الموت والعقاب، والضفدع يقول: سبحان ربي القدوس[1].

وقال تعالى: ﴿**وورث سليمان داود وقال يا أيها الناس علمنا منطق الطير وأوتينا من كل شيء، إن هذا لهو الفضل المبين**﴾[2]، يذيعها سليمان عليه السلام في الناس تحدثاً بنعمة الله وإظهار الفضلة، لا مباهاة ولا تنفجا على الناس فما يملك تعليم منطق الطير لبشر إلا الله، وكذلك لا يؤتى أحداً من كل شيء، بهذا التعميم، إلا الله، ومن المعروف أن للطيور والحيوان والحشرات وسائل للتفاهم، هي لغاتها ومنطقها، فيما بينها، والله سبحانه خالق هذه العوالم يقول: «وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم»، ولا تكون أمماً حتى تكون لها روابط معينة تحيا بها، ووسائل معينة للتفاهم فيما بينها، وذلك ملحوظ في أنواع كثيرة من الطيور والحيوان والحشرات، ويجتهد علماء هذه الأنواع في إدراك شيء من لغاتها ووسائل التفاهم بينها عن طريق الحدس والظن، لا عن الجزم واليقين، فأما ما وهبه الله لسليمان عليه السلام، فكان شأناً خاصاً به على طريق الخارقة التي تخالف مألوف البشر، لا على طريق المحاولة منه، والاجتهاد لتفهم وسائل

---

(١) تفسير أبي السعود ٦/ ٢٧٦ - ٢٧٧، تفسير النسفي ٣/ ٢٠٥.

(٢) سورة النمل: آية ١٦.

الطير وغيره في التفاهم على طريق الحدس، كما هو حال العلماء اليوم[1].

وقال تعالى: **﴿حتى أتوا على وادي النمل قالت نملة يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون فتبسم ضاحكاً من قولها﴾**[2]، ولا شك أن فهمه عليه السلام لكلام النمل إعجازاً اختصه الله عز وجل به، إظهاراً لما أكرمه الله به من شرف النبوة والرسالة[3]، ونحن هنا، كما يقول صاحب الظلال، أمام خارقتين، لا خارقة واحدة، خارقة إدراك سليمان لتحذير النملة لقومها، وخارقة إدراك النملة أن هذا سليمان وجنوده، فأما الأولى، فهي مما علمه الله لسليمان، وسليمان إنسان ونبي، فالأمر بالقياس إليه أقرب من الخارقة الأخرى البادية في مقالة النملة، فقد تدرك النملة أن هؤلاء خلق أكبر، وأنهم يحطمون النمل إذا داسوه، وقد يهرب النمل من الخطر بحكم ما أودع الله فيه من القوى الحافظة للحياة، أما أن تدرك النملة أن هذه الشخوص هي سليمان وجنوده، فتلك هي الخارقة الخاصة التي تخرج على المألوف، وتحسب في عداد الخوارق في مثل هذه الحال[4].

ومنها (ثانياً) أن جند سليمان عليه السلام إنما كان مؤلفاً من الإنس والجن والطير، وقد نظم لهم أعمالهم ورتب لهم شؤونهم، فإذا خرج خرجوا معه في موكب حافل، يحيط به الجند والخدم من كل جانب، فالإنس والجن يسيرون معه، والطير تظلله بأجنحتها من الحر[5]، قال تعالى: **﴿وحشر لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير فهم يوزعون﴾**[6]، والجدير

(١) في ظلال القرآن ٥/ ٢٦٣٤.

(٢) سورة النمل: آية ١٨ - ١٩.

(٣) عويد المطرفي: المرجع السابق ص ٦٨.

(٤) في ظلال القرآن ٥/ ٢٦٣٧.

(٥) الصابوني: المرجع السابق ص ٢٨٨.

(٦) سورة النمل: آية ١٧.

بالإشارة هنا أن الله سخر لسليمان طائفة من الجن وطائفة من الطير، كما سخر له طائفة من الإنس، وكما أنه لم، يكن كل أهل الأرض من الإنس جنداً لسليمان، إذ إن ملكه لم يتجاوز ما يعرف الآن بفلسطين ولبنان وسورية والعراق إلى ضفة الفرات، فكذلك لم يكن جميع الجن، ولا جميع الطير مسخرين له، إنما كانت طائفة من كل أمة على السواء ونستدل في مسألة الجن إلى أن إبليس وذريته من الجن كما قال القرآن: ﴿**إن إبليس كان من الجن**﴾ وقال: ﴿**الذي يوسوس في صدور الناس من الجنة والناس**﴾، وهؤلاء كانوا يزاولون الإغراء والشر والوسوسة للبشر في عهد سليمان، وما كانوا ليزاولون هذا، وهم مسخرون له مقيدون بأمره، وهو نبيّ يدعو إلى الهدى، فالمفهوم إذن أن طائفة من الجن هي التي كانت مسخرة له، ونستدل في مسألة الطير إلى أن سليمان حين تفقد الطير علم بغيبة الهدهد، ولو كانت جميع الطيور مسخّرة له، محشورة في موكبه، ومنها جميع الهداهد، ما استطاع أن يتبيّن غيبة هدهد واحد من ملايين الهداهد، هذا فضلاً عن بلايين الطير، ولما قال: ما لي لا أرى الهدهد، فهو إذن هدهد خاص بشخصه وذاته، وقد يكون هو الذي سخر لسليمان من أمة الهداهد، أو يكون صاحب النوبة في ذلك الموكب من المجموعة المحدودة العدد من جنسه، ويعين على هذا ما ظهر من أن هذا الهدهد موهوب إدراكاً خاصاً ليس من نوع إدراك الهداهد، ولا الطير بصفة عامة، ولا بد أن هذه الهبة كانت للطائفة الخاصة التي سخرت لسليمان، لا لجميع الهداهد وجميع الطيور، فإن نوع الإدراك الذي ظهر من ذلك الهدهد الخاص في مستوى يعادل مستوى العقلاء الأذكياء الأتقياء من الناس[1].

ومنها (ثالثاً) تسخير الريح له، قال تعالى: ﴿**ولسليمان الريح عاصفة**

---

(١) في ظلال القرآن ٥/ ٢٦٣٥ ـ ٢٦٣٦.

غدوها شهر ورواحها شهر»[1]، وقال تعالى: ﴿**فسخرنا له الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب**﴾[2]، وقال تعالى: ﴿**ولسليمان الريح عاصفة تجري بأمره إلى الأرض التي باركنا فيها وكنا بكل شيء عالمين**﴾[3]، وهكذا كان من معجزات سليمان عليه السلام تسخير الريح عاصفة قوية لتحمله وتحمل جنوده وما معهم من الأثقال، وتقوم بأداء ما يريده منها مما سخر الله له فيه، وهي تجري بأمره إلى الأرض التي بارك الله فيها، معجزة قاهرة أكرمه الله بها، وأجراها على يديه إظهاراً لنبوته وتأييداً لرسالته[4]، ويقول الفخر الرازي: المسخر لسليمان كانت ريحاً مخصوصة، لا هذه الرياح، فإنها المنافع عامة في أوقات الحاجات ويدل عليه أنه لم يقرأ إلا على التوحيد، فما قرأ أحد الرياح[5]، ويقول الأستاذ الشهيد سيد قطب، طيب الله ثراه، وتخير الرياح لسليمان تتكاثر حوله الروايات[6]، وتبدو ظلال الإسرائيليات واضحة في تلك الروايات، وإن تكن كتب اليهود الأصلية لم تذكر شيئاً عنها، والتحرج من الخوض في تلك الروايات أولى، والاكتفاء بالنص القرآني أسلم، مع الوقوف عند ظاهر النص لا تتعداه، ومنه يستفاد أن الله سخر الريح لسليمان، وجعل غدوها، أي توجهها غادية إلى بقعة معينة (هي الأرض المقدسة في آية الأنبياء ٨١) يستغرق شهراً، ورواحها، أي انعكاس اتجاهها في الرواح يستغرق شهراً كذلك، وفق مصلحة تحصل من غدوها ورواحها، يدركها سليمان عليه السلام، ويحققها بأمر الله، ولا نملك أن

---

(١) سورة سبأ: اية ١٢.

(٢) سورة ص: آية ٣٦.

(٣) سورة الأنبياء: آية ٨١.

(٤) عويد المطرفي: المرجع السابق ص ٧٧ - ٧٨.

(٥) انظر: تفسير الطبري ١٧/ ٥٥ - ٥٦، ٢٢/ ٦٨ - ٦٩، ٢٣/ ١٦٠، تفسير النسفي ٣/ ٣٢٠ تفسير ابن كثير ٣/ ٣٠٠، ٨٤٠.

نزيد هذا إيضاحاً حتى لا ندخل في أساطير لا ضابط لها ولا تحقيق[1].

ومنها (رابعاً) أن الله تعالى سخر لسليمان طائفة من الجن ومردة الشياطين يعملون له الأعمال التي يعجز عنها البشر، كبناء الصروح الضخمة والقصور العالية والقدور الراسيات، والجفان التي تشبه الأحواض، كما قال تعالى: **﴿ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه، ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير، يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات، اعملوا آل داود شكراً وقليل من عبادي الشكور﴾**[2]، هذا والمحاريب، كما هو معروف، من أماكن العبادة، والتماثيل الصور من نحاس وخشب وغيره، والجواب جمع جابية وهي الحوض الكبير الذي يجبى فيه الماء، وقد كانت الجن يصنعون لسليمان جفاناً كبيرة للطعام تشبه الجوابي، قيل كان يجتمع على جفنة واحدة ألف نفس، كما كانت تصنع له قدروا ضخمة للطبخ راسية لضخامتها، لا تنقل لكبرها، وإنما يغرف منها في تلك الجفان، وهذه كلها نماذج مما سخر الله الجن لسليمان لتقوم له به حيث شاء بإذن الله، وكلها أمور خارقة لا سبيل إلى تصورها أو تعليلها، إلا بأنها خارقة من صنع الله، وهذا هو تفسيرها الواضح الوحيد[3]. وقال تعالى: **﴿ومن الشياطين من يغوصون له ويعملون عملاً دون ذلك وكنا لهم حافظين﴾**، وهذا العمل فيه احتمال قوي أن يكون من قبيل المعجزات، بل هو معجزة، ذلك لأن التحكم في جماعات الشياطين واستخدامهم في الغوص، وعمل الأعمال التي دون الغوص، وحفظ الله تعالى لهم، ليكونوا تحت أمره عليه السلام خاصة، إنما هو أمر ظاهر في الإعجاز[4].

---

(١) في ظلال القرآن ٥/ ٢٨٩٨.

(٢) سورة سبأ: آية ١٢ - ١٣.

(٣) في ظلال القرآن ٥/ ٢٨٩٩. وانظر: تفسير الفخر الرازي ٢٥/ ٢٤٨.

(٤) عويد المطرفي: المرجع السابق ص ٧٨.

ومنها (خامساً) أن الله تعالى جعل لسليمان عليه السلام سلطة على طائفة من الجن[1]، يسخر من يشاء منهم في الأعمال الشاقة، ويقيد من يشاء في الأغلال ليكف شرهم عن الناس، كما قال تعالى: ﴿والشياطين كل بناء وغواص، وآخرين مقرنين في الأصفاد﴾، ولم يكن هذا التسخير لأحد من الأنبياء غير سليمان عليه السلام، وذلك غاية العظمة ونهاية الملك والسلطان لملوك الدنيا، فلم ينل أحد من الملوك ما ناله سليمان عليه السلام، نبي الله ورسوله، روي البخاري ومسلم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «إن عفريتاً من الجن تفلت على البارحة ليقطع على صلاتي، فأمكنني الله منه فأردت أن أربطه إلى سارية من سواري المسجد حتى تنظروا إليه كلكم، فذكرت دعوة أخي سليمان «رب اغفر لي وهب لي ملكاً لا ينبغي لأحد بعدي» فرددته خاسئاً»[2]، ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أنه كان في مكنة سيدنا رسول الله ﷺ أن يربط العفريت، كما هو واضح من لفظ الحديث الشريف، وكما في حديث أبي الدرداء عنه ﷺ أنه قال: «ثم أردت أن آخذه، والله لولا دعوة أخينا سليمان لأصبح موثقاً يلعب به صبيان أهل المدينة»[3]، وكما في حديث أبي سعيد الخدري عنه ﷺ أنه قال: «لو

---

(1) يقول الإمام الفخر الرازي في تفسير قوله: «فلما خر تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين» أن الآية (سبأ: آية ١٤) تبين أن الجن لا يعلمون الغيب، إذ لو كانوا يعلمونه لما بقوا في الأعمال الشاقة ظانين أن سليمان حيّ، وقوله: «ما لبثوا في العذاب المهين» دليل على أن المؤمنين من الجن لم يكونوا في التسخير، لأن المؤمن لا يكون في زمان النبي في العذاب المهين (تفسير الفخر الرازي ٢٥/ ٢٥٠).

(2) انظر: صحيح البخاري ٤/ ١٩٧، صحيح مسلم ١/ ٣٨٤، وانظر رواية أخرى للحديث الشريف عن أبي الدرداء (صحيح مسلم ٢/ ٧٢، سنن النسائي ٣/ ١٣) وثالثة للإمام أحمد في المسند (٣/ ٨٣) عن أبي سعيد الخدري (انظر تفسير ابن كثير ٤/ ٥٦ ـ ٥٧ (ط بيروت ١٩٨٦).

(3) صحيح مسلم ٢/ ٧٢.

رأيتموني وإبليس فأوهيت بيدي فما زلت أخنقه حتى وجدت برد لعابه بين اصبعي هاتين ـ الإبهام والتي تليها ـ ولولا دعوة أخي سليمان لأصبح مربوطاً بسارية من سواري المسجد يتلاعب به صبيان المدينة»[1]، ولكن سيدنا رسول الله ﷺ أبى أن يفعل ذلك تحقيقاً لدعوة أخيه سليمان عليه السلام[2].

ومنها (سادساً) أسال الله لسليمان عين القطر، قال تعالى: **﴿وأسلنا له عين القطر﴾**[3]، وهذه من خصوصيات سليمان كما كانت إلانة الحديد من خصوصيات أبيه داود، فهو إذن من المحتمل للإعجاز، وقد يكون ذلك بأن فجر الله له عينا بركانية من النحاس المذاب من الأرض، أو هو من قبيل العلم الذي آتاه الله تعالى عبده سليمان، وهذا ما نميل إليه ونرجحه، وذلك بأن ألهمه الله تعالى إذابة النحاس حتى يسيل، ويصبح قابلاً للصب والطرق، وهذا فضل من الله كبير[4].

هذا وقد أثبتت الحفريات الأثرية، كما سنوضح بالتفصيل في مكانة من هذه الدراسة، أن مدينة «عصيون جابر»، إنما كانت ميناء ومركزاً صناعياً في دولة سليمان، وقد اكتشفها بعثة أمريكية برياسة «نلسون جلوك» في موقع «تل الخليفة» على مبعدة .. ٥ متراً من ساحل البحر، على الطرق الشمالي من خليج العقبة، على مقربة من ميناء «إيلات» الحالي[5]، وعلى أية حال، فإنه لم يعثر حتى الآن في

---

(١) مسند الإمام أحمد ٣/ ٨٣.

(٢) عويد المطرفي: المرجع السابق ص ١١٦.

(٣) سورة سبأ: آية ١٢، والقطر هو النحاس، وإسالته إذابته حتى يكون كالماء ليستطاع صبه في قوالب خاصة تنشأ فيها الصناعات التي يريدها سليمان من آلات الحرب وغيرها، للنحاس خاصية في هذا يدل على أنه أقوى من الحديد، بدليل قوله تعالى: **﴿آتوني أفرغ عليه قطراً﴾**، إذ لو لم يكن القطر أقوى من الحديد، لما احتاج إلى تقوية الحديد وإمساكه بإفراغ القطر عليه (عويد المطرقي: المرجع السابق ص ٨١).

(٤) في ظلال القرآن ٥/ ٢٨٩٨، عويد المطرفي: المرجع السابق ص ٨١.

(٥) محمد بيومي مهران: إسرائيل ٢/ ٧٩٢ ـ ٧٩٤، وكذا J. Hornell, Antiquity, 21, 1947, P.66 =

أي مكان آخر في العالم القديم، على ما يضاهي معامل تنقية النحاس في عصيون جابر ولعل أفضل هذه المعامل من جهة الإعداد والبناء ما وجد في الطبقة (ط) التي تحوي مخلفات أقدم للفترات الخمسة الرئيسية لعمران هذا الموقع[1].

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أن هناك بعضاً من آي الذكر الحكيم التي تتصل بسيدنا سليمان عليه السلام، قد أسرف المفسرون على أنفسهم وعلى الناس في تفسيرها، فيها قوله تعالى: **﴿ ووهبنا لداود سليمان نعم العبد إنه أواب، إذ عرض عليه بالعشي الصافنات الجياد، فقال إني أحببت حب الخير عن ذكر ربي حتى توارت بالحجاب، ردوها على فطفق مسحا بالسوق والأعناق﴾**[2]، وفي قصة الخيل هذه أو الصافات الجياد، وهي الخيل الكريمة، روايتان، تقول الأولى: إن سليمان عليه السلام، استعرض خيلاً له بالعشي، ففاتته صلاة كان يصليها قبل الغروب، فقال ردوها علي فجعل يضرب أعناقها وسيقانها جزاء ما شغلته عن ذكر ربه، ورواية أخرى إنما جعل يمسح سوقها وأعناقها إكراماً لها لأنها كانت خيلاً في سبيل الله، وكلا الروايتين، فيما يرى صاحب الظلال، لا دليل عليها ويصعب الجزم بشيء عنها، وفي تفسير ابن كثير وغيره أن هذه الخيل التي شغلت سليمان عليه السلام كانت عشرين ألف فرس فعقروها[3].

= وكذا N. Glueck, The Other Side of the Jorden, New Haven, 1940, P. 50 - 113 وكذا K. M. Kenyon, Archaeology in the holy Land, London, 1970, P. 257 وكذا W. F. Alliright, the Archaeology of Palestine, N. Y, 1963, p. 44, 127 - 128.

(١) وليم أولبرايت: آثار فلسطين ـ القاهرة ١٩٧١ ص ١٢٨ (مترجم) وكذا W. Keller, op - cit, p. 198 - 199.

(٢) سورة ص: آية ٣٠ ـ ٣٣.

(٣) في ظلال القرآن ٥/ ٣٠٢٠، تفسير ابن كثير ٤/ ٥١ ـ ٥٢، تفسير الطبري ٢٣/ ١٥٣ ـ ١٥٦، تفسير الفخر الرازي ٢٦/ ٢٠٣ ـ ٢٠٦، تفسير النسفي ٤/ ٤٠ ـ ٤١.

هذا وقد ذكر غير واحد من السلف والمفسرين أن سليمان اشتغل بعرض الصافنات الجياد حتى فات وقت صلاة العصر، والذي يقطع به أنه لم يتركها عمداً، بل نسياناً، كما اشتغل النبي ﷺ يوم الخندق عن صلاة العصر، حتى صلاها بعد الغروب، ويحتمل أنه كان سائغاً في ملتهم تأخير الصلاة لعذر الغزو والقتال، والأول أقرب، لأنه قال بعدها «ردواها على فطفق مسحا بالسوق والأعناق»، قال الحسن البصري: لا، قال: والله لا تشغليني عن عبادة ربي آخر ما عليك، ثم أمر بها فعقرت، وكذا قال قتادة، وقال السُّدي: ضرب أعناقها وعراقيبها بالسيوف، ولهذا عوّضه الله عز وجل ما هو خير منها، وهي الريح التي تجري بأمره رخاء حيث أصاب، غدوها شهر ورواحها شهر، فهذا أسرع وخير من الخيل[1].

وهكذا يوصم سليمان عليه السلام بأنه تلهى عن ذكر الله، ويوصم كذلك بأنه قتل الخيول البريئة المعدة للجهاد، دون سبب أو مسوغ معقول[2]، ومن ثم فقد رد حذاق العلماء هذا القول بأنه عقوبة لما لا يستحق العقوبة، وبأنه إفساد للمال في غير منفعة المسلمين، ويقول الفخر الرازي أن هذا بعيد (أي عقر سليمان للخيل) ويدل عليه وجوه (الأول) أنه لو كان مسح السوق والأعناق قطعها لكان معنى قوله تعالى: ﴿**وامسحوا برؤسكم وأرجلكم**﴾ قطعها، وهذا مما لا يقوله عاقل، بل لو قيل مسح رأسه بالسيف فربما فهم منه ضرب العنق، أما إذا لم يذكر لقط السيف لم يفهم البتة من المسح العقر والذبح، و (الثاني) القائلون بهذا القول جمعوا علي سليمان عليه السلام أنواعاً من الأفعال المذمومة، فأولها: ترك الصلاة، وثانيها: أنه بعد الإتيان بهذا الذنب العظيم لم يشتغل بالتوبة والإنابة البتة، ورابعها: أنه خاطب رب العالمين بقوله: «ردوها علي» وهذه الكلمة لا يذكرها الرجل

---

(١) تفسير ابن كثير ٤/ ٥١ ـ ٥٢ (ط بيروت ١٩٨٦).

(٢) محمد الطيب النجار: المرجع السابق ص ٤٠.

الحصيف إلا مع الخادم الخسيس، وخامسها: أنه تبع هذه المعاصي بعقر الخيل في سوقها وأعناقها، وروي عن النبي ﷺ أنه: «نهى عن ذبح الحيوان إلا لمأكلة»، فهذه أنواع من الكبائر نسبوها إلى سليمان عليه السلام، مع أن لفظ القرآن لم يدل على شيء منها[1].

على أن هناك اتجاهاً آخر في القصة، فلقد روي الطبري عن ابن عباس، كما روي القرطبي عنه وعن قتادة والحسن والزهري وابن كيسان أن المراد بمسح سوق الخيل وأعناقها في هذه الآية الكريمة هو مسح حبالها وكشفاً للغبار عنها، وقال الإمام الطبري في التفسير: وهذا القول الذي ذكرناه عن ابن عباس (أي جعله يمسح أعراف الخيل وعراقيبها حبالها) أشبه بتأويل الآية، لأن نبيّ الله ﷺ لم يكن إن شاء الله ليعذب حيواناً بالعرقبة، ويهلك مالاً من ماله بغير سبب، سوى أنه اشتغل عن صلاته بالنظر إليها، ولا ذنب لها باشتغاله بالنظر إليها[2]، ومن ثم يذهب الفخر الرازي إلى أن الصواب أن نقول إن رباط الخيل كان مندوباً إليه في دينهم، كما أنه كذلك في دين محمد ﷺ، ثم إن سليمان عليه السلام احتاج إلى الغزو فجلس وأمر بإحضار الخيل وبإجرائها، وذكر أني لا أحبها لأجل الدنيا ونصيب النفس، وإنما أحبها لأمر الله وطلب تقوية دينه، وهو المراد في قوله: «عن ذكر ربي»، ثم إنه بإعدائها وتسييرها حتى توارت بالحجاب، أي غابت عن بصره، ثم أمر الرائضين بأن يردوا تلك الخيل إليه، فلما عادت إليه طفق

(١) تفسير الفخر الرازي ٢٦/ ٢٠٥ - ٢٠٦.

(٢) تفسير الطبري ٢٣/ ١٥٦، ثم قارن تفسير ابن كثير ٤/ ٥٢، حيث يقول: وهذا الذي رجح به ابن جرير فيه نظر، لأنه قد يكون في شرعهم جواز مثل هذا، ولا سيما إذا كان غضباً لله تعالى بسبب أنه اشتغل بها حتى خرج وقت الصلاة، ولهذا لما خرج عنها الله تعالى عوضه الله عز وجل ما هو خير منها وهو الريح التي تجري بأمره رخاء حيث أصاب، غدوها شهر ورواحها شهر، فهذا أسرع وخير من الخيل.

يمسح سوقها وأعناقها، والغرض من ذلك المسح أمور، الأول: تشريفاً لها وإبانة لعزتها لكونها من أعظم الأعوان في دفع العدو، والثاني: أنه أراد أن يظهر أنه في ضبط السياسة والملك يتضح إلى حيث يباشر أكثر الأمور بنفسه، والثالث: أنه كان أعلم بأحوال الخيل وأمراضها وعيوبها، فكان يمتحنها ويمسح سوقها وأعناقها، حتى يعلم هل فيها ما يدل على المرض، فهذا التفسير الذي ذكرنا، ينطبق عليه لفظ القرآن انطباقاً مطابقاً موافقاً، ولا يلزمنا نسبة شيء من تلك المنكرات والمحذورات[1].

هذا فضلاً عن أن حب الخيل من سنن الأنبياء والمرسلين، صلوات الله وسلامة عليهم أجمعين، روي النسائي وأبو داود وأحمد عن أبي وهب الجشمي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ارتبطوا الخيل وامسحوا بنواصيها وأكفالها»[2]، وروي البخاري ومسلم وأصحاب السنن ومالك وأحمد عن رسول الله ﷺ أنه قال: «الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة»[3]، وروي الطحاوي في مشكل الآثار بسنده عن جابر بن عبدالله قال قال رسول الله ﷺ: «الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة، وأهلها معانون عليها، وامسحوا نواصيها وادعوا لها بالبركة»[4]، هذا إلى أن ارتباط الخيل كما أنه في القرآن ممدوح، فكذلك في التوراة ممدوح[5]، وقد روت التوراة أن سليمان عليه السلام كان شغوفاً بالخيل[6]، وأنه كان يقول:

(١) تفسير الفخر الرازي ٢٦/ ٢٠٦.

(٢) سنن النسائي ٦/ ٢١٨، سنن أبي داود ٣/ ٢٤، مسند الإمام أحمد ٦/ ٢٨٢.

(٣) صحيح البخاري ٤/ ٣٤، صحيح مسلم ٣/ ٤٩٣، سنن الدرامي ٢/ ٢١٢، سنن ابن ماجه ٢/ ٤٧، سنن أبي داود ٣/ ٢٢، سنن الترمذي ٤/ ٢٠٢، سنن النسائي ٦/ ٢١٥، موطأ مالك ص ٢٧٩، مسند الإمام أحمد ٦/ ٢٨٢.

(٤) مشكل الآثار ١/ ١٣٢ (حيدر أباد ١٣٣٣ هـ).

(٥) تفسير الفخر الرازي ٢٦/ ٢٠٤.

(٦) ملوك أول ١٠/ ٢٦ - ٢٩، أخبار أيام ثان ١/ ١٤ - ١٧.

«الفرس معدة ليوم الحرب»، وإن «كانت النصرة من الرب»[1]، هذا وقد أثبتت الحفريات الأثرية أن سليمان عليه السلام قد أقام حظائر للخيل في أماكن متعددة من مملكته، وقد ألقت بعثات الحفائر الأمريكية في مدينة «مجدو» القديمة، الضوء على هذه الحظائر، فلقد عثر المكتشفون، كما سنوضح ذلك في مكانة من هذه الدراسة، هناك على بقايا إسطبلات الخيول، والتي كانت دائماً تنتظم حول فناء دائري مبلط بملاط من الحجر الجيري، ويخترق وسط كل إسطبل ممر عرضه عشرة أقدام، وقد وصف بصخور خشنة ليحول دون إنزلاق الخيل، وقد وضعت على كل جانب، وراء نتوءات الأحجار، مرابط فسيحة عرض كل منها عشرة أقدام، وما يزال الكثير من هذه الإسطبلات محتفظاً بمعالف طعام الخيل، كما لا تزال كذلك أجزاء من معدات السقي ظاهرة، كما تدل فخامة الأسطبلات والعناية الشديدة التي بذلت بوفرة في المباني والخدمات على أن الخيل كانت مرغوباً فيها في تلك الأيام، وعندما تم الكشف عن المبنى بأكمله، قدر بعض الباحثين لكل أسطبل ٤٥٠ حصاناً، ولكل حظيرة ١٥٠ عربة[2]، هذا وقد كشفت نظائر لأسطبلات محدد هذه في بيت شان وحاصور وتعنك والقدس[3].

وهناك كذلك آية الفتنة والجسد الذي ألقى على كرسي سليمان، يقول عز من قال: ﴿**ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيه جسداً ثم أناب**﴾[4]، فلقد

(١) سفر الأمثال ٢١/ ٣١.

(٢) W. F. Alliright, op - cit, p. 124 وكذا ٥٩١. وكذا

C. Watzingen,: Denkmaler Palestinas, I, Leipzeg, 1933, P. 67 F, 87 F.

(٣) مجدو: تل المتسلم، على مبعدة ٢٠ ميلاً جنوب شرق حيفا، وحاصور: على مبعدة ٥ كيلاً جنوب غرب بحيرة الحولة وتسمى الان تل قدح، وتعنك: على مبعدة ٨ كيلاً جنوب شرق مجدو.

(٤) سورة ص: آية ٣٤.

روي بعض المفسرين والمحدثين عدة روايات عن فتنة سليمان، وعن الجسد الذي ألقى على كرسيه، كثير منها تقدح في النبوة، وتتنافى مع العصمة التي أوجبها الله للأنبياء، والتي عرفت من الدين بالضرورة إجماعاً، فضلاً عن أنها تحط من مقام الاصطفاء الإلهي للنبوة والرسالة، وكلها قصص وروايات باطلة وفاسدة عقلاً ونقلاً[1].

ولعل من أغرب وأنكر تلك الروايات، ما رواه ابن أبي حاتم[2] من أن سليمان عليه السلام، أراد أن يدخل الخلاء، فأعطى الجرادة خاتمة، وكانت أحب نسائه إليه، فجاءها الشيطان بصورة سليمان فقال لها: هاتي خاتمي، فظنته سليمان، فأعطته إياه، فلما لبسه دانت له الإنس والجن والشياطين، وزادت بعض الروايات أنه تسلط حتى على نسائه[3]، وذهبت رواية ثالثة إلى أن الفتنة إنما كانت بسبب أن امرأته جرادة كانت تبكي على أبيها الذي قتله سليمان، فأمر سليمان الشيطان فمثل لها صورة أبيها فكستها مثل كسوته، وكانت تذهب إلى تلك الصورة بكرة وعشياً مع جواريها يسجدن لها، فأخبر آصف سليمان بذلك فكسر الصورة وعاقب المرأة[4]، ثم خرج

---

(١) عويد المطرفي: المرجع السابق ص ١١٦.

(٢) مختصر تفسير ابن كثير ٣/ ٢٠٣ (هامش/ ٢).

(٣) تفسير الفخر الرازي ٢٦/ ٢٠٨، الدر المنثورة ٥/ ٣١٢، تاريخ الطبري ١/ ٤٩٩، ثم قارن: تفسير الطبري (٢٣/ ١٥٨) حيث يقول وسلط الشيطان على ملك سليمان كله غير نسائه، وفي تفسير ابن كثير (٤/ ٥٥) أن المشهور عن مجاهد وغير واحد من أئمة السلف أن ذلك الجني لم يسلط على نساء سليمان، بل عصمهن الله عز وجل منه تشريفاً وتكريماً لنبيّه عليه السلام.

(٤) هذه الأسطورة لا ريب أنها منقولة عن توراة اليهود المتداولة اليوم، والتي تزعم كذباً أن سليمان عليه السلام قد ضم إلى حريمه مئات سبعة من الزوجات، ومئات ثلاث من السراري، وأنه كان طوعُ أمرهن، حتى إنه أقام رغبة في مرضاتهن هياكل صغيرة، ودوراً لعبادة الآلهة الوثنية، تقول التوراة «وكان في زمان شيخوخة سليمان أن نساءه أملن قلبه وراء آلهة أخرى، ولم يكن قلبه كاملاً مع الرب كقلب أبيه داود، فذهب سليمان وراء عشتاروت إلّهة الصيدونيين وملكوم إلّه العمونيين، وعمل سليمان الشرفي عيني الرب، وبنى =

وحده إلى فلاء، وفرش الرماد فجلس عليه تائباً إلى الله، ورواية رابعة تذهب إلى أن سليمان قال لبعض الشياطين كيف تفتنون الناس؟ فقال أرني خاتمك أخبرك، فلما أعطاه إياه نبذه في البحر، فذهب ملكه وقعد هذا الشيطان على كرسيه أربعين يوماً، عدد ما عبد الوثن في بيته، ثم أعطاه أحد الصيادين سمكة فبقر بطنها، فإذا هو بالخاتم فتختم به، ووقع ساجداً لله، ورجع إليه ملكه، ثم أخذ ذلك الشيطان وأدخله في صخرة وألقاها في البحر[1].

هذا وقد أظهر حذاق العلماء، كابن كثير وابن حزم وابن العربي والفخر الرازي والنسفي والزمخشري وأبي حيان وغيرهم[2] زيف هذه الأساطير، يقول الإمام الفخر الرازي في التفسير الكبير: واعلم أن أهل التحقيق استبعدوا هذا الكلام من وجوه (الأول) أن الشيطان لو قدر على أن يتشبه بالصورة والخلقة بالأنبياء، فحينئذٍ لا يبقى اعتماد على شيء من

= مرتفعة لكموش رجس المؤابين على الجبل الذي تجاه أورشليم، ولولك رجس بني عمون، وهكذا فعل لجميع نسائه الغريبات اللواتي كن يوقدن ويذبحن لآلهتهن»؛ وهكذا تصور توراة يهود، النبي الكريم، وهو يختم حياته، وغضب الرب، والعياذ بالله، قد حلّ به، لأن قلبه مال عن الرب ولم يحفظ وصاياه، (انظر: سفر الملوك الأول ١١/ ١ - ١٣، محمد بيومي مهران. إسرائيل ٣/ ٢١٣ - ٢١٨)، وانطلاقاً من كل هذا، فإن هذه الروايات التي ذكرها بعض المفسرين والمؤرخين، شأنها شأن ما جاء بتوراة يهود، إنما هي أكاذيب ضد النبي الكريم عليه السلام.

(١) انظر: تفسير الفخر الرازي ٢٦/ ٢٠٧ - ٢٠٨، تفسير الطبري ٢٣/ ١٥٧ - ١٥٨، تفسير ابن كثير ٤/ ٥٣ - ٥٥، تاريخ الطبري ١/ ٤٩٦ - ٤٩٧، الكامل لابن الأثير ١/ ١٣٣ - ١٣٥، تاريخ اليعقوبي ١/ ٥٩ - ٦٠.

(٢) انظر: تفسير ابن كثير ٤/ ٥٥، تفسير البحر المحيط ٧/ ٣٩٧، تفسير الكشاف ٣/ ٣٧٥، تفسير الفخر الرازي ٢٦/ ٢٠٨ - ٢٠٩، تفسير النسفي ٤/ ٤٢، ابن حزم: الفصل في الملل والأهواء والنحل - القاهرة ١٩٦٤ - الجزء الثالث ص ٢٠، ابن العربي: أحكام القرآن ٤/ ١٦٣٨ (فاس ١٣٧٦ هـ)، محمد محمد أبو شهبة: الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير - القاهرة ١٣٩٣ هـ ص ٣٨٠.

الشرائع، فلعل هؤلاء الذين رآهم الناس في صورة محمد وعيسى وموسى عليهم السلام، ما كانوا أولئك بل كانوا شياطين تشبهوا بهم في الصورة لأجل الإغواء والإضلال، ومعلوم أن ذلك يبطل الدين بالكلية، و (الثاني) أن الشيطان لو قدر على أن يعامل نبي الله سليمان بمثل هذه المعاملة، لوجب أن يقدر على مثلها مع جميع الأنبياء والزهاد، وحينئذٍ وجب أن يقتلهم وأن يمزق تصانيفهم وأن يخرب ديارهم، ولما بطل ذلك في حق آحاد العلماء فلأن يبطل مثله في حق أكابر الأنبياء أولى، و (الثالث) كيف يليق بحكمة الله وإحسانه أن يسلط الشيطان على أزواج سليمان؟ ولا شك أنه قبيح، و (الرابع) لو قلنا أن سليمان أذن لتلك المرأة في عبادة تلك الصورة فهذا كفر منه، وإن لم يأذن فيه البتة فالذنب على تلك المرأة، فكيف يؤاخذ الله سليمان بفعل لم يصدر عنه؟.

وأما الوجوه التي ذكرها أهل التحقيق في هذا الباب فأشياء الأول أن فتنة سليمان أنه ولد له ابن، فقالت الشياطين إن عاش صار متسلطاً علينا مثل أبيه فسبيلنا أن نقتله، فعلم سليمان ذلك فكان يربيه في السحاب فبينما هو مشتغل في مهماته إذ ألقى ذلك الولد ميتاً على كرسيه فتنبه على خطئه في أنه لم يتوكل فيه على الله، فاستغفر ربه وأناب، و (الثاني) روي عن النبي ﷺ أنه قال: «قال سليمان لأطوفن الليلة على سبعين امرأة كل واحدة تأتي بفارس يجاهد في سبيل الله، ولم يقل إن شاء الله، فطاف عليهن فلم تحمل إلا امرأة واحدة جاءت بشق رجل فجيء به على كرسيه فوضع في حجره، فوالذي نفسي بيده لو قال إن شاء الله لجاهدوا كلهم في سبيل الله فرساناً أجمعون»، فذلك قوله تعالى: ﴿ **ولقد فتنا سليمان** ﴾، و (الثالث) ولقد فتنا سليمان بسبب مرض شديد ألقاه الله عليه، وألقينا على كرسيه منه جسداً وذلك لشدة المرض، و (الرابع) لا يبعد أن يقال إنه ابتلاء الله تعالى بتسليط خوف وتوقع بلاء من بعض الجهات عليه، وصار بسبب قوة ذلك الخوف كالجسد

الضعيف الملقى على ذلك الكرسي، ثم أزال الله عنه ذلك الخوف وأعاده إلى ما كان عليه من القوة وطيب القلب[1].

وأياما كان الأمر، فإن العلماء المحققين إنما يذهبون إلى أن يكون بيان الفتنة في قول سليمان عليه السلام وهو ما يتصل أيضاً بالخيل اتصالاً قريباً، فيما أخرجه البخاري عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال: قال سليمان بن داود عليهما السلام، لأطوفن الليلة على مائة امرأة أو تسع وتسعين[2] كلهن يأتي بفارس يجاهد في سبيل الله، فقال له صاحبه قل إن شاء الله، فلم يقل إن شاء الله، فلم تحمل منهن إلا امرأة واحدة جاءت بشق رجل، والذي نفس محمد بيده لو قال إن شاء الله لجاهدوا في سبيل الله فرساناً أجمعون»[3]، والمراد بشق رجل، تفسره رواية أخرى عند البخاري أيضاً في كتاب الأنبياء بلفظ «إلا واحداً ساقطاً أحد شقيه» أيَ مشلولاً فاقداً لكثير من مظاهر الرجولة، ولما رأى سليمان عليه السلام حرمانه مما تمنى من الولد للجهاد بهم في سبيل الله، لأنه لم يقل إن شاء الله، علم أنه ابتلى فأسرع إلى الإنابة إلى الله تعالى والرجوع إليه بالتوبة من عدم استثنائه في طلبه واستعانته بمشيئة الله تعالى ثم استغفر ربه، متذللاً خاشعاً راجياً عفوه ومغفرته وفضله فقال: **﴿رب اغفر لي وهب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من**

---

(١) تفسير الفخر الرازي ٢٦/ ٢٠٨ - ٢٠٩.

(٢) كانت زوجات سليمان يبلغن المائة أو أقل، كما جاء في روايات الحديث المتعددة عند البخاري (صحيح البخاري ٤/ ٢٧، ١٩٧، ٧/ ٥٠، ٨/ ١٦٢، ١٨٢، ٩/ ١٦٩) ثم قارن ذلك برواية التوراة التي جعلتهن لفا «سبع مائة من النساء السيدات، وثلاث مئة من السراري (ملوك أول ١١/ ١ - ٤) وكذا قارنه بما جاء في كتب المفسرين والمؤرخين التي وافقت رواية التوراة (تاريخ ابن خلدون ١/ ١١٣، الكامل لابن الأثير ١/ ١٢٩) وفي رواية اليعقوبي ١/ ٥٩) أنهن سبعمائة، وفي تفسير الطبري (٢٣/ ١٦٢ - ١٦٣) عن ابن عباس قال: كان سليمان في ظهره ماء مائة رجل بان له ثلاث مئة امرأة، وتسع مئة سرية».

(٣) صحيح البخاري ٤/ ٢٧، وانظر: تفسير القرطبي ص ٥٦٤٥ - ٥٦٤٦.

بعدي﴾[1] ليستعين بذلك الملك على الجهاد في سبيل الله ، ناشراً لدين الله ، مقيماً لأحكام شرعه ، فيحقق به من النصر على أعدائه أكثر مما كان يؤمله فيما فاته من إنجاب مائة ولد .

(١) سورة ص : آية ٣٥، وانظر : تفسير القرطبي ص ٥٦٤٨ - ٥٦٤٩ .

الفصل الثاني

بناء المسجد الأقصى

المسجد الأقصى أو بيت المقدس، موطن العديد من الأنبياء والمرسلين، ابتداءً من أبيهم إبراهيم وحتى عيسى ابن مريم عليهم السلام، وثاني مسجد وضع في الأرض بعد الكعبة البيت الحرام[1] وأولى القبلتين[2]، وثالث الحرمين الشريفين[3]، ومسرى النبي الأعظم سيدنا ومولانا محمد رسول الله ﷺ، وصدق الله العظيم حيث يقول: ﴿**سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله**﴾[4]، وليس هناك من شك في أن هذا الإسراء أو هذه الرحلة المباركة من المسجد الحرام في مكة المكرمة إلى المسجد الأقصى في القدس الشريف إنما هي رحلة مختارة من اللطيف الخبير، تربط بين عقائد التوحيد الكبرى من لدن إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام إلى محمد ﷺ رسول الله وخاتم النبيين،

---

(١) صحيح البخاري ٤/ ١٧٧، صحيح مسلم ١/ ٣٧٠، ٢/ ١٥٣ - ١٥٤، مسند الإمام أحمد ٥/ ١٥٠، ١٦٧، تفسير القرطبي ص ١٣٧٩، تفسير المنار ٤/ ٦ - ٧.

(٢) انظر: سورة البقرة: آية ١٤٢ - ١٤٤، صحيح البخاري ٦/ ٢٥ - ٢٧، صحيح مسلم ٢/ ١٦٠ - ١٦٢، مسند الإمام أحمد ٥/ ٢٤٦ - ٢٤٧، مجمع الزوائد للهيثمي ٢/ ١٣.

(٣) انظر: صحيح مسلم ١/ ٥٤١ (القاهرة ١٩٧١)، الزركشي: إعلام الساجد بأحكام المساجد ص ٢٨٧.

(٤) سورة الإسراء: آية، وانظر: تفسير القرطبي ص ٣٨١٩ - ٣٨٢٨، تفسير ابن كثير ٣/ ٥ - ٤١، فتح الباري ٧/ ١٥٩ - ١٧٣، صحيح البخاري ٥/ ٦٦ - ٦٩/ ١٤٠.

وتربط بين الأماكن المقدسة لديانات التوحيد جميعاً ، وكأنما أريد بهذه الرحلة المباركة إعلان وراثة النبي الخاتم محمد ﷺ لمقدسات الرسل قبله ، واشتمال رسالته على هذه المقدسات ، وارتباط رسالته بها جميعاً ، ولهذا فقد جمعوا له هناك كلهم فأمهم في محلتهم ودارهم ، فدل على أنه هو الإمام الأعظم ، والرئيس المقدم ، صلوات الله وسلامة عليهم أجمعين ، ومن ثم فقد كانت رحلة الإسراء ترمز إلى أبعد من حدود الزمان والمكان ، وتشمل آماداً وآفاقاً أوسع من الزمان والمكان ، وتتضمن معاني أكبر من المعاني القريبة التي تتكشف عنها للنظرة الأولى[1] .

ولعل سائلاً يتساءل : من هذا الذي نال شرف بناء المسجد الأقصى؟

أخرج الإمام أحمد وابن ماجه وابن خزيمة وابن حبان والحاكم والنسائي (واللفظ له) بأسانيدهم عن عبدالله بن فيروز الديلمي عن عبدالله بن عمرو بن العاص عن رسول الله ﷺ أنه قال : إن سليمان بن داود عليهما السلام ، لما بنى بيت المقدس سأل الله عز وجل خلا لا ثلاثة ، سأل الله عز وجل حكماً يصادف حكمه فأوتيته ، وسأل الله ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده فأوتيه ، وسأل الله عز وجل حين فرغ من بناء المسجد أن لا يأتيه أحد لا ينهزه إلا الصلاة فيه ، أن يخرجه من خطيئته كيوم ولدته أمه»[2] .

وروى البخاري ومسلم عن أبي ذر قال : قلت يا رسول الله أي مسجد وضع في الأرض أول ، قال المسجد الحرام ، قلت ثم أي ، قال المسجد الأقصى ، قلت كم كان بينهما ، قال أربعون سنة ، ثم أينما أدركتك الصلاة

---

(١) في ظلال القرآن ٤/ ٢٢١٢ ، تفسير ابن كثير ٣/ ٥ .

(٢) سنن النسائي ٢/ ٤٣ ، سنن ابن ماجه ١/ ٤٥١ ، انظر : جامع الأصول جـ ٩ حديث ٦٣٠٧ ، صحيح الجامع الصغير : حديث ٢٠٨٦ ، البداية والنهاية ٢/ ٢٦ ، تفسير ابن كثير ٤/ ٥٨ .

بعده فصله، فإن الفضل فيه»[1]، وفي رواية عن أبي ذر أيضاً قال: قلت يا رسول الله أي مسجد وضع في الأرض أول، قال المسجد الحرام ثم قلت أي، قال المسجد الأقصى، قلت كم بينهما، قال أربعون سنة، وأينما أدركتك الصلاة فصل فهو مسجد»[2]. هذا وقد أثار هذان الحديثان الشريفان جدلاً بين العلماء، على أساس أن إبراهيم عليه السلام هو باني البيت الحرام، وأن سليمان عليه السلام هو باني المسجد الأقصى، وبينهما ما يقرب من ألف عام[3]، ومن ثم فقد ذهب أبو جعفر الطحاوي بأن الوضع غير البناء، والسؤال عن مدة ما بين وضعهما، لا عن مدة ما بين بنائهما، فيحتمل أن يكون واضع المسجد الأقصى بعض الأنبياء قبل داود وسليمان، ثم بنياه بعد ذلك[4]، ولعل قريباً من هذا ما ذهب إليه ابن الجوزي والقرطبي بأنه ليس المراد أن إبراهيم عليه السلام هو الذي أسس بناء الكعبة المشرفة[5]، ولا أن سليمان عليه السلام بنى بناء بيت المقدس، وإنما هما جددا ما كان قد

---

(١) صحيح البخاري ٤/ ١٧٧، صحيح مسلم ١/ ٣٧٠.

(٢) صحيح مسلم ٢/ ١٥٣ - ١٥٤ (القاهرة ١٩٧١)، مسند الإمام أحمد ٥/ ١٥٠، ١٦٧، تفسير الطبري ٧/ ٢٢، تفسير ابن كثير ٢/ ٦٣، تفسير القرطبي ص ١٣٧٩، تفسير المنار ٤/ ٦ - ٧.

(٣) الواقع أن الفترة بين وفاة إبراهيم وولادة سليمان عليهما السلام، لا تصل أبداً إلى ألف عام، فإبراهيم عاش في الفترة (١٩٤٠ - ١٧٦٥ ق. م) وسليمان عاش في الفترة (٩٧٣ - ٩٢٢ ق. م).

(٤) صحيح مسلم ٢/ ١٥٣ (هامش/ ٢).

(٥) الرأي عندي أن الكعبة المشرفة ترجع في بنائها إلى إبراهيم وولده إسماعيل عليهما السلام، دون غيرهما من العالمين ويرى ابن كثير وغيره من العلماء أنه لم يجيء في خبر صحيح عن المعصوم ﷺ أن البيت كان مبنياً قبل الخليل عليه السلام، ومن تمسك في هذا بقوله مكان البيت فليس بناهض ولا ظاهر، لأن المراد مكانه المقدر في علم الله المقرر في قدرته، المعظم عند الأنبياء موضعه من لدن آدم إلى زمن إبراهيم (ابن كثير: البداية والنهاية ١/ ١٦٣، ٢/ ٢٩٨، تفسير المنار ١/ ٤٦٦ - ٤٦٧، الكشاف ١/ ٤٤٦، تفسير الطبري ٣/ ٧٠، محمد بيومي مهران: دراسات تاريخية في القرآن الكريم ١/ ١٨٣ - ١٨٥.

أسسه غيرهما[1] ، كما ذهب برهان الدين الزركشي إلى أن سليمان عليه السلام، إنما كان له من المسجد الأقصى تجديده لا تأسيسه[2] على أن الأستاذ رشيد رضا يذهب إلى أن هذا التفسير ضعيف لأنه سماه بيتاً ، ولو جعل المكان مسجداً ولم يبن فيه لما سمى بيتاً ، بل مسجد أو قبلة ، ثم إن ذلك مبنى على القول بأن إبراهيم هو الذي بنى أول مسجد للعبادة في أرض بيت المقدس ، وذلك معقول ، وإن لم يكن عندنا نص صريح[3] .

هذا ويذهب ابن قيم الجوزية إلى أن الذي أسس بيت المقدس إنما هو يعقوب عليه السلام، وأن سليمان كان مجدداً له ، وإلى هذا ذهب ابن كثير أيضاً ، حيث يقول : وعند أهل الكتاب أن يعقوب عليه السلام هو الذي أسس المسجد الأقصى[4] ، وهو مسجد إيليا بيت المقدس شرفه الله ، وهذا متجه ويشهد له ما ذكرناه من الحديث (يعني حديث أبي ذر المشهور) فعلى هذا يكون بناء يعقوب ، وهو إسرائيل عليه السلام، بعد بناء الخليل وابنه إسماعيل المسجد الحرام بأربعين سنة سواء[5] كما ذهب إلى نفس الرأي

---

(١) فتح الباري ٦/ ٤٠٨ ، تفسير القرطبي ٤/ ١٣٨ .

(٢) الزركشي : إعلام الساجد بأحكام المساجد ص ٣٠ .

(٣) تفسير المنار ٤/ ٧ (القاهرة ١٩٧٣) .

(٤) يذهب أهل الكتاب ، كما جاء في العهد القديم ، إلى أن داود عليه السلام، كان أول من فكر في بناء المسجد الأقصى ، بل وقد اشترى مكانه من رجل يبوسى يدعى «أرنان» (أرونا أو أرونة) كان قد اتخذه جرناً أو بيدر ، وكان قد عرض على داود أن يأخذ المكان بلا مقابل ، فرفض داود واشتراه منه ، وكذا بقراً ليقدمه محرقة للرب ، بخمسين شاقلاً من الفضة ، وتذهب الرواية إلى داود قد منع من بناء البيت ، لأن ذلك سيكون من نصيب ولده سليمان ، ولكنها قد سجلت معاونة داود الفعالة لولده سليمان في إقامة البيت ، وذلك بتجهيز المواد اللازمة للبناء ، فضلاً عن كميات من الذهب والفضة والنحاس والحديد وغيرها (صموئيل ثان ٢٤/ ١٦ ـ ٢٥ ، أخبار أيام ثان ٢٢/ ١ ـ ١٩ ، محمد بيومي مهران : إسرائيل ٢/ ٨٤٣ ـ ٨٤٤ ، تاريخ ابن خلدون ٢/ ١١١ ـ ١١٢) ثم قارن : تفسير ابن كثير ٤/ ٥٨ (ط بيروت ١٩٨٦) .

(٥) ابن كثير : البداية والنهاية ١/ ١٦٣ ، ٢/ ٢٩٨ .

الزركشي في إعلام الساجد[1]، والحميري في الروض المعطار[2]، وأخيراً فلقد ربط البعض بناء المسجد الأقصى، كما ربطوا بناء المسجد الحرام من قبل، بالملائكة، وربطه آخرون بآدم عليه السلام، بل إن فريقاً رابعاً ربطه بسام بن نوح عليه السلام[3]، وجاء في تفسير القرطبي أن آدم هو الذي بنى المسجد الأقصى، بعد بنائه للبيت العتيق بأربعين عاماً، وأن يعقوب قد أقام قواعده وجدده فقط، بعد أن رفع جده إبراهيم عليه السلام القواعد من البيت العتيق[4].

ويذهب الدكتور عويد المطرفي إلى أن أقرب الروايات إلى المعقول أن الذي بنى المسجد الأقصى تأسيساً، إنما هو سيدنا إبراهيم الخليل عليه السلام، بعد فراغه من بناء الكعبة المشرفة، ورجوعه إلى مستقرة بالشام[5]، كما استظهر ذلك أبو حيان في تفسيره لقوله تعالى: **﴿إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركاً وهدى للعالمين﴾**[6]، من أن إبراهيم عليه السلام، كما وضع الكعبة، وضع بيت المقدس[7].

وفي الواقع فإن كثيراً من المفسرين والمؤرخين إنما يذهبون إلى أن سليمان عليه السلام هو الذي بنى بيت المقدس، ففي تفسير أبي السعود أن سليمان لما أتم بناء بيت المقدس تجهز للحج، وهناك في مكة كان يذبح كل

(١) الزركشي: المرجع السابق ص ٣٠.

(٢) الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، بيروت ١٩٧٥ ص ٥٥٦.

(٣) مجير الدين الحنبلي: الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل النجف ١٣٨٨ هـ، الجزء الأول ص ٨، فتح الباري ٦/ ٤٠٩، الزركشي: المرجع السابق ص ٣٠.

(٤) تفسير القرطبي ٤/ ١٣٨، فتح الباري ٦/ ٤٠٨ - ٤٠٩.

(٥) عويد المطرفي: المرجع السابق ص ١٤٩.

(٦) سورة آل عمران: آية ٩٦.

(٧) تفسير البحر المحيط ٣/ ٦.

يوم طول مقامه خمسة آلاف ناقة، وخمسة آلاف بقرة، وعشرين ألف شاه[1]، ويقول الحافظ السهيلي: وبيت المقدس بناه سليمان عليه السلام، وكان داود عليه السلام قد ابتدأ مبناه فأكمله ابنه سليمان عليه السلام، واسمه إيلياء، وتفسيره العربية: بيت الله[2]، ذكره البكري، وفي الصحيح أنه وضع للناس بعد البيت الحرام بأربعين سنة، وهذا يدل على أنه قد كان بنى أيضاً في زمن إسحاق ويعقوب عليهما السلام، ولكن بنيانه على التمام وكمال الهيئة كان على عهد سليمان عليه السلام[3]، ويقول الطبري في التاريخ: وأصاب بني إسرائيل في زمان داود طاعون جارف، فخرج بهم إلى موضع بيت المقدس يدعون الله ويسألونه كشف ذلك البلاء عنهم، فاستجيب لهم، فاتخذوا ذلك الموضع مسجداً، وكان ذلك فيما قيل، لإحدى سنة مضت من ملكه، وتوفي قبل أن يستتم بناءه، فأوصى إلى سليمان باستتمامه، وقتل القائد الذي قتل أخاه (يعني يوآب الذي قتل أبشالوم كما ذكرنا من قبل) فلما دفنه سليمان نفذ لأمره في القائد وقتله واستتم بناء المسجد، ثم يتحدث الإمام الطبري بعد ذلك عن التعداد الذي قام به داود في بني إسرائيل، والبلايا التي حاقت بالقوم بسببه، كما أشرنا من قبل، وأن داود استغفر ربه وطلب العفو عن بني إسرائيل، فاستجاب الله لهم ورفع عنهم الموت، فرأى داود الملائكة سالين سيوفهم يغمدونها، يرتقون في سلم من ذهب عن الصخرة إلى السماء، فقال داود: هذا مكان ينبغي أن يبنى فيه مسجد، فأراد داود أن يأخذ في بنائه، فأوحى الله إليه أن هذا بيت مقدس، وأنك قد صبغت يديك في الدماء، فلست ببانية، ولكن ابن لك أملكه بعدك أسميه سليمان

---

(١) تفسير أبي السعود ٦/ ٢٧٨، وانظر تاريخ ابن خلدون ٢/ ١١٣.

(٢) قارن: (محمد بيومي مهران: إسرائيل الجزء الثاني ص ١١٥٥ - ١١٥٨، الإسكندرية ١٩٧٩).

(٣) مختصر تفسير ابن كثير ٢/ ٣٥٤، هامش/ ١.

أسلمه من الدماء، فلما ملك سليمان بناه وشرفه[١]: ويتفق ابن الأثير في روايته مع الطبري تماماً[٢].

ويقول المسعودي: وابتدأ سليمان ببنيان بيت المقدس، وهو المسجد الأقصى، الذي بارك الله عز وجل حوله[٣]، ويقول اليعقوبي: وابتدأ سليمان في بيت المقدس وقال: إن الله أمر أبي داود أن يبنى بيتاً، وإن داود شغل بالحروب، فأوحى الله إليه أن ابنك سليمان يبنى البيت باسمي، فأرسل سليمان في حمل خشب الصنوبر وخشب السرو، ثم بنى بيت المقدس بالحجارة، فأحكمه ولبسه الخشب من الداخل، وجعل الخشب منقوشاً، وجعل له هيكلاً مذهباً، وفيه آلة الذهب ثم أصعد تابوت السكينة فجعله في الهيكل، وكان في التابوت اللوحان اللذان وضعهما موسى[٤]، ويقول ابن خلدون: ولأربع سنين من ملكه (أي سليمان) شرع في بناء بيت المقدس بعهد أبيه إليه بذلك، وقد تم بناء الهيكل في سبع سنين[٥].

هذا وقد أشرنا من قبل إلى الحديث الشريف الذي يقول فيه سيدنا رسول الله ﷺ: «إن سليمان عليه الصلاة والسلام لما بنى بيت المقدس سأل ربه عز وجل خلالاً ثلاثاً، سأل الله عز وجل حكماً يصادف حكمه فأوتيه، وسأل الله عز وجل ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده فأوتيه، وسأل الله عز وجل حين فرغ من بناء المسجد أن لا يأتيه أحد لا ينهزه إلا الصلاة فيه أن يخرجه من خطيئته كيوم ولدته أمه»[٦]، وعن رافع بن عمير قال سمعت رسول

---

(١) تاريخ الطبري ١/ ٤٨٤ ـ ٤٨٥، ثم قارن: صموئيل ثان ٧/ ١ ـ ١٧، ٢٤/ ١٦ ـ ٢٤.

(٢) الكامل لابن الأثير ١/ ١٢٧ ـ ١٢٨.

(٣) مروج الذهب للمسعودي ١/ ٧٠، وانظر ١/ ٦٩.

(٤) تاريخ اليعقوبي ١/ ٥٨.

(٥) تاريخ ابن خلدون ٢/ ١١١ ـ ١١٣، ثم قارن ملوك أول ٦/ ١ ـ ٩/ ٢٥.

(٦) سنن النسائي ٢/ ٤٣، سنن ابن ماجه ١/ ٤٥١، تفسير ابن كثير ٤/ ٥٨.

الله ﷺ يقول: قال الله عز وجل لداود عليه الصلاة والسلام ابن لي بيتاً في الأرض، فبنى داود بيتاً لنفسه قبل البيت الذي أمر به فأوحى الله إليه يا داود نصبت بيتك قبل بيتي، قال يا رب هكذا قضيت من ملك استأثر، ثم أخذ في بناء المسجد فلما تم السور سقط ثلاثاً فشكا ذلك إلى الله عز وجل، فقال يا داود إنك لا تصلح أن تبني لي بيتاً قال ولم يا رب، قال لما جرى على يديك من الدماء، قال يا رب أو ما كان ذلك في هواك ومحبتك، قال بلى ولكنهم عبادي وأنا أرحمهم، فشق ذلك عليه فأوحى الله إليه لا تحزن فإني سأقضي بناءه على يدي ابنك سليمان، فلما مات داود أخذ سليمان في بنائه، ولما تم قرب القرابين وذبح الذبائح وجمع بني إسرائيل، فأوحى الله إليه قد أرى سرورك ببنيان بيتي، فسلني أعطك، قال أسألك ثلاث: خصال، حكماً يصادف حكمك، وملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي، ومن أتى هذا البيت لا يريد إلا الصلاة فيه خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه، قال رسول الله ﷺ: أما الثنتان فقد أعطيهما، وأنا أرجو أن يكون قد أعطى الثالثة»[1].

وانطلاقاً من كل هذا، فإنني أميل، حدساً عن غير يقين، إلى أن إبراهيم عليه السلام، هو الذي وضع الأسس للمسجد الأقصى، على أساس أن رواية مسلم إنما تتحدث عن أول مسجد، وليس أول بيت، وهي العقبة التي احتج بها صاحب تفسير المنار، وعلى أساس ما جاء في الأحاديث الشريفة من أن سليمان هو الذي بنى بيت المقدس، وعلى أساس ما ذهب إليه جمع كبير من المؤرخين من أن سليمان قد بنى المسجد الأقصى بعهد أبيه إليه بذلك، وعلى أساس أن إبراهيم عليه السلام، طبقاً لرواية العهد القديم[2]، إنما قد زار القدس، وأنه قد أقام المحاريب لله في فلسطين،

---

(١) تفسير ابن كثير ١/ ٥٨ (ط بيروت ١٩٨٦).

(٢) تكوين ١٢/ ٦ - ٩، ١٤/ ١٩ - ٢٠.

وخاصة في شكيم وبيت إيل وبلوطات ممراً، ومن ثم فليس هناك ما يمنع من أن يكون أبو الأنبياء قد فعل الشيء نفسه في القدس، هذا فضلاً عن أنه إذا ما كان صحيحاً ما ذهبنا إليه في هذه الدراسة وغيرها من أن إبراهيم عليه السلام كان يعيش في الفترة (١٩٤٠ - ١٧٦٥ق.م) وأنه قد بنى الكعبة البيت الحرام حوالي عام ١٨٢٤ قبل الميلاد[1]، ومن ثم فإن بناءه أو وضعه لأسس المسجد الأقصى بعد ذلك بأربعين عاماً، أي حوالي عام ١٧٨٤ قبل الميلاد، يكون أمراً مقبولاً، وأن ذلك قد تم قبل أن يولد حفيده يعقوب عليه السلام بأربع سنوات ذلك لأنه طبقاً لما جاء في هذه الدراسة، وكما أشار العهد القديم[2]، فإن الخليل عليه السلام قد رزق بولده إسحاق عليه السلام، وقد أكمل المائة من عمره (بعد أن رزق بإسماعيل وهو في السادسة والثمانين من عمره) وقد عاش إسحاق ١٨٠ عاماً، ومن ثم فهو كان يعيش في الفترة (١٨٤٠ - ١٦٦٠ ق. م)، وأن يعقوب كان يعيش في الفترة (١٧٨٠ - ١٦٣٣ ق. م) على أساس أنه ولد لأبيه إسحاق، وهو في الستين من عمره، وأنه عاش ١٤٧ سنة، وأن بنى إسرائيل قد دخلوا مصر حوالي عام ١٦٥٠ قبل الميلاد، حين كان يعقوب في الثلاثين بعد المائة من عمره[3]، وأما سليمان فهو الذي بدأ بناء المسجد الأقصى، الذي وضع إبراهيم أسسه، في عام حكمه الرابع، حوالي عام ٩٥٧ قبل الميلاد[4].

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة هنا بإيجاز إلى رواية العهد القديم

---

(١) انظر عن بناء الكعبة المشرفة (محمد بيومي مهران: دراسات تاريخية من القرآن الكريم ١/ ١٨٣ - ١٩٧).

(٢) تكوين ١٧/ ١٧، ٢٥/ ٢٦، ٣٥/ ٢٨، ٤٧/ ٩، ٢٨.

(٣) انظر: محمد بيومي مهران: إسرائيل ١/ ٨٠ - ٨٢، دراسات تاريخية من القرآن الكريم ١/ ١٩٤ - ١٩٥.

(٤) انظر: محمد بيومي مهران: إسرائيل ٢/ ٨٤٠ - ٨٦٠.

عن بناء المسجد الأقصى، والذي تدعوه بيت الرب، حيث تذهب إلى أن مكان البيت إنما كان على جبل المريا في بيدر أرونه اليبوسي، فاشتراه منه داود ومعه بقر للقرابين بخمسين شاقلاً من الفضة[1]، هذا وتشير الرواية بوضوح إلى أن داود عليه السلام إنما كان أول من فكر في إقامة بيت للرب، إلا أن فكرته هذه لم تجد قبولاً حسناً من رب إسرائيل، الذي كان يدخر هذا العمل لولده سليمان[2]، ومع ذلك فإن داود عليه السلام، قبل أن ينتقل إلى جوار ربه، راضياً مرضياً عنه، أراد أن يسجل معاونته الفعالة لولده سليمان في إقامة بيت الرب، فأخذ يجهز المواد اللازمة للبناء، وكان القوم في عصره ما يزالون في بداوة بدائية، يندر فيهم من يعرف أصول حرفة أو صناعة أو علم من علوم الدنيا، وسنرى أن الاعتماد على الفينيقيين كان الحل الوحيد الممكن أمام داود وسليمان حتى يرتفع هيكل الرب، ونقرأ في التوراة أن داود قد «أمر بجميع الأجانب الذين في أرض إسرائيل فاتخذ نحاتين لنحت حجارة مربعة لبناء بيت الله، وهيأ داود حديداً كثيراً للمسامير لمصاريع الأبواب والأوصال، ونحاساً كثيراً بلا وزن، وخشب أرز لم يحدد له عدد»، هذا فضلاً عن كميات كبيرة من الذهب والفضة والنحاس والحديد والخشب[3].

وهكذا، وفي ربيع السنة الرابعة من عهد سليمان (حوالي عام

---

(1) من عجب أن بعض الروايات العربية التي تنسب إلى أبي بن كعب تذهب إلى أن صاحب المكان غلام إسرائيلي، وليس يبوسياكنعانياً، وأن داود أراد أن يغتصبه منه، فنهاه ربه عن ذلك، ومن ثم فقد اشتراه بتسعة قناطير من الذهب (السمهودي: وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى ١/ ٣٤٣ ط القاهرة ١٣٢٠ هـ) والثمن جهد مغالاً فيه، بل إن رواية التوراة جعلت ثمنه هو والبقر، خمسين شاقلاً من الفضة صموئيل ثان ٢٤/ ٢٤).

(2) صموئيل ثان ٧/ ١ - ١٧، ٢٤/ ٢٦ - ٢٤، ملوك جول ٢/ ٢، وانظر: تفسير ابن كثير ١/ ٥٨، تاريخ اليعقوبي ١/ ٥٨، تاريخ ابن خلدون ١/ ١١١، ابن الأثير ١/ ١٢٧ - ١٢٨.

(3) أخبار أيام أول ٢٢/ ٢ - ١٦، أخبار أيام ثان ٢/ ١٧ - ١٨.

٩٥٧ ق. م) وضع الحجر الأساسي لبناء بيت المقدس الذي استمر العمل فيه قائماً على قدم وساق سبعة أعوام، ثم واصل مهرة الصناع والفعلة العمل ثلاثة عشر عاماً بعد ذلك ليشيدوا صرحاً أكبر يسكن فيه سليمان ونساؤه[١].

هذا ولم يقدم لنا موقع المعبد أي دليل الاعتماد عليه لتحقيق تصميمه، ومن هنا فإن أية محاولة في هذه المجال لا تزيد عن كونها مجرد اجتهاد[٢]، غير أن المعلومات التي يوفرها سفر حزقيال (٤٠ - ٤٤) للمعبد الجديد، ربما تجعل من الإمكان استعادة تخطيطه، كما يمكن قول شيء عن شكله الخارجي وتنظيمه الداخلي[٣]، ومن ناحية أخرى فإن المعلومات التي جاءت في سفر الملوك الأول (٦/ ١ - ٣٨) إنما تشير بوضوح إلى التأثير المصري والعراقي، رغم الإشادة المستمرة بالمساعدة الفينيقية وبضخامة الإنفاق[٤].

ونقرأ في التوراة أن سليمان عليه السلام، إنما أقام حفلاً كبيراً بمناسبة الانتهاء من بناء المسجد الأقصى، دعا إليه شيوخ إسرائيل وكل رؤوس الأسباط «لإصعاد تابوت عهد الرب من مدينة داود، وأن الجميع، وعلى رأسهم سليمان، قد اجتمعوا أمام التابوت «يذبحون من الغنم والبقر ما لا يحصى ولا يعد من الكثرة، وأدخل الكهنة تابوت عهد الرب إلى مكانه في محراب البيت، في قدس الأقداس، وهنا ملأ الغمام بيت الرب، حتى أن الكهنة، ما كانوا بقادرين على أداء الطقوس الدينية، ويعلن سليمان أن الرب إنما يسكن في الضباب[٥]، ونقرأ في سفر الملوك الأول (٨/ ٢٢ - ٥٣)

---

(١) ملوك أول ٦/ ١ - ٢، ٣٧ - ٣٨، ٧/ ٢، وانظر: تاريخ ابن خلدون ٢/ ١١٢ - ١١٣.

(٢) J. L. Myres, Reconstructing Solomon's Temple and other Buldings and works of Art, PEQ, 80, 1948, P. 14 F وكذا P. L. Garlier, Reconstructing Solomon's Temple, BA, 14, 1951, P. 12 F.

(٣) O. Eissfeldt, op - cit, p. 598.

(٤) أندريه إيمار وجانين أو بوايه: المرجع السابق ص ٢٦٧.

(٥) ملوك أول ٨/ ١ - ١٣.

دعوات سليمان الحارة إلى الله تعالى، ثم ينهض من أمام المذبح، ويداه مبسوطتـان إلى السماء، ليعلن أمام خراف بيت إسرائيل الضالة «ليعلم كل شعوب الأرض أن الرب هو الله، وليس آخر، فليكن قلبكم كاملاً لدى الرب إلّهنا، إذ تسيرون في فرائضه، وتحفظون وصاياه»[١]، ثم يشكر الرب على أنعمه التي أسبغها عليه وعلى بيت أبيه من قبل، سائلاً إياه سبحانه وتعالى أن يجيب دعوات بنـي إسـرائيل حين يدعونـه في هذا البيت، وأن يغفـر لهـم خطاياهم[٢]، ثم تنتهي الاحتفالات بتقديم الذبائـح لرب إسـرائيل، والتـي بلغت عدداً كبيراً جداً، وصل إلى «اثنين وعشرين ألفاً من البقر، ومن الغنم مئة ألف وعشرين ألف، فدشن الملك وجميع بني إسرائيل بيت الرب»[٣].

وعلى أية حال، فإن المسجد الذي بناه سليمان إنما قد دمر تماماً أثناء غزو «نبوخذنصر» للقدس عام ٥٨٦ ق. م ونهب الغزاة القدس وأشعلوا فيها النيران وأحرقوا القصر الملكي والمسجد، وهكذا ضاع كل أثـر للمسجـد، ومعه البقية الباقية من التابوت الذي كفت الروايات عن ذكره بعد نقله لمعبد سليمان[٤]، ولم يستطع القوم إعادة البناء إلا عام ٥١٥ ق. م.، على أيام الملك الفارسي «داراً الأول»[٥]، ثم دمر المعبد الثاني هذا عام ٧٠ م على يد القائد الروماني تيتـوس، وأضرمـت النيران في المدينـة، وهـدم المعبـد وضارعت آثاره تماماً، حتى أن الناس قد نسوا فيما بعد، إذا كان هذا المعبد

---

(١) ملوك أول ٨/ ٦٠ - ٦١.

(٢) ملوك أول ٨/ ٢٥ - ٣٤.

(٣) ملوك أول ٨/ ٦٢ - ٦٥، وانظر: تاريخ ابن خلدون ٢/ ١١٣.

(٤) محمد بيومي مهران، إسـرائيل ٢/ ٩٩٧ - ١٠٠٤، وكذا K. M. Kenyon, Archaeologyin the Haly Land, P. 291 وكذا M. Noth, The History of Israel, London, 1965, p. 287.

(٥) محمد بيومي مهران: إسـرائيل ٢/ ١٠٣٦ - ١٠٤٩، وكذا: عزرا ٣/ ٧، ٦/ ١٥، قاموس الكتاب المقدس ٢/ ١٠١٤، وكذا C. Roth, AShort History of the Jewish People, London, 1969, P. 54 - 55 وكذا S. A. Cook, op - cit, p. 409 وكذا M. Noth, op - cit, p. 314.

على التل الشرقي أو الغربي من المدينة المقدسة[1] .

وفي عام ١٣٥ م استولى الروم على القدس ، ثم أمر الامبراطور «هدريان» (١١٧ ـ ١٣٨ م) بتدمير المدينة تماماً وبنى فوقها مدينة جديدة باسم «إيلياكابيتولينا» (Aelia Capitolina) وأبدل المعبد القديم بمعبد آخر كرس للإله الوثني «جوبتر كابيتولينس» (Jupiter Capitolinus) ثم قام الرومان بمذبحة نهائية ختمت مصير اليهود في فلسطين ، كدولة وكقومية ، وانتهت بذلك علاقة اليهود بفلسطين سياسياً وسكانياً ودينياً[2] .

---

(١) محمد بيومي مهران : إسرائيل ٢/ ١١٥٠ ـ ١١٥٥ ، وكذا C. Roth, op - cit, p. 103 - 107 وكذا W. Keller, the Bible as History, 1967, P. 388.

(٢) محمد بيومي مهران : إسرائيل ٢/ ١١٥٥-١١٥٨ ، وكذا H. Strathmann, P JB, 23, 1927, P. 92 F وكذا A. Schulten, ZDPV, 56, 1933, P. 180 F وكذا M. Noth, op - cit, p. 453 - 454

الفصل الثالث

سليمان وملكة سبأ

جاءت قصة سليمان عليه السلام مع ملكة سبأ في التوراة[1] والإنجيل[2] والقرآن العظيم[3]، وإن اختلفت الكتب الثلاثة في سردها للقصة تبعاً للهدف من القصة لكل منها، غير أنها جميعاً لم تذكر اسم ملكة سبأ، أو الأرض التي كانت تقيم فيها، إلا إذا كان المراد بكلمة سبأ هنا، تلك الدولة التي قامت في الركن الجنوبي الغربي من شبه الجزيرة العربية[4].

ومن عجب أن يذهب بعض النقاد ممن تعرضوا لقصص التوراة بالنقد، إلى أن قصة زيارة ملكة سبأ لسليمان عليه السلام، إنما هي أسطورة من الأساطير دونها كتبة التوراة لبيان عظمة سليمان وحكمته[5]، ولو تريث هؤلاء البعض من النقاد بعض الشيء، ولما وقعوا في هذا المنزلق الخطير، وربما خُيِّل لهؤلاء المتحذلقين من أدعياء التاريخ الذين يجمعون التمحيص كله في الإنكار، أنه خبر يسهل إنكاره بغير حجة، وكأن المنكر لا يطالب بحجة، ولا

---

(١) ملوك أول ١٠/ ١ - ١٣، أخبار أيام ثان ٩/ ١ - ٩.

(٢) إنجيل متى ١٢/ ٤٢.

(٣) سورة النمل: آية ٢٠ - ٤٤.

(٤) قدم المؤلف دراسة مفصلة عن تاريخ دولة سبأ في أدوارها الأربعة (محمد بيومي مهران: دراسات في تاريخ العرب القديم - الرياض ١٩٧٧ ص ٢٦١ - ٣٦٨).

(٥) J. Hastings, A Dictionary of the Bible, Edinburg, 1936, P. 843.

يعاب على النفي الجزاف، والحق أن إنكارنا لأمر تجمع عليه التوراة والإنجيل والقرآن العظيم، لا يتفق ومنهج البحث العلمي، فضلاً عن تعارضه مع إيماننا بما جاء في كتب السماء بإجماع، أضف إلى ذلك إنه ليس في زيارة ملكة سبأ لسليمان عليه السلام أمراً مستحيلاً، أو تصرفاً شاذاً يستوجب الاستنكار، كما يجنح إلى ذلك بعض الباحثين[1]، وخاصة إذا كان هؤلاء الباحثون لهم دراية بقصص القرآن.

على أن هناك فريقاً آخر من الباحثين إنما يذهب إلى أن هذه القصة لا يمكن فهمها جيداً، إلا إذا قدّرنا أن السبئيين إنما كانوا يقطنون في شمال بلاد العرب[2]، ولعل أصحاب هذا الرأي ممن يذهبون إلى أن السبئيين إنما ترجع أصولهم الأولى إلى شمال بلاد العرب، في بلاد الجوف أو قريباً منها، وليس في جنوبها[3]، وأن دولتهم الحقيقية لم تبدأ في جنوب بلاد العرب، إلا حوالي عام ٨٠٠ قبل الميلاد[4]، أي بعد هذه الأحداث بما يقرب من القرن ونصف القرن من الزمان، ومن ثم فإن هذه الملكة التي زارت سليمان عليه السلام، لم تكن ملكة سبأ الشهيرة في اليمن، وإنما كانت ملكة على مملكة

(١) محمد عزة دروزة: تاريخ بني إسرائيل من أسفارهم - بيروت ١٩٦٩ ص ١٦٢ - ١٦٣.

(٢) فريتزهومل: التاريخ العربي القديم ص ٦٣ (مترجم).

(٣) انظر عن: السبئيين والآراء التي دارت حول موطنهم الأصلي (محمد بيومي مهران: دراسات في تاريخ العرب القديم ص ٢٦٥ - ٢٧٠).

(٤) يرى بعض الباحثين أن عصر مملكة سبأ إنما يبدأ حوالي عام ٧٥٠ ق. م ويرى آخرون أنه كان حوالي عام ٨٠٠ ق. م، ويذهب فريق ثالث إلى أنه كان في القرن التاسع قبل الميلاد، والرأي عندي أنه كان في القرن العاشر، أو قبله بقرن، اعتماداً على علاقة ملكة سبأ بسليمان عليه السلام، والذي كان، فيما يجمع المؤرخون، يعيش في القرن العاشر قبل الميلاد (انظر: محمد بيومي مهران: المرجع السابق ص ٢٧١ - ٢٧٣، جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ٢/ ٢٦٩، وكذا BASOR, 173, 1955, p. 38 وكذا

R. Bowen and W. Albright, Archaeological Discoveries in south Arabia, 1958, p. 37

A. Grohmann, Arabien, Munchen, 1963, P. 122. وكذا

صغيرة في أعالي شبه الجزيرة الغربية، كان سكانها من السبئيين القاطنين في الشمال، أو هي ملكة على الحكومات المحلية في منطقة معان والعلا، والتي ورثها السبئيون عن المعينيين[1]، ويستدلون على ذلك بأدلة منها (أولاً) العثور على أسماء ملكات عربيات مثل زبيبة وشمس[2] ويثعي (ياتي) وتلخونو (تعلخونو) وتاربو (بتوءة)[3] وبائلة (باإيلو) وغيرهن في النصوص الآشورية، في حين أن العلماء لم يعثروا حتى الآن على اسم أية ملكة في النصوص العربية الجنوبية، غير أن هذا السبب في حاجة إلى إعادة نظر، ذلك لأن هؤلاء الملكات اللائي ذكرن آنفاً إنما عشن في فترة متأخرة زمنياً عن عصر سليمان عليه السلام، كما أن عدم العثور حتى الآن على أسماء ملكات في اليمن لا يعني بالضرورة عدم وجود ملكات في تاريخ سبأ، كما أنه من المعروف أنه لم تجر حتى الآن حفريات كافية تثبت عدم وجود ملكات في سبأ، ومن يدري فقد تكشف لنا الحفريات في وقت قريب أو بعيد عن أسماء

---

(١) كثيراً ما تخلط الوثائق الآشورية بين ملك معين أو سبأ في جنوب غرب بلاد العرب، وبين الوالي المقيم في العلا ومعان نائباً عن ملك معين أو سبأ، ومن ثم فقد كان الآشوريون يذكرون هذا الوالي كما لو كان هو الملك الجنوبي، وهذا يفسر لنا الإشارات التي ترد في الوثائق السريانية والعبرية عن المعينيين والسبئيين وتذكرهم كما لو كانوا يقيمون في الجنوب الشرقي للبحر الميت، وقد أدى هذا الخلط إلى أن يظن البعض أن الملكين الآشوريين سرجون الثاني وسنحريب قد وصل نفوذهما إلى سبأ نفسها، ومع أن المراد في النصوص الجاليات المعينية والسبئية في العلا ومعان، وإن أطلق الآشوريون على حكامها لقب ملك (محمد بيومي مهران: المرجع السابق ص ٢٧٥ ـ ٢٧٨ وكذا A. Musil, The Northern Hegas, 1926, P. 295.

J. B. Phully, the Background of Islam, p. 141. وكذا F. Hommel, Grundriss, p. 580)

(٢) A. Musil, op - cit, p. 477 وكذا N. Abbot, Pre - Islamic Queens, AJSL, 58, 1941, P. 4 وكذا A. L. Oppenchein, ANET, 1966, P. 288

(٣) D. D. Luckenluill, ARAB, II, 1927, P. 518 وكذا A. L. Oppenheim, op - cit, p. 291 وكذا A. Musill, Arabia Deserta, 1938, P. 480.

ملكات في اليمن، فعلم ذلك عند علام الغيوب.

ومنها (ثانياً) صعوبة تصور زيارة ملكة عربية جنوبية لسليمان عليه السلام، وتعجبها من بلاطه وحاشيته وعظمة ملكه، مع أن بلاط أورشليم (القدس) يجب ألا يكون شيئاً بالنسبة إلى بلاط ملوك سبأ، ومن ثم يجب ألا تكون هذه الملكة التي زارت سليمان، في نظر هذه الجماعة من علماء التوراة وبعض العلماء المحدثين[1]، إلا ملكة عربية صغيرة، لم تكن بعيدة عن عاصمة دولة سليمان في فلسطين، فقد تكون في جبل شمر، وتقع بين الحافة الجنوبية للنقود الكبير، وفي وادي الرمة، وتتكون من سلسلتي جبال أجأ وسلمى، وقد تكون في نجد أو في الحجاز[2].

والرأي عندي، أن من لجأوا إلى المقارنة بين بلاط سليمان عليه السلام، وبلاط ملكة سبأ، للوصول إلى رأي بشأن ملكة سبأ، وهل هي ملكة عربية جنوبية أو شمالية، إنما قد أخطأوا الطريق، فالمقارنة هنا لا تجدي نفعاً ولا تحل المشكلة، كما أنها لا تعقدها، بل إن المقارنة لا تصح هنا أصلاً بحال من الأحوال، وذلك لأن بلاط سليمان، فيما نرى ونؤمن به الإيمان كل الإيمان، إنما يمثل معجزة نبيٍّ، وليس عظمة ملك من الملوك، فالحديث هنا عن سليمان النبي عليه السلام، وليس سليمان الملك، والذي يقرأ الآيات الكريمة التي تحدثت عن القصة، كما جاءت في سورة النمل،

(١) انظر عن هذه الآراء: C. Roth, op - cit, p. 21 - 23 وكذا M. Noth, op - cit, p. 206 وكذا. A. Lods, Op-Cit, P. 368-375 وكذا A. Malamat, JNES, 22, 1963, P. 21, no. 48 - 9, 13 - 16 وكذا H. G Wells, op - cit, p. 76 - 77 وكذا J. H. Breasted, A history of Egypt, P. 529

(٢) جواد علي: المرجع السابق ١/ ٦٣٦، ٢/ ٢٦٢، عبد الفتاح شحاتة: تاريخ الأمة العربية قبل ظهور الإسلام ص ٨٣ - ٨٩ وكذا
J. Montgomery, Arabia and the Bible, Philadelphia, 1934, p. 181
وكذا R. Dussaud, Les Arabes en Syria avant L'Islam, Paris, 1907, p. 10 وكذا
E Dhorm, Revue Biblique, P. 105.

والتي سنوردها هنا بنصها كاملاً فيما بعد، ليعرف تماماً أن الملك سليمان ما كان في استطاعته مثلاً أن يفعل بعرشها ما فعل، وإنما الذي يستطيع ذلك، بإذن الله، إنما هو سليمان النبيّ، ذلك لأن ما حديث إنما كان يمثل معجزة للنبي الكريم، سيدنا سليمان عليه السلام، وصدق الله العظيم حيث يقول تعالى، على لسان سليمان، ﴿ **فلما رآه مستقراً عنده قال هذا من فضل ربي ليبلوني أأشكر أم أكفر، ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن ربي غني كريم** ﴾[1].

أضف إلى ذلك أن سليمان عليه السلام، كما رأينا من قبل، قد منحه الله تعالى كثيراً من المعجزات، فقد علمه الله منطق الطير وسائر لغات الحيوان، فكان يفهم عنها ما لا يفهمه سائر الناس، وربما تحدث معها، كما كان الأمر مع الهدهد والنمل، كما كان جند سليمان عليه السلام مؤلفاً من الإنس والجن والطير، وقد نظم لهم أعمالهم ورتب لهم شؤونهم، فإذا خرج خرجوا معه في موكب حافل يحيط به الجند والخدم من كل جانب، فالإنس والجن يسيرون معه، والطير تظلله بأجنحتها من الحر، هذا فضلاً عن تسخير الريح له، بل وتسخير طائفة من الجن ومردة الشياطين يعملون له من الأعمال مايعجز عنها البشر، كبناء الصروح الضخمة والقصور العالية والقدور الراسيات والجفان التي تشبه الأحواض، وأخيراً، وليس آخراً، فكما الآن الله الحديد لداود أبيه، فقد أسال له عين القطر[2]، وكل تلك أمور من معجزات النبي سليمان عليه السلام، وما كان ولن يكون أبداً لملكة سبأ، أياً كانت، شيء من ذلك، ومن ثم فالمقارنة بين البلاطين غير ذي موضوع.

---

(١) سورة النمل: آية ٣٨ - ٤٠.

(٢) انظر سورة الأنبياء: آية ٨١ - ٨٢، النمل: آية ١٥ - ٣١، سبأ: آية ١٢ - ١٣، ص: آية ٣٠ - ٤٠.

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أننا نستطيع أن نقدم، من آي الذكر الحكيم ومن دراستنا لتاريخ العرب القديم، كثيراً من الأدلة التي تشير بوضوح إلى أن ملكة سبأ التي زارت سليمان عليه السلام، إنما كانت ملكة عربية جنوبية، وأنها كانت تجلس على عرش مملكة سبأ المشهورة في جنوب غرب شبه الجزيرة العربية والتي منها (أولاً) أن الذي يفهم صراحة من القصة القرآنية أن سليمان عليه السلام، لم يكن يعرف شيئاً عن هذه الملكة سواء من ناحية دولتها أو ديانتها[1]، ومن هنا نراه يقول للهدهد، بعد أن أعلمه خبرها قال: ﴿ **سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين** ﴾[2]، وليس من المقبول أن يكون سليمان، وهو الملك العظيم، كما هو النبي الكريم، لا يعرف شيئاً عن ملكة سبئية تقيم في مجاورات فلسطين، وعلى تخوم دولته، خاصة وأن هناك علاقات تجارية بين سبأ وفلسطين، تتولى أمرها الجالية السبئية في العلا ومعان، كما أن فلسطين مقر دولة سليمان، إنما تقع في نهاية طريق القوافل التي تشرف عليهما الجالية السبئية في واحة «ديدان» (العلا) ومعون (معان)، هذا فضلاً عن أن «عصيون جابر» (تل الخليفة على الطرف الشمالي لخليج العقبة) وكانت نقطة بداية تحرك أسطول سليمان التجاري، إنما كانت تمثل محطة هامة في طريق القوافل التجارية القادمة من جنوب بلاد العرب إلى وادي عربة وشرق الأردن حتى سورية، وهو طريق ذو أهمية خاصة للملك سليمان[3]، فكيف لا يعرف سليمان شيئاً عن هذه الملكة الشمالية، سواء كانت ملكة لمملكة مستقلة أو على الجاليات السبئية في العلا ومعان، الأمر الذي يشير بوضوح إلى أن هذه الملكة التي زارت سليمان إنما كانت ملكة في جنوب بلاد العرب حيث تقع دولة سبأ المشهورة.

---

(١) سورة النمل: آية ٢٢ - ٢٦.

(٢) سورة النمل: آية ٢٧.

(٣) O. Eissfeldt, the Hebrew Kingdom, in CAH, II, Part 2, Cambridge, 1975, p. 593.

ومنها (ثانياً) أن النص القرآني صريح في أن هذه الملكة إنما كانت ملكة دولة سبأ، قال تعالى: **﴿وجئتك من سبأ بنبأ يقين﴾** فالآية الكريمة تحدد هنا مجيء الهدهد من سبأ، ولا يعرف التاريخ دولة بهذا الاسم غير دولة سبأ المعروفة في جنوب غرب بلاد العرب، ومنها (ثالثاً) أن وصف القرآن الكريم لملكة سبأ بها **﴿أوتيت من كل شيء ولها عرش عظيم﴾**[1]، يجعلها يقيناً ملكة جنوبية، وليست شمالية، بخاصة وأن القرآن الكريم يصف قومها بالقوة والبأس الشديد، قالوا نحن أولوا قوة وأولوا بأس شديد، «ويصف هذه الملكة بأنها صاحبة الأمر والنهي في دولتها. **﴿والأمر إليك فانظري ماذا تأمرين﴾**[2]، ومن ثم فإن ما جاء في هاتين الآيتين الكريمتين من أوصاف لهذه الملكة وقومها، لا يمكن أن ينطبق على ملكة صغيرة في شمال شبه الجزيرة العربية، وإنما على ملكة عظيمة تجلس على عرش دولة عظيمة تدعى سبأ، ولا يعرف التاريخ دولة بهذه الأوصاف سوى مملكة سبأ المشهورة في جنوب غرب بلاد العرب، وبعبارة أخرى، فإن هذه الملكة إنما هي، على وجه اليقين، ملكة جنوبية، وليست شمالية.

ومنها (رابعاً) أنه من المعروف أن العرب الشماليين إنما كانوا يعبدون الأصنام، بينما سادت عبادة الكواكب عند العرب الجنوبيين، وخاصة عبادة ذلك الثالوث المشهور، والمكون من القمر والشمس والزهرة (وكانت الشمس تمثل فيه دور الأم، ويمثل القمر دور الأب، بينما كانت الزهرة تمثل دور الابن) وقد عبدت الشمس بصفة خاصة في ممالك معين وسبأ وحضرموت وقتبان[3]، والقرآن الكريم صريح في أن ملكة سبأ هذه وقومها إنما كان

---

(١) سورة النمل: آية ٢٣.

(٢) سورة النمل: آية ٣٣.

(٣) كانت إلهة الشمس تسمى عند المعينيين «نكرح»، وعند السبئيين» ذات غضرن» و «ذات حمى» (ذات حميم) بمعنى ذات حرارة أو «ذات الحمى»، والحمى الموضع الذي يحمي، =

يسجدون للشمس من دون الله ، قال تعالى : **﴿وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله﴾**[1] ، ومن ثم فهذا دليل واضح على أن ملكة سبأ التي زارت سليمان عليه السلام إنما كانت ملكة عربية جنوبية ، وليست شمالية .

على أن الغريب من الأمر، أن يزعم المؤرخ اليهودي يوسف بن متي «أن ملكة سبأ هذه إنما هي ملكة أثيوبية ، كما يزعم أن «سبأ Saba » هو اسم عاصمة الأحباش، وأن اسم الملكة هو (maukalis) ، ومن ثم تكون ملكة سبأ حبشية ، وليست عربية[2] ، وأما الروايات الحبشية نفسها فتذهب إلى أن «منيلك» أول ملوك أثيوبيا في القرن العاشر قبل الميلاد، إنما كان ابناً لبطلة الشمي «بلقيس» (أو مكيداً أو مقيداً) وبطل القمر سليمان الحكيم ، ومن ثم فقد حمل ملوك الحبشة (أثيوبيا) من بين ألقابهم لقب «أسديهوذا» أو «الأسد الخارج من سبط يهوذا»[3] حتى نهاية دولتهم في (٢١ مارس ١٩٧٥) ، على أن الأمر بهذه الصورة جد مضلل ، فليس صحيحاً أن اسم عاصمة الأحباش كان «سبأ» كما زعم يوسف اليهودي ، هذا فضلاً عن أن مملكة أكسوم إنما قامت في القرن الأول قبل الميلاد، وليس في القرن العاشر، كما تزعم الروايات الحبشية ، كما أن ملكة سبأ ليست حبشية ، وإنما هي ملكة عربية

= ويخصص للإله أو المعبد أو الملك أو سيد القبيلة ، والمكان الذي يحيط بالمعبد يكون حرماً آمناً لا يجوز لأحد انتهاكه ، وتسمى الشمس عند القتبانيين «ذات صبهرن» و «ذات رحبن» ، وهذا وقد انتسب بعض العرب إلى الشمس فسمي «عبد شمس» ، وطبقاً لرواية الإخباريين فقد كان سبأ الأكبر، أول من تسمى بهذا الاسم ، كما كان أول من تعبد للشمس ، ومن ثم فقد دعى «عبد شمس» (انظر عن التفصيلات والمراجع : محمد بيومي مهران : الديانة العربية القديمة ـ الإسكندرية ١٩٧٨ ص ٢٢ ـ ٢٤ ، ٨٦ ـ ٩٠).

(١) سورة النمل : آية ٢٤ .

(٢) EI, I, P. 720.

(٣) الحيمي الحسن بن أحمد: سيرة الحبشة ـ القاهرة ١٩٥٨ ، نجيب ميخائيل : مصر والشرق الأدنى القديم ٣/ ٣٧٨ ـ ٣٨٥ ، وكذا J. B. Conelbeaux, Histoire de L'Abyssinie, I, P. 108 وكذا E. A. W. Budge, History of Ethiopia, Nulia and Abyssinia, I, London, 1928, P. 193.

تحكم دولة عربية في جنوب غرب شبه الجزيرة العربية، ومن ثم فليس هناك من شك في أن تلك أساطير نشأت بعد هجرة اليهود إلى الحبشة، في القرن السادس قبل الميلاد، أو القرن الأول أو حتى الثاني بعد الميلاد، حتى إن «ليتمان» قد قرأ في بعض نقوش الملك الحبشي «عيزاناً» عبارة «ملك صهيون»، ورغم أن هذا الرجل الذي اعتلى العرش عام ٣٢٥ م، قد اعتنق النصرانية، فربما كانت هناك حركة تبشير باليهودية والنصرانية، أو بمذهب يجمع بين الديانتين[١].

على أن هناك وجهاً آخر للنظر في تفسير الروايات التي تذهب إلى أن ملكة سبأ حبشية، وليست عربية، أقدمه هنا بحذر، واعتمد فيه على فرضين، لا أرجح الواحد على الآخر، أما أول الفرضين فهو أن تلك الروايات ربما كانت نتيجة انتشار آراء التوراة المضطربة حول أصل السبئيين، فهم مرة من الساميين[٢]، وأخرى من الحاميين[٣]، ثم إن سبأ مرة من ولد يقطان[٤]، ومرة من ولد يقشان[٥]، ومن ثم فقد ذهب بعض الباحثين، نتيجة لهذا الاضطراب إلى أن هذا دليلاً على انتشار السبئيين في آسيا (اليمن) وفي أفريقيا (أرتيريا والحبشة)[٦]، وأما الفرض الثاني، فربما كانت نفس تلك الآراء متأثرة بالرأي الذي ينادي بأن مملكة أكسوم نفسها إنما أقامها العرب الجنوبيون[٧].

(١) A. Kammerer, Esia sur L'Histoire Antique D'Abyssinie, Paris, 1926, P. 68.

(٢) تكوين ١٠/ ٢٨.

(٣) تكوين ١٠/ ٧، أخبار أيام أول ١/ ٩.

(٤) تكوين ١٩/ ٢٨.

(٥) تكوين ٢٥/ ١ - ٣، وكذا انظر:

W. F. Allright, The Bible and the Ancient Near East, London, 1961, p. 300.

(٦) J. Hasting, op - cit, p. 40. وكذا EB, P. 2564

(٧) جواد علي ٣/ ٤٥١، جورج فضلو حوراني: العرب والملاحة في المحيط الهندي ص ٨٥ (مترجم)، وكذا.

وتذهب الروايات العربية إلى أن ملكة سبأ هذه إنما كانت تسمى «بلقيس» أو «بلقمة أو يلقمة»[1] ، ويرى أستاذنا الدكتور أحمد فخري، طيب الله ثراه، أن أحد الإسمين، وربما كان يلقمه، نتيجة خطأ في النقل عن الآخر، وربما كان اسم الإله الوثني «الموقاة» (بمعنى إيل قوي، أي الله قوي) يدخل تركيبه، أما اسم «بلقيس» الذي تكرر ذكره في كتب المؤرخين المسلمين، فلم يرد على الإطلاق بين الأسماء السبئية (على الأقل حتى الآن) وهناك احتمال بأنه منقول عن العبرية التي نقلته عن اليونانية، ومعناه «أمة»، أو «جارية»[2] ، وأما أستاذنا الدكتور حسن ظاظا، فالرأي عنده أن اسم هذه الملكة لم يكن يقيناً «بلقيس»، وربما كانت هذه صفة تنطق في العبرية والآشورية «بلجشن» أو «فلجش»، ومعناه العشيقة أو الزوجة غير الشرعية، والراجح أن ملكة سبأ وصمت بذلك من الشعب اليهودي الذي لم يكن يستريح إلى مثل هذه الصلات بين ملوكه والنساء الأجنبيات[3] .

وأياً ما كان اسم ملكة سبأ التي زارت سليمان عليه السلام، وأياً كان السبب في تسميتها بهذا الاسم أو ذاك، كما تذكره المصادر العربية والعبرية واليونانية والحبشية، فالتوراة تزعم أن ملكة سبأ إنما كانت تهدف من وراء زيارتها هذه إلى البحث عن الحكمة وامتحان سليمان، وأنها حينما تأكدت من حكمته وعظمة ملكه، سرعان ما قدست إله إسرائيل، الذي جعل سليمان ملكاً تجري على يديه الحكمة وفصل الخطاب، ثم دعت إله إسرائيل أن يثبت عرشه إلى الأبد «ليكن مباركاً إلهك الذي سر بك وجعلك على كرسي

= F. Altheim and R. Steihl, Die Arabier in der Alten Welt, Berlin, I, 1964, p. 114.

(١) تاريخ الطبري ١/ ٤٨٩، الكامل لابن الأثير ١/ ١٢٩، البكري ٤/ ١٢٩٨، ابن كثير: البداية والنهاية ٢/ ٢١ .

(٢) أحمد فخري: المرجع السابق ص ٧٣.

(٣) حسن ظاظا: المرجع السابق ص ١٣٣ .

إسرائيل، لأن الـرب أحب إسرائيـل إلـى الأبد جعلك ملكـاً لتجري حكماً وبراً»، ثم انتهى بأن تبادل الملكان الهدايا، «وأعطت الملك مئة وعشرين وزنة ذهب وأطياباً كثيرة جداً وأحجار كريمة لم يأت بعد مثل ذلك الطيب في الكثرة الذي أعطته ملكة سبأ للملك سليمان»، وأعطى الملك سليمان لملكة سبأ كل مشتهاها الذي طلبت عدا ما أعطاها إياه حسب كرم الملك سليمان، وذهبت إلى أرضها هي وعبيدها»[1] .

على أن هناك فريقاً من الباحثين إنما يجنح إلى أن زيارة ملكـة سبـأ لسليمان عليه السلام، إنما كانت لتوثيق العلاقات التجارية وتسهيل التعاون التجاري بينهما، بل إن هناك من يزعـم أن هذه الملكـة لم تكـن الحاكـم الفعلي لبلادها[2] ، ولكنها هي التي قامت بالزيارة، ومن ثم فيمكن الاستنتاج من ذلك أنها هي التي رغبت في القيام بأعمال تجارية مع سليمان، وربما كان ذلك لتنظيم سير القوافل التجارية والإشراف عليها، على أن هناك من يرى أن سليمان هو الذي دعا ملكة سبأ لزيارته والإقامة فترة من الزمان في مكان ما من هضاب أدوم لمشاهدة عمال الملك وهم يستخرجون النحاس من المناجم الممتدة من هناك[3] .

وهكذا يبعد هؤلاء الباحثون عن الأهداف الحقيقية لزيارة ملكـة سبـأ لنبيِّ الله سليمان عليه السلام، وإيمانها بدعوة النبي الكريم «قالت رب إني ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين»[4] ، يبعد الباحثون عن

---

(١) ملوك أول ١/ ١ ـ ١٣ .

(٢) تكذب آيات القرآن الكريم هذا الادعاء، كما يبدو ذلك واضحاً من الآيات ٢٣ ـ ٣٥، ٤١ ـ ٤٢، ٤٤ من سورة النمل .

(٣) محمد بيومي مهران : إسرائيل ٢/ ٧٧٢ وكذا

W. Albright, Archaeology and the Religion of Israel, 1963, p. 124

وكذا K. M. Kengon, Excavation in Jerusalem, 1962, in PEQ, 95, 1963, P.7 F.

(٤) سورة النمل : آية ٤٤ .

هذا الهدف النبيل من الزيارة، فيذهبون إلى أن مملكة سليمان إنما كانت في نهاية طريق البخور، وكان وكلاء سليمان يقومون بالإجراءات الجمركية، إن صح هذا التعبير، على البضائع الثمينة، كما كانوا هم الذين يسمحون للقوافل بالاستمرار في رحلتها إلى مصر وفينيقيا وسورية عبر مملكة سليمان في فلسطين، ومن ثم فليس من الغريب أن تصل شهرة سليمان إلى ملكة سبأ[1]، وهكذا «فقد أتت إلى أورشليم بموكب عظيم جداً، بجمال حاملة أطياباً وذهباً كثيراً جداً، وحجارة كريمة، وأتت إلى سليمان وكلمته بكل ما في قلبها»[2].

والحق كل الحق، أن القصة كلها إنما تتصل بدعوة النبي سليمان عليه السلام، وليس بالملك سليمان، ولنقرأ أولاً هذه الآيات الكريمة التي تصور القصة أصدق تصوير، يقول تعالى: ﴿ **وتفقد الطير فقال ما لي لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين، لأعذبنه عذاباً شديداً أو لأذبحنه أو ليأتيني بسلطان مبين، فمكث غير بعيد فقال أحطت بما لم تحط به وجئتك من سبأ بنبأ يقين، إني وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شيء ولها عرش عظيم، وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون، ألا يسجدوا لله الذي يخرج الخبء في السموات والأرض ويعلم ما تخفون وما تعلنون، الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم، قال سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين، اذهب بكتابي هذا فألقه إليهم ثم تول عنهم فانظر ماذا يرجعون، قالت: يا أيها الملأ إني ألقى إلي كتاب كريم، إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم، ألا تعلوا علي وأتوني مسلمين، قالت يا أيها الملأ أفتوني في أمري ما كنت قاطعة أمراً حتى تشهدون، قالوا**

---

(١) جواد علي ٢/ ٢٦٣، وكذا W. Keller, op - cit, p. 213 - 215 S. وكذا J. Hastings, op - cit, p. 843 وكذا O. Eissfeldt, op - cit, p. 593.

(٢) ملوك أول ١٠/ ٢.

نحن أولوا قوة وألوا بأس شديد، والأمر إليك فانظري ماذا تأمرين : قالت إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكـذلك يفعلـون، وإني مرسلة إليهم بهدية فناظرة بم يرجع المرسلـون، فلما جاء سليمان قال أتمدونن بمال فما آتاني الله خير مما آتاكم بل أنتم بهديتكم تفرحون، ارجع إليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ولنخـرجنهم منها أذلة وهم صاغرون، قال يا أيها الملأ أيكم يأتيني بعرشها قبل أن يأتوني مسلمين، قال عفريت من الجن أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك وإني عليه لقوي أمين، قال الذي عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك، فلما رآه مستقراً عنده قال هذا من فضل ربي ليبلوني أأشكر أم كفر ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن ربي غني كريم، قال نكروا لها عرشها ننظر أتهتدي أم تكون من الذين لا يهتدون، فلما جاءت قيل أهكذا عرشك قالت كأنه هو، وأوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين، وصدها ما كانت تعبد من دون الله إنها كانت من قوم كافرين، قيل لها ادخلي الصرح فلما رأته حسبته لجة وكشفت عن ساقيها قال إنه صرح ممرد من قوارير، قالت رب إني ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين»[١] .

وتبدأ القصـة بالنبـي الملك سليمـان عليه السـلام في موكبـه الفخـم الضخم، من الجن والإنس، ويتفقد عليه السلام الطير، فلا يجد الهدهد،

(١) سورة النمـل : آية ٢٠ ـ ٤٤، وانظـر: تفسير الطبـري ١٩/ ١٤٣ ـ ١٧٠، تفسير الطبرسـي ١٩/ ٢٠٨ ـ ٢٣٠، تفسير روح المعاني ١٩/ ١٨٢ ـ ٢١٠، تفسير القرطبي ١٣/ ١٧٦ ـ ٢١٣، تفسير أبي السعود ٤/ ١٢٧ ـ ١٣٤، في ظلال القرآن ٥/ ٢٦٣١ ـ ٢٦٤٣، تفسير الكشـاف ٣/ ١٤٢ ـ ١٥١، تفسير البيضـاوي ٢/ ١٧٢ ـ ١٧٨، تفسير النسفـي ٣/ ٢٠٧ ـ ٢١٥، تفسير الفخر الرازي ٢٤/ ١٨٨ ـ ٢٠٠، الدر المنثور في التفسير بالمأثور ٥/ ١٠٤ ـ ١١٢، صفوة التفاسير ٢/ ٤٠٦ ـ ٤١٢، تفسير ابن كثير ٣/ ٥٧٤ ـ ٥٨٦، تيسير العلي القدير لتفسير ابن كثير ٣/ ٣٢٠ـ ٢٤٠، تاريخ الطبري ١/ ٤٨٩ ـ ٤٩٥، الكامل لابن الأثير ١/ ٢٢٤ ـ ٢٣٨، تاريخ ابن خلدون ٢/ ١١٣ ـ ١١٤، ابن كثير: البداية والنهاية ٢/ ١٨ ـ ٢٤ .

وقد اختلف العلماء فيما لأجله تفقده على وجوه، أحدها قول وهب: أنه أخل بالنوبة التي كان ينوبها فلذلك تفقده، وثانيها أنه تفقده لأن مقاييس الماء كانت إليه، وكان يعرف الفصل بين قريبه وبعيده، فلحاجة سليمان إلى ذلك طلبه وتفقده[1]، وثالثها أنه كان يظله من الشمس، فلما فقد ذلك تفقده[2]، ولعل في هذا ما يشير إلى أنه هدهد خاص معين في نوبته، وليس هدهداً ما من تلك الألوف أو الملايين التي تحويها الأرض من أمة الهداهد، كما ندرك من افتقاد سليمان لهذا الهدهد سمة من سمات شخصيته، سمة اليقظة والدقة والحزم، فهو لم يغفل عن غيبة جندي من هذا الحشر الضخم من الجن والإنس والطير الذي يجمع آخره على أوله كي لا يتفرق وينتكث، وهو يسأل عنه في صيغة مرتفعة مرنة جامعة «ما لي لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين» ويتضح أنه غائب ويعلم الجميع من سؤال الملك عنه أنه غائب بغير إذن، وحينئذٍ يتعين أن يؤخذ الأمر بالحزم كي لا تكون فوضى، ومن ثم نجد سليمان الملك الحازم يتهدد الجندي الغائب المخالف «لأعذبنه عذاباً شديداً، أو لأذبحنه»، ولكن سليمان ليس ملكاً جباراً في الأرض، إنما هو نبي، وهو لم يسمع بعد حجة الهدهد الغائب، فلا ينبغي أن يقضي في شأنه قضاءً نهائياً قبل أن يسمع ويتبيّن عذره، ومن ثم تبدر سمة النبي العادل «أوليأتيني بسلطان مبين» أي حجة قوية توضح عذره، وتنفي المؤاخذة عنه[3].

---

(١) جاء في تفسير الطبري (١٩/ ١٤٤) اختلف عبدالله بن سلام والقائلون بقوله، ووهب بن منتبه، فقال عبدالله: كان سبب تفقده الهدهد وسؤاله عنه ليستخبره عن بعد الماء في الوادي الذي نزل به في مسيره، وقال وهب: كان تفقده إياه وسؤاله عنه لإخلاله بالنوبة التي كان ينوبها، والله أعلم، كما يقول الطبري، بأي ذلك كان إذ لم يأتنا بأي ذلك كان تنزيل، ولا خبر عن رسول الله ﷺ صحيح، والصواب أن يقال إن الله أخبر عن سليمان أنه تفقد الطير، إما للنوبة التي كانت عليها وأخلت بها، وإما لحاجة كانت إليها عن بعد الهاء.

(٢) تفسير الفخر الرازي ٢٤/ ١٨٩.

(٣) في ظلال القرآن ٥/ ٢٦٣٨.

ويأتي الهدهد بعد مكث غير بعيد، فيقول للنبي الكريم «أحطت بما لم تحط به»، وفي هذا، كما يقول الإمام الفخر الرازي، تنبيه لسليمان على أن من أدنى خلق الله تعالى من أحاط علماً بما لم يحط، فيكون ذلك لطفاً في ترك الإعجاب، والإحاطة بالشيء علماً أن يعلم من جميع جهاته[1]، ثم يخبره بهذا الذي لم يحط به **﴿وجئتك من سبأ بنبأ يقين، إني وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شيء ولها عرش عظيم، وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون﴾**، أي أنني أتيت من سبأ - وهي مملكة عظيمة في جنوب غرب شبه الجزيرة العربية - وقد وجدت القوم تحكمهم امرأة»[2] أوتيت من كل شيء»، كناية عن عظمة ملكها وثرائها وتوافر أسباب الحضارة والقوة والمتاع، «ولها عرش عظيم» أي سرير ملك فخم ضخم يدل على الغنى والترف وارتقاء الصناعة أو عظيم في قدره وعظم خطره، لا عظمة في الكبر والسعة، لكن هذه المرأة وقومها **﴿يسجدون للشمس من دون الله وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون﴾**، وهنا نجد أنفسنا أمام هدهد عجيب، صاحب ذكاء وإيمان، وبراعة في عرض النبأ، ويقظة إلى طبيعة موقفه وتلميح وإيماء أريب، فهو يدرك أن هذه ملكة وأن هؤلاء رعية، ويدرك أنهم يسجدون للشمس من دون الله، ويدرك أن السجود لا يكون إلا لله رب العرش العظيم، وما هكذا تدرك الهداهد، إنما هو هدهد خاص أوتي هذا الإدراك الخاص، على سبيل الخارقة التي تخالف المألوف[3].

ومن ثم فقد أراد النبي الكريم أن يختبر صدق الهدهد في دعواه، وفي

---

(١) تفسير الفخر الرازي ٢٤/ ١٩٠.

(٢) روي البخاري والترمذي والنسائي بسنده عن أبي بكرة أن رسول الله ﷺ لما بلغه أن أهل فارس ملكوا عليهم ابنة كسرى قال: لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة (البداية والنهاية ٢/ ٢٢).

(٣) في ظلال القرآن ٥/ ٢٦٣٨، وانظر تفسير الطبري ١٩/ ١٤٨.

نفس الوقت أن يدعو هؤلاء المنحرفين عن عبادة الله الواحد القهار «قال سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين ، اذهب بكتابي هذا فألقه إليهم ثم تول عنهم فانظر ماذا يرجعون» ، وتجمع الملكة الملأ من القوم وتعرض عليهم الأمر **﴿يا أيها الملأ إني ألقي إلى كتاب كريم، إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم، ألا تعلوا علي وأتوني مسلمين﴾** ، ويقول الفخر الرازي في وصف الكتاب بأنه كريم ، فيه ثلاثة أوجه ، أحدها حسن مضمونة وما فيه ، وثانيها وصفه بالكريم لأنه من عند ملك كريم ، وثالثها أن الكتاب كان مختوماً ، وقال ﷺ : «كرم الكتاب ختمه» ، وكان ﷺ : يكتب إلى العجم فقيل له إنهم لا يقبلون إلا كتاباً عليه خاتم فاتخذ لنفسه خاتماً»[1] ، كما يدل ذلك أيضاً على أدب جم تحلت به الملكة العربية ، وعلى أية حال ، فإن الكتاب يفيد أن الملكة كانت لا تعبد الله ، ولكن صيت سليمان كان ذائعاً في هذه الرقعة ، ولغة الكتاب التي يحيكها القرآن فيها استعلاء وحزم وجزم ، مما قد يوحي إليها بهذا الوصف الذي أعلنته ، وفحوى الكتاب في غاية البساطة والقوة ، فهو مبدوء باسم الله الرحمن الرحيم ، ومطلوب فيه أمر واحد: ألا يستكبروا على مرسله ويستعصوا وأن يأتوا إليه مستسلمين لله الذى يخاطبهم باسمه[2] .

وتطلب الملكة الرأي والمشورة من الملأ في هذه الأزمة التي أتت إليها من حيث لا تحتسب ، وفي نفس الوقت تعلن إليهم أنها لن تقطع في الأمر ، إلا بعد هذه المشورة ، برضاهم وموافقتهم «يا أيها الملأ أفتوني في أمري ما كنت قاطعة أمراً حتى تشهدون» ، ويأتيها الجواب سريعاً من المؤتمرين «نحن أولوا قوة وأولوا بأس شديد ، والأمر إليك فانظري ماذا

---

(١) تفسير الفخر الرازي ٢٤/ ١٩٤ ، تفسير النسفي ٣/ ٢٠٩ - ٢١٠ .

(٢) في ظلال القرآن ٥/ ٢٦٣٩ - ٢٦٤٠ .

تأمرين» ، وليس هناك من ريب في أن هذا السياق القرآني إنما يدل بوضوح على أنها صاحبة السلطان الفعلي في مملكتها ، بعكس ما ذهب إليه بعض الباحثين[1] ، كما أشرنا من قبل ، وأما القوة والبأس اللتان أشار إليهما الملأ ، فالمراد بالقوة قوة الأجسام وقوة الآلات ، وأما البأس فالمراد النجدة والثبات في الحرب ، وحاصل الجواب أن القوم ذكروا أمرين ، أحدهما إظهار القوة الذاتية والعرضية ليظهر أنها إن إرادتهم للدفع والحرب وجدتهم بحيث تريد ، والآخر قولهم : «والأمر إليك فانظري ماذا تأمرين» وفي ذلك إظهار الطاعة لها ، إن أرادت السلم ولا يمكن ذكر جواب أحسن من هذا[2] ، ويقول الإمام النسفي : أرادوا بالقوة ، قوة الأجسام والآلات ، وبالبأس النجدة والبلاء في الحرب ، «والأمر إليك فانظري ماذا تأمرين» أي موكول إليك ، ونحن مطيعون لك ، فأمرينا بأمرك نطعك ولا نخالفك كأنهم أشاروا عليها بالقتال ، أو أرادوا نحن من أبناء الحرب ، لا من أبناء الرأي والمشورة ، وأنت ذات الرأي والتدبير فانظري ماذا تريدين نتبع رأيك نتبع رأيك ، فلما أحست منهم الميل إلى المحاربة ، مالت إلى المصالحة ورتبت الجواب ، فزيفت أولاً ما رتبوه ، وأرتهم الخطأ فيه حيث «قالت إن الملوك إذا دخلوا قرية (عنوة وقهراً) أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون «أرادت وهذه عادتهم المستمرة التي لا تتغير ، لأنها كانت في بيت الملك القديم فسمعت نحو ذلك[3] ، وجاء في تفسير ابن كثير : قال الحسن البصري : فوضوا أمرهم إلى علجة تضطرب ثدياها ، فلما قالوا لها ما قالوا ، كانت هي أحزم رأياً منهم وأعلم بأمر سليمان ، وأنه لا قبل لها بجنوده وجيوشه وما سخر له من الجن والإنس والطير ، وقد شاهدت مع الهدهد أمراً عجيباً

---

(١) O. Eissfeldt, op - cit, p. 593.

(٢) تفسير الرازي ٢٤/ ١٩٥ .

(٣) تفسير النسفي ٣/ ٢١٠ .

بديعاً[1] ، فقالت لهم إني أخشى أن نحاربه ونتمنع عليه فيقصدنا بجنوده ويهلكنا بمن معه ويخلص إلى وإليكم الهلاك والدمار دون غيرنا ، ولهذا قالت : إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها ، قال ابن عباس : أي إذا دخلوا بلداً عنوة أفسدوه أي خربوه ، وجعلوا أعزة أهلها أذلة ، أي وقصدوا من فيها من الولاة والجنود وأهانوهم غاية الهوان ، إما بالقتل أو الأسر . ثم عدلت إلى المصالحة والمهادنة والمسالمة والمخادعة والمصادفة[2] .

وهكذا تبدأ الملكة في أعمال الحيلة والتدبير ، بل وهنا تظهر شخصية المرأة من وراء الملكة ، المرأة التي تكره الحروب والتدمير ، والتي تنعني سلاح الحيلة والملاينة ، قبل أن تنفي سلاح القوة والمخاشنة[3] ، ومن ثم فإنها تعمل على أن تضع النبي الكريم موضع الاختبار لتصل إلى رأي تطمئن إليه بشأنه ، وهل هو من الهداة المرشدين أم من الطغاة الطامعين ، ومن ثم فإنها تبعث برسل من عندها إلى صاحب هذه الرسالة الذي يطلب منها ، وكذا قومها ، ألا تعلوا علي وأتوني مسلمين» يحملون الهدايا الثمينة[4] ، كما أنها

---

(١) قارن في ظلال القرآن (٥/ ٢٦٣٩) حيث يرجح صاحبة أنها لم تعلم من ألقى إليها الكتاب ، ولا كيف ألقاه ، ولو كانت تعرف أن الهدهد هو الذي جاء به ، كما تقول التفاسير ، لأعلنت هذه العجيبة التي لا تقع كل يوم ، ولكنها قالت بصيغة المجهول ، مما يجعلنا نرجح أنها لم تعلم كيف ألقي إليها ولا من ألقاه .

(٢) تفسير ابن كثير ٣/ ٥٧٩ (ط بيروت ١٩٨٦) .

(٣) في ظلال القرآن ٥/ ٢٦٤٠ .

(٤) روت كتب التفسير عن ابن عباس أنها بعثت إليه بوصائف ووصفاء وألبستهم لباساً واحداً حتى لا يعرف ذكر من أنثى ، فقالت إن زيل بينهم حتى يعرف الذكر من الأنثى ثم رد الهدية فإنه نبيّ ، وينبغي لنا أن نترك ملكنا ونتبع دينه ونلحق به ، وعن ابن جريج قال مجاهد: فخلص سليمان بعضهم من بعض ولم يقبل هديتها ، وعن ثابت اليثاني قال : أهدت له صفائح الذهب في أوعية الديباج ، فلما بلغ ذلك سليمان أمر الجن فموّهوا له الآجر بالذهب ، ثم أمر به فألقى في الطرق ، فلما جاءوا فرأوه ملقي ما يلتفت إليه ، صغر في أعينهم ما جاءوا به ، وفي تفسير النسقي أنها بعثت خمسمائة غلام عليهم ثياب الجواري وحليهن راكبي خيل مغشاة بالديباج =

في الوقت نفسه طلبت من رسلها أن يقفوا على قوة سليمان، ثم يعودوا إليها بتقرير واف شامل عن حقيقته، ومدى ما يمكن أن يقدر عليه من المكيدة، وهل يمكنه أن يهدد أمنها وأمن قومها، إن لم تخضع لأمره، وذلك لتكون على بينة من أمرها، وحتى يمكنها اتخاذ القرار المناسب، قال قتادة: ما كان أعقلها في إسلامها وشركها، علمت أن الهدية تقع موقعاً من الناس، ذلك لأن الهدية تلين القلب وتعلن الود، وقد تفلح في دفع القتال، وهي تجربة، فإن قبلها سليمان فهو إذن أمر الدنيا، ووسائل الدنيا إذن تجدي، وإن لم يقبلها فهو إذن أمر العقيدة الذي لا يصدفه عنه مال، ولا عرض من أعراض

= محلاة اللجم والسروج بالذهب المرصع بالجواهر، وخمسمائة جارية على رماك في زي الغلمان وألف لبنة من ذهب وفضة وتاجاً مكللاً بالدر والياقوت، وحُقًا فيه درة عذراء وجزعة معوجة الثقب، وبعثت كتاباً فيه نسخة الهدايا وقالت: إن كنت نبياً فميّز بين الوصفاء والوصائف وأخبر بها في الحقُ واثقب الدرة ثقباً واسلك في الخزرة خيطاً، ثم قالت لكبير رسلها: إن نظر إليك نظرة غضبان فهو ملك فلا يهولنك منظرة، وإن رأيته بشاشاً لطيفاً فهو نبيّ، فأقبل الهدهد وأخبر سليمان الخبر كله، فأمر سليمان الجن فضربوا لبنات الذهب والفضة وفرشوها في ميدان بين يديه طوله، سبعة فراسخ وجعلوا حول الميدان حائطاً شرفه من الذهب والفضة، وأمر بأحسن الدواب في البر والبحر فربطوها عن يمين الميدان ويساره على اللبنات وأمر بأولاد الجن وهم خلق كثير فأقيموا عن اليمين واليسار، ثم قعد على سريره والكراسي من جانبيه، واصطفت الشياطين صفوفاً فراسخ، والإنس صفوفاً فراسخ، والوحش والسباع والطيور والهدام كذلك، فلما دنا القوم ورأوا الدواب تروث على اللبن رموا بما معهم من الهدايا، ولما وقفوا بين يديه نظر إليهم سليمان بوجه طلق فأعطوه كتاب الملكة فنظر فيه وقال: أين الحق فأمر الأرضة فأخذت شعرة ونفذت في الدرة وأخذت دودة بيضاء الخيط بفيها ونفذت فيها، ودعا بالماء فكانت الجارية تأخذ الماء بيدها فتجعله في الأخرى ثم تضرب به وجهها، والغلام كما يأخذه يضرب به وجهه، ثم رد الهدية، وفي تفسير ابن كثير: أنها أرسلت إليه بقدح ليملأه ماء رواء لا من السماء، ولا من الأرض، فأجرى الخيل حتى عرقت ثم ملأه من ذلك، وبخرزه وسلك ليجعله فيها ففعل والله أعلم أكان ذلك أم لا، والظاهر أن أكثره من الإسرائيليات، وأن سليمان لم ينظر إلى ما جاءوا به بالكلية ولا اعتنى به، بل أعرض عنه (تفسير الطبري ١٩/ ١٥٥، تفسير النسفي ٣/ ٢١١، تفسير ابن كثير ٣/ ٥٨٠).

الدنيا، قال ابن عباس: قالت لقومها إن قبل الهدية فهو ملك فقاتلوه، وإن لم يقبلها فهو نبي فاتبعوه[1].

وجاءت الرسل إلى سليمان عليه السلام بالهدايا فرفضها، وأعلم رسل الملكة أن ما آتاه الله من الملك والنبوة والرسالة وما جعل له فيهما من ثواب عظيم، ومقام كريم، إنما هو خير من هداياهم، ومن كل ما عندهم من عرض الدنيا، ثم توّعدهم بأن يرسل إليهم، وفي بلادهم نفسها، بجنود لا قبل لهم بها، وليخرجنّهم منها أذلة وهم صاغرون، وإلى هذا يشير القرآن الكريم في قوله تعالى: **﴿فلما جاء سليمان قال أتمدونن بمال، فما آتاني الله خيراً مما آتاكم، بل أنتم بهديتكم تفرحون، ارجع إليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون﴾**[2]، وهنا تتأكد الملكة العربية أنها أمام واحد من المصطفين الأخيار، يطلب لها، وكذا لقومها، الهداية إلى سواء السبيل، وليس رجلاً غزته قوته، فأراد أن يجعل دولتها جزءاً من مملكته، فتقرر الذهاب بنفسها إلى النبي الكريم، قال ابن عباس: لما رجعت رسل بلقيس إليها من عند سليمان وأخبروها الخبر قالت: قد عرفت ما هذا بملك، وما لنا به من طاقة، وبعثت إلى سليمان إني قادمة إليك بملوك قومي وما تدعو إليه من دينك[3].

ويستعد سليمان لاستقبال الملكة بأمر يخرج عن قدرة البشر العاديين، ويدخل في عداد معجزات الصفوة المختارة من أنبياء الله ورسله الكرام البررة، **﴿قال يا أيها الملأ أيكم يأتيني بعرشها قبل أن يأتوني مسلمين، قال عفريت من الجن أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك وإني عليه لقوى أمين، قال الذي عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك فلما رآه**

(١) في ظلال القرآن ٥/ ٢٦٤٠، تفسير ابن كثير ٣/ ٥٧٩ ـ ٥٨٠.

(٢) سورة النمل: آية ٣٦ ـ ٣٧.

(٣) انظر: حاشية زادة على البيضاوي ٣/ ٤٩٣، صفوة التفاسير ٢/ ٤٠٩.

مستقراً عنده قال هذا من فضل ربي ليبلوني أأشكر أم أكفر ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن ربي غني كريم﴾[1] .

هذا وقد اختلف المفسرون والمؤرخون في قصد سليمان عليه السلام من استحضار عرشها قبل مجيئها مسلمة مع قومها، كما اختلفوا كذلك في هذا الذي عنده علم من الكتاب، والذي قال: **﴿أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك﴾**، فأما عن الهدف من استحضار العرش، فذهب رأي إلى أنه وسيلة لعرض مظاهر القوة الخارقة التي تؤيده لتؤثر في قلب الملكة وتقودها إلى الإيمان بالله والإذعان لدعوته، ويقول الفخر الرازي: واختلفوا في غرض سليمان عليه السلام من إحضار ذلك العرش على وجوه، أحدها: أن المراد أن يكون ذلك دلالة لبلقيس على قدرة الله تعالى، وعلى نبوة سليمان عليه السلام حتى تنضم هذه الدلالة إلى سائر الدلائل التي سلفت، وثانيها: أراد أن يؤتي بذلك العرش فيغيّر وينكر ثم يعرض عليها حتى أنها هل تعرفه أو تنكره، والمقصود اختبار عقلها، وقوله تعالى: **﴿نكِّروا لها عرشها ننظر أتهتدي﴾** كالدلالة على ذلك، وثالثها، قال قتادة: أراد أن يأخذه قبل إسلامها، لعلمه أنها إذا أسلمت لم يحل له أخذ مالها، ورابعها: أن العرش سرير الملك فأراد أن يعرف مقدار مملكتها قبل وصولها إليه، وقال أبو جعفر: وأولي الأقوال بالصواب أنه أراد أن يجعل ذلك حجة عليها في نبوته، ويعرفها بذلك قدرة الله وعظيم شأنه، وأما أولي التأويلين في قوله تعالى: **﴿قبل أن يأتوني مسلمين﴾** فهو قول ابن عباس من أن معناه طائعين، لأن المرأة لم تأت سليمان إذ أتته مسلمة، وإنما أسلمت بعد مقدمها عليه، وبعد محاورة جرت بينهما ومساء له[2] .

وأما الذي عنده علم من الكتاب فقد اختلفوا فيه على قولين، قيل كان

---

(١) سورة النمل: آية ٣٨ - ٤٠.

(٢) تفسير الطبري ١٩/ ١٦٠ - ١٦١، في ظلال القرآن ٥/ ٢٦٤١، تفسير الفخر الرازي :

من الملائكة وقيل كان من الإنس، فمن قال بالأول اختلفوا، قيل هو جبريل عليه السلام، وقيل هو ملك أيد الله تعالى به سليمان عليه السلام، ومن قال بالثاني اختلفوا على وجوه، أحدها قول ابن مسعود إنه الخضر عليه السلام، وثانيهما، وهو المشهور، من قول ابن عباس: إنه آصف بن برخيا وزير سليمان، وكان صديقاً يعلم الاسم الأعظم إذا دعا به أجيب، وكذا روي عن يزيد بن رومان أنه «آصف بن برخيا» وكان صديقاً يعلم الاسم الأعظم الذي إذا دعى الله به أجاب، وإذا سئل به أعطى، وذهب ابن عطية وأبو حيان إلى أن هذا القول هو قول الجمهور، وعدّه الشوكاني قول أكثر المفسرين وثالثها قول قتادة إنه رجل من بني آدم، قال معمر: أحسبه قال من بني إسرائيل، كان يعلم اسم الله الذي إذا دعى به أجاب، ورابعها قول ابن زيد: كان رجلاً صالحاً في جزيرة في البحر، خرج ذلك اليوم ينظر إلى سليمان، فلما سمع العفريت يقول: «أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك وإنه عليه لقوي أمين»، قال: «أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك» ثم دعا باسم من أسماء الله، فإذا هو يحمل بين عينيه، وقرأ «فلما رآه مستقراً عنده قال هذا من فضل ربي» إلى قوله تعالى ﴿إن ربي غني كريم﴾[1].

على أن هناك من يذهب إلى أنه النبي الكريم نفسه سيدنا سليمان عليه السلام[2]، ويذهب الدكتور المطرفي[3] إلى أن سليمان قال ذلك ليظهر

= ٢٤/ ١٩٧، تفسير البيضاوي ٢/ ٨٣، تفسير النسفي ٣/ ٢١٢، تفسير ابن كثير ٣/ ٥٨١، صفوة التفاسير ٢/ ٤٠٩، تفسير القرطبي ص ٤٩١٨ - ٤٩١٩.

(١) تفسير القرطبي ١٩/ ١٦٢ - ١٦٣، تفسير القرطبي ١٣/ ٢٠٥ - ٢٠٦، تفسير ابن كثير ٣/ ٥٨٢، تفسير الكشاف ٣/ ١٤٩، تفسير البحر المحيط ٧/ ٧٦، تفسير النسفي ٣/ ٢١٣، صفوة التفاسير ٢/ ٤٠٩، فتح القدير للشوكاني ٤/ ١٣٩، البداية والنهاية ٢/ ٢٣، الكامل لابن الأثير ١/ ١٣٢، تفسير الفخر الرازي ٢٤/ ١٩٧.

(٢) تفسير الكشاف ٣/ ١٤٩، تفسير القرطبي ١٣/ ٢٠٥، تفسير الفخر الرازي ٢٤/ ١٩٧.

(٣) عويد المطرفي: المرجع السابق ٧٥ - ٧٦.

معجزة من الله تعالى تجري على يديه ، توثيقاً لإيمان جموعه بنبوته ورسالته ، ويكون الخطاب ، كما قال ابن عطية ، على هذا التأويل للعفريت لما قال ﴿ **أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك** ﴾ ، كأن سليمان استبطأ ذلك ، فقال له على جهة تحقيره ﴿ **أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك** ﴾ ، ليبيّن للعفريت أنه يتأتى له من سرعة الإيتان بالعرش ما لا يتهيأ للعفريت[1] ، وقد أيد القرطبي ابن عطية وقال : إن النحاس قال بذلك في معاني القرآن ، وهو قول حسن إن شاء الله ، وأن القائلين بأن قوله : ﴿ **أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك** ﴾ من قول سليمان عليه السلام ، استدلوا على ذلك بما جاء في هذه الآية نفسها من قوله فيها ، إظهار الفضل الله تعالى عليه ﴿ **هذا من فضل ربي** ﴾[2] .

هذا وقد ذهب الفخر الرازي[3] إلى هذا الرأي ، فقال إنه سليمان نفسه ، والمخاطب هو العفريت الذي كلمه ، وأراد سليمان عليه السلام إظهار معجزة ، فتحداهم أولاً ، ثم بيّن للعفريت أنه يتأتى له من سرعة الإتيان بالعرش ما لا يتهيأ للعفريت ، وهذا القول أقرب لوجوه ، أحدها أن لفظه الذي موضوعه في اللغة للإشارة إلى شخص معين عند محاولة تعريفه بقصة معلومة ، والشخص المعروف بأنه عنده علم من الكتاب هو سليمان عليه السلام ، فوجب انصرافه إليه ، وأقصى ما في الباب أن يقال : كان آصف كذلك ، لكننا نقول إن سليمان عليه السلام كان أعرف بالكتاب منه لأنه هو النبيّ ، فكان صرف هذا اللفظ إلى سليمان أولى ، والثاني : أن إحضار العرش في تلك الساعة اللطيفة درجة عالية ، فلو حصلت لآصف دون سليمان ، لاقتضى ذلك تفضيل آصف على سليمان ، وأنه غير جائز ، والثالث : أن سليمان عليه السلام لو افتقر في ذلك إلى آصف لاقتضى ذلك قصور حال

(١) تفسير القرطبي ١٣/ ٢٠٥ ، تفسير الفخر الرازي ٢٤/ ١٩٧ .

(٢) تفسير القرطبي ١٣/ ٢٠٥ (دار الكاتب العربي ـ القاهرة ١٩٦٧) .

(٣) تفسير الفخر الرازي ٢٤/ ١٩٧ ـ ١٩٨ .

سليمان في أعين الخلق، والرابع: أن سليمان قال: «هذا من فضل ربي ليبلوني أأشكر أم أكفر»، وظاهره يقتضي أن يكون ذلك المعجز قد أظهره الله تعالى بدعاء سليمان، على أن الأستاذ سيد قطب إنما يرجح أنه غير سليمان، وحجته أنه لو كان هو لأظهره السياق باسمه، ولما أخفاه، والقصة عنه، ولا داعي لإخفاء اسمه فيها عند هذا الموقف الباهر[1].

بقيت الإشارة إلى أن بعض المفسرين حاولوا تفسير «الكتاب» في قوله تعالى: ﴿**عنده علم من الكتاب**﴾، فقال بعضهم إنه التوراة، وقال بعضهم إنه كان يعرف اسم الله الأعظم، الذي إذا دعى به أجاب، كما أشرنا من قبل، وهو «يا حي يا قيوم يا ذا الجلال والإكرام، أو يا إلهنا وإله كل شيء، إلهاً واحداً، لا إله إلا أنت»، وقيل كان له علم بمجاري الغيوب إلهاماً، وأنه قال لسليمان، فيما يروي عن وهب بن منبه، «أمدد بصرك فلا يبلغ مداه حتى آتيك به»، فذكروا أنه أمره أن ينظر نحو اليمن التي فيها هذا العرش المطلوب، ثم قام فتوضأ ودعا الله تعالى، قال مجاهد، قال يا ذا الجلال والإكرام، وقال الزهري قال: يا إلهنا وإله كل شيء إلهاً واحداً لا إله إلا أنت، ائتني بعرشها، قال فمثل بين يديه، قال مجاهد وسعيد بن جبير ومحمد بن إسحاق وزهير بن محمد وغيرهم، لما دعا الله تعالى وسأله أن يأتيه بعرش بلقيس، وكان في اليمن وسليمان عليه السلام ببيت المقدس، غاب السرير وغاص في الأرض ثم نبع من بين يدي سليمان[2].

وأيا ما كان الأمر، فلقد تمت المعجزة، ورأى سليمان عليه السلام عرش ملكة سبأ مستقراً بين يديه، فأمر أن تنكر لها معالم هذا العرش ليمتحن بذلك قوة ملاحظتها وانتباهها، فلما جاءت فوجئت بأول ظاهرة عجيبة،

---

(١) في ظلال القرآن ٥/ ٢٦٤١.

(٢) تفسير النسفي ٣/ ٢١٣، تفسير ابن كثير ٣/ ٥٨٢، في ظلال القرآن ٥/ ٢٦٤١.

فعرض عليها عرشها وقيل لها: أهكذا عرشك، فأجابت: كأنه هو، لا تنفي ولا تثبت، مما يدل على فراسة وبديهية في مواجهة المفاجأة العجيبة، فضلاً عن غزارة في الفهم وقوة في الملاحظة، فلقد استبعدت أن يكون عرشها لأنها خلفته وراءها بأرض اليمن، ولم تكن تعلم أن أحداً يقدر على هذا الصنع العجيب، قال النسفي: أجابت أحسن جواب، فلم تقـل هو هو، ولا ليس به، وذلك من رجاحة عقلها حيث لم تقطع في المحتمل للأمرين، أو لمـا شبهوا عليها بقولهم: أهكذا عرشك شبهت عليهم بقولها: كأنه هو، مع أنها علمت أنه عرشها، ثم كانت في انتظارها مفاجأة أخرى، فلقد أمر سليمان بأن يقام لها صرح من قوارير (زجاج) تجري تحته المياه حتى يحسبه من لا يعرف أمره أنه ماء[1].

وهكذا ما إن وصلت الملكة السبئية إلى القدس، عاصمة سليمـان، حتى وجدت أمامها مفاجأتين، الواحدة عرشها، وقد نكُر لها، والأخرى ذلك الصرح الزجاجي الذي تجري المياه من تحته، أو ذلك القصر البلـوري، الذي أقيمت أرضيته فوق الماء، فظهر وكأنه لجة، فلما قيل لهما: ادخلي الصرح، حسبت أنها ستخوض تلك اللجة فكشفت عن ساقيها، فلما تمت المفاجأة كشف لها سليمان عن سرها «قال إنه صرح ممرد من قوارير»، وكل من المفاجأتين إنما تدل على أن سليمان مسخر له قوى أكبر من طاعة البشر، فرجعت إلى الله وناجته معترفة بظلمها لنفسها فيما سلف من عبادة غيره، معلنة إسلامها مع سليمان، لا لسليمان، ولكن «لله رب العالمين»[2]، وإلى هذا يشير القرآن الكريم **﴿ فلما جاءت قيل أهكذا عرشك قالت كأنه هو، وأوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين، وصـدها ما كانت تعبد من دون الله أنها كانت**

(١) تفسير النسفي ٣/ ٢١٤، الصابوني: المرجع السابق ص ٢٩٣ - ٢٩٤.

(٢) في ظلال القرآن ٥/ ٢٦٤٣.

من قوم كافرين، قيل لها ادخلي الصرح فلما رأته حسبته لجة وكشفت عن ساقيها قال إنه صرح ممرد من قوارير. قالت رب إني ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين﴾[1] .

وهكذا رأت الملكة كل ما يبعد عنها أية ريبة في أنها أمام نبيّ كريم، أمام نبيّ الله سليمان عليه السلام، وليس، كما كانت تظن بادىء ذي بدء، أنها أمام ملك يطمع في دولتها أو يبغي الإستيلاء عليها، ثم يجعل من أعزة قومها أذلة، وكذلك يفعل الطامعون المستعمرون، وعندئذ تصرفت سيدة سبأ تصرفاً تفخر به المرأة العربية على طول العصور، تصرفاً لم يقدر عليه من قبل، ملك العراق مع الخليل عليه السلام، أو فرعون مصر مع الكليم عليه السلام، كما رأينا من قبل في هذه الدراسة، كما لم يقدر عليه من بعد جبابرة قريش وطواغيت ثقيف وغيرهم من بعض رجالات العرب، مع سيد الأولين والآخرين سيدنا ومولانا وجدنا محمد رسول الله ﷺ، أو قل هي رحمة الله التي تداركت هذه السيدة الكريمة، وأراق لها الهداية والرشاد، ومن ثم فقد أنهت الأمر كله، كما رأينا، «قالت رب إني ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين»، وحتى في إسلامها فقد كانت عاقلة رشيدة، فلقد اهتدى قلبها واستنار، ومن ثم فقد عرفت أن الإسلام لله وحده ليس استسلاماً لأحد من خلقه، حتى وإن كان هذا الأحد هو سليمان النبي الملك صاحب المنجزات، إنما الإسلام إسلام لله رب العالمين، ومصاحة للمؤمنين به والداعين إلى طريقة، على سنة المساواة «وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين»، وقد سجل السياق القرآني هذه اللفتة الأخيرة وأبرزها، للكشف عن طبيعة الإيمان بالله، والإسلام له، فهي العزة التي ترفع المغلوبين إلى صف الغالبين، بل التي يصبح فيها الغالب والمغلوب أخوين في الله لا غالب

---

(١) سورة النمل: آية ٤٢ ـ ٤٤.

منهما ولا مغلوب، وهما أخوان في الله رب العالمين على قدم المساواة[1].

هذه عجالة نلخص بها قصة سليمان عليه السلام، مع ملكة سبأ، كما جاءت في القرآن الكريم، غير أن بعض المفسرين والمؤرخين قد أسرفوا على أنفسهم وعلى الناس، فعالجوا هذه القصة الواضحة بطريقة عجيبة، فأضافوا إليها ما شاء لهم الخيال أن يضيفوا تذهب بعضهم إلى أن بلقيس إنما هي بلقمة ابنة «ليشرع بن الحارث بن صيفي بن يشجب بن يعرب بن قحطان»، وذهب آخرون إلى أنها بلقيس (تلقمة أو بلقمة) بنت السيرج، وهو الهدهاد بن شرحبيل، وأنها حكمت اليمن مائة وعشرين سنة، بينما نزل البعض بحكمها إلى سبع سنين[2]، ومن عجب أن بعض الأخباريين إنما يذهب به الخيال إلى أن يرى أن «أم بلقيس» إنما كانت «جنية» بنت ملك الجن، واسمها «رواحة» بنت السكر، أو بلقمة بنت عمرو بن عمير الجني، وذهب آخرون إلى أن والد بلقيس كان من أكابر الملوك، وكان يأبى أن يتزوج من أهل اليمن، فيقال أنه تزوج من امرأة من الجن اسمها «ريحانة» بنت السكن، فولدت له بلقيس واسمها تلقمة، ويقال لها بلقيس[3]، وأما كيف وصل أبو بلقيس إلى الجن وخطب ابنة ملكهم، فإنهم إنما يقدمون روايات من ذلك النوع من الأساطير، على أن أسوأ ما في الأمر وأشده خطورة أن يحاول بعض الرواة أن يعطوا لرواياتهم سنداً من شرعية أو نصيباً عن صواب، فينسبوا إلى سيدنا رسول الله ﷺ، عن طريق أبي هريرة،

---

(1) في ظلال القرآن ٥/ ٢٦٤٣.

(2) تاريخ الطبري ١/ ٤٨٩، الكامل لابن الأثير ١/ ١٢٩ - ١٣٠، الثعلبي: قصص الأنبياء المسمى عرائس المجالس ص ٢٧٨، ٢٩٠، تاريخ اليعقوبي ١/ ١٩٦، مروج الذهب للمسعودي ٢/ ٥٠، تاريخ ابن خلدون ٢/ ٥٩.

(3) تفسير القرطبي ص ٤٨٩٨ - ٤٩٢٧، الثعلبي: المرجع السابق ص ٢٧٨، مروج الذهب ٢/ ٤٩ - ٥٠، ابن كثير: البداية والنهاية ٢/ ٢١، ابن الأثير ١/ ١٢٩، قصص الأنبياء ٢/ ٢٩٠ - ٢٩١، تفسير الفخر الرازي ٢٤/ ٢٠٠ - ٢٠١.

أحاديث تؤيد مزاعمهم هذه[1]، ثم لا يقتصر القوم على ذلك، وإنما يقدمون كل دنيء عن القوم[2]، فالملك السبئي يعتدي على الأعراض، فلا تفوته عروس إلا ويفتضها قبل زوجها، وبلقيس، وهي ابنة عمه، لا تنجو من هذه الإذلال، إلا أن تثور على قومها مؤنبة إياهم على قبولهم هذا الصغار، وتلك الخسة والدناءة، فتقول: «أما فيكم من يأنف لكريمته وكرائم عشيرته»، ثم تعد له من وراء ستار رجلان يقتلانه في اللحظة التي يهمّ بها[3].

ويبلغ الخيال بمؤرخينا أشده حين يزعمون أن بلقيس كانت عريضة الملك، كثيفة الجيش، ويقدم لنا الطبري عدة روايات عن قوة جيشها وكثرة عدده، فرواية تذهب إلى أنه كان مع بلقيس اثنا عشر ألف فيل، مع كل فيل مائة ألف، وأخرى تذهب إلى أنه كان مع بلقيس مائة ألف قيل مع كل ما قيل مائة ألف، وفي الكامل لابن الأثير «كان لها اثنا عشر ألف قيل، تحت يد كل

---

(١) جاءت في البداية والنهية (١/ ٢١) أنه ﷺ قال: «كان أحد أبوي بلقيس جنيا»، وهو، فيما يرى ابن كثير، حديث غريب وفي سنده ضعف، وفي تفسير الطبري (١٩/ ١٦٩) «كان أحد أبوي صاحبة سبأ جنياً».

(٢) تسرف المصادر العربية كثيراً في ذكر الجرائم الجنسية، في تاريخ العرب القديم، رغم أن هذه الجرائم، فضلاً عن تعارضها مع المنطق والتاريخ، فإنها تتعارض أيضاً مع التقاليد العربية التي يعترف بها الأعداء قبل الأصدقاء، فضلاً عن الحاقدين والمتشككين في كل خلة عربية كريمة، ومع ذلك فقد تكرر ذكر هذه الجرائم المنحطة في مصادر لها مالها من القيمة عند الناس، بصورة أو بأخرى، وفي مواضع مختلفة من الجزيرة العربية، تكررت في طسم وجديس، وفي المدينة بين العرب واليهود، وفي اليمن مع بلقيس وعتودة مولى أبرهة الحبشي (انظر تاريخ الطبري ١/ ٦٢٩ - ٦٣٢، ٢/ ١٢٨ - ١٢٩، ابن الأثير: الكامل ١/ ٢٣٢ - ٢٣٣، ٣٥٠، ٣٥٤، ٤٣٢ - ٤٣٣، ٦٥٦ - ٦٥٨، مروج الذهب ٢/ ١١١ - ١١٩، تاريخ ابن خلدون ٢/ ٢٤ - ٢٥، ٢٨٧ - ٢٨٩، المقدس: البدء والتأريخ ١/ ١٧٩ - ١٨٠، ٣/ ٢٨ - ٢٩، معجم ياقوت ٢/ ٢٤٢، ٥/ ٨٤ - ٨٧، الأغاني ١٩/ ٩٦ - ٩٧، عبد الفتاح شحاتة: المرجع السابق ص ٢٨٦ - ٢٩٢)، ثم انظر مناقشة هذه الأكاذيب (محمد بيومي مهران: دراسات في تاريخ العرب القديم ص ١٦٩ - ١٧٣، ٣٧٦ - ٣٧٧، ٤٦١ - ٤٧٥).

(٣) الديار بكري: تاريخ الخميس ص ٢٧٦، ابن الأثير ١/ ٢٣٢ - ٢٣٣ (بيروت ١٩٦٥).

قيل مائة ألف مقاتل، مع كل مقاتل سبعون ألف جيش، في كل جيش سبعون ألف مبارز، ليس فيهم إلا أبناء خمس وعشرون سنة»، وصدق ابن الأثير حيث يقول: وما أظن الساعة راوي هذا الكذب الفاحش عرف الحساب، حتى يعرف مقدار جهله، ولو عرف مبلغ العدد لأقصر عن إقدامه على هذا القول السخيف، فإن أهل الأرض لا يبلغون جميعهم، شبابهم وشيوخهم وصبيانهم ونساؤهم، هذا العدد[1].

هذا ويجعل الأخباريون أمر بلقيس كله بيد سليمان، وحين ترفض الزواج من أحد رعاياها، يزوجها سليمان من «ذي تبع» ملك همدان، بحجة أن ذلك لا يكون في الإسلام، وكأن الملوك قبل عصر سليمان ما كانوا يتزوجون من غير أنداد لهم، وكأن التاريخ لا يعرف زواجاً بين الأمراء وغير الأمراء، ومع ذلك فإن سليمان لم يزوجها بواحد من رعاياها أو حتى من عظماء قومها، وإنما زوجها من ملك همدان، الذي لا يعرف التاريخ عنه شيئاً، وليت الذين كتبوا كله، كانوا يعرفون أن قبيلة همدان لم تصبح لها المكانة الأولى بين قبائل اليمن، ولم يحمل شيوخها لقب «ملك» متحدِّين بذلك سلطة ملوك سبأ الشرعيين[2]، إلا منذ أيام «نصريهأ من» (نصر يهنعم) وشقيقه «صدق يهب» حوالي عام ٢٠٠ قبل الميلاد[3]، وأن بلقيس، وقد عاصرت الملك سليمان (٩٦٠ - ٩٢٢ ق. م)، إنما كانت تعيش في القرن العاشر قبل الميلاد، أي قبل ظهور ملوك همدان بما يقرب من سبعة قرون على الأقل، وعلى أية حال، فهناك رواية تذهب إلى أن سليمان قد زوجها من «سدد بن زرعة بن سبأ»، الذي لا يعرف التاريخ عنه شيئاً كسابقه، علي

(١) تفسير الطبري ١٩/ ١٥٤، تاريخ الطبري ١/ ٤٩١، الكامل لابن الأثير ١/ ١٣١ (بيروت ١٩٧٨).

(٢) A. Jamme, Sabaean Inscriptions mahram Bilquis, Baltimore, 1961, P. 278

(٣) J. B. Philly the Background of Islam, Alexandria, 1947, P. 142.

أن هناك رواية تذهب إلى أن الزوج الذي ارتضته بلقيس، إنما كان سليمان نفسه، وأنه قد أحبها حباً شديداً، وردها إلى ملكها باليمن، وكان يزورها كل شهر مرة يقيم عندها ثلاثة أيام، وعلى أية حال، فليس لذلك ذكر في الكتاب، ولا في خبر مقطوع بصحته، ومع ذلك فإن بعض الروايات تزعم أن سليمان جعل الجن تحت إمرتها، وعلى رأسهم «زوبعة» أمير جن اليمن، وأن بلقيس ماتت على أيام سليمان، وأنه قد دفنها باليمن على رواية، وفي الشام على رواية أخرى، وأنه دفنها بتدمر وأخفى قبرها، على رواية ثالثة[1].

(1) تفسير القرطبي ص ٤٩٢٦، تفسير النسفي ٣/ ٢١٤ - ٢١٥، تفسير الطبري ١٩/ ١٦٩ - ١٧٠، تفسير الفخر الرازي ٢٤/ ٢٠١، تاريخ الطبري ١/ ٤٩٤ - ٤٩٥، الكامل لابن الأثير ١/ ١٣٣، الثعلبي: المرجع السابق ص ٢٦٩ - ٢٧٠، البداية والنهاية ٢/ ٢٤ ابن دريد: الاشتقاق ٢/ ٣١١، تاريخ ابن خلدون ٢/ ٥٩، ١١٣ - ١١٤.

الفصل الرابع

سليمان ملك بني إسرائيل

(١) السياسة الداخلية : -

ورث سليمان داود في مملكته ، ومن ثم فقد أصبح ملكاً في أورشليم (القدس) وحاكماً على مملكة إسرائيل ، هذا ويتفق المؤرخون على أن سليمان قد حكم في القرن العاشر قبل الميلاد ، ولكنهم يختلفون في تحديد فترة حكمه من هذا القرن العاشر ، فهناك من يرى أنها في الفترة (٩٧٤ - ٩٣٢ ق . م)[١] ، ومن يرى أنها في الفترة (٩٧٣ - ٩٣٦ ق . م)[٢] ، ومن يرى أنها في الفترة (٩٧٠ - ٩٣٣ ق . م)[٣] ، ومن يرى أنها في الفترة (٩٦٣ - ٩٢٣ ق . م)[٤] ، ومن يرى أنها في الفترة (٩٦١ - ٩٢٣ ق . م)[٥] ، ومن يرى أنها في الفترة (٩٧١ - ٩٣١ ق . م)[٦] ، ومن أنها في الفترة (٩٦٣ - ٦٢٩ ق . م)[٧] ،

(١) فضلو حوراني : المرجع السابق ص ٣٤ .

(٢) حسن ظاظا : الساميون ولغاتهم ص ٨٤ .

(٣) فيلب حتي : المرجع السابق ص ٢٠٥ .

(٤) نفس المرجع السابق .

(٥) سبتينو موسكاتي : الحضارات السامية القديمة ص ١٤٣ (مترجم) وكذا E. W. Heaton, The old Testament Prophets, London, 1969, P. 172.

(٦) I. Epstein, Judaism, 1970, P. 36.

(٧) Historical Atlas of the Holy Land, 1959, P. 81 .

ومن يرى أنها في الفترة (٩٦٠-٩٢٢ق . م)[1]، وهذا ما نميل إليه ونرجحه، وسنسير عليه في هذه الدراسة.

هذا وكان اختيار سليمان بعد أبيه داود، عليهما السلام، ملكاً على بني إسرائيل، إنما يرجع إلى كفاءته الشخصية، فهو لم يكن أبداً أكبر أبناء داود الكثيرين، كما أنه لم يكن حتى أكبر الأبناء الذين ولدوا بعد اعتلاء داود عرش إسرائيل، وأياً ما كان الأمر، فلقد خلف سليمان أباه دونما أية صعوبات أو ثورات داخلية، ثم سرعان ما عمل على القضاء على منافسيه والتخلص من مؤامراتهم، وما قد يحيكون له من دسائس[2]، ثم اتجه بعد ذلك إلى تدعيم عرشه في الداخل، فاستخدم معظم موارد دولته في تقوية دعائم الحكومة، وتجميل العاصمة أورشليم، ومن ثم فقد أقام سليمان كثيراً من الحصون، كما رمّم القديم منها، ووضع حاميات في المواقع ذات الأهمية الاستراتيجية، ليرهب بها الثائرين والغازين على السواء.

ثم عمل سليمان بعد ذلك على القضاء على طموح البطون والعشائر التي كانت تسعى للإستقلال، ذلك لأن سليمان إنما كان يعرف تماماً أن أخطر المشاكل التي واجهت أبوه داود من قبل، إنما كانت طموح بعض القبائل إلى التمتع بحكم ذاتي، ولا شك أن هذه الرغبة إنما كانت تتعارض كثيراً مع رغبة سليمان في الحكم المركزي، ومن ثم فقد ركز كل جهوده في تفتيت أي تحالف يقوم بين هذه القبائل ويهدد الوحدة الإسرائيلية العامة، وهكذا قسم سليمان مملكته إلى اثنتي عشرة محافظة، على كل واحدة منها محافظ يتولى الضرائب، كما فرض على كل محافظة إعاشة الملك وحاشيته وجيشه وخيله شهراً في السنة، ذلك لأن سليمان كان في حاجة إلى تزويد

(١) W. F. Albright, The Biblical Period from Abraham to Ezra, N. Y, 1963, P. 120 - 122.

(٢) ملوك أول ١/ ١-٥٣، ٢/ ٣-٤٨، ٣/ ١٢-١٣، تاريخ الطبري ١/ ٤٨٥، الكامل لابن الأثير ١/ ١٢٧ (بيروت ١٩٧٨).

الجنـود، وكذا الخيول، الموجـودة في الحصـون التـي أقامهـا، بالمـؤن والعلف، فضلاً عن إعاشة رجالات القصر الذين زاد عددهـم عن أيام أبيه كثيراً[1] .

وأياً ما كان الأمر، فلقد كانت حدود المناطق الجديدة، باستثناء أربع أو خمس حالات، ليست متطابقة مع حدود القبائل الإسرائيلية، مما يتفـق وهدف سليمان من تحطيم البناء الحكومـي الإقليمـي المستقـل، وبالتالـي يمكن أن يضعف النزعة الإنفصالية بين القبائل الإسرائيلية، وأن يؤلف منهم شعباً واحداً[2]، وعلى أي حال، فلقـد كان علـى كل منطقـة من المناطـق الجديدة «مشرفاً» أو «وكيلاً» عليه توزيع المسؤولية الخاصـة بالمؤونـة بين المـلاك المختلفين، وأن يراقـب وصولهـا في الوقـت المحـدد، وأن يجمعها في مدن الصوامـع، ثم يسلمهـا في أورشـليم في الشهـر المعين، وكان علـى رأس هذا النظـام موظفـاً أعلـى يسمـى «رئيس الوكلاء» لم تظهر وظيفته على أيام داود، وإنما ظهرت، ولأول مرة، بين الموظفين الكبار في عهد سليمان، ومـن هنـا كان الصـدام بمـا يسمـى حرية القبائـل الإسرائيلية، وذلك عن طريق التصرف في إنتاج زراعتهم ونتـاج مواشيهـم بطريقتهم الخاصة أو على حسب هواهم[3] .

ويبدو أن المدن الكنعانية التي كانت قد احتفظت باستقلالها حتى ذلك الوقت، مثل دور ومجدو وتعنك وبيسان، قد ضمت إلى مملكة إسرائيل، أما منطقة يهوذا، أو على الأقل الإقليم الجبلي منها، فلا يبدو أنهـا كانـت تكون جزءاً من أي إقليم من الأقاليم الإثنى عشر، الأمر الذي يرى فيه بعض

---

(١) فؤاد حسنين: المرجع السابق ص ٢٣٧، أندريه إيمار، وجانين إبوايه: المرجع السابق ص ٢٦٦، صموئيل ثان ٩/ ٩، ١٣/ ٢٣، ١٦/ ١ وما بعدها، وكذا O. Eissfeldt, op - cit, P. 591.

(٢) ول ديورانت: المرجع السابق ص ٣٣٤، وكذا A. Lods, op - cit, P. 371.

(٣) M. Noth, op - cit, P. 212 - 213.

الباحثين دلالة على أن سليمان قد أعفى هذه القبيلة الملكية من الواجبات المفروضة على غيرها، وبالتالي كان سبباً في تذمر قبائل الشمال عندما فرض عليهم العمل في تحصين العاصمة، وقد أخمد التذمر، وأجبر زعيمه «يربعام» إلى الهروب إلى مصر[1]، على أن كثيراً من الباحثين يرون أن يهوذا، لا بد وأنها قد كلفت بعمل آخر، لأنه من غير المقبول أن تترك بدون أي التزام مالي نحو الدولة[2]، فضلاً عن أن سليمان، وهو الملك النبيّ، ما كان في حاجة إلى إجبار بني إسرائيل للعمل في تحصين العاصمة، وقد سخر الله له الجن **﴿يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات﴾**[3].

(٢) السياسة الخارجية : -

كان سليمان عليه السلام سياسياً حكيماً، كما كان محارباً عظيماً، وإدارياً قديراً، ورغم أنه قد أدرك بفطرته السليمة أنه من الضروري أن يكون له جيش قوي يحمي مملكته[4]، ويساعده في تبليغ الدعوة، فسليمان كما كان ملكاً عظيماً، فقد كان كذلك رسولاً نبيّاً، فقد أدرك في نفس الوقت بتفكيره السليم أن مملكته الصغيرة في مساحتها لن تعيش في سلام إلا بالتفاهم مع جيرانها، وأن من وسائل هذا التفاهم، وربما من وسائل نشر الدعوة أيضاً، أن يرتبط برباط المصاهرة مع جيرانه من الملوك والأمراء، ومن ثم فقد تزوج من بنات أمراء العمونيين والمؤابين والأراميين والكنعانيين والحيثيين[5] وغيرهم، بل وقد تخطت مصاهراته حدود الشام، فصاهر فرعون

(١) A. Lods, op - cit, P. 371 - 72.، ثم قارن: تاريخ ابن خلدون ٢/ ٢١٤.

(٢) O. Eissfeldt, op - cit, P. 591 وكذا W. F. Albright, Arachaeology and the Religion of Israel, Baltimore, 1963, P. 140.

(٣) سورة سبأ: آية ١٣.

(٤) O. Eissfeldt, op - cit, P. 589.

(٥) ملوك أول ١١/ ١ - ٢.

مصر، ومن ثم فقد أصبحت الأميرة المصرية السيدة الأولى في مملكته[1].

ونقرأ في التوراة أن فرعون «قد صعد وأخذ جازر وأحرقها بالنار، وقتل الكنعانيين الساكنين في المدينة، وأعطاها مهراً لابنته امرأة سليمان»[2]، ونطالع هذه الأمور، فيما يرى جاردنر، وكأنها تاريخ حقيقي، ولكننا لا نلتقي بما يؤكدها من الجانب المصري، وأما الشك من الناحية التاريخية في هذا الزواج، فإنه، وإن حصر في حدود ضيقة نسبياً، إلا أنه يكفي للتشكيك في أي الفراعين هو المقصود هنا، هذا إلى أن اسم «تحبنيس» (Tahpenes) لا يستطاع مطابقته على نظير له بالهيروغليفية[3]، ومن ثم فقد اختلف الباحثون في اسم هذا الفرعون الذي صاهر سليمان عليه السلام، فمن يرى أنه «سي أمون»[4]، ومن يرى أنه «بسوسنس الثاني»[5]، ومن يرى أنه آخر ملوك الأسرة الحادية والعشرين[6] (١٠٨٧ ـ ٩٤٥ ق. م) أو ما قبل الأخير من ملوك هذه الأسرة[7]، بل إن هناك من اقترح «شيشنق الأول» مؤسس الأسرة الثانية والعشرين[8] (٩٤٥ ـ ٧٣٠ ق. م)، وعلى أي حال،

---

(١) ملوك أول ٣/ ١، وكذا O. Eissfeldt, op - cit, P. 601، وانظر: تاريخ ابن خلدون ٢/ ١١٢، تاريخ اليعقوبي ١/ ٥٧، ثم قارن: H.G. Wells, The Outline of History, N. Y, 1965, P. 280.

(٢) ملوك أول ٩/ ١٦.

(٣) A. H. Gardiner, Egypt of the Pharaohs, Oxford, 1964, P. 329.

(٤) عبد الحميد زايد: الشرق الخالد ـ القاهرة ١٩٦٦ ص ٣٨٩، وكذا O. Eissfeldt, op - cit, P. 588 وكذا A.Malamat,Aspects of the Foreign Policies of David and Solomon, JNES, 22, 1963, P. 1F

(٥) محمد أبو المحاسن عصفور: المرجع السابق ص ٢١١، وكذا W.F. Petrie, Egypt and Israel, London, 1925, P. 66.

(٦) من المفروض أن «بسوسنس الثاني» هو آخر ملوك الأسرة الحادية والعشرين، غير أن هناك من يرى أنه (بسوسنس الثالث) (أنظر: H. Gauthier, Le Livre des Rois d'Egypte, III, Paris, 1907, P. 301 وكذا A. Gardiner, op - cit, P. 447).

(٧) A. Lods, op - cit, P. 368.

(٨) J. H. Breasted, A History of Egypt, 1946, P. 529. وكذا W. O. E. Oesterley, op - cit, P. 226

فأياً كان فرعون مصر هذا، الذي تنسب التوراة إليه مصاهرة سليمان عليه السلام، فالذي لا شك فيه أن هذا الزواج، فيما يرى المؤرخ اليهودي سيل روث، قد ساعد سليمان عليه السلام في أن يضيف إلى مملكته إقليم جازر، وهي القلعة الكنعانية القديمة، وواحدة من أهم المراكز التجارية في الشرق الأدنى القديم، ومن ثم فقد اكتسب مملكة إسرائيل موطىء قدم على البحر المتوسط[1]، وإن كنا لا نرى أبداً أن سليمان كان في حاجة إلى عون فرعون، وقد سخر الله طائفة من الجن ومردة الشياطين يعملون له الأعمال التي يعجز عنها البشر، كما أشرنا من قبل، فضلاً عن أن جند سليمان إنما كان مؤلفاً من الإنس والجن والطير، قال تعالى: ﴿**وحشر لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير فهم يوزعون**﴾[2].

(٣) التنظيمات العسكرية: -

يجمع المؤرخون أو يكادون، على أن خليفة داود، عليهما السلام، المحارب الشجاع، إنما قد أدرك جيداً ضرورة تكوين جيش قوي للدفاع عن دولته، فضلاً عن دعوته، وربما تجارته كذلك، ومن ثم فإن المصادر التاريخية إنما تنسب إلى سليمان عليه السلام استعمال «العربات الحربية»، ولأول مرة، في جيش إسرائيل، ونقرأ في التوراة أن داود عليه السلام عندما هزم مملكة «أرام صوبة» قد استولى على مئات الخيول[3]، غير أن داود لم يكن يملك عربة حربية واحدة، رغم أنه قد أدرك بنفسه أهمية هذا السلاح أثناء حروبه مع الأراميين، هذا فضلاً عن أن المصريين كانوا قد استخدموا هذا السلاح منذ مئات السنين[4]، وكذا فعل الكنعانيون.

(١) C. Roth, op - cit, P. 21.

(٢) سورة النمل: آية ١٧.

(٣) صوئيل ثان ٨/ ٣ - ٥.

(٤) محمد بيومي مهران: حركات التحرير في مصر القديمة - دار المعارف - الاسكندرية ١٩٧٦ ص ١٤٠ - ١٤٣، ص ١٩٧ - ١٩٨.

وهكذا ما أن ورث سليمان ملك أبيه داود، عليهما السلام، حتى أدخل هذا السلاح «العربات الحربية» في جيشه بل إنه إنما جعل منه القوة العسكرية الرئيسية في هذا الجيش، وربما كان السبب المباشر في ذلك، أن الأراميين في دمشق قد عملوا على استرداد نفوذهم المفقود بعد موت داود مباشرة، وفي أوائل أيام سليمان، ومن ثم فقد أصبحت دولة «أرام دمشق» نتيجة استخدامها لهذا السلاح، إنما تمثل تهديداً مباشراً لإسرائيل[١]، وطبقاً لما جاء في التوراة[٢]، فإن سليمان إنما كان يملك ما بين ١٤٠٠، ٤٠٠٠ حصاناً[٣]، وأما عن مباني الثكنات العسكرية الخاصة بفصائل العجلات الحربية، وطبقاً لما جاء في الملوك الأول[٤]، فقد اكتشف في «مجدو» وغيرها إسطبلات للخيول، وحظائر للعربات مع بعضها، وكانت تلك التي في «مجدو» تسع ١٥٠ عربة، ٤٥٠ حصاناً[٥].

هذا وكان قائد العربة يتلقى تدريبات طويلة شاقة، ويظل في الخدمة طالما كان قادراً على أداء وظيفته، أو على الأقل لعدة سنوات، ومن ثم فإنه يصبح جندياً محترفاً، وعندما زاد عدد العربات أصبح من الضروري استخدام عدد لا بأس به من الجنود غير المحترفين، ذلك لأن عدداً قليلاً من الإسرائيليين الذين كانوا مكلفين بالخدمة العسكرية كانوا يصبحون جنوداً محترفين، وليس هذا يعني أن هؤلاء الإسرائيليين المجندين بالجيش، ولا يعملون في سلاح العربات الحربية، قد أعفوا من القيام بالمهمات

---

(١) O. Eissfeldt, The Hebrew Kingdom, in CAH, II, Part, 2, Cambridge, 1975, P. 583 - 589.

(٢) ملوك أول ١٠/ ٢٦.

(٣) O. Eissfeldt, op - cit, P. 589. وكذا W. F. Albright, op - cit, P. 135F

(٤) ملوك أول ٩/ ١٩، ١٠/ ١٦.

(٥) Y. Yadin, New Light وكذا W. F. Albright, From the Stone Age to Christianity, P. 127, 233

C. Watzinger, Denkmaler Plastinas, I, وكذا on Salomon's Megiddo, BA, 23, 1960, P. 62F

W. F. Albright, The Archaeology of Palestine, P. 124. وكذا Leipzeg, 1933, P. 67F fig. 80 - 81

العسكرية، بل على العكس من ذلك، فقد كان الواحد منهم إذا لم يستدع للخدمة في الجيش، فقد كان يكلف بالعمل في بناء التحصينات والحظائر الخاصة بالعربات، فضلاً عن العمل في المشاريع البنائية الأخرى، ومن ثم فمن الأفضل أن نطلق على العمل الذي اشتهر خطأ باسم «السخرة»، إسم خدمة الأعمال العامة لبناء وصيانة التحصينات الدفاعية وخدمة الجيش[1]، وكان الرجال المكلفون بالخدمة العامة يستدعون طبقاً لكشوف ثابتة، تحدد الأعمال التي يمكنهم القيام بها في المجال الزراعي والصناعي، وكانوا بطبيعة الحال يتأثرون من هذا الإستدعاء في أعمالهم الخاصة[2]، وطبقاً للتقاليد الخاصة بانقسام مملكة إسرائيل بعد موت سليمان، فلقد تحملت إسرائيل، وليس يهوذا، العبء الأكبر من هذه الخدمة العامة[3].

(٤) النشاط التجاري : -

إمتاز عهد سليمان عليه السلام بنشاط تجاري عظيم، فلقد احتلت التجارة من اهتمامه وتدبيره مكاناً عظيماً، حتى أن فصائل العربات إنما كانت في خدمة التجارة، عندما لا تكون في خدمة الدفاع عن الدولة[4] ونشر الدعوة، وقد ساعد على نجاح التجارة سيطرة سليمان عليه السلام على الطرق التجارية في سورية وفلسطين والتي كانت قائمة منذ عهد أبيه، وليس هناك من ريب في أن سليمان قد احتفظ بحقوق كاملة على طرق القوافل التي كانت تمر عبر أراضي «أرامي دمشق»، فضلاً عن تلك التي كانت تمر عبر أراضي الآدوميين[5]، ومن هنا نراه يهتم بتحصين المراكز التي كانت تسيطر

(١) O. Eissfeldt, op - cit, P. 590.

(٢) Ibid., P. 590.

(٣) ملوك أول ٤/ ٦، ٥/ ٢٧ - ٣٠، ١١/ ٢٠ - ٢٣، وكذا O. Eissfeldt, op - cit, P. 591.

(٤) Ibid., P. 596.

(٥) Ibid., P. 587.

على الطرق التجارية الهامة التي كانت تمر بمملكته، حتى أصبحت فلسطين قنطرة بين آسيا وأفريقيا، كما استغل سليمان علاقاته الودية من ناحية، ومهارته السياسية من ناحية أخرى، فضلاً عن أن حدوده الجنوبية إنما كانت آمنة بسبب صلاته الطيبة بمصر، هذا إلى أن تحالفه مع «حيرام» ملك صور، أقوى الأمراء الفينقيين، قد حمى مواصلات سليمان مع المدن الفينيقية، وهكذا تمكنت القوافل من السفر، بصفة دائمة، من أرض مصر إلى بلاد الرافدين، ومن فينيقيا إلى الجزيرة العربية، في أمان وسلام، وهكذا نجح سليمان عليه السلام في السيطرة على مصدر الثروة العائد من التجارة[1]، ولعل الذي دفع سليمان إلى الإتجاه إلى التجارة، أن فلسطين إنما كانت بلداً زراعياً خالياً من الصناعة مما اضطره أن يحضر الصناع من صور، والنجارين من جبيل (ببلوس) عندما بنى بيت المقدس، كما أن فلسطين لم تكن تملك سلعاً للتصدير يمكن أن تقوم عليها تجارة ناجحة، ولكنه في موقع يمكن التصرف منه كوسيط، وقد استغل هذا الموقع أحسن استغلال[2]، فإلى جانب العمل في التجارة، فقد عبّدت الطرق وزودت ببعض المحطات، وهكذا كانت القوافل الآتية من الجزيرة العربية[3]، والمحملة بالتوابل، خاضعة لدفع الرسوم عندما كانت تمر بتلك الطرق

(١) H. R. Hall, op - cit, P. 433.

(٢) A. Lods, op - cit, P. 370.

(٣) أهم طرق القوافل هذه طريقان: الأول: الطريق الجنوبي الشمالي: ويبدأ من عدن وقنا في بلاد اليمن وحضرموت، ثم مأرب إلى نجران فالطائف ثم مكة ويثرب وخيبر والعلاومدائن صالح، وهنا ينقسم إلى فرعين، فرع يتجه إلى تيماء صوب العراق، ويستمر الفرع الآخر إلى البتراء ثم غزة فالشام ومصر، وأما الطريق الثاني فهو طريق «جرها ـ البتراء» ويبدأ من الهفوف ثم إلى شمال اليمامة في موقع مدينة الرياض الحالي، ثم يتجه غرباً إلى بريدة ثم حائل ثم تيماء فالبتراء (محمد بيومي مهران: دراسات في تاريخ العرب القديم ـ الرياض ١٩٧٧ ص ١٣٣ ـ ١٣٦).

والمحطات التي تقع في فلسطين[1] .

ونقرأ في التوراة أن سليمان عليه السلام كان شغوفاً بالخيل[2] ، رغم أن رب إسرائيل ، فيما تروي التوراة ، كان قد حذر ملوك إسرائيل من الخيل والنساء والذهب[3] ، غير أن سليمان إنما كان يرى أن «الفرس معدة ليوم الحرب» وإن كانت «النصرة نمن الرب»[4] ، ومن ثم فقد اهتم سليمان عليه السلام بالخيل كثيراً ، لأنها أداة الجهاد في سبيل الله ، فضلاً عن أنها وسيلة كسب ، ومن ثم فإن دولة سليمان إنما كانت في تلك الفترة تحتكر تجارة الخيل تماماً ، ذلك لأن كل طرق القوافل الهامة بين مصر وسورية وآسيا الصغرى كانت تمر بمملكة سليمان[5] .

وكانت مصر المصدر الرئيسي للخيل والمركبات ، ونقرأ في التوراة «وكان مخرج الخيل التي لسليمان من مصر ، وجماعة تجار الملك أخذوا جليبة بثمن ، وكانت المركبة تصعد وتخرج من مصر بست مئة شاقل من الفضة ، والفرس بمئة وخمسين »[6] ، أي أن قيمة الحصان إنما كانت تساوي ربع قيمة العربة ، وربما كان ذلك لأن سليمان كان يتمتع في مصر بامتياز خاص ، ولأن صناع المركبات المصريين إنما كانوا على درجة عالية من المهارة في صنع المركبات ذات العجلتين الخاصة بالصيد والحرب ، كما كانوا يستوردون الخشب المتين من فينيقيا وسورية ، وهذا يفسر لنا الفرق بين

---

(١) فيليب حتي : المرجع السابق ص ٢٠٧ ، فؤاد حسنين : المرجع السابق ص ٢٣٨ .

(٢) ملوك أول ١٠/ ٢٦ ـ ٢٩ ، أخبار أيام ثان ١/ ١٤ ـ ١٧ .

(٣) تثنية ١٧/ ١٦ ـ ١٧ .

(٤) سفر الأمثال ٢١/ ٣١.

(٥) Werner Keller, The Bible As History, 1967, P. 207.

(٦) ملوك أول ١٠/ ٢٨ ـ ٢٩ .

سعر المركبة والفرس في مصر[1]، وعلى أية حال، فهناك مصدر آخر للخيل، هو "Koa" وهو اسم دولة في سيليسيا كانت تقع في السهل الخصيب بين جبال طوروس والبحر الأبيض المتوسط، وتشتهر بتربية الخيول، وطبقاً لرواية «هيرودوت» فإن الفرس كانوا يحصلون على أحسن خيولهم من سيليسيا[2]، وأما سوق هذه التجارة فقد كان عند ملوك الأراميين والحيثيين[3].

وهناك ما يشير إلى أن سليمان قد أقام حظائر للخيل في جهات متعددة، وقد ألقت بعثة الحفائر الأمريكية في «مجدو» الضوء على هذه الحظائر، حيث عثر على بقايا من عدة أجزاء كبيرة من اسطبلات الخيول، والتي كانت دائماً تنتظم حول فناء دائري مبلط بملاط من الحجر الجيري، ويخترق وسط كل اسطبل ممر عرضه عشرة أقدام، وقد رصف بصخور خشنة ليحول دون انزلاق الخيل، وقد وضعت على كل جانب وراء نتوءات الأحجار، مرابط فسيحة عرض كل منها عشرة أقدام، وما يزال الكثير من هذه الإسطبلات محتفظاً بمعالف طعام الخيل، كما لا تزال كذلك أجزاء من معدات السقي ظاهرة، ولعل مما يثير الانتباه فخامة تلك الإسطبلات حتى بالنسبة لظروف الحياة الحاضرة، فضلاً عن العناية الفائقة التي بذلت بوفرة في المباني والخدمات، والتي يمكن الحكم عن طريقها بأن الخيول إنما كانت مرغوباً فيها في تلك الأيام، وعندما تم الكشف عن المبنى بأكمله، قدر بعض الباحثين لكل اسطبل ٤٥٠ حصاناً ولكل حظيرة ١٥٠ عربة، هذا وقد

---

(١) J. H. Breasted, The Down of Conscience, 1939, P. 355 وكذا O. Eissfeldt, op - cit, P. 593 وكذا W. F. Albright, Archaeology and the Religion of Israel, P. 135.

(٢) W. Keller, op -cit, P. 207 وكذا M. F. Unger, Unger's Bible Dictionary, Chicago, 1970, P. 1036.

(٣) ملوك أول ١١/ ٢٩.

اكتشفت نظائر لهذه الإسطبلات في بيسان وحاصور وتعنك وأورشليم[١]، كما أشرنا من قبل، وأما تاريخ هذه الإسطبلات، فهناك من يرجعها إلى عهد «أخاب» (٨٦٩ - ٨٥٠ ق. م) أكثر من عهد سليمان[٢] (٩٦٠ - ٩٢٢ ق. م)، غير أن أكثر الدراسات أهمية في تاريخ مدينة «مجدو» إنما تضع الطبقة الرابعة التي وجدت بها هذه الإسطبلات جزئياً على الأقل في عهد الملك سليمان، وأن بقايا هذه المباني المشهورة إنما ترجع حقيقة إلى عهد سليمان، دون غيره[٣].

(٥) النشاط البحري: -

اتجه سليمان أيضاً نحو البحر ليفتح لبلاده أبواب التجارة مع البلاد الواقعة على الأبحر، ولكن قومه العبرانيين لم يكونوا قد ألفوا ركوب البحر من قبل، كما أنهم لم يكونوا على خبرة، أياً كانت، بشئون بناء السفن وملاحتها، ومن هنا بدأ سليمان يعمل على تأمين الطرق عبر وادي عربة، ثم الاتفاق مع «حيرام» ملك صور، على إنشاء أسطول في ميناء «عصيون جابر» تستغل فيه المهارة الفينيقية، هذا وقد ركزت التوراة على التجارة البحرية في عهد سليمان أكثر من التجارة البرية، وقد أثبتت الحفريات مما يؤكد كثيراً من النصوص الخاصة بهذه التجارة البحرية[٤]، ونقرأ في التوراة «وقد عمل سليمان سفناً في عصيون جابر التي بجانب أيلة على شاطىء بحر سوف في

---

(١) C. Watzinger, op - cit, P. 67F, وكذا W. F. Albright, The Archaeology of Palestine, P. 124
وكذا M. Burows, what Mean These Stones, New - Haven, 1941, P. 127F وكذا
W. Keller, op-Cit, P. 195.

(٢) J. W. Crowfoot, PEQ, 1940, P. 143 - 147.

(٣) G. E. Wright, BA, 13, وكذا J. Finegan, op - cit, P. 181 وكذا W. F. Albright, op - cit, P. 124
R. M. Engberg, BA, 4, 1941, P. 12F. وكذا AJA, 44, 1940, P. 546 - 550 وكذا 1950, P. 44

(٤) O. Eissfeldt, op - cit, P. 593.

أرض أدوم[1]» ، وقد كشف في تل الخليفة «عصيون جابر»[2] مسامير كبيرة من الحديد أو النحاس الممزوج بالحديد ، وقطع من حبال غليظة وكتل من القار لضم السفن ، وأخرى من الصمغ لطلائها ، وكان من الممكن قطع الأخشاب اللازمة من غابات البلوط التي كانت توجد في أدوم في ذلك الوقت[3] ، ومع ذلك ، ورغم وجود غابات كثيرة من النخيل في مجاورات هذا المكان ، إلا أنه لا توجد الأخشاب اللازمة لأغراض البناء ، ومن ثم فقد أرسل «حيرام» الصوري الأخشاب التي حملها ثمانية الآف من الرجال ، بنى بها أسطول من عشر سفن ، وقد عرفنا الكثير عن هذا الأسطول حتى أسماء ربانية من الفينيقيين[4] ، كما عرفنا كثيراً عن أسطول منفصل لحيرام ، أبحر مع أسطول سليمان إلى «أوفير» ، وأتى من هناك بالذهب والأخشاب النادرة والأحجار النفيسة ، وكل ما هو نادر وغريب[5] ، هذا وقد كشف قرب «تل أبيب» (Tel - Aviv) عن «أوستراكا» ترجع إلى ما بين عامي ٩٠٠ ، ٨٠٠ قبل الميلاد ، وعليها نص يقول : «ذهب أوفير من أجل بيت حورن»[6] .

---

(١) ملوك أول ٩/ ٢٦ .

(٢) كان يظن من قبل أن «عصيون جابر» تقع عند «عين الغديان» في قعر وادي العربة ، غير أن بعثة أمريكية ، برياسة نلسون جلوك ، قد كشفت موقعها في «تل الخليفة» على مبعدة ١ ٢ كيلاً من ساحل البحر على الطرف الشمالي لخليج العقبة على مقربة من ميناء «إيلات» الحالي ، في منتصف الطريق بين مدينة العقبة والطرف الشرقي من خليج العقبة ، و «أم الرشراش» على الطرف الغربي ، وقد عرفت عصيون جابر فيما بعد باسم «برنيسا» (Pernice) ، فيما يرى البعض ، ثم أعاد «عزايا» ملك يهودا بناءها باسم إيلات (أنظر : N. Glueck, The other side of the Jorden, New - Haven, 1940, P. 50 - 113 وكذا K. M. Kenyon, op - cit, P. 257 وكذا W. Albright, The Archaeology of Palestine, P. 44, 127, 128 وكذا J. Hastings, op - cit, P. 253 وكذا J. Hornell, Antiquity, 21, 1947, P. 66.

(٣) جورج فضلو حوراني : المرجع السابق ص ٣٤.

(٤) W. Keller, op - cit, P. 201.

(٥) ملوك أول ١٠/ ١١ - ١٢ .

(٦) B. Mailer, Two Hebrew Ostraca from Tell - Qasile, JNES, 10, 1951, P. 265F وكذا =

ولعل سؤال البداهة الآن : أين تقع أوفير؟

لقد قام، وما يزال، جدل طويل حول أوفير هذه، وهناك دائماً من يزعم أنه وجدها في شرق أفريقيا، فهناك «كارل ماوخ» الذي وصل إلى أنقاض مدينة أحد المعابد في عام ١٨٦٤ م، على حدود روديسيا الجنوبية وموزمبيق في شرق أفريقية، وهناك «ستنبرج» الذي اكتشف بعد ذلك بخمسة عشر عاماً، وعلى مبعدة أميال قليلة إلى الجنوب من المكان الأول، محلات للتعدين من عصر ما قبل المسيحية، ظن أنها كانت تتصل بمعبد المدينة، وفي عام ١٩١٠ م صوّر الرحالة الدكتور «كارل بطرس» نقوشاً من هذا الموقع يزعم المتخصصون أنهم لاحظوا فيها ملامح فينيقية عربية[١]، وهناك وجه آخر للنظر يذهب صاحبه (وليم أولبرايت) أن أوفير في الصومال، ويتفق هذا مع رواية التوراة عن طول الوقت الذي يلزم للوصول إلى أوفير، حيث تقول «فكانت سفن ترشيش تأتي مرة كل ثلاث سنوات»[٢]، ثم يقترح «أولبرايت» بعد ذلك أن الأسطول ربما كان يبحر من عصيون جابر في نوفمبر أو ديسمبر من السنة الأولى، ويعود في مايو أو يونية من السنة الثالثة وبهذا يتجنب الجو الحار، قدر استطاعته، وأن الرحلة في هذه الحالة لا تأخذ أكثر من ثمانية عشر شهراً، هذا فضلاً عن أن طبيعة السلع (الذهب والفضة والعاج والقرود) تشير إلى أفريقية من الواضح أنه كمكان إنما هو الأصل[٣].

وهناك وجه ثالث للنظر يحاول أن يوّحد «أوفير» ببلاد «بونت»[٤]

= Syria XXVI, 1949, P. 157، وأما بيت حورن، فيعني المغارة، ويطلق على قريتين على حدود أفرايم وبنيامين، ومكانهما على مبعدة ١٢ ميلاً شمال القدس، ويسميان بيت عور الفوقانية وبيت غور التحتية (قاموس الكتاب المقدس ١/ ٢٠٢).

(١) W. Keller, op - cit, P. 201 - 202.

(٢) ملوك أول ١٠/ ١٢.

(٣) W. Keller, op - cit, P. 434.

(٤) H. R. Hall, op - cit, P. 454.

(وصحة الإسم فيما يرى جاردنر بويني)[1]، والتي يرى كثير من العلماء[2] أنها تقع على الساحلين، وجنوب بلاد العرب في ناحية أخرى[3]، على أن هناك وجهاً رابعاً للنظر يذهب إلى أن أوفير إنما تقع في جنوب شبه الجزيرة العربية[4]، وإن اختلفت الآراء في هذا المكان من جنوب بلاد العرب، بين أن تكون في الجنوب الغربي (اليمن) متضمناً الساحل الأفريقي المجاور[5]، وبين أن تكون في الجنوب الشرقي، متضمناً الخليج العربي وخليج عمان[6]، وبين أن تكون في العويفرة[7]، القريبة من قرية «الفاو» السعودية (على مبعدة ٦٠ كيلاً جنوب غرب مدينة الخماسين)، وأن الإسم القديم هو «عفر»، وقد حرف بالنقل إلى اللغتين العبرية واليونانية، فأصبح «أوفير»، وبين أن تكون في المنطقة ما بين «القنفذة» و «عتود» في المملكة العربية السعودية[8].

وهناك وجه خامس للنظر يذهب إلى أن «أوفير» إنما تقع في الهند، اعتماداً على أن كثيراً من أسماء بعض السلع التي كانت تأتي من «أوفير» إنما

---

(١) A. H. Gardiner, op - cit, P. 37.

(٢) أنظر الآراء المختلفة عن موقع بونت (محمد بيومي مهران: العرب وعلاقاتهم الدولية في العصور القديمة ـ الرياض ١٩٧٦ ص ٣٠٧ ـ ٣١١).

(٣) أحمد فخري: مصر الفرعونية ص ١٣٣، دراسات في تاريخ الشرق القديم ص ١٤٠، محمد مبروك نافع: عصر ما قبل الإسلام ص ٥٢ ـ ٥٣، وكذا E. Naville, Le Commerce de L' Ancienne Egypte avec les Nations Voisnnes, Geneve, 1911, P. 7 وكذا ZAS, LXVIII, 1932, P. 112F وكذا P. K. Hitti, op - cit, P. 3 وكذا J. Wilson, op - cit, P. 176.

(٤) A. Lods, op - cit, P. 370 وكذا S. A. Cook, CAH, III, 1965, P. 357.

(٥) M. F. Unger, op - cit, P. 810 وكذا J. Hastings, op - cit, P. 669 وكذا M. Noth, op - cit, P. 215.

(٦) E. Glaser, Die Abessinier in Arabien und africa, 1895, P. 368 - 373 وكذا - J. Hastings, op cit, P. 669.

(٧) B. Thomas, Arabia Felix, A Cross The Empty Quarter of Arabia, N. Y. 1932, P. 163.

(٨) B. Moritz, Arabien, Hannover, 1923, P. 110.

هي دخيلة في اللغة العبرية من بعض لغات أخرى مثل «السنسكريتية»[1]، على أن الخيال ذهب بالبعض إلى أن يذهب أن أوفير إنما تقع في ولاية «الأمازون» البرازيلية في أمريكا الجنوبية، اعتماداً على أن هناك حتى اليوم في ولاية الأمازون أمكنة كثيرة حافظت على أسماء عبرية وفينيقية، كما أن السلع التي نقلتها سفن سليمان وحليفه حيرام من أوفير إلى أورشليم وصور وصيدا، يوجد نماذج كثيرة منها هناك، كما أن أسماءها ليست عبرية أو فينيقية، وإنما هي من صميم لغة سكان الأمازون، فضلاً عن أن اسم «سوليمونس» الذي يحمله أحد فروع الأمازون، إنما هو اسم الملك سليمان نفسه، وقد أطلقه على النهر الكبير أحد أفراد الأسطول تيمناً بالملك العظيم[2]، وهكذا يصل الخيال بالبعض إلى هذا الحد، إلى أن تكون أوفير في أمريكا الجنوبية.

وهناك وجه سابع للنظر يذهب إلى أن «أوفير» إنما تقع في «عسير»، وثامن يرى أنها في مدين، ورجح كثيرون أنها على سواحل بلاد العرب الغربية أو الجنوبية، على أساس أن هذه الأماكن أقرب إلى الوصف الوارد في التوراة من غيرها[3]، هذا وقد ذكر الهمداني في معاد اليمامة موضعاً سماه «الحفير» فقال: «ومعدن الحفير بناحية عماية، وهو معدن ذهب غزير» ووجود الذهب بغزارة في الحفير إنما ينطبق على وصف أوفير إلى حد كبير، إلا أن هذا الموضع بعيد عن البحر، ولكن من يدري فلعل كتبة التوراة لم يكونوا على معرفة بموقع أوفير، وإنما سمعوا بذهبه الذي يتاجر به العرب

---

(١) Ernest Renan, Histoire du Peuple d'Israel, Paris, 1887, P. 122 وكذا

J. Finegan, op - cit, P. 181.

(٢) الأب أميل أدة: الفينيقيون واكتشاف أمريكا - بيروت ١٩٦٩ ص ٢٤ - ٢٥.

(٣) جواد علي: المرجع السابق ١/ ٦٣٩، وكذا J. B. Montgomery, op - cit, P. 38 وكذا B. Moritz,

R. F. Burton, The Gold Mines of Midian, Sikzze, II, P. 347. وكذا Op-Cit, P. 7

الجنوبيون، من الموانى الساحلية، فأرسل سليمان سفنه إلى موضع بيعه في سواحل بلاد العرب لشرائه، ومن هنا ظن كتاب التوراة أن أوفير على ساحل البحر، والحفير كما يبدو اسم قريب جداً من أوفير[1]، وأخيراً فهناك من يرى أن «أوفير» معناها «الأرض الحمراء» (أي الحمراء بلون الذهب)، وأنها لم تكن علماً على بلد بعينه، وإنما كانت اسم جنس ينطبق على بلاد عدة كاليمن وشرق أفريقية وغرب الهند[2].

هذا وقد قدم لنا الأستاذ الدكتور السيد يعقوب بكر، دراسة عليمية جادة عن موقع أوفير، ناقش فيها كل النظريات المختلفة وخلص منها إلى أن الركن الجنوبي الغربي من شبه الجزيرة العربية هو مكان «أوفير»[3]، فقد كانت بلاد العرب موطناً للذهب الأمر الذي شاع بين الكتاب القدامى من الإغارقة والرومان، حتى أنهم يذهبون إلى أنه كان يستخرج في مواضع معينة منها، خالصاً نقياً لا يعالج بالنار لاسنخلاصه من الشوائب الغريبة ولا يصهر لتنقيته، ولهذا قيل له "Apyron" ومن ثم فقد ذهب بعض العلماء المحدثين إلى أن العبرانيين إنما قد أخذوا لفظة «أوفير» من «أبيرون» (Apyron) هذه[4]، وقد عثر في «مهد الذهب»، ويقع شمالي المدينة المنورة، على أدوات استعمالها القدامى في استخراج الذهب واستخلاصه من شوائبه مثل رحى وأدوات تنظيف ومدقات ومصابيح، فضلاً عما تركه القوم من آثار في حفر العروق التي يتكون منها الذهب، مما يدل على أن الموقع كان منجماً للذهب في عصور ما

---

(١) الهمداني: صفة جزيرة العرب ص ١٥٣، جواد علي: المرجع السابق ١/ ٦٣٩ - ٦٤٠.

(٢) J. Hornell, Naval activity in the day of Soloman and Ramses, III, Antiquity, 21, 1947, P. 239 -

وكذا J. Hormell, Sea - Trade in Early Times, Antiquity, 15, 1941, P. 361 - 364.

(٣) السيد يعقوب بكر: أوفير ص ١١٦ - ١٩٠ (من كتاب فضلو حورابي - العرب والملاحة في المحيط الهندي - القاهرة ١٩٥٨).

(٤) J. A. Montgomery, Arabia and the Bible, 1934, P. 39.

قبل الإسلام، ولعله من المناجم التي أرسلت الذهب إلى سليمان[1].

وهكذا كان من الطبيعي أن يطلب سليمان الذهب في بلاد العرب، وليس في مكان أقصى كالهند وأفريقية، وكان من الطبيعي أيضاً أن يطلبه في الجانب الجنوبي الغربي من بلاد العرب، لأنه أقرب أجزائه إليه، وبخاصة في «بيشة» وفي «خنكان» وفي المنطقة ما بين القنفذة ومرسى حلج، فضلاً عن «وادي تثليث» على مقربة من «حمضة»، وعلى مبعدة **١٨٣** ميلاً من نجران[2]، وربما قد حدث ذلك بعد إسلام ملكة سبأ، في أغلب الظن.

وكان أمام سليمان للوصول إلى ذهب بلاد العرب طريقان، طريق البر عبر الصحراء، وطريق البحر على طول ساحل البحر الأحمر، ولكنه آثر الطريق البحري، رغم أن قومه كانوا أهل زراعة ورعي، لم يتمرسوا بالبحار، ذلك لأن طريق البر جد شائق وقد تزيد نفقاته على طريق البحر، وثمة سبب آخر دعا سليمان إلى اختيار طريق البحر هو أنه أراد أن يشرك معه حليفه «حيرام» ملك صور، رغبة في الانتفاع بمهارة الفينيقيين في الملاحة، وربما بإلحاح من حيرام نفسه، وأياً كان السبب، فإن الجانب الجنوبي الغربي من بلاد العرب، إنما كان المصدر الذي استقى منه سليمان الذهب، وكان الذهب أهم السلع التي كانت تجلب من أوفير، ثم يلي الذهب في الأهمية بين سلع أوفير، خشب الصندل والحجارة الكريمة وهما سلع عربية كذلك، هذا فضلاً عن أن التوراة[3] إنما تعد «أوفير» من أبناء يقطان (قحطان في جنوب بلاد العرب) تضعه بين سبأ وحويلة، و «أوفير بن يقطان» هذا (أي شعب أوفير القحطان) هو الشعب الذي يسكن أرض «أوفير»،

---

(١) جواد علي ١/ ١٩٣، وكذا R. H. Sanger. the Arabian Peninsula. Cornell. 1954, P. 20, 23.

(٢) K. S. Twitchell, Sudi Arabia With an Account of its Natural Recources. Princeton. 1943, P. 77. وكذا B. Moritz. op - cit. P. 110 of Dvelopment

(٣) تكوين ١٠/ ٢٩.

وبدهي أنه ليس هناك «أوفيران»، أوفير في الجزيرة العربية، وأوفير في مكان آخر، كما يزعم البعض[1] .

وأما الفضة والعاج والقرود والطواويس، فالفضة كانت دائماً غالية في بلاد العرب، ولهذا رأى بعض الباحثين أنها مقحمة في النص[2]، ولكن من الممكن أنها كانت تستورد إلى أوفير، والأمر كذلك بالنسبة إلى العاج، إما من أفريقية القريبة، وهو الأرجح، وإما من الهند البعيدة، وأما القرود فهي مستوردة أيضاً، إلا إذا كان المراد «النسانيس» كما يقول «مونتجمري»[3]، وهي ما تزال ترى في مرتفعات اليمن وحضرموت، وعندئذ فهي سلعة عربية، وكذلك «الطيوب» التي يجعلها «جلازر» مكان القرود، سلعة عربية كذلك، بل هي السلعة التي يتهافت عليها الشرق والغرب، وكانت مصدر غنى وثروة لعرب الجنوب، ثم يتبقى بعد ذلك «الطواويس»، وهي سلعة هندية في الأصل، فلا بد أن أوفير كانت تستوردهما من الهند، وإذا صح ما يقوله «نيبور» من أن المراد «العبيد»، كانت السلعة مستوردة أيضاً، ولكن من أفريقية[4] .

أضف إلى ذلك كله أن هناك ما يثبت أن الاتصال البحري بين شمال البحر الأحمر والهند لم يتم إلا في عصر قريب من القرن الأول الميلادي أو في عصر لا يبعد كثيراً عن القرن الأول، وفي هذا زعزعة للنظرية الهندية[5]، وكذا النظرية «جلازر» والتي تذهب إلى أن أوفير التوراة إنما هي الساحل

---

(١) السيد يعقوب بكر: المرجع السابق ص ١٥٠ ـ ١٥٤ .

(٢) T. A. Rickard, Man and Metals, I, N. Y, 1932, P. 267.

(٣) J. Montgomery, op - cit, P. 39.

(٤) السيد يعقوب بكر: المرجع السابق ص ١٥٤ ـ ١٥٥ .

(٥) CAH, I, P. 212 وكذا C. Renan, op - cit, P. 119 - 122 وكذا J. Hornell, Antiquity, 15, 1941, P. 244, Antiauity, , 1947, P. 72 - 73.

العربي من الخليج الفارسي (العربي) من الشمال حتى رأس مصندم[1] ، ثم إن هذا يثبت كذلك أن السفن قبل القرن الأول كانت تستطيع عبور باب المندب إلى عدن ، وفي هذا زعزعة لرأي «موريتز»[2] الذي يرى أن السفن في عصر سليمان كانت أضعف من أن تتجاوز مضيق باب المندب ، وإذن فإن سفن سليمان كانت تستطيع حمل سلع أوفير من ميناء عربي قبل باب المندب ، كميناء «مخا» أو بعده كميناء «عدن» ثم إن انتساب العاج والقرود والطواويس في العبرية إلى أصول هندية ، ليس دليلاً على أن السلع كانت تستورد من الهند نفسها ، فقد كان باب الإستيراد مفتوحاً ، كذلك لا يستطيع الإستدلال على أن أوفير في بلد ما ، بورود أسماء متشابهة لأوفير في هذا البلد ، فكثيراً ما يكون التشابه اللفظي عارضاً[3] .

ويناقش الدكتور يعقوب بكر بعد ذلك الاعتراضات التي وجهت إلى هذه النظرية ، ومنها أن ذهب بلاد العرب كان قليلاً بالقياس إلى المقادير الهائلة التي كانت تصل منه إلى سليمان ، وأن السنوات الثلاث التي كانت تستغرقها رحلة أوفير ، يستحيل معها أن تكون أوفير في مكان قريب من عصيون جابر ، فهذان الاعتراضات يقومان على أساس التسليم بقصة التوراة عن أوفير حرفياً ، ولكن ألا تجوز المبالغة في هذا المجال الأدبي ، ولا سيما أن الأمر يتعلق بسليمان الذي سارت بذكره الركبان ، والذي كان يحتاج فعلاً إلى ذهب كثير لتزيّين الهيكل وقصر الملك ، ثم ألا يمكن أن يكون الغرض من المبالغة التوراتية إظهار حملات أوفير ، وكأنها أبهى من حملات الفراعنة إلى «بونت» أو بمنزلتها على الأقل ، وأخيراً فمن المتفق عليه أن نصوص التوراة ليست فوق مظان الشك والريبة .

(١) E. Glaser, Skizze der Geschichte und Geographis Arabiens, II, P. 368 - 373.

(٢) B. Moritz, op - cit, P. 86 - 89.

(٣) السيد يعقوب بكر: المرجع السابق ص ١٥٦ ـ ١٥٧ .

وأما عن ذكر السنوات الثلاث التي كانت تستغرقها الرحلة إلى أوفير، فهي أولاً قد وردت في المصادر التوراتية المتأخرة، ثم هي مبالغة أيضاً، فقد يجوز أن يكون المعنى أن سليمان كان يبعث بسفنه مرة كل ثلاث سنين، وعندئذ لا تكون الإشارة إلى زمن الرحلة، ولكن إلى المدة الفاصلة بين كل رحلة وأخرى[1]، هذا فضلاً عن أن وجهة نظر «أولبرايت» عن الرحلة، ربما كانت تتصل برحلة أخرى غير رحلة أوفير، ذلك لأن «ستانلي كوك»[2] يرى أن سليمان وحيرام قد امتلكا أسطول «ترشيش»، والذي يمكن الحكم عليه من اسمه أنه قد ذهب إلى ترشيش في أسبانيا، وأما أسطول الفينقيين فقد أبحر من عصيون جابر في أدوم ليحضر الذهب من أرض أوفير (في جنوب بلاد العرب)، وهكذا يبدو أن رحلة السنوات الثلاث ربما لا تتصل بأوفير، ولكنها تتصل بأسطول «ترشيش»[3] إلى أسبانيا، وإن كان ذلك سيجرنا إلى متاعب أخرى، علماً بأن هناك من يرى أن هناك علاقات تجارية بين حيرام من ناحية، وبين قبرص وأسبانيا من ناحية أخرى[4].

(٦) النشاط الصناعي: -

لم تكن عصيون جابر ميناء تجارياً فحسب، ولكنها كانت. كذلك مركزاً صناعياً، وفي الواقع فلقد كان اختيار موقعها اختياراً موفقاً، في مكان لم يسكن من قبل بين تلال أدوم من الشرق، وتلال فلسطين من الغرب، حيث

---

(١) انظر عن مصادر التوراة (محمد بيومي مهران: إسرائيل ٣/ ٩٧ - ١٠٦.

(٢) السيد يعقوب بكر: المرجع السابق ص ١٤٨ - ١٦٠.

(٣) S. A. Cook, op - cit, P. 367.

(٤) يذهب البعض إلى أن «ترشيش» تقع في سردينيا، ويذهب آخرون إلى أنها هي «ترتيسوس» في جنوب أسبانيا على مقربة من جبل طارق أو لعلها قرطاجة في شمال أفريقية (قاموس الكتاب المقدس ١/ ٢١٥ - ٢١٦ وكذا M. F. Unger, op - cit, P. 1070 - 1071 وكذا F. Thieberger, King Soloman, London, 1957, P. 206.

يمكن الإفادة إلى أقصى الحدود من الريح التي تهب من الشمال، حيث تبلغ غاية سرعتها في وسط وادي عربة، وذلك للانتفاع بها في تأجج النار اللازمة للتكرير، هذا فضلاً عن أدوم، وكل المنطقة الواقعة بين البحر الميت وخليج العقبة، غنية بالنحاس والحديد[1]، ونقرأ في التوراة عن «أرض حجارتها حديد، ومن جبالها تحفر نحاساً»[2]، ومن هنا كانت عصيون جابر، بجانب وادي عربة والنقب، مركزاً لصهر الحديد والنحاس في عهد سليمان، حتى كانت فلسطين في عهده من أكبر مصدري النحاس في العالم القديم[3].

هذا وقد كشف «بتري» في «جمة» معامل لاستخراج الحديد، أصغر كثيراً من تلك التي في عصيون جابر، ويبدو أن داود عليه السلام كان قد نازع الآدوميين احتكار الحديد، واستولى عليه بعد هزيمتهم، ومن ثم فإن مخزونات النحاس والحديد قد استخرجت وصهرت في عهد سليمان عليه السلام بدرجة كبيرة، حتى أنه لم يعثر حتى الآن في أي مكان آخر في العالم القديم على ما يضاهي معامل تنقية النحاس في عصيون جابر، ولعل أفضل هذه المعامل من جهة الإعداد والبناء ما وجد في الطبقة (ط) التي تحوي مخلفات أقدم للفترات الخمسة الرئيسية لعمران هذا الموقع[4].

(٧) مملكة سليمان ومدى اتساعها : -

إختلف المؤرخون، وما يزالون مختلفين، حول اتساع مملكة سليمان

---

(١) موسكاتي: المرجع السابق ص ٢٨٠، وكذا J. Finegan, Op.Cit., P. 181 Eissfeldt, op - cit, P. 594.

(٢) تثنية ٨/ ١٢.

(٣) W. F. Albright, Archaeology and the Religion of Israel, Baltimore, 1963, P. 133F وكذا NGM, 85, 1944, P. 233 - 236. وكذا N. Glueck, op - cit, P. 89F.

(٤) وليم أولبرايت: آثار فلسطين ص ١٢٨، فيليب حتي: المرجع السابق ص ٢٠٧ وكذا W. Keller, op - cit, P. 198 - 199.

عليه السلام، فرأي يذهب أصحابه من المؤرخين المحدثين إلى أن المملكة التي ورثها سليمان عن أبيه داود عليهما السلام، أكبر من تلك التي ورثّها سليمان لمن أتوا بعده من ملوك بيت يهوذا وإسرائيل، وذلك لأن الأمور في خارج فلسطين لم تكن تسير في نفس المجرى الذي اتخذته في الداخل[1]، وقد بدأت المتاعب ضد دولة سليمان تظهر على الحدود، ذلك أن «يوآب» قائد جيش داود كان قد اجتاح «أدوم» قبل ذلك بنصف قرن، وقتل كل ذكورها بحد السيف، وقد استطاع «هدد»، وهو طفل أدومي من الأسرة المالكة، أن يهرب إلى مصر، وحين اشتد ساعده وجد رضا في عين فرعون الذي زوجه من «تحبنيس» (تحفنيس) أخت زوجه الملكة، ثم عاد هدد إلى أدوم، بغير موافقة فرعون، وأصبح العدو اللدود لسليمان مدى الحياة[2]، ونقرأ في التوراة أنه «أصبح ملكاً على أدوم»[3]، وربما قد حدث ذلك في فترة مبكرة من عهد سليمان، وطبقاً لرواية أخرى في التوراة[4]، فقد كان لسليمان مدخل إلى خليج العقبة وميناء «عصيون جابر»، عبر وادي عربة، أي عبر الجزء الأساسي الهام من أدوم، ويفترض بعض المؤرخين أن سليمان قد عقد اتفاقاً مع «هدد»، بتوسط من فرعون الذي كان يريد أن تفسد علاقاته الودية مع صهره سليمان، إن صحت روايات التوراة، وإن لم تعد لسليمان سيطرة على ولاية أدوم، كما أنه ليس هناك ما يدل على أن سليمان قد اتخذ من الخطوات ما يجعله يستعيد سيطرته على أدوم مرة أخرى[5].

ونقرأ كذلك في التوراة «أن الله أقام لسليمان خصماً آخر، هو «رزون

---

(1) A. Lods, op - cit, P. 268. وكذا M. Noth, op - cit, P. 206

(2) A. Lods, op - cit, P. 368 وكذا C. Roth, op - cit, P. 23 وكذا M. Noth, op - cit, P. 250 - 256 وكذا H. R. Hall, op - cit, P. 433.

(3) ملوك أول ١١/ ١٤ - ٢٢ وكذا A. H. Gardiner, Egypt of the pharaohs, 1961, P. 329.

(4) ملوك أول ١١/ ٢٥.

(5) A. Lods, OP. Cit., P. 268 وكذا M. Noth, Op. Cit., P. 206.

بن اليداع» (رصين) الذي هرب من سيده «هدد عزر» ملك صوبة، وأقام مملكة في دمشق، وكان خصماً لإسرائيل كل أيام سليمان مع «هدد»[1]، وهكذا نمت المملكة الأرامية في دمشق، ثم تطورت بعد فترة قصيرة حتى غدت أقوى سلطة في سورية، الأمر الذي أدى إلى أن ما أوجده داود من نفوذ في دمشق قد ضاع الآن[2].

هذا وفي نفس الوقت كانت مصر قد بدأت حالتها في الإنتعاش، وبالتالي فقد بدأت تحاول إعادة سيطرتها في غربي كنعان فهناك ما يشير إلى حملة ضد الفلسطينيين شعوب البحر في جنوب غرب كنعان، فقد عثر في «تانيس» على نقش بارز على جدران مبنى شيده «بسوسنس الأول» و «سيامون» (سي آمون) من الأسرة الحادية والعشرين، جنوب معبد آمون الرئيسي، يصور فيه «سيامون»، وهو يضرب عدواً راكعاً أمامه، وقابضاً في يده على فأس للحرب مزدوجة من ذلك النوع الذي كان يتخذه الإيجيون من أسلحة الحرب[3]، هذا فضلاً عن أن هناك ما يشير إلى أن سيامون قد أرسل جيوشه لمحاربة الفلسطينين في جنوب غرب كنعان، وأن مدينة أسدود قد غزيت، وأن هناك آثاراً في «تل فرعة» لنفس الفرعون[4]، بل إن هناك من يذهب إلى أن سيامون قد فكر في غزو إسرائيل نفسها[5].

أضف إلى ذلك أن أعداء سليمان قد نشطوا كثيراً، ونجحوا في

(١) ملوك أول ١١/ ٢٣ ـ ٢٥.

(٢) M. Noth, op - cit, P. 206.

(٣) P. Montet, Osorkon, II, P. 36, PL. 1.

(٤) A. Malamat, Aspects of the Foreign Policies of David and Solomon, in JNES, 22, 1963, P. 12, No. 48 - 49.

(٥) Ibid., P. 13, 16F.

استعادة بعض البقاع التي كانت خاضعة لداود، وأصبح ملك سليمان في غرب الأردن فقط[1] (فلسطين)، وأصبح الفلسطينيون الهند وأوربيون في غزو وما بعدها في نجوة من سلطانه، هذا فضلاً عن أن ممالك وملوك شعوب شرق الأردن إنما كانوا يمارسون سلطانهم المحلي بعيداً عن قبضة سليمان، مما يدل على أن هذه الممالك والشعوب التي كان داود قد أخضعها في شرق الأردن و سورية الأرامية قد تفلتت من سيادته، كما تفلت الفلسطينيون منها كذلك[2].

وعلى أي حال، فإن النبي الكريم ما أن ينتقل إلى جوار ربه، راضياً مرضياً عنه، حتى يستولي «شيشنق الأول» أول فراعنة الأسرة الثانية والعشرين (٩٤٥ - ٧٣٠ ق. م) على أورشليم، ويأخذ معظم ما فيها من كنوز[3]، وسواء أكانت حملة شيشنق هذه، فيما يرى البعض[4]، بسبب استنجاد «يربعام» زعيم الثوار الإسرائيليين بمصر، ضد بيت سليمان، أو أنها كانت، فيما يرى أخرون، لإعادة سورية وفلسطين إلى حظيرة الامبراطورية المصرية[5]، فإن التدخل المصري في إسرائيل، في أعقاب موت النبي الكريم، إنما أدى إلى احتلال معظم مدن فلسطين، والاستيلاء على خزائن معبد سليمان وقصره[6]، بل إن التوراة نفسها[7] إنما تشير إلى خضوع

---

(١) C. Roth, A short History of the Jewish People, 1969, P. 21.

(٢) محمد عزة دروزة: المرجع السابق ص ٢٦٢ - ٢٦٣.

(٣) H. G. Wells, A short History of the World, 1965, P. 76 - 77.

(٤) A. Lods, op - cit, P. 374 - 375. وكذا C. Roth, op - cit, P. 31 وكذا H. R. Hall, op - cit, P. 436 - 437

(٥) A. H. Gardiner, op - cit, P. 329 - 330.

(٦) ملوك أول ١٤/ ٢٥ - ٢٧.

(٧) أخبار أيام ثان ١٢/ ١٨.

«يهوذا» التي كانت من نصيب رحبعام بن سليمان، للإمبراطورية المصرية، أو على الأقل، فإن معظم المدن هناك إنما كانت تقوم بدفع الجزية لمصر، وأما الدويلة الأخرى (إسرائيل) فقد أصبحت تحت النفوذ المصري تماماً[1].

على أن فريقاً آخر يذهب أصحابه من المؤرخين المسلمين إلى مُلك واسع لسليمان عليه السلام، وربما بغير حدود، بل إن المصادر الإسلامية إنما تزعم لدولة سليمان ما لم تزعمه لها المصادر اليهودية نفسها، ذلك أن التوراة رغم المبالغات المعروفة عنها، إنما تذهب إلى أن مملكة إسرائيل في أقصى اتساع لها، وفي أزهى عهودها، إنما كان «من دان إلى بئر سبع»[2] (ودان تقع عند سفح جبل حرمون عند تل القاضي، على مبعدة ثلاثة أميال غربي بانياس)[3] من الشمال إلى الجنوب، وأما من الشرق إلى الغرب، «فمن النهر (الأردن) إلى أرض فلسطين وإلى تخوم مصر»[4]، وهي حدود تشمل فلسطين بالكاد، ومع ذلك فإن بعض المصادر العربية تجعل سليمان عليه السلام واحداً من أربعة ملكوا الدنيا كلها (نمرود وبختنصر وهما كافران، وسليمان بن داود وذو القرنين وهما مؤمنان)[5]، بل إن الخيال ليذهب بالبعض الآخر إلى أن يجعل عاصمة سليمان بعيداً في إيران، حيث

---

(1) S. A. Cook, op - cit, P. 359.

(2) قضاة ٢٠/ ١، صموئيل أول ٣/ ٢٠، صوئيل ثان ٢٤/ ١٥، أخبار أيام أول ٢١/ ٢، وكذا M. F. Unger, op - cit, P. 236.

(3) قاموس الكتاب المقدس ١/ ٣٥٦ ـ ٣٥٧.

(4) ملوك أول ٤/ ٢١، ثم قارن ملوك أول ٩/ ١١.

(5) أنظر: تاريخ الطبري ١/ ٢٣٤، الكامل لابن الأثير ١/ ٥٤، البداية والنهاية ١/ ١٤٨، ثم أنظر مناقشتنا لهذا الاتجاه (محمد بيومي مهران: دراسات تاريخية من القرآن الكريم ١/ ١١٦ ـ ١١٩).

اتخذ من «اصطخر» (التي ينسبون إليه أو إلى الجن المسخر بأمره، أمر بنائها)، مقراً لحكمه، بينما يذهب فريق ثالث إلى أن مُلك سليمان إنما قد وصل إلى اليمن[1].

وفي عام ١٩٨٦ م صدر كتابان، يزعم الأول منهما أن دولة داود وسليمان عليهما السلام إنما قامت في غرب شبه الجزيرة العربية (من الطائف وحتى نجران)، وليست في فلسطين، وكما تقول التوراة «من دان إلى بئر سبع» غير أن «دان» فيما يزعم المؤلف، ليست هي المدينة التي تقع عند سفح جبل حرمون عند تل القاضي، حيث منابع الأردن، على مبعدة ثلاثة أميال من بانياس، كما هو معروف، وإنما هي «الدنادنة» في تهامة زهران، وأن «بئر سبع» ليست هي المدينة المعروفة في جنوب فلسطين، وإنما هي الشباعة في مرتفعات خميس مشيط، ومن ثم فإن دولة داود وسليمان، فيما يزعم المؤلف، إنما تمتد من «الدنادنة» في تهامة زهران جنوب وادي أضم، وحتى شباعة في مرتفعات خميس مشيط، شرقي رجال ألمع، وأما عاصمة الدولة القدس (أورشليم) فيذكر المؤلف رواية التوراة أن داود عليه السلام نقل عاصمته من حبرون إلى أورشليم، لكنه يزعم أن هناك خمسة أماكن تسمى «حبرون» ما تزال تحمل اسم «خربان» على المنحدرات البحرية لعسير، ومن الأمكنة الخمسة يختار المؤلف قرية «الخربان» الحالية في منطقة المجاردة، كعاصمة أولى لداود، وهي نفسها، فيما يزعم، حبرون إبراهيم عليه السلام، وليست «حبرون» المشهورة في فلسطين، وهي مدينة الخليل الحالية، على مبعدة ١٩ كيلاً شمال القدس، وأما «أورشليم» فهي ليست،

---

(١) ياقوت الحموي: معجم البلدان ١/ ٢١١ (بيروت ١٩٥٥)، دائرة المعارف الإسلامية ٣/ ٤٥٨ - ٥٦٩ (دار الشعب - القاهرة ١٩٧٠) علي إمام عطية: الصهيونية العالمية وأرض الميعاد ص ٧١ - ٧٢.

فيما يزعم، مدينة القدس الحالية (حيث المسجد الأقصى) وإنما هي قرية «آل شريم» الحالية، على مبعدة ٣٥ كيلاً شمالي بلده «النماص» في سراة عسير، شمال مدينة أبها[١].

وأما الكتاب الثاني فيزعم صاحباه أن سليمان عليه السلام قامت على عهده، وعهد أبيه (داود عليه السلام) دولة إسلامية عاصمتها بيت المقدس، وحدودها من المؤكد كانت تشمل بلاد الشام الحالية (سورية وفلسطين) وتشمل الجزيرة العربية كلها، وأنهما يعتبران ذلك من تمكين الله لسليمان فأعطاه ملكاً لم ولن ينبغي لأحد من بعده[٢]، ثم يقولان بعد ذلك، وفي نفس الكتاب: لا يعقل أن تكون هناك أمة مشركة في عهد سليمان الذي طويت له الأرض، ومكن له فيها، وأوتي من كل شيء[٣]، فضلاً عن أنهما زعما في كتاب آخر أن سليمان عليه السلام كان نبياً عربياً[٤]، بينما يذهبان في كتاب آخر أنه من سلالة إسرائيل عليه السلام[٥].

ولعل من الأفضل هنا، أن نرد أولاً على هذه الآراء الآنفة الذكر، قبل أن نتعرض لرأي المفسرين في تفسيرهم لقوله تعالى: **﴿قال رب اغفر لي وهب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي إنك أنت الوهاب﴾**[٦]، فأما أصحاب الرأي الأول، والذي يذهب إلى أن المملكة التي ورثها سليمان عن أبيه داود عليهما السلام أكبر من تلك التي ورثها سليمان لمن أتوا بعده من ملوك

---

(١) كمال سليمان الصليبي: التوراة جاءت من جزيرة العرب ـ ترجمة عفيف الرزاز ـ ط ثانية ـ بيروت ١٩٨٦ ـ مؤسسة الأبحاث العربية ص ١٧٥ ـ ١٩٣.

(٢) جمال عبد الهادي ووفاء محمد رفعت: ذرية إبراهيم عليه السلام وبيت المقدس ـ دار طيبة ـ الرياض ١٩٨٦ ص ٢٥٦، ٢٥٩.

(٣) نفس المرجع السابق ص ٢٧٠.

(٤) جمال عبد الهادي ووفاء وفعت: جزيرة العرب حـ١ ص ٨٠.

(٥) جمال عبد الهادي ووفاء وفعت: ذرية إبراهيم عليه السلام وبيت المقدس ص ٢٥٥ ـ ٢٥٦.

(٦) سورة طه: آية ٣٥.

يهوذا وإسرائيل، وذلك بسبب عودة «هدد» أمير أدوم من مصر واستقلاله بدولته، وبسبب «رصين» الذي أقام مملكة في دمشق وقضى على نفوذ إسرائيل فيها، وبسبب حالة الإنتعاش في مصر والتي صاحبت عهد سليمان، فذلك رأي بالغ أصحابه فيه كثيراً، فضلاً عن اعتمادهم في الدرجة الأولى على التوراة، فيما يتصل بهدد ورصين، والتوراة، كما هو معروف، مصدر غير موثوق فيه، وأقل ما يوصف به أنه نص محرف[1]، ومن ثم فلا يمكن الاعتماد عليه، ما لم تؤيده مصادر أخرى، وهذا ما لم يثبت حتى الآن، ثم إن كل الدلائل، الدينية والتاريخية، تشير إلى أن سليمان قد مكّن له، كما مكّن لأبيه من قبل، وأما الانتعاش المصري والرغبة في إعادة السيادة المصرية على غربي كنعان، فأدلة أصحاب هذا الرأي تعتمد على آثار تشير إلى حملات مصرية ضد الفلسطينيين الهندو أوربيين، والذين كانوا يسكنون المنطقة ما بين يافا وغزة على ساحل البحر المتوسط، وليس هناك دليل واحد يشير إلى حملات مصرية ضد مملكة سليمان، بل إن الأدلة كلها تشير إلى علاقات ودية بين مملكة سليمان ومصر، وأن فرعون كان حريصاً على أن لا يفسد العلاقات الودية بينه وبين صهره سليمان ملك إسرائيل، كما رأينا من قبل، وأما حملة «شيشنق» على فلسطين، والتي يعتبرها البعض دليلاً على ضعف مملكة سليمان، فيكفي القول إن هذه الحملة كانت بعد موت سليمان بأعوام خمسة، ومن ثم فهي غير ذي موضوع بالنسبة لعهد سليمان، كما أنها كانت بعد انقسام مملكة سليمان بين ولده رحبعام والثائر يربعام.

وأما ما ذهب إليه «برستد» من أن سليمان كان والياً تحت النفوذ المصري[2]، فيكذبه أن صاحبه لم يقدم دليلاً واحداً على صحته، وهي

---

(١) أنظر: سورة البقرة آية ٧٩، ١٥٩، آل عمران: آية ٧٨، النساء: آية ٤٦، المائدة ١٣، ١٥، محمد بيومي مهران: إسرائيل ٣/ ١٣٦ - ٣٧٩.

(٢) J. H. Breasted, A History of Egypt, N. Y, 1946, P. 529.

سقطة لا شك فيها من المؤرخ الكبير، كما أن مصر على أيام سليمان لم يكن لها نفوذ في فلسطين من أي نوعٍ، والأهم من ذلك كله: هل يقبل عاقل أن يكون نبيّ، أي نبيّ، تابعاً لملك كافر، ولماذا يتبعه، هل ليكون ملكاً على فلسطين، ولكن ما قيمة ملك فلسطين، بجانب شرف النبوة، فما بالك إذا كان هذا النبي هو سليمان، الذي وهبه الله، بجانب النبوة، ملكاً لا ينبغي لأحد بعده، الهم إنا نبرأ من قول كهذا، ونسألك أن تلهمنا جانب الصواب والأدب مع أنبيائك ورسلك، وأن تحمينا من أن ننساق، دون أن ندري، في تيار كتبة التوراة، أو في تيار قلة من المؤرخين المحدثين ممن يلقون التهم جزافا على سيدنا سليمان عليه السلام، وبدهي أن خضوع سليمان النبي لفرعون من الفراعين تهمة لا شك فيها، نبرأ إلى الله منها، وأخيراً فإن أصحاب هذا الرأي تسقط كل حججهم بالرجوع إلى قصة سليمان مع ملكة سبأ، كما جاءت في القرآن الكريم، فإن الذي يهدد ملكة سبأ، أعظم دول الجزيرة العربية، وهي بعيدة عن مملكة سليمان بآلاف الكيلو مترات، لا يمكن بحال من الأحوال، أن تكون دولته ضعيفة، يهددها أمثال أمير أدوم أو دمشق أو غيرهم من النكرات التي كانت تعيش في سورية وفلسطين تحت ظلال دولة سليمان، ثم إن سليمان الذي سخر الله له طائفة من الإنس والجن والطير والشياطين، لن يعجز عن جماع قوم من ضعاف المشركين، ولا ريب في أن من سخر له من يأتيه بعرش ملكة سبأ قبل أن يرتد إليه طرفه، يمكن أن يسخر له، ما يستطيع به القضاء على كل أعدائه.

وأما أصحاب الرأي الذي يعطي سليمان عليه السلام ملكاً واسعاً، ربما بغير حدود، ويجعل عاصمته في «اصطخر» ويملكه بلاد اليمن، فأما عن «اصطخر» فليت الذين ذهب بهم الخيال إلى هذا الحد يعرفون أن اصطخر لم يبدأ الفرس في بنائها إلا حوالي عام ٥٢٠ ق. م، على أيام دارا الأول (٥٢٢ ـ ٤٨٦ ق. م)، ولم يتم البناء إلا في عهد «أرتخششتا الأول»،

حوالي عام ٤٦٠ ق. م، أي بعد وفاة سليمان (٩٦٠ - ٩٢٢ ق. م) بحوالي أربعة قرون[1]، وأما ملك اليمن فأمره عجيب، فالبعض خلط بين إسلام ملكة سبأ وبين خضوع دولتها لسليمان، والبعض أعطى سليمان ملك اليمن ٣٢٠ سنة، مع أن المؤرخين، ومنهم صاحب هذا الرأي، يجمعون على أن ملك سليمان لم يزد عن أربعين سنة، وأنه مات، وله إثنتان وخمسون سنة[2]، وأما إسلام ملكة سبأ فقد كان لله مع سليمان «قالت رب إني ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين»، وهكذا اهتدى قلبها واستنار، وعرفت أن الإسلام لله وحده ليس استسلاماً لأحد من خلقه، حتى وإن كان هو سليمان، النبي الملك صاحب المعجزات، إنما الإسلام إسلام لله رب العالمين، ومصاحبة للمؤمنين به والداعين إلى طريقه على سنة المساواة «وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين» وقد سجل السياق القرآني هذه اللفتة الأخيرة وأبرزها، للكشف عن طبيعة الإيمان بالله والإسلام له، فهي العزة التي ترفع المغلوبين إلى صف الغالبين، بل التي يصبح فيها الغالب والمغلوب أخوين في الله لا غالب منهما ولا مغلوب، وهما أخوان في الله رب العالمين على قدم المساواة[3]، ثم إن الذين يقولون بضم اليمن إلى مملكة سليمان إنما يخطئون في فهم دعوة الرسل، فهم لا يريدون ملك الناس ودنياهم، وإنما يريدون هدايتهم إلى عبادة الله وحده، وإلى الإيمان بشرائعه، كما أشرنا إلى ذلك من قبل في قصة سليمان مع ملكة سبأ.

وأما الدكتور الصليبي فلم يقدم لنا في دعواه أية أدلة علمية يمكن أن تؤيد مزاعمه التي تمس الدين والوطن، سوى الزعم بأن هناك قرى في غرب

(١) أحمد فخري: دراسات في تاريخ الشرق القديم ص ٢٢٩، آرثر كريستنس: إيران في عهد الساسانيين ص ٨٠.

(٢) تاريخ اليعقوبي ١/ ٦٠، ١٩٦.

(٣) في ظلال القرآن ٥/ ٢٦٤٣.

الجزيرة العربية ، يمكن أن تتشابه أسماؤها مع أسماء أماكن جاءت في توراة يهود ومن ثم زعم أن غرب الجزيرة العربية هي أرض التوراة ، وليست فلسطين ، وفي الواقع لوطبقنا مزاعمه هذه على الولايات المتحدة الأمريكية مثلاً ، لكان الكثير من مدنها ، اعتماداً على تشابه أسماء بعض المدن ، إنما هي مدن عربية ، كان يسكنها العرب في العصور القديمة ، ناهيك عن تشابه أسماء بعض المدن والقرى في البلاد ، العربية نفسها ، الأمر الذي يمكن أن يتفق وما زعمه الدكتور الصليبي من مسخ للحقائق الدينية الثابتة ، فضلاً عن الحقائق التاريخية والجغرافية المتعارف عليها منذ الآف السنين .

وأما دعوة الدكتور جمال عبد الهادي والدكتورة وفاء رفعت من أن سليمان قامت على عهده ، وعهد أبيه داود ، عليهما السلام دولة إسلامية عاصمتها القدس ، وحدودها من المؤكد أنها كانت تشمل الشام كله والجزيرة العربية كلها ، فلست أدري من أين جاءا بدعواهما أن داود كون دولة شملت الشام كله والجزيرة العربية كلها ، وليس في القرآن الكريم والحديث الشريف ولا في المصادر العربية أو اليهودية أو الأثرية ما يشير إلى ذلك من قريب أو بعيد ، وأما مُلك سليمان لليمن فقد ناقشناه من قبل ، وليس هناك من دليل يثبت استيلاء سليمان على اليمن وضمها إلى مملكته ، فضلاً عن ضم الجزيرة العربية كلها ، واليمن جزء من الجزيرة العربية ، وليس كل الجزيرة العربية ، ثم يقول المؤلفان أن الله مكّن سليمان فأعطاه ملكاً لم ولن ينبغي لأحد من بعده؟ فهل ملك الشام والجزيرة العربية يعتبر هو الملك الذي لم ينبغ لأحد من بعد سليمان ، أم أن هناك آخرون ملكوا أكثر من الشام والجزيرة العربية ، فمثلاً الإسكندر المقدوني في التاريخ القديم ، والدولة الإسلامية على أيام الراشدين والأمويين والعباسيين ، ناهيك عن الامبراطوريات الأوربية في العصر الحديث .

وأما القول بأنه لا يعقل أن تكون هناك أمة مشركة في عهد سليمان

الذي طويت له الأرض ومكن له فيها، وأوتي من كل شيء، فلست أدري ماذا يعني المؤلفان بذلك، وهل تبق حقاً أمة مشركة في عهد سليمان بعد إيمان ملكة سبأ، وهل أصبحت مصر الفرعونية أو العراق القديم مثلاً، وهما أقرب إلى فلسطين مقر مملكة سليمان من اليمن، من الأمم المسلمة في عهد سليمان؟ ثم، وهذا في منتهى الأهمية، هل بعث سليمان للناس عامة، أم أنه بعث إلى قومه خاصة، ذلك أنه من المعروف أن كل نبيّ إنما كان يبعث إلى قومه خاصة، وأن سيدنا محمد رسول الله ﷺ هو وحده الذي بعث إلى الناس كافة بشيراً ونذيراً «قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً»، «وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً»، وفي الصحيحين عن جابر قال رسول الله ﷺ «أعطيت خمساً لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي، نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل، وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي، وأعطيت الشفاعة، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة»[1].

ثم إن المؤلفين مضطربان في نسب سليمان عليه السلام، فهو مرة نبي عربي، وهو مرة أخرى من بني إسرائيل من سلالة يعقوب (إسرائيل) بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام، وهذا هو الصحيح، ثم كيف يكون سليمان نبيّاً عربياً، وسيدنا رسول الله ﷺ يقول في حديث أبي ذر المشهور: وأربعة من العرب، هود وصالح وشعيب ونبيّك يا أباذر»[2]، وفي رواية: «وأربعة من العرب، هود وصالح وشعيب ومحمد عليه السلام»[3].

بقي الآن أن نتحدث عن رأي المفسرين والمؤرخين المسلمين في قوله تعالى:

---

(١) تفسير ابن كثير ٣/ ٨٥٧.

(٢) البداية والنهاية تفسير ابن كثير ١/ ٨٩١ - ٨٩٢ (بيروت ١٩٨٦).

(٣) تفسير النسفي ١/ ٢٦٣ - ٢٦٤.

﴿**رب اغفر لي وهب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي إنك أنت الوهاب**﴾[1]، إذ ترى جمهرة كبيرة من المفسرين والمؤرخين أن سياق الآيات الكريمة تفيد أن الزيادة التي أوتيها سليمان عليه السلام في ملكه المعبر عنها بقوله تعالى: ﴿**ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي**﴾ إنما هي إيتاؤه بعض المعجزات التي لم تكن لغيره من الأنبياء عليهم السلام، بدليل التعقيب عليه بقوله تعالى: ﴿**فسخرنا له الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب، والشياطين كل بناء وغواص، وآخرين مقرنين في الأصفاد**﴾[2]، المتضمن استجابة الله تعالى لدعائه، مفتتحاً بالفاء الدالة على الربط والتعقيب والترتيب[3]، وهذا ما نميل إليه ونرجحه، ويقول ابن الأثير أن سليمان عليه السلام سأل الله أن يؤتيه ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده، فاستجاب الله وسخر له الإنس والجن والشياطين والطير والريح، فكان إذا خرج من بيته إلى مجلسه، عكفت عليه الطير، وقام له الإنس والجن حتى يجلس[4]، ويقول الطبري[5]: وسخرت له الريح والشياطين يومئذ، ولم تكن سخرت له من قبل (أي بعد أن جلس الشيطان على كرسيه) وهو قوله تعالى: ﴿**وهب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي إنك أنت الوهاب**﴾[6]، ومن هنا فقد ذهب المسعودي إلى أن ملك سليمان كان أربعين سنة على فلسطين والأردن[7]، وقول ابن خلدون: إن سليمان قد ضرب الجزية على جميع ملوك الشام مثل فلسطين وعمون وكنعان ومؤاب

---

(١) سورة ص: آية ٣٥.

(٢) سورة ص: آية ٣٦ - ٣٧.

(٣) عويد المطرفي: المرجع السابق ص ١١٤ - ١١٥.

(٤) الكامل لابن الأثير ١/ ١٢٨.

(٥) تاريخ الطبري ١/ ٥٠١.

(٦) سورة ص: آية ٣٥.

(٧) مروج الذهب للمسعودي ١/ ٧٠ (بيروت ١٩٦٥).

وأدوم والأرمن (أي الأراميين) وهذا لا يعدو أيضاً فلسطين وشرق الأردن[1].

وإذا ما رجعنا إلى كتب التفسير لرأينا الأستاذ سيد قطب، طيب الله ثراه، يقول في تفسير الآية الكريمة: **﴿رب اغفر لي وهب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي إنك أنت الوهاب﴾**، أن أقرب تأويل لهذا الطلب من سليمان عليه السلام لم يرد به أثره، وإنما أراد الإختصاص الذي يتجلى في صورة معجزة، فقد أراد به النوع، أراد به ملكاً ذا خصوصية تميّزه من ملك كل ملك آخر يأتي بعده، وذا طبيعة معينة ليست مكررة ولا معهودة في الملك الذي يعرفه الناس، وقد استجاب الله له، فأعطاه فوق الملك المعهود، ملكاً خاصاً لا يتكرر[2]، ثم يحدد صاحب الظلال هذا الملك المعهود بأنه لا يتجاوز ما يعرف الآن بفلسطين وسورية ولبنان والعراق إلى ضفة الفرات[3]، أي الشام بمعنى آخر، لا أكثر ولا أقل، أو لا ينبغي لأحد أن يسلبه مني بعده هذه السلبة (يعني الشيطان الذي جلس على كرسيه) أو لا يصح لأحد من بعدي لعظمته[4]، ويقول النسقي أن سليمان عليه السلام سأل ملكاً بهذه الصفة (لا ينبغي لأحد من بعدي) ليكون معجزة له، لا حسداً[5]، وكان قبل ذلك لم يسخر له الريح والشياطين، فلما دعا بذلك

---

(١) تاريخ ابن خلدون ٢/ ١١٢.

(٢) في ظلال القرآن ٥/ ٣٠٢٠.

(٣) في ظلال القرآن ٥/ ٢٦٣٥.

(٤) الدر المنثور ٥/ ٣١٣.

(٥) تفسير البيضاوي ٥/ ١٩.

(٦) جاء في تفسير الطبري (٢٣/ ١٦٤ ط بيروت ١٩٨٤) ذكر عن الحجاج بن يوسف الثقفي أنه قرأ قوله تعالى: ﴿رب اغفر لي وهب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي﴾ فقال: «إنه كان لحسوداً، فإن ذلك ليس من أخلاق الأنبياء، قيل: أما رغبته إلى ربه فيما رغب إليه من الملك، فلم =

سخرت له الريح والشياطين ولن يكون معجزة حتى يخرق العادات[1].

ويقول ابن كثير في تفسير الآية الكريمة: قال بعضهم: معناه لا ينبغي لأحد من بعدي، أي لا يصح لأحد أن يسلبنيه بعدي، كما كان من قضية الجسد الذي ألقى على كرسيه، لا أن يحجر على من بعده من الناس، والصحيح أنه سأل من الله تعالى ملكاً لا يكون لأحد من بعده من البشر، وهذا هو ظاهر السياق من الآية، وبذلك وردت الأحاديث الصحيحة من طرق عن رسول الله ﷺ، قال البخاري عند تفسير هذه الآية، حدثنا إسحاق إبراهيم أخبرنا روح ومحمد بن جعفر عن شعبة عن محمد بن زياد عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «إني عفريتاً من الجن تفلت على البارحة، أو كلمة نحوها، ليقطع على الصلاة، فأمكنني الله تبارك وتعالى منه، وأردت أن أربطه إلى سارية من سواري المسجد حتى تصبحوا وتنظروا إليه كلكم، فذكرت قول أخي سليمان عليه الصلاة والسلام: «رب اغفر لي وهب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي»، قال روح: «فرده خاسئاً»، وكذا رواه مسلم والنسائي من حديث شعبة به[2].

هذا وقد قدم لنا الإمام الطبري عدة روايات في تفسير الآيه الكريمة، منها أن الله تعالى سخر لسليمان الريح والشياطين يومئذٍ، ولم تكن سخرت له من قبل ذلك، وهو قوله: **﴿وهب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي﴾**، لا يسلبنيه أحد، كما سلبنيه قبل هذا الشيطان، ومنها يقول تعالى ذكره: **﴿فاستجبنا**

= تكن إن شاء الله به رغبة في الدنيا، ولكن إرادة منه أن يعلم منزلته من الله في إجابته فيما رغب إليه فيه، وقبول توبته، وإجابته دعائه».

(1) تفسير النسقي ٤/ ٤٣.

(2) تفسير ابن كثير ٤/ ٥٦ ـ ٥٧ (ط بيروت ١٩٨٦) وانظر: صحيح البخاري ٦/ ١٥٦، صحيح مسلم ٢/ ٧٢، سنن النسائي ٣/ ١٣، مسند الإمام أحمد ٣ك ٨٣.

له دعاءه، **فأعطيناه ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده**﴾، «فسخرنا له الريح» مكان الخيل التي شغلته عن الصلاة «تجري بأمره رخاء» يعني رخوة لينة، وهي من الرخاوة عن الحسن: أن نبيّ الله سليمان ﷺ لما عرضت عليه الخيل، فشغله النظر إليها عن صلاة العصر «حتى توارت بالحجاب» فغضب الله، فأمر فعقرت، فأبدله الله مكانها، سخر الريح تجري بأمره رخاء حيث شاء، ومنها ما روى عن الضحاك في قوله تعالى: ﴿**وهب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي**﴾، فإنه دعا يوم دعا، ولم يكن في ملكه الريح، وكل بناء وغواص من الشياطين فدعا ربه عند توبته واستغفاره، فوهب الله له ما سأل، فتم ملكه، وعن الضحاك أيضاً «والشياطين كل بناء وغواص» قال لم يكن هذا في ملك داود، أعطاه الله ملك داود، وزاده الريح، «والشياطين كل بناء وغواص وآخرين مقرنين في الأصفاد»، يقول في السلاسل. ويقول الإمام الطبري: وأولى الأقوال في ذلك عندي بالصواب، القول الذي ذكرناه عن الحسن والضحاك من أنه عني بالعطاء ما أعطاه الله تعالى ذكره من الملك، وذلك أنه جل ثناؤه ذكر عقيب خبره عن مسألة نبيّه سليمان، صلوات الله وسلامه عليه، إياه ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده، فأخبره أنه سخر له ما لم يسخر لأحد من بني آدم، وذلك تسخيره له الريح والشياطين على ما وصفت، ثم قال له عز ذكره: هذا الذي أعطيناك من الملك، وتسخير ما سخرنا لك عطاؤنا، ووهبنا لك ما سألتنا أن نهبه لك من الملك الذي لا ينبغي لأحد من بعدك «فامنن أو أمسك بغير حساب»[1].

ويقول الإمام الفخر الرازي في التفسير الكبير في تفسير الآية: أن المُلك هو القُدرة، فكان المراد أقدرني على أشياء لا يقدر عليها غيري البتة، ليصير اقتداري عليها معجزة تدل على صحة نبوتي ورسالتي، والدليل على صحة هذا الكلام أنه تعالى قال عقيبه: ﴿**فسخرنا له الريح تجري بأمره رخاء**

(١) تفسير الطبري ٢٣/ ١٥٨ - ١٦٣ (ط بيروت ١٩٨٤).

حيث أصاب﴾، فكون الريح جارياً بأمره قدرة عجيبة ومُلك عجيب، ولا شك أنه معجزة دالة على نبوته، فكان قوله: ﴿هب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي﴾ هو هذا المعنى لأن شرط المعجزة أن لا يقدر غيره على معارضتها، فقوله: ﴿لا ينبغي لأحد من بعدي﴾ يعني لا يقدر أحد على معارضته، وهناك وجه آخر أنه عليه السلام لما مرض ثم عاد إلى الصحة، عرف أن خيرات الدنيا صائرة إلى الغير بإرث أو بسبب آخر، فسأل ربه ملكاً لا يمكن أن ينتقل منه إلى غيره، وذلك الذي سأله بقوله: ﴿ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي﴾، أي ملكاً لا يمكن أن ينتقل عني إلى غيري[1].

وهكذا يبدو واضحاً أن جمهرة المفسرين لا يذهبون إلى أن سليمان عليه السلام، سأل الله ملكاً واسعاً، بمعنى مساحات واسعة من الأرضين، وإنما سأل الله تعالى ملكاً معجزاً لا يكون لأحد غيره من بعده، فكانت هذه المعجزات من تسخير الريح بأمره رخاء حيث أصاب، والشياطين كل بناء وغواص، وآخرين مقرنين في الأصفاد، إلى غير ذلك من معجزات لم يشاركه فيها أحد، كما أشرنا إلى كل ذلك في مكانه من هذه الدراسة، ومن ثم فلا مكان للربط بين ملك شاسع المساحات، كما ذهبت إلى ذلك بعض المصادر العربية، وبين نبوة سليمان عليه السلام، وكأن مكانة النبي الكريم لا تكون إلا بملك الدنيا كلها، كما ذهب البعض، حيث جعلوا من سليمان عليه السلام، واحداً من أربعة (نمرود وبختنصر وذو القرنين وسليمان) ملكوا الدنيا بأسرها، بل إن سليمان، فيما يقولون، «كان لا يسمع بملك في ناحية من الأرض إلا أتاه حتى يذله»، ونسوا، أو تناسوا، أن سليمان عليه السلام، لم يكن، ولن يكون، جباراً في الأرض، وإنما كان رسولاً نبيّاً، وهادياً إلى الله بإذنه، ومبشراً ونذيراً، ونسوا كذلك أن النبوة أشرف وأكرم من ملك الدنيا وما فيها، وإن جمع الله لسليمان، كما جمع لأبيه من قبل، بين

(١) تفسير الفخر الرازي ٢٦/ ٢٠٩ - ٢١٠.

النبوة والملك، ونسوا أيضاً أنهم ربطوا سليمان بملوك أربعة، منهم على الأقل كافران، فإذا كان هذا الملك الواسع المساحات هو المراد من دعاء النبي الكريم: ﴿**رب اغفر لي وهب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي**﴾، فهم إذن قد ساووا بين سليمان عليه السلام، وبين هؤلاء الثلاثة (نمرود وبختنصر وذو القرنين) في هذا الملك الواسع العريض، وهذا ما لم يقل به أحد.

وهكذا يبدو واضحاً أن سياق الآيات الكريمة، كما أشرنا من قبل، إنما يشير إلى أن الزيادة التي أوتيها سليمان عليه السلام في ملكه والمعبر عنها بقوله: ﴿**ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي**﴾ هي إيتاؤه بعض المعجزات التي لم تكن لغيره من الأنبياء عليهم السلام، بدليل التعقيب عليه بقوله تعالى: ﴿**فسخرنا له الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب، والشياطين كل بناء وغواص، وآخرين مقرنين في الأصفاد**﴾، المتضمن استجابة الله تعالى لدعائه، مفتتحاً بالفاء الدالة على الربط والتعقيب والترتيب[1].

(٨) القدس عاصمة سليمان: -

تقع القدس على مبعدة ١٤ ميلاً إلى الغرب من البحر الميت، ٣٣ ميلاً إلى الشرق من البحر المتوسط، وقد عرفت بأسماء كثيرة، حيث أطلقت عليها التوراة أو العهد القديم اسم «أريئيل» (إشعياء ٢٩/ ١) ومدينة العدل (إشعياء ١/ ٢٦) والمدينة (مزمور ٧٢/ ١٦) ومدينة الله (مزمور ٤٨/ ١) ومدينة الحق (زكريا ٨/ ٣) ومدينة القدس (نحميا ١١/ ١) وجبل القدس (إشعياء ٢٧/ ١٣) والمدينة المقدسة (متى ٤/ ٥) ومدينة داود، وأما أسماؤها العربية فهي: بيت المقدس والمقدس والقدس الشريف، أما الإسم الغالب فهو «القدس»، والذي يبدو أنه رافق المدينة منذ بداية تاريخها، غير أن أشهر اسمين للمدينة إنما هما القدس وأورشليم.

---

(١) عويد المطرفي: المرجع السابق ص ١١٤ - ١١٥.

هذا ويظن كثير من الناس خطأ أن اسم «أورشليم» اسم عبري أو يهودي، والحقيقة غير ذلك تماماً، ذلك لأن أقدم النقوش التي ورد فيها اسم المدينة المقدسة إنما هو نقش مصري، يرجع إلى أخريات القرن التاسع عشر قبل الميلاد، وربما إلى أيام «سنوسرت الثالث (١٨٧٨ - ١٨٤٣ ق. م) أو بعده بقليل، وربما قبله بقليل، حيث ذكرت المدينة تحت اسم «أورشليم» (Ursalimum) على رأي[1]، وإلى أيام الأسرة الثالثة عشرة المصرية (١٧٨٦ - ١٦٥٠ ق. م) فيما عرف بنصوص اللعنة تحت اسم «أوشاميم» (Aushamem) على رأي آخر[2]، ونقرأ في رسائل العمارنة من القرن الرابع عشر قبل الميلاد[3]، في رسالة من نائب الفرعون إخناتون (١٣٦٧ - ١٣٥٠ ق. م) ويدعى «عبد خيبا» أمير القدس وكانت تدعى «أورسالم» يقول فيها «لا أبي ولا أمي وضعاني في هذا المكان، بل يد الملك القوية هي التي وضعتني في بيت آبائي»[4]، وبقيت المدينة تدعى «أورسالم»، حتى استقل بها اليبوسيون في فترة الضعف التي انتابت الإمبراطورية المصرية، وسموها «يبوس»[5]، حتى جاء داود عليه السلام (١٠٠٠ - ٩٦٠ ق. م) واستولى عليها منهم، ثم اتخذها عاصمة لدولته، ونقل إليها «تابوت العهد»، وأطلق عليها اسم «مدينة داود»، ومن ثم فقد أصبحت المدينة المقدسة مركزاً للحياة

---

(١) M. F. Unger, op - cit, P. 576.

(٢) أحمد فخري: المرجع السابق ص ٣٣٥ وكذا J. Wilson, ANET, 1966, P. 329 W. Ward, Egypt and The East Mediterranean in the Second Millennum B. C., in Orientalla, 30, Roma, 1961, P. 32.

(٣) أنظر عن رسائل العمارنة (محمد بيومي مهران: إخناتون - الإسكندرية ١٩٧٩ ص ٢٣٣ - ٢٤٥).

(٤) S. A. B. Mercer, The Tel - El - Amarna Tablest, II, Toronto, 1939, P. 286 - 89 وكذا W. F. Albright, ANET, P. 487 - 489.

(٥) ١٩/ ١٠ - ١١.

السياسية والدينية معاً، هذا ويختلف الباحثون في أسباب تغيير اسم المدينة القديم، فمن قائل لأن اسمها القديم كان غريباً على العبرانيين، ومن قائل لأن فيه تخليداً للاهوت أجنبي، ومن قائل لأن داود عليه السلام أراد أن يخلد اسمه على المدينة أو حتى على جزء منها، ذلك لأن اليهود أطلقوا على المدينة أيضاً اسم «يورشالايم» أو «أورشالم» بإضافة لاحقة عبرية كي تصبح عبرية النطق، وأياً كان السبب فإن الإسم الجديد لم يحل محل الإسم القديم، الذي له جذور عميقة في الوعي الشعبي[١].

هذا وقد دعيت المدينة في النقوش الآشورية باسم «أورساليمو» (Ursalimmu) وفي النقوش اليونانية باسم «هيروسوليما» (Hierosolyma)[٢]، هذا ولم يذكر «هيرودوت» (٤٨٤ - ٤٣٠ ق. م) في تاريخه اسم «أورشليم» ولكنه ذكر مدينة كبيرة في الجزء الفلسطيني من الشام، وسماها «قديتس»، مرتين في الجزء الثاني والثالث من تاريخه، ويقول المستشرق اليهودي «سالومون مونك» في كتابه «فلسطين» أن هذا الإسم على الأرجح هو «القدس»، محرفاً في اليونانية عن النطق الأرامي «قديشتا»[٣].

وأما معنى «أورشليم» فموضع خلاف، ولعل أرجح الآراء من الناحية العلمية أنها مركبة من «أور» بمعنى مدينة أو موضع، ومن «شالم» وهو إله وثني لسكان فلسطين الأصليين هو «إله السلام»، فالمدينة إذن كانت مكرسة لإله السلام، وهناك من يقول أن كلمة «أور» معناها «الميراث»، فتكون

---

(١) صموئيل ثان ٥/ ٩، ٦/ ١٢ - ١٣، ٨/ ١٧ - ١٨، ٢٠/ ٢٥ - ٢٦، عبد الحميد زايد: الشرق الخالد ص ٥٦ - ٥٧، وكذا M. Noth, The History of Israel, 1965, P. 191 وكذا Y. Yeivin, JNES, 7, 1948, P. 10.

(٢) M. F. Unger, op - cit, P. 576.

(٣) حسن ظاظا: المرجع السابق ص ٨، قاموس الكتاب المقدس ١/ ١٣٥.

أورشليم بمعنى «ميراث السلام» أما أحبار اليهود فيدعون أن «سام بن نوح» قد سماها «شلم» أي السلام، وأن إبراهيم الخليل عليه السلام، قد سماها «يرأه»، وهي باللغة العبرية بمعنى الخوف، فقرر الله أن يسميها بالإسمين معاً، «يرأه ـ شلم» أي «أورشليم» بمعنى الخوف والسلام، وبنوا على هذه التخريجات الفلوكلورية عقائد رهيبة حول السلام المتولد عن الرعب، وقيل أيضاً أن «يرو» يمكن أن تكون في اللغات السامية بمعنى «إله»، ويكون اسم المدينة بكل بساطة «مدينة إله السلام»[1].

وأياً ما كان الأمر، فما أن يأتي الرومان، وتحدث مذبحة «هدريان» (١١٧ ـ ١٣٨ م) عام ١٣٥ م، حتى تكون ختاماً نهائياً لليهود في فلسطين سياسياً وسكانياً، ثم يغير الرومان اسم المدينة إلى «إيليا كابيتولينا» أو «إيليا» فقط، ويصبح لفظ أورشليم لفظاً تاريخياً، يطلق فقط على المدينة التي كانت على عهد الملوك والأنبياء من بني إسرائيل، وظلت المدينة تسمى «إيليا» ولا يسكنها اليهود حتى القرن السابع الميلادي، وفي العام الخامس عشر الهجري يفتح المسلمون المدينة المقدسة، ويعيدون إليها اسمها «القدس»، وإن اشترط أهلها ألا تسلم مدينتهم إلا للخليفة الراشد عمر بن الخطاب، رضوان الله عليه، وأن يمنحهم الأمان لدينهم وكنائسهم، ويقبل الخليفة أن يتسلم المدينة بنفسه، ويأتي إلى القدس في عام ١٥ هـ (أو عام ١٦ هـ = ٦٣٥/ ٦٣٦ م) ويتسلم المدينة من البطريرك «صفرنيوس»، ويمنح أهلها النصارى الأمان في دينهم وأموالهم وأعراضهم، لا يضار أحد منهم بسبب دينه، ولا يكره على شيء في أمره، ولا يسكن معهم أحد من اليهود[2]، وبينما كان الخليفة الراشد في كنيسة القيامة مع البطريرك أدركته

---

(١) حسن ظاظا: المرجع السابق ص ٩.

(٢) هناك رواية أخرى تذهب إلى أن الفارق عمر رفض الموافقة على استمرار القرار الروماني =

الصلاة، فطلب إليه أن يصلي بها فرفض حتى لا يتبعه المسلمون إذ يرون أن عمله سنة مستحبة، فإذا فعلوا أخرجوا النصارى من كنيستهم وخالفوا عهد الأمان، واعتذر للسبب نفسه عن الصلاة بكنيسة قسطنطين المجاورة لكنيسة القيامة[1]، وإنما صلى في مكان قريب عند الصخرة المقدسة، وخطّ المسجد الذي عرف باسمه[2].

(٩) مباني سليمان: -

لا ريب في أنه كان للقدس نصيب الأسد في المباني التي شيدت في عهد سليمان عليه السلام وطبقاً لما جاء في التوراة فقد شيد سليمان سور المدينة وقلعتها، وإن كان بناء المسجد الأقصى وقصر سليمان إنما يمثلان أعظم إنجازات الملك النبي المعمارية، وأما المسجد الأقصى فقد خصصنا له فصلاً مستقلاً من قبل، وأما القصر فقد اختيرت له الهضبة الغربية، وطبقاً لرواية التوراة، فلقد أقيم القصر على المنطقة الصخرية التي تدعى «تل

= بمنع اليهود من النزول بالمدينة، معتذراً بأن القرآن الكريم قد حدد لأهل الكتاب مالهم وما عليهم، وليس فيه شيء يسمح بهذا، ولكنه تعهد للنصارى بألا يدخل أحد من اليهود إلى مقدساتهم أو يسكن في حاراتهم (حسن ظاظا: المرجع السابق ص ٣٠).

(١) يقول المسعودي: أن سليمان عليه السلام بعد أن بنى المسجد الأقصى، بنى لنفسه بيتاً في الموضع الذي يسمى في وقتنا هذا (أي وقته هو) كنيسة القيامة، وهي الكنيسة العظمى ببيت المقدس عند النصارى (مرجع الذهب ١/ ٧٠) وهي الكنيسة التي بنتها «هيلانة» أم الامبراطور قسطنطين (٣٠٦ - ٣٣٧ م) في عام ٣٢٦ م، في المكان الذي يعتقد النصارى أن جثمان المسيح عليه السلام قد دفن فيه، ثم رفع الى السماء، وهذا خطأ لأن المسيح لم يقتل ولم يصلب، قال تعالى: **﴿وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى بن مريم وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم، وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه مالهم به من علم إلا اتباع الظن وما قتلوه يقيناً، بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزاً حكيماً﴾** (سورة النساء: آية ١٥٧ - ١٥٨).

(٢) تاريخ الطبري ٣/ ٦٠٧ - ٦١٣، الواقدي: فتوح الشام ٢/ ٢٦، ٢٤٤، ٢٦٧، البلاذري: فتوح البلدان ص ١٤٤ - ١٤٥، حسن ظاظا: المرجع السابق ص ٣٠، عبد الحميد زايد: القدس الخالدة ص ١٧٣ - ١٧٥، البداية والنهاية ٧/ ٦٠ - ٦٧.

موريا»[1]، ويذهب المسعودي، كما أشرنا آنفاً، أنه في مكان كنيسة القيامة[2]، وكان القصر يتكون من عناصر ثلاثة: «بيت وعر لبنان»، وكان يستخدم كترسانة أسلحة[3]، وربما كمكان للمالية في نفس الوقت[4]، ويحتمل كذلك أنه استخدم كحوش للإسطبلات، وأما «صالة الأعمدة» فلم يعرف الغرض الذي استخدمت من أجله، وأما «غرفة الاجتماعات الكبيرة»، فقد استخدمت كمكان للقضاء، فضلاً عن الاحتفالات الرسمية[5]، هذا وقد وجد إلى جانب هذا القصر الكبير من ناحية الغرب مباشرة، قصر آخر أحيط بجدار فاصل، وقد اتخذ مكاناً لسكني الملك وسيدات القصر، هذا وقد وجد أيضاً، إلى الشمال مباشرة، وفوق هضبة مرتفعة، مبنى آخر أحيط بسور خاص، اتخذ كمصلي، وأمامه مذبح لحرق الأضاحي[6].

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أن الروايات التي وصلتنا عن مباني سليمان إنما تضعه في مرتبة أعلى البنائين المشهورين، ومن ثم فقد نسبت إليه مبان كثيرة في منطقة الشرق الأدنى القديم، حتى أن بعض تلك المباني إنما كانت تقع بعيداً جداً عن منطقة نفوذه[7]، وقد نافست المصادر العربية المصادر اليهودية في نسبة مبان كثيرة ألى سليمان، حتى أن «ياقوت الحموي» يقول: «إن الناس كانوا إذا ما رأوا بناء عجيباً جهلوا بانيه، أضافوه إلى سليمان وإلى جن سليمان[8]، ومع ذلك، فالذي لا شك فيه أن

---

(1) أخبار أيام ثان ٣/ ١.

(2) مروج الذهب ١/ ٧٠.

(3) ملوك أول ١٠/ ١٦ - ١٧.

(4) ملوك أول ١٠/ ١٧ - ٢٠.

(5) ملوك أول ١٠/ ١٨ - ٢٠، وكذا O. Eissfeldt, op - cit, P. 596.

(6) Ibid., P. 596.

(7) Ibid., P. 594.

(8) ياقوت الحموي: معجم البلدان ٢/ ١٧ (بيروت ١٩٥٧).

لسليمان إنجازات معمارية كثيرة ، وقد ذكرنا من قبل تشييّده لكثير من الثكنات لفصائل عجلاته الحربية ، والتي أطلقت عليها التوراة «مدن المركبات» و «مدن الفرسان» وكذا «مدن المخازن»[١] التي أقيمت للمؤن والعلف التي تحتاجها المعسكرات والمحطات التي أقيمت على الطرق التجارية ، وذلك لأن «مدن المخازن التي بناها سليمان في حماة»[٢] إنما قد خدمت الهدفين ، وبالتالي فربما أمكن القول أن الأماكن المحصنة التي أقيمت في مجاورات مجدو وتدمر وحماة وأورشليم إنما كانت «مدن مخازن»[٣] .

هذا وقد كشف عن بعض مبان لسليمان في حاصور[٤] (تل قدح على مبعدة ٥ كيلاً جنوب غرب بحيرة الحولة) وفي «عصيون جابر» اكتشف «جلوك» حصناً يرجع إلى أيام سليمان ، وكذا في «قادش برينع» ، وهي خربة القضيرات أو عين قديس ، على مبعدة ٥٠ ميلاً جنوب بئر سبع[٥] ، ونقرأ في التوراة أن سليمان «بنى جازر وبيت حورن السفلى وبعلة وتدمر في البرية»[٦] ، أما «جازر» فهي المدينة الكنعانية الواقعة على مبعدة ١٨ ميلاً شمال غرب أورشليم ، وقد أشرنا من قبل إلى أن فرعون قد استولى عليها وقدمها مهراً لابنته امرأة سليمان ، ويبدو أن سليمان قد أعاد بناء المدينة بعد ذلك[٧] ، وأما«بيت حورن السفلي» فتقع على مبعدة ١٢ ميلاً شمال

---

(١) ملوك أول ٩/ ١٩ .

(٢) أخبار أيام ثان ٨/ ٤ .

(٣) O. Eissfeldt, Op. Cit, P. 595.

(٤) ملوك أول ٩/ ١٥ .

(٥) قاموس الكتاب المقدس ٢/ ٧٠٨ - ٧٠٩، وكذا O. Eissfeldt, Op. Cit, P. 595. وكذا W. F. Albright, Recent Discoveries in Bible Land, N. Y, 1955, P. 86F.

(٦) ملوك أول ٩/ ١٧ - ١٨ .

(٧) ملوك أول ٩/ ١٥ - ١٧ ، قاموس الكتاب المقدس ١/ ٢٤٢ وكذا M. F. Unger, op - cit, P. 401.

أورشليم، وتسمى حالياً «بيت عور السفلى» وهي أقدم من عصر سليمان، ومن ثم فيبدو أن سليمان قد حصنها ولكنه لم يبنها[1]، وأما «بعلة» فهي مدينة في منطقة «دان» لا يعرف الآن مكانها على وجه التحقيق، ويرجح أن سليمان حصنها ولم يبنها كذلك[2].

وأما مدينة «تدمر» فهي مدينة «تمر» التي قام سليمان ببنائها في البرية، وقد أشارت التوراة ويوسف بن متي أن سليمان قد أقام مدينة تدمر[3]، ولا شك في أن وجهة النظر اليهودية هذه خاطئة، ذلك لأن مدينة تدمر إنما ظهرت للمرة الأولى في التاريخ على أيام الملك الأشوري «تجلات بلاسر» (١١١٦ - ١٠٩٠ ق. م) في صورة «تدمر أمورو»[4] أي قبل أن يولد النبي الكريم، وكذا بفترة تسبق ما دون في التوراة بشأنها بأكثر من سبعة قرون، ومن هنا يذهب العلماء إلى أن الرواية التوراتية بشأن بناء سليمان لمدينة تدمر، إما أنها من نوع المبالغة، ومن ثم فقد نسبت إلى سليمان بناء مدينة تقع في منطقة بعيدة عن حدود دولته إسرائيل[5]، وإما أن هناك خطأ وقع فيه كاتب الحوليات العبراني حين خلط بين «تامارا» (تمر) التي بناها سليمان في جنوب شرق يهوذا[6]، وربما كانت الشهرة التي اكتسبتها «تدمر»[7] على أيام كتبة الأسفار العبرانيين هي السبب في نسبة بنائها إلى النبي الكريم، ومن ثم فقد ذهب هؤلاء الكتبة إلى أن المدينة التي بناها سليمان هي «تدمر» وليست

---

(١) ملوك أول ٩/ ١٧، قاموس الكتاب المقدس ١/ ٢٠٢.

(٢) ملوك أول ١١/ ١٨، قاموس الكتاب المقدس ١/ ٨٢).

(٣) ملوك أول ٩/ ١٨، أخبار أيام ثان ٨/ ٤، وكذا E. Dhrome, Palmyra dans les Textes Assyriens, RB, 1924, P. 106 وكذا EI, III, P. 1020.

(٤) EI, III, P. 1020 وكذا EB, 17, 488, E. Dhrome, op - cit, P. 106 وكذا EB, 17, P. 161.

(٥) فيليب حتي: المرجع السابق ص ٤٣٢، جواد علي ٣/ ٧٧، وكذا J. Hastings, op - cit, P. 889.

(٦) حزقيال ٤٧/ ١٩، قاموس الكتاب المقدس ١/ ٢٨٢.

(٧) عن «تدمر» أنظر (محمد بيومي مهران: دراسات في تاريخ العرب القديم - الرياض ١٩٧٧ ص ٥٣٣ - ٥٤١.

«ثامار»، وسرعان ما انتقلت تلك الرواية إلى المصادر العربية، عن طريق مسلمة أهل الكتاب، فأخذوها بغير تدقيق ولا تحقيق، فضلاً عن أن آثار المدينة ربما أدهشتهم ومن ثم فقد نسبوا أبناءها إلى الجن، بأمر من سليمان عليه السلام[1].

هذا وقد ناقش الأستاذ «إيسفلت» الموضوع عام ١٩٧٥ م بشيء من التفصيل، وخلص إلى أن «تدمر» المشار إليها في التوراة إنما هي «تمر»، وتقع في أو بالقرب من «عين الرس»، على مبعدة ٥ كيلاً إلى جنوب النهاية الجنوبية للبحر الميت، وليست تدمر التي تقع على مبعدة ١٥٠ كيلاً شمال شرق دمشق، في منتصف المسافة بين دمشق والفرات وعلى أي حال، فإن بناء «تمر» إنما كان جزءاً من مشروع أكبر لخدمة الأغراض التجارية التي كانت دولة سليمان ميداناً لها[2].

(١) فيليب حتي: المرجع السابق ص ٤٣٢، جواد علي ٣/ ٧٨، الألوسي: بلوغ الأرب ١/ ٢٠٩ - ٢١٠، ياقوت ٢/ ١٧ - ١٩، البكري ١/ ٣٠٦ - ٣٠٧، ثم قارن المسعودي ٢/ ٢٤٤ - ٢٤٥ (بيروت ١٩٧٣).

(٢) ملوك أول ٣/ ١، ٩/ ١٥، وكذا O.EB, 17, P. 161 وكذا O. Eissfeldt, op - cit, P. 592 - 593.

الكِتَابُ الخَامِسُ

الأنبِيَاء

مِن أيوب إلى يحيى عليهم السَّلام

الفصل الأول

أيوب عليه السلام

(١) قصة أيوب عليه السلام: -

وردت قصة أيوب عليه السلام في القرآن الكريم في سورة النساء (آية ١٦٣) والأنعام (آية ٨٤)، وفي سورة الأنبياء و ص بشيء قليل من التفصيل، قال تعالى في الأنبياء: **﴿وأيوب إذ نادى ربه أني مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين، فاستجبنا له فكشفنا ما به من ضر وآتيناه أهله ومثلهم معهم رحمة من عندنا وذكرى للعابدين﴾**[١]، وقال تعالى في سورة ص: **﴿واذكر عبدنا أيوب إذ نادى ربه أني مسني الشيطان بنصب وعذاب، أركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب، ووهبنا له أهله ومثلهم معهم رحمة منا وذكرى لأولي الألباب، وخذ بيدك ضغثاً فاضرب به.ولا تحنث إنا وجدناه صابراً نعم العبد إنه أواب﴾**[٢].

هذا ويشير القرآن الكريم إلى أن أيوب إنما هو من ذرية إبراهيم

(١) سورة الأنبياء: آية ٨٣ - ٨٤، وانظر: تفسير الطبري ١٧/ ٥٦ - ٧٣، تفسير ابن كثير ٣/ ٣٠٠ - ٣٠٤، تفسير الفخر الرازي ٢٢/ ٢٠٣ - ٢٠٩، تفسير النسفي ٣/ ٨٦ - ٨٧، تفسير القرطبي ص ٤٣٦٢ - ٤٣٦٧، في ظلال القرآن ٤/ ٢٣٩١ - ٢٣٩٢، تفسير روح المعاني ١٧/ ٧٩ - ٨٢، صفوة التفاسير ٢/ ٢٧٢.

(٢) سورة ص: آية ٤١ - ٤٤، وانظر: تفسير ابن كثير ٤/ ٥٩ - ٦١، تفسير النسفي ٤/ ٤٢ - ٤٣، تفسير الفخر الرازي ٢٦/ ٢١١ - ٢١٥، تفسير الطبري ٢٣/ ١٦٥ - ١٦٩، في ظلال القرآن ٥/ ٣٠٢١ - ٣٠٢٢، تفسير القرطبي ص ٥٦٥١ - ٥٦٥٦.

الخليل عليهما السلام، قال تعالى: ﴿ **ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون وكذلك نجزي المحسنين**﴾[1] ، ومن ثم فقد ذهب جمهور العلماء إلى أنه من سلالة العيص (عيسو) بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام، وأن أمه، فيما يرى ابن عساكر، بنت لوط عليه السلام، وإن ذهب رأي إلى أنه من الروم، قال ابن إسحاق: كان رجلاً من الروم، وهو أيوب بن موص بن زراح بن العيص بن إسحاق بن إبراهيم الخليل، ولعل خطأ وقع هنا في كلمة «الروم»، والمقصود «أدوم» وليس «روم»، ذلك لأن عيسو (العيص) بن إسحاق (شقيق يعقوب التوأم)، إنما كان يسمى «أدوم» (الأحمر)، وإليه ينسب الآدوميون الذين كانوا يسكنون في أقصى بلاد شرق الأردن، وجنوب وادي الحسا، وكانت عاصمتهم «البتراء»[2] ، على أن هناك وجهاً ثالثاً للنظر يذهب إلى أن أبا أيوب عليه السلام، إنما كان ممن آمن بإبراهيم عليه السلام وهاجر معه إلى فلسطين، على أن هناك رواية رابعة تنسب لابن إسحاق تذهب ألى أن أيوب كان من بني إسرائيل، ولم يصح في نسبه شيء، إلا أن اسم أبيه أموص، وعلى أية حال، فالصحيح، فيما يرى كثير من المفسرين والمؤرخين، أنه من سلالة العيص بن إسحاق بن إبراهيم عليهما السلام، وأما امرأته فهي «ليا» (دينة) بنت يعقوب عليه السلام، وقيل هي «رحمة» بنت أفرايم بن يوسف أو ماضر بنت منشا (منسى) بن يوسف عليه السلام، وطبقاً لهذا، فإن أيوب إنما قد عاش قبل موسى عليه السلام، وقال ابن جرير: كان بعد شعيب عليه السلام، وفي التاريخ أنه كان نبيّاً في عهد يعقوب عليه السلام، وأنه عاش ثلاثاً وتسعين سنة، وقال ابن أبي خيثمة كان بعد سليمان عليه السلام[3] ، وسوف نناقش ذلك بالتفصيل فيما بعد.

---

(١) سورة الأنعام: آية ٨٤.

(٢) انظر: التفصيلات والمراجع (محمد بيومي مهران: إسرائيل ٢/ ٥٤٧ ـ ٥٥٢).

(٣) تفسير روح المعاني ١٧/ ٨٠، تفسير الفخر الرازي ٢٢/ ٢٠٣، تفسير النسفي ٣/ ٨٦، =

هذا وقد اقترن ذكر أيوب عليه السلام بالصبر، لأنه كان من أشد الأنبياء صبراً، إن لم يكن أشدهم، فلقد ابتلى عليه السلام بلاء شديداً في أهله وبدنه وماله، ولكنه كان مثال العبودية الحقة لله تعالى، فصبر على ذلك حتى أصبح يضرب به المثل في الصبر على الأذى، فيقال: «صبر كصبر أيوب»، وقد روى الليث عن مجاهد ما معناه: أن الله يحتج يوم القيامة بسليمان عليه السلام على الأغنياء، وبيوسف عليه السلام على الأرقاء، وبأيوب عليه السلام على الأرقاء[1]، وقد أثنى الله تعالى على أيوب بقوله تعالى: **﴿إنا وجدناه صابراً نعم العبد إنه أواب﴾**[2].

هذا ويتحدث المفسرون عما كان يملكه أيوب عليه السلام من المزارع والحدائق، وما كان له من أموال ودواب وأنعام وحرث، يضيق بها الحصر والتعداد، فضلاً عن نعمة القوة والصحة، إلى جانب زوجة صالحة حسنة الخَلْق والخُلق، ومع هذا لم تبطره هذه النعم الكثيرة، وإنما صبر لها وأدى لها كل ما يلزم، من شكر للمنعم جل جلاله وتقدير وعرفان لفضله، وكان رحيماً بالمساكين، كما كان يكفل الأيتام والأرامل، ويكرم الضيف، ومع ذلك فقد شاءت إرادة الله، ولا راد لمشيئته، أن تتغير الأحوال، فصوّح الزرع، وجف الضرع، ونفدت الأموال، ونفقت الماشية، وزال الثراء العريض، وهاجم الفقر الشديد، والمرض القاسي العنيد، نبيّ الله الكريم، ثم كانت مصيبته في موت البنين والبنات أنكى وأفدح، روى الإمام النسفي أنه عليه السلام كان له سبعة بنين وسبع بنات وثلاثة الآف بعير، وسبعة الآف شاة، وخمسمائة فدان يتبعها خمسمائة عبد، لكل عبد امرأة وولد ونخيل،

= البداية والنهاية لابن كثير ١/ ٢٢٠ - ٢٢١، تاريخ الطبري ١/ ٣٢٢ - ٣٢٤، الصابوني: النبوة والأنبياء ص ٢٦٤.

(١) ابن كثير: البداية والنهاية ١/ ٢٢٥.

(٢) سورة ص: آية ٤٤.

(٣) تفسير النسفي ٣/ ٨٦ - ٧٨.

فابتلاه الله تعالى بذهاب ولده وماله وبمرض في بدنه، فما وهن لما أصيب به من البلايا، وما ضعف ولا استكان وإنما قابل ذلك كله بالصبر الجميل والإيمان الكامل، فكان في حالتي الرخاء والبلاء مثالاً لعباد الله الصالحين في إرضاء الرحمن، وإرغام أنف الشيطان.

هذا وقد روى الإمام الرازي في التفسير الكبير: [1] أن إبليس سأل ربه فقال: هل في عبيدك من لو سلطتني عليه يمتنع مني؟ فقال الله تعالى: نعم عبدي أيوب، فجعل يأتيه بوساوسه وهو يرى إبليس عياناً ولا يلتفت إليه، فقال يا رب إنه قد امتنع علي فسلطني على ماله، وكان يجيئه ويقول له: هلك من مالك كذا وكذا، فيقول: الله أعطى والله أخذ، ثم يحمد الله، فقال: يا رب إن أيوب لا يبالي فسلطني على ولده، فجاء وزلزل الدار فهلك أولاده بالكلية، فجاءه وأخبره فلم يلتفت إليه، فقال يا رب لا يبالي بماله وولده فسلطني على جسده، فأذن فيه فنفخ في جلد أيوب، وحدثت أسقام عظيمة والآم شديدة، فمكث في ذلك البلاء سنين[2]، ومع ذلك فقد ظل صابراً حتى ضرب في هذا المجال أروع المثل، وغدا صبره وإيمانه حديث القرون والأجيال، وصدق سيدنا ومولانا محمد رسول الله ﷺ حيث يقول كما ثبت في الصحيح: «أشد الناس بلاء الأنبياء، ثم الصالحون، ثم الأمثل فالأمثل، يبتلي الرجل حسب دينه، فإن كان في دينه صلابة زيد في بلائه»[3].

وقد اختلف المفسرون في مدة بلاء أيوب عليه السلام وشدته، فذهبت

---

(١) تفسير الفخر الرازي ٢٦/ ٢١٢.

(٢) يعترض كثير من العلماء على هذه الرواية لأن الشيطان لا قدرة له البتة على إيقاع الناس في الأمراض والآلام، فضلاً عن أن يكون ذلك مع الأنبياء على وجه الخصوص، وقد حكى الله تعالى عن الشيطان أنه قال: «وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي»، فصرح بأنه لا قدرة له في حق البشر، إلا على إلقاء الوساوس والخواطر الفاسدة (راجع: تفسير الفخر الرازي ٢٦/ ٢١٣).

(٣) البداية والنهاية ١/ ٢٢٢، انظر مسند الإمام أحمد ١/ ١٧٢، تفسير ابن كثير ٣/ ٣٠١.

رواية إلى أنها كانت ثماني عشرة سنة ، روى ابن شهاب عن أنس قال رسول الله ﷺ : «إن أيوب بقي في البلاء ثماني عشرة سنة فرفضه القريب والبعيد إلا رجلين من إخوانه كانا يغدوان ويروحان إليه ، فقال أحدهما للآخر ذات يوم: والله لقد أذنب أيوب ذنباً ما أذنبه أحد من العالمين ، فقال له صاحبه : وما ذاك ، فقال: منذ ثماني عشرة سنة لم يرحمه الله تعالى ولم يكشف ما به ، فلما راحا إلى أيوب لم يصبر الرجل حتى ذكر ذلك لأيوب عليه السلام، فقال أيوب : ما أدري ما تقولان ، غير أن الله تعالى يعلم أني كنت أمر على الرجلين يتنازعان فيذكر إن الله عز وجل فأرجع إلى بيتي فأكفر عنهما كراهية أن يذكر الله إلا في حق»[1] ، وذهبت رواية أخرى عن الحسن البصري قال: مكث أيوب عليه السلام بعد ما ألقى على الكناسة سبع سنين وأشهراً ، ولم يبق له مال ولا ولد ولا صديق ، غير امرأته رحمة صبرت معه ، وكانت تأتيه بالطعام وتحمد الله تعالى مع أيوب ، وكان أيوب مواظباً على حمد الله تعالى والثناء عليه والصبر على ما ابتلاه ، وفي رواية ثالثة قال الضحاك ومقاتل بقي في البلاء سبع سنين وسبعة أشهر وسبعة أيام وسبع ساعات ، وقال وهب في رواية رابعة بقي في البلاء ثلاث سنين ، بل إن هناك رواية خامسة نذهب إلى أن البلاء بقي ثلاث عشرة سنة[2] .

ويذهب المفسرون إلى أن شدة البلاء وصلت ألى أن ألقى به في كناسة خارج القرية لا يقربه أحد إلا زوجته ، وقد تنكر الناس له ، حتى الذين آمنوا به ، وكانوا ثلاثة[3] ، لما رأوا ما نزل به من البلاء رفضوه واتهموه من

(١) تفسير الفخر الرازي ٢٢/ ٢٠٥ ، وانظر: تفسير الطبري ٢٣/ ١٦٧ ، تفسير ابن كثير ٤/ ٦٠ ، تفسير الفخر الرازي ٢٦/ ٢١٤ .

(٢) تفسير الطبري ١٧/ ٧٠ ، تفسير روح المعاني ١٧/ ٨٠ ، تفسير الفخر الرازي ٢٢/ ٢٠٦ ، تفسير ابن كثير ٣/ ٣٠١ .

(٣) قال النسقي في تفسيره (٤/ ٤٣) : روى أنه كان يعوده ثلاثة من المؤمنين فارتد أحدهم فسئل عنه فقيل : ألقى الشيطان أن الله لا يبتلي الأنبياء والصالحين .

غير أن يتركوا دينه ، وفي تفسير الطبري عن الحسن قال : ومر رجلان وهـو على تلك الحال (يعني حال البلاء) ، ولاو الله ما على ظهر الأرض يومئذ أكرم على الله من أيوب ، فقال أحد الرجلين لصاحبه : لو كان لله في هذا حاجة ما بلغ به هذا ، فلم يسمع أيوب شيئاً كان أشد عليه من هذه الكلمة ، وفي رواية أخرى ، قال أحدهما لصاحبه : لو كان الله علم في أيوب خيراً ما ابتلاه بما أرى ، فما جزع أيوب من شيء أصابه جزعه من كلمة الرجل ، وبلغ من شدة البلاء أيضاً أن امرأته اضطرتها الحاجة ، بعد العز والجاه ، إلـى أن تخـدم الناس في بيوتهم ، لتطعم زوجها ، وليت المصاب اقتصـر علـى ذلك ، فإن الناس ما لبثوا أن كفوا عن استخدامها ، لئلا ينالهم من بلاء يعقوب شيء ، أو تنقل إليهم عدوى أمراضه ، فلما لم تجد أحـداً يستخدمهـا عمـدت فباعـت لبعض بنات الأشراف إحدى ضفيرتيها بطعـام طيب كثير ، فأتـت به أيوب ، فقال : من أين لك هذا وأنكره ، فقالت خدمت به أناساً ، فلما لم تجد في الغد أحداً باعت الضفيرة الأخرى بطعام فأتت به فأنكره أيضاً وحلف لا يأكله حتى تخبره من أين لها هذا الطعام ، فكشفت عن رأسها خمارها ، فلما رأى رأسها محلوقاً قال في دعائه : «أني مسني الضرّ وأنتِ أرحم الراحمين» ، وفي رواية أن أيوب عليه السلام كان إذا أراد أن يتحرك على فراشه تعلق بتلك الذؤابة ، فلما لم يجد الذؤابة وقعت الخواطر المؤذية في قلبه واشتد غمه[1] .

وكان نبي الله أيوب عليه السلام ، في كل ذلك ، في غاية الصبر ، وبه يضرب المثل في ذلك ، روى أن أبي حاتم عن يزيد بن ميسرة قال : لما ابتلى الله أيوب عليه السلام بذهاب الأهل والمال والولد ، ولم يبق له شيء أحسن الذكر ، ثم قال : أحمدك رب الأرباب الذي أحسنت إليّ ، أعطيتني المال

(۱) تفسير روح المعاني ١٧/ ٨٠ تفسير الطبري ١٧/ ٧١ ، تاريخ الطبري ١/ ٣٢٤ ، تفسير الفخر الرازي ٢٢/ ٢٠٧ ، ٢٦/ ٢١٤ ، ابن كثير : البداية والنهاية ١/ ٢٢٢ - ٢٢٣ .

والولد فلم يبق من قلبي شعبة إلا قد دخله ذلك، فأخذت ذلك كله مني، وفرغت قلبي، فليس يحول بيني وبينك شيء، لو يعلم عدوي إبليس بالذي صنعت حسدني، قال فلقي إبليس من ذلك منكراً، قال وقال أيوب عليه السلام: يا رب إنك أعطيتني المال والولد، فلم يقم على بابي أحد يشكوني لظلم ظلمته، وأنت تعلم ذلك، وإنه كان يوطأ لي الفراش فأتركها، وأقول لنفسي يا نفسي إنك لم تخلقي لوطء الفراش، ما تركت ذلك إلا ابتغاء وجهك[1].

هذا وقد أشار القرآن الكريم إلى محنة أيوب، وكيف أنه لجأ إلى الله طالباً كشف الضر عنه، وراجياً رحمة ربه، فاستجاب الله له فكشف عنه الضر وأبدله خيرفا مما فقد منه، يقول تعالى: ﴿ **وأيوب إذ نادى ربه أني مسني الضر وأنت أرحم الراحمين، فاستجبنا له فكشفنا ما به من ضر وآتيناه أهله ومثلهم معهم رحمة من عندنا وذكرى للعابدين** ﴾[2]، ويقول صاحب الظلال: وقصة ابتلاء أيوب من أروع قصص الابتلاء، والنصوص القرآنية تشير إلى مجملها دون تفصيل، وهي في هذا الوضع تعرض دعاء أيوب، واستجابة الله للدعاء، لأن السياق (في سورة الأنبياء) سياق رحمة الله بأنبيائه ورعايته لهم في الابتلاء، سواء كان الابتلاء بتكذيب قومهم لهم وإيذائهم، كما في قصص إبراهيم ولوط ونوح، أو بالنعمة كما في قصة داود وسليمان، أو بالضر كما في حال أيوب[3].

على أن المفسرين أنما يذهبون مذاهب شتى في تفسيرهم لقول أيوب «أني مسني الضر»، فرواية تذهب ألى أن البلاء لما طال على أيوب رفضه

---

(1) تفسير ابن كثير ٣/ ١٠٣.

(2) سورة الأنبياء: آية ٨٣ ـ ٨٤.

(3) في ظلال القرآن ٤/ ٢٣٩٢.

القريب والبعيد، غير زوجته، إلا رجلان كانا يغدوان ويروحان إليه، فجاءا يوماً فلم يستطيعا أن يدنوا منه من ريحه، فقاما من بعيد، فقال أحدهما للأخر: لو كان الله علم من أيوب خيراً ما ابتلاه بهذا، فجزع أيوب من قولهما جزعاً لم يجزع من شيء قط، فقال اللهم إن كنت تعلم أني لم أبت ليلة قط شبعان وأنا أعلم مكان جائع فصدقني، فصدق من في السماء وهما يسمعان، ثم قال اللهم أن كنت تعلم أني لم يكن لي قميصان قط، وأنا أعلم مكان عار، فصدقني، فصدق من في السماء وهما يسمعان، ثم قال اللهم بعزتك ثم خر ساجداً، فقال اللهم بعزتك لا أرفع رأسي أبداً حتى تكشف عني، فما رفع رأسه حتى كشف عنه»[1].

وتذهب رواية أخرى إلى أن الشيطان وسوس إلى زوجته لو أن أيوب ذبح لي أو سجد أو أكل طعاماً ولم يسم الله تعالى لعوفي مما هو فيه من البلاء، وفي رواية ثالثة أنه قال: لو شئت فاسجد لي سجدة واحدة حتى أرد عليك المال والولد، وأعافي زوجك، فرجعت إلى أيوب فأخبرته بما قال لها، فقال لها أيوب: أتاك عدو الله ليفتنك عن دينك، ثم أقسم لئن عافاني الله لأجلدنك مائة جلدة، وقال عند ذلك «مسني الضر» يعني طمع إبليس في سجودي له وسجود زوجتي ودعائه إياها وإياي إلى الكفر، وفي رواية رابعة قال وهب: كانت امرأة أيوب عليه السلام تعمل للناس وتأتيه بقوته، فلما طال عليه البلاء سئمها الناس فلم يستعملوها، فالتمست ذات يوم شيئاً من الطعام فلم تجد شيئاً، فجزت قرناً من رأسها فباعته برغيف فأتته به، فقال لها: أين قرنك، فأخبرته بذلك، فحينئذ قال: «مسني الضر»، وفي رواية خامسة قال إسماعيل السُّدى لم يقل أيوب: «مسني الضر» إلا لأشياء ثلاث: أحدهما: قول الرجلين له لو كان عملك الذي كنا نرى لله تعالى لما أصابك

(١) تفسير ابن كثير ٣/ ٣٠٢ ـ ٣٠٣، وانظر: تفسير الفخر الرازي ٢٢/ ٢٠٦.

الذي أصابك ، وثانيهما : كان لامرأته ثلاث ذوائب ، فعمدت إلى أحداها وقطعتها و باعتها فأعطوها بذلك خبزاً ولحماً فجاءت إلى أيوب عليه السلام فقال من أين هذا؟ فقالت كل فإنه حلال ، فلما كان من الغد لم تجد شيئاً فباعت الثانية ، وكذلك فعلت في اليوم الثالث ، وقالت : كل فإنه حلال ، فقال لا آكل ما لم تخبريني فأخبرته ، فبلغ ذلك من أيوب ما الله به عليم ، وقيل إنما باعت ذوائبها لأن إبليس تمثل لقوم في صورة بشر وقال : لئن تركتم أيوب في قريتكم ، فإني أخاف أن يعدي إليكم ما به من العلة فأخرجوه إلى باب البلد ، ثم قال لهم إن امرأته تدخل بيوتكم وتعمل وتمس زوجها ، أما تخافون أن تعدي إليكم علته ، فحينئذ لم يستعملها أحد فباعت ضفيرتها ، وثالثها : حين قالت له امرأته ما قالت ، وأخيراً هناك رواية سادسة ذهبت إلى أن إبليس أتاها في هيئة عظيمة فقال لها : أنا إله الأرض فعلت بزوجك ما فعلت لأنه تركني وعبد إلّه السماء ، فلو سجد لي سجدة رددت عليه وعليك جميع ما أخذت منكما[١] .

على أن كثيراً من العلماء يرفضون معظم هذه الروايات فهي مشوبة بالإسرائيليات التي تطغى عليها ، هذا فضلاً من أن انتهاء هذا المرض الذي أصيب به أيوب ألى حد التنفير عنه غير جائز ، لأن الأمراض المنفرة غير جائزة على الأنبياء عليهم السلام ، وقد قرر علماء التوحيد أن الأنبياء منزهون عن الأمراض المنفرة ، فكيف يتفق هذا مع منصب النبوة ، والصحيح أن المرض الذي ألم بأيوب عليه السلام لم يكن مرضاً منفراً ، وليس فيه شيء من هذه الأقوال العليلة و إنما هو مرض طبيعي ولكنه استمر به سنين عديدة ، وهو أجل طويل لا يصبر عليه عادة لإنسان ، ثم إن بلاءه لم يكن في جسمه فحسب ، بل شمل المال والأهل والولد[٢] ، ولهذا قال تعالى : **﴿ووهبنا له أهله ومثلهم**

---

(١) تفسير الفخر الرازي ٢٢/ ٢٠٦ ـ ٢٠٨ ، تفسير روح المعاني ١٧/ ٨٠.

(٢) الصابوني : النبوة والأنبياء ص ٢٦٧ .

معهم﴾ ، ومن ثم فالحد المأمول من هذه القصة ، كما يقول صاحب الظلال ، أن أيوب عليه السلام كان ، كما جاء في القرآن ، عبداً صالحاً أواباً ، وقد ابتلاه الله فصبر صبراً جميلاً ، ويبدو أن ابتلاءه كان بذهاب المال والأهل والصحة جميعاً ، ولكنه ظل على صلته بربه وثقته به ورضاه بما قسم له ، وكان الشيطان يوسوس لخلصائه القلائل الذين بقوا على وفائهم له ، ومنهم زوجته ، بأن الله لو كان يحب أيوب ما ابتلاه ، وكانوا يحدثونه بهذا فيؤذونه في نفسه أشد مما يؤذيه الضر والبلاء ، فلما حدثته امرأته ببعض هذه الوسوسة حلف لئن شفاه الله لئن يضربنها عدد أعينه ، قيل مائة[1] .

وعلى أية حال ، فلقد استجاب الله تعالى لدعاء عبده أيوب ، فرفع عنه الضر في بدنه ، فإذا هو معافى صحيح ، ورفع عنه الضر في أهله فعوضه عمن فقد منهم ، ورزقه مثلهم ، وقيل هم أبناؤه فوهب الله له مثليّهم أو أنه وهب له أبناء وأحفاداً[2] ، يقول تعالى : **﴿أركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب ، ووهبنا له أهله ومثلهم معهم رحمة منا وذكرى لأولي الألباب وخذ بيدك ضغثاً فاضرب به ولا تحنث إنا وجدناه صابراً نعم العبد إنه أواب﴾**[3] ، فأما قوله تعالى : **﴿أركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب﴾** ، أي اضرب الأرض ، وهي أرض الجابية فيما يروي عن قتادة ، برجلك ، فامتثل ما أمر به فأنبع الله له عيناً باردة الماء ، وأمر أن يغتسل فيها ويشرب منها ، فأذهب الله عنه ما كان يجده من الألم والأذى والسقم والمرض الذي كان في جسده ظاهراً وباطناً ، وأبدله الله بعد ذلك كله صحة ظاهرة وباطنة وجمالاً تاماً[4] .

وقال بعض المفسرين نبعث له عينان فاغتسل من إحداهما وشرب

---

(١) في ظلال القرآن ٥/ ٣٠٢١ .

(٢) في ظلال القرآن ٤/ ٢٣٩٢ .

(٣) سورة ص : آية ٤٢ - ٤٤ .

(٤) البداية والنهاية ١/ ٢٢٤ .

الأخرى، فذهب الداء من ظاهره ومن باطنه بإذن الله، وقيل ضرب برجله اليمنى فنبعت عين حارة فاغتسل منها، ثم اليسرى فنبعت عين باردة فشرب منها، فذهب الداء من ظاهرة وباطنة بإذن الله تعالى، وكساه الله حله، ثم خرج فجلس على مكان مشرف، وأقبلت امرأته تلتمسه في مضجعه فلم تجده، فقامت كالوالهة متلددة، ثم قالت: يا عبد الله، هل لك علم بالرجل المبتلي الذي كان ههنا، قال: لا، ثم تبسم، فعرفته بمضحكه، فاعتنقته، وفي الحديث الذي رواه ابن شهاب عن أنس بن مالك عن رسول الله ﷺ: «وكان يخرج إلى حاجته، فإذا قضاها أمسكت امرأته بيده حتى يبلغ، فلما كان ذات يوم أبطأ عليها، وأوحى إلى أيوب في مكانه «أن اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب»، فاستبطأته، فتلقته تنظر، فأقبل عليها قد أذهب الله ما به من البلاء، وهو على أحسن ما كان، فلما رأته قالت: أي بارك الله فيك، هل رأيت نبيّ الله هذا المبتلي، فوالله على ذلك ما رأيت أحداً أشبه به منك إذ كان صحيحاً؟ قال: «فإني أنا هو»[١].

هذا ويذهب بعض المفسرين إلى أن الله تعالى، بعد أن أذهب عن أيوب كل آلامه، وعاد إليه شبابه وجماله، كأحسن مما كان وأفضل، جعل يتلفت ولا يرى شيئاً مما كان له من أهل ومال، إلا وقد أضعفه الله له، حتى أن الماء الذي اغتسل به، تطاير على صدره جراداً من ذهب، قال: فجعل يضمه بيده، أخرج الإمام أحمد بسنده عن أبي هريرة قال رسول الله ﷺ: «بينما أيوب يغتسل عرياناً خرّ عليه جراد من ذهب، فجعل أيوب عليه الصلاة والسلام يحثو في ثوبه، فناداه ربه عز وجل، يا أيوب ألم أكن أغنيتك عما ترى، قال عليه الصلاة والسلام: بلى يا رب، ولكن لا غنى بي عن

---

(١) تفسير الطبري ١٧/ ٦٨ - ٧٢، ٢٣/ ١٦٦ - ١٦٧، تفسير ابن كثير ٤/ ٦٠، تفسير الفخر الرازي ٢٦/ ٢١٤ - ٢١٥، تفسير روح المعاني ١٧/ ٨١، تفسير النسفي ٤/ ٤٣.

بركتك»[1]، انفرد بإخراجه البخاري من حديث عبد الرازق به[2]، وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: لما عافى الله أيوب أمطر عليه جراداً من ذهب، فجعل يأخذ منه بيده ويجعله في ثوبه، قال فقيل له: يا أيوب أما تشبع، قال يا رب: «ومن يشبع من رحمتك»[3].

هذا وقد اختلف أهل التأويل في أهل أيوب الذين قال الله تعالى فيهم في سورة الأنبياء: ﴿ **وآتيناه أهله ومثلهم معهم رحمة من عندنا** ﴾، وفي سورة ص: ﴿ **ووهبنا له أهله ومثلهم معهم رحمة منا** ﴾، أهم أهله الذين أوتيهم في الدنيا، أم ذلك وعد وعده الله أيوب أن يفعل به في الآخرة؟ فقال بعضهم: إنما أتى الله أيوب في الدنيا مثل أهله الذين هلكوا، فإنهم لم يردوا عليه في الدنيا، وإنما وعد الله أيوب أن يؤتيه إياهم في الآخرة[4]، أخرج ابن مردوية وابن عساكر من طريق جوبير الضحاك عن ابن عباس، رضي الله تعالى عنهما، قال: سألت رسول الله ﷺ عن قوله تعالى: ﴿ **وآتيناه أهله ومثلهم معه** ﴾ الآية، قال: رد الله تعالى امرأته وزاد في شبابها حتى ولدت له ستا وعشرين ذكراً»، فالمعنى على هذا آتيناه في الدنيا مثل أهله عدداً، مع زيادة مثل آخر[5]، أو أنهم أبناؤه فوهب الله له مثيلهم، أو أنه وهب له أبناء وأحفاداً[6]، وروى ابن جرير بسنده عن الليث قال: أرسل مجاهد رجلاً يقال له قاسم إلى عكرمة يسأله عن قول الله لأيوب: ﴿ **وآتيناه أهله ومثلهم معهم** ﴾ فقال: قيل له: أن أهلك لك في الآخرة، فإن شئت

(١) مسند الإمام أحمد ٢/ ٣١٤.
(٢) صحيح البخاري ١/ ٧٨، تفسير ابن كثير ٤/ ٦١، تفسير روح المعاني ١٧/ ٨١.
(٣) تفسير ابن كثير ٣/ ٣٠٣.
(٤) تفسير الطبري ١٧/ ٧٢.
(٥) تفسير روح المعاني ١٧/ ٨١.
(٦) في ظلال القرآن ٤/ ٢٣٩٢.

عجلناهم لك في الدنيا، وإن شئت كانوا لك في الآخرة وآتيناك مثلهم في الدنيا، فقال: يكونون لي في الآخرة، وأوتي مثلهم في الدنيا، قال: فرجع إلى مجاهد فقال أصاب»[1].

على أن هناك وجهاً آخر للنظر، ذهب إليه ابن مسعود وابن عباس وقتادة ومقاتل والكلبي وكعب والحسن البصري والسدى يقول إن الله تعالى أحيا له أهله، يعني أولادهم بأعيانهم، قال ابن مسعود: مات أولاده سبعة من الذكور، وسبعة من الإناث، فلما عوفي أحيوا له، وولدت له امرأته سبعة بنين وسبع بنات، وقال ابن عباس: لما دعا أيوب استجاب الله له، وأبدله بكل شيء ذهب له ضعفين، رد إليه أهله ومثلهم معهم، وفي روح المعاني: قال ابن مسعود والحسن وقتادة في الآية: إن الله تعالى أحي له أولاده الذين هلكوا في بلائه، وأوتي مثلهم في الدنيا، وقال الألوسي: والظاهر أن المثل من صلبه عليه السلام أيضاً، ويميل الإمام الرازي إلى هذا الرأي الثاني لأنه هو الظاهر، فلا يجوز العدول عنه من غير ضرورة، غير أن صاحب الظلال يقول إنه ليس في النص ما يحتم أنه أحيا له من مات، وقد يكون معناه أنه بعودته إلى الصحة والعافية قد استرد أهله الذين كانوا بالنسبة إليه كالمفقودين، وأنه رزقه بغيرهم زيادة في الإنعام والرحمة والرعاية، مما يصلح ذكرى لذوي العقول والإدراك، ويقول الأستاذ الصابوني في صفوة التفاسير إن القول بأن الله أحيا أولاده بعد موتهم فيه نظر، لأنه لا يرجع أحد إلى الدنيا بعد انتقاله منها، إلا ما كان من معجزة المسيح عليه السلام، والصحيح أن الله تعالى عوّضه من زوجته أولاداً مثل من فقدهم[2].

---

(1) تفسير الطبري ١٧/ ٧٢.

(2) تفسير الفخر الرازي ٢٢/ ٢١٠، ٢٦/ ٢١٥، تفسير الطبري ١٧/ ٧٢ - ٧٣، ٢٣/ ١٦٧ - ١٦٨، تفسير روح المعاني ١٧/ ٨١، تفسير ابن كثير ٣/ ٣٠٣ - ٣٠٤، ٤/ ٦١، تفسير النسفي ٣/ ٨٧، في ظلال القرآن ٥/ ٣٠٢٢، صفوة التفاسير ٢/ ٢٧٢.

وأما قوله تعالى: **﴿وخذ بيدك ضغثاً فاضرب به ولا تحنث إنا وجدناه صابراً نعم العبد إنه أواب﴾**[1]، فأما «الضغث» فهو ما يحمل من شيء مثل حزمة الرطبة، وكملء الكف من الشجر أو الحشيش والشماريخ ونحو ذلك مما قام على ساق، وفي تفسير النسفي هو حزمه صغيرة من حشيش أوريحان أو غير ذلك، وعن ابن عباس: قبضة من الشجر، وعن قتادة: كانت امرأته قد عرضت له بأمر، وأرادها إبليس على شيء، فقال: لو تكلمت بكذا وكذا، وإنما حملها عليها الجزع، فحلف نبيّ الله: لئن الله شفاه ليجلدنها مائة جلدة، قال: فأُمر بغصن فيه تسعة وتسعون قضيباً، والأصل تكملة المئة، فضربها ضربة واحدة، فأبر نبيّ الله، وخفف الله عن أمته، والله رحيم، وفي رواية في تفسير النسفي: كان أيوب حلف في مرضه ليضربن امرأته مائة إذا برأ، فحللّ يمينه بأهون شيء عليه وعليها لحسن خدمتها إياه، وهذه الرخصة باقية، ويجب أن يصيب المضروب كل واحدة من المائة، والسبب في يمينه أنها أبطأت عليه ذاهبة في حاجة، فخرج صدره، وقيل باعت ذؤابتيها برغيفين، وكانتا متعلق أيوب إذا قام، ويذهب الفخر الرازي إلى أنه يبعد ما قيل إنها رغبته في طاعة الشيطان، ويبعد أيضاً أنها خالفته في بعض المهمات، وذلك أنها ذهبت في بعض المهمات فأبطأت فحلف في مرضه ليضربنها مائة إذا بريء، ومن ثم فرحمة من الله به وبزوجة التي قامت على رعايته وصبرت على بلائه وبلائها به، أمره الله أن يأخذ مجموعة من العيدان بالعدد الذي حدده، فيضربها به ضربة واحدة، تجزيء عن يمينه فلا يحنث فيها[2].

ويذهب الرازي والنسفي إلى أن هذه الرخصة باقية، وهي اليوم في الناس

---

(١) سورة ص: اية ٤٤.

(٢) تفسير الطبري ٢٣/ ١٦٨ ـ ١٦٩، تفسير النسفي ٤/ ٤٣، تفسير الفخر الرازي ٢٦/ ٢١٥، في ظلال القرآن ٥/ ٣٠٢٢.

يمين أيوب من أخذ بها فهو حسن، وعن النبي ﷺ أنه أتى بمجذم خبث بأمة فقال: «خذوا عثكالاً فيه مائة شمراخ فاضربوه به ضربة»، وهكذا أمر الله أيوب أن يبّر بيمينه بأهون شيء عليه وعليها، قال ابن كثير: وهذا من الفرج والمخرج لمن اتقى الله وأطاعه، ولا سيما في حق امرأته الصابرة المحتسبة، المكابدة الصِّديقة، البارة الراشدة، ولهذا عقب الله هذه الرخصة وعلّلها بقوله: ﴿**إن وجدناه صابراً نعم العبد إنه أواب**﴾، ثم عقب ابن كثير على الرخصة بأن كثيراً من الفقهاء قد استعمل هذه الرخصة في باب الإيمان والنذور، وتوسع آخرون فيها حتى وضعوا كتاب الحيل في الخلاص من الأيمان، وصدوره بهذه الآية، وأتوا فيه بأشياء من العجائب والغرائب[1].

(٢) سفر أيوب: -

من المعروف أن لأيوب عليه السلام سفراً في العهد القديم[2]، ومكانه في الترجمة السريانية[3] بين سفري التثنية ويشوع، وقد اختلف الباحثون في السفر وفي صاحبه، فيرى فيه شراح التوراة القدامى تاريخاً حقيقياً، وينسبه بعضهم إلى موسى عليه السلام، غير أن كثيراً من الباحثين يرون أن أيوب أقدم من موسى[4]، عليهما السلام، بل ويحددون له تاريخاً حوالي عام ١٥٢٠ قبل الميلاد[5]، غير أن هناك فريقاً يذهب ألى أن أيام عاش على أيام يعقوب عليه السلام (١٧٨٠ - ١٦٣٣ ق. م) وقد تزوج من ابنته «دينة»[6]،

(١) تفسير الفخر الرازي ٢٦/ ٢١٥، تفسير النسفي ٤/ ٤٣، البداية والنهاية ١/ ٢٢٤ - ٢٢٥.

(٢) انظر عن سفر أيوب (محمد بيومي مهران: إسرائيل ٣/ ٦٧ - ٧٣).

(٣) انظر عن الترجمة السريانية للتوراة (محمد بيومي مهران: إسرائيل ٣/ ١١٥).

(٤) أنظر عن تاريخ موسى عليه السلام والآراء التي دارت حوله (محمد بيومي مهران: إسرائيل ١/ ٢٨١ - ٤٥٥).

(٥) باروخ سبينوزا: رسالة في اللاهوت والسياسة - القاهرة ١٩٧١ ص ٣١٥ (مترجم).

(٦) نفس المرجع السابق ص ٣١٥، ثم قارن: تفسير روح المعاني ١٧/ ٨٠، تاريخ الطبري ١/ ٣٢٢، البداية والنهاية ١/ ٢٢١.

بدليل قول الكاتب في مستهل السفر «رجل في أرض عوص»[1] ، فضلاً عن الإشارة إليه في سفر حزقيال[2]، على أن فريقاً رابعاً، ومنهم موسى بن ميمون وبعض الأحبار، أنما يحسبون سفر أيوب هذا مجرد قصة روائية للموعظة فحسب[3]، وبدهي أن هذا ليس صحيحاً، فصاحب السفر هو نبيّ الله أيوب عليه السلام، وقصته صادقة، الصدق كل الصدق، كما أخبرنا القرآن الكريم وحديث المصطفى ﷺ .

ويذهب الحبر اليهودي «أبراهام بن عزار» (١٠٩٢ - ١١٦٧ م)، ويوافقه سبينوزا وغيره، إلى أن سفر أيوب إنما قد ترجم إلى العبرية من لغة أخرى[4] ، بل إن الترجمة السبعينية[5] للتوراة أنما تنص صراحة على أن السفر مترجم عن السريانية (الأرامية)[6] ، ومن هنا اتجه البعض إلى اعتبار أيوب عليه السلام، عربياً، وليس يهودياً، وأن سفره هذا ما هو إلا ترجمة لأصل عربي مفقود[7] ، ولعل الأديب الفرنسي «فرنسوا فولتير» (١٦٩٤ - ١٧٧٨ م) كان أول من نادى في العصر الحديث بأن أيوب وسفره أقدم من التوراة، وأن العبريين قد أخذوه عن العرب وترجموه إلى لغتهم، ويستدل على ذلك بأدلة، منها (أولاً) أن اسم الشيطان الذي يشغل مكاناً رئيسياً في السفر، ليس كلمة عبرية، بل كلدانية، ومنها (ثانياً) أن أصدقاء أيوب إنما

---

(١) أيوب ١/ ١ .

(٢) حزقيال ١٤/ ١٤ .

(٣) سبينوزا: المرجع السابق ص ٣١٥ .

(٤) فؤاد حسنين: المرجع السابق ص ١٤٤ .

(٥) أنظر عن الترجمة السبعينية للتوراة (محمد بيومي مهران: إسرائيل ٣/ ١٠٧ - ١١٢).

(٦) فؤاد حسنين: المرجع السابق ص ١٤٤ .

(٧) D. D. Margoliouth, The Relations between Arabs and Israelities Prior to the Rise of Islam, London, 1924, P. 30 وكذا F. Foster, AJSL, 1932, P. 31 وكذا J. A. Montgomery, Arabia and the Bible, Philadelphia, 1934, P. 172 وكذا M. F. Unger, op - cit, P. 593.

كانوا فيما يبدو، من العرب، اليعازر من تيمان، وبلد كان شوحياً من منطقة السويس، فيما يرى فولتير، وصوفر كان من نعمات[1].

ومنها (ثالثاً) ما لاحظه الباحثون من ذكر «الجمال» عند الحديث على ثروة أيوب من الماشية، ونحن نعلم أن لحوم الإبل محرمة على اليهود، وأنها لم تذكر بين ثرواتهم إلا نادراً، بل إن اسم أيوب نفسه لا مثيل له في أسماء العبريين[2]، ومنها (رابعاً) ما جاء في السفر من أن أيوب رجل من أرض «عوص»، وأرض «عوص» هذه، وإن اختلف العلماء في مكانها، فالراجح عندهم أنها في بلاد العرب، أو في مناطق يسكنها عرب (أي في نجد وعمان أو في شمال بلاد العرب، في شمال غربي المدينة المنورة، أو في بلاد الشام، في حوران أو في اللجاة، أو على حدودو أدوم أو في أدوم نفسها، أو في شرقي فلسطين أو جنوبها الشرقي) وبعبارة أخرى، فهي أما في شبه الجزيرة العربية أو في بادية الشام[3]، ولعل تحديدها ببادية الشام ربما كان هو الأرجح، وذلك لسببين، الأول: ما ذكره معظم المفسرين والمؤرخين من أن أيوب من ولد العيص، وهو عيسو بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام، والذي كان يسمى كذلك «أدوم» (الأحمر) وإليه ينسب الأدوميون الذين كانوا يسكنون في أقصى بلاد شرق الأردن وجنوب وادي الحسا، والثاني: ما جاء في حديث أبي ذر المشهور في ذكر الأنبياء والمرسلين، حيث يقول سيدنا رسول الله ﷺ : وأربعة من العرب: هود وصالح وشعيب

(١) أيوب ٢/ ١١، حسن ظاظا: الفكر الديني الاسرائيلي ص ٥٥، وكذا F. Voltaire Dictionnaire Philosophique Paris - Garnnier, 1954, P. 257 - 260.

(٢) حسن ظاظا: المرجع السابق ص ٥٦.

(٣) جواد علي: المرجع السابق ١/ ٦٣١، قاموس الكتاب المقدس ١/ ١٤٨، وكذا J. Hastings, A Dictionary of the bible, P. 200, 469.

ونبيك يا أباذر»[1] وفي رواية «وأربعة من العرب: هود وصالح وشعيب ومحمد عليه السلام»[2].

على أن هناك فريقاً من العلماء يذهب إلى أن أيوب عليه السلام كان مصرياً، وذلك بدليل الأثر الثقافي المصري الذي يطل علينا من ثنايا هذا السفر في مواضع كثيرة، فسفر أيوب في الواقع ما هو إلا صورة صادقة لقصة المتشائم المصري القديم[3]، (اليائس من الحياة)[4]، هذا فضلاً عن ذكره للأهرام والمقابر التي يبنيها الملوك لأنفسهم، وأخيراً ذكره للثواب والعقاب والحياة بعد الموت، وعدم ضياع الناس في متاهات «شيول»[5]، كما آمن بذلك الأولون، والمعروف أن العبريين، طبقاً لما جاء في كتبهم المتداولة اليوم، وليس كما جاء بها أنبياء الله، قد عرفوا عقيدة الحياة بعد الموت في حقبة متأخرة من تاريخهم، ربما في القرنين الثالث والثاني قبل الميلاد[6]،

---

(١) تفسير ابن كثير ١/ ٨٩١ - ٨٩٢ (بيروت ١٩٨٦)، البداية والنهاية ١/ ١٢٠.

(٢) تفسير النسفي ١/ ٢٦٣ - ٢٦٤.

(٣) فؤاد حسنين: المرجع السابق ص ١٤٥.

(٤) أنظر: عن اليائس من الحياة (محمد بيومي مهران: الثورة الاجتماعية الأولى في مصر الفراعنة ص ١٠ - ١٢).

(٥) شيول: كان العبرانيون، كما يفهم من نصوص العهد القديم، يعتقدون أنه من غير الممكن للإنسان أن يتلقى البركات وحكم الرب إلا في هذه الدنيا فقط، وبجسده فقط، والعودة إلى الأرض هي البعث، ذلك لأن الروح تنزل عند الموت إلى عالم سفلي يدعى «شيول» (Sheol)، وكانت شيول هذه، أو العالم السفلي، تعني نقيض ما تعني به الضوء والحياة، وهي منطقة تقرب من العدم والنسيان، تنظر إلى البشر كوحوش، وتغلق عليهم أبوابها دونما أي احتمال للهروب، إن سكانها من الأموات مجرد ظلال، يتميزون بالضعف الشديد، وهم منقطعون عن تبعية الرب، «لأنه ليس في الموت ذكرك، في الهاوية من يحمدك» (مزمور ٨٨/ ١٠، ١٠٧/ ١٨، أيوب ٧/ ٩، ٢٦/ ٥ - ٦، أمثال ٢/ ١٨، إشعياء ١٤/ ٩ - ١١، ٢٦/ ١٤، ١٩، وكذا.E. W. Heaton, The Old Testament Prophets, 1969, P. 137).

(٦) أنظر عن الحياة بعد الموت عند بني إسرائيل (محمد بيومي مهران: النبوة والأنبياء عند بني إسرائيل ص ١٠٢ - ١٠٦).

الأمر الذي سبقهم إليه المصريون بآلاف السنين[1] .

وعلى الجملة، وكما يقول الأستاذ العقاد، يبدو سفر أيوب غريباً في موضعه وموضوعه بين أسفار العهد القديم، ولم يكن من عادة بني إسرائيل أن يجمعوا كتاباً لغير أنبيائهم المتحدثين عن ميثاقهم وميعادهم، ولكنهم جمعوا هذا السفر مع الأسفار المشهورة لأنهم وجدوه في بقاع فلسطين الجنوبية، محفوظاً يتذاكره الرواة، وحسبه بعضهم من كلام موسى، وبعضهم من كلام سليمان ولا عجب أن يشيع هذا الكتاب العجيب، حيث تسامع به الناس، فإنه عزاء للمتعزين، وعبرة صالحة للمعتبرين، ولا تزال قصة أيوب منظومة شائعة يتغنى بها شعراء اللغة الدارجة في مصر والشام[2] .

وأما زمن كتابة سفر أيوب، فهو موضع خلاف بين الباحثين، فهناك من يرجحه إلى عصر الآباء الأوائل، بل إن «هاليس» إنما يجعل من عام ٢٣٠٠ ق. م تاريخاً لأيوب، اعتماداً على أن السفر لم يشر بكلمة واحدة إلى خروج بني إسرائيل من مصر، والذي نراه حوالي عام ١٢١٤ ق. م[3] ، فضلاً عن المدن التي دمرتها الزلازل وقت ذاك، كما أنه لم يرد في صلب السفر أي ذكر ليهوه رب إسرائيل، وإنما ورد ذلك في المقدمة والذيل، وهما مضافان بعد عصره، كما هو راجح عند شراح التوراة[4] .

على أن هناك وجهاً آخر للنظر يذهب ألى أن سفر أيوب أنما كتب على أيام سليمان عليه السلام (٩٦٠ - ٩٢٢ ق. م)، وحجتهم أنه يحمل بين ثناياه

---

(١) حبيب سعيد: المدخل إلى الكتاب المقدس ص ١٥٣.

(٢) عباس العقاد: إبراهيم أبو الأنبياء ص ١٦٣.

(٣) أنظر عن تاريخ خروج بني إسرائيل من مصر والآراء التي دارت حوله (محمد بيومي مهران: إسرائيل ١/ ٣٥٧ - ٤٣٩).

(٤) عباس العقاد: المرجع السابق ص ١٦٠ - ١٦١، قاموس الكتاب المقدس ١/ ١٤٨.

إشارات من ذلك العهد[1]، على أن هناك وجهاً ثالثاً للنظر يذهب إلى أن السفر قد كتب قبل السبي البابلي (٥٨٦ - ٥٣٩ ق. م)، وربما في عصر النبي إرميا (٦٢٦ - ٥٨٠ ق. م) بالذات، ذلك لأن النبي حزقيال (٥٩٣ - ٥٧٢ ق. م) إنما يذكر رجلاً اسمه أيوب مثالاً للبر، مع نوح ودانيال[2]، وأن ذهب البعض إلى أن حزقيال لم يستق الفكرة من سفر أيوب في وضعه الحالي، ولعل صورة من القصة النثرية كانت في ذهن النبي عن رجل خرج مبرراً من أقسى تجربة، وأمر محنة جازها إنسان[3]، وأما الجزء الشعري من السفر، فيرجع إلى تاريخ متأخر، ذلك لأن الإيمان بإله واحد ثابت فيه بوضوح، فضلاً عن محاولته الجادة تبرئة نفسه من خطيئة عبادة الشمس والقمر، ووصفه لله القدير بأنه أعلى من في السموات، وأعمق من الهاوية، وأعرض من البحر، ولم يذكر شيئاً عن «البعل» وغيره من الآلهة الوثنية التي عبدتها الشعوب قبل السبي البابلي[4]، وأخيراً فهناك وجه رابع للنظر يذهب إلى أن سفر أيوب إنما كتب بعد السبي البابلي بسبب الصراع الواضح فيه بشأن الثواب والعقاب[5].

وأما لغة سفر أيوب ففيها تأثيرات أرامية وعربية لا تخطئها العين[6]، وربما تشير ألى تاريخ متأخر لكتابة السفر[7]، ومن ثم فقد ذهب البعض إلى

---

(١) قارن: أيوب ١٥/ ٨، ٢٦/ ١ - ١٤، بالإصحاح الثامن من سفر الأمثال- (M. F. Unger, op - cit, P. 594)

(٢) حزقيال ١٤/ ١٤.

(٣) حبيب سعيد: المرجع السابق ص ١٥٣.

(٤) أيوب ٣١/ ٢٦ - ٢٨، عباس العقاد: المرجع السابق ص ١٦١، حبيب سعيد: المرجع السابق ص ١٥٣.

(٥) قاموس الكتاب المقدس ١/ ١٤٨.

(٦) D. S. Margoliouth, op - cit, P. 149F. وكذا j. A. Montgomery, op - cit, P. 8, 15.

(٧) قاموس الكتاب المقدس ١/ ١٤٨.

أنه إنما كتب حوالي عام ٤٠٠ ق. م[١]، وفضل آخرون القول بأنه كتب خلال القرون الثلاثة الأخيرة قبل الميلاد[٢].

وأياً ما كان الأمر، فإننا لا نعرف سفراً من أسفار التوراة ظفر في رأي النقاد بالإعجاب الأدبي، الذي ظفر به سفر أيوب، فقال «توماس كارليل» عنه: «إنه واحد من أجل الأشياء التي وعتها الكتابة، وإنه أقدم المأثورات عن تلك القضية التي لا تنتهي، قضية الإنسان والقدر، والأساليب الإلهية معه على هذه الأرض، ولا أحسب أن شيئاً كتب مما يضارعه في قيمته الأدبية»، وقال «فيكتور هيجو»: إنه ربما كان أعظم آية أخرجتها بصيرة الإنسان»، وقال «شاف»: إنه يرتفع كالهرم في تاريخ الأدب، بلا سابقة وبغير نظير»[٣].

(١) M. F. Unger, op - cit, P. 594.

(٢) حبيب سعيد: المرجع السابق ص ١٥٣.

(٣) عباس العقاد: المرجع السابق ص ١٦٢.

الفصل الثاني

إلياس واليسع عليهما السلام

(١) إلياس عليه السلام : -

جاء ذكر إلياس عليه السلام في القرآن الكريم في ثلاثة مواضع ، في آيـة من سورة الأنعام وفي آيتين من سورة الصافات[١] ، أولاهما ذكر فيه لفظ «إلياس» ، وفي الثانية ذكر لفظ إلياسين قال تعالى : ﴿ **سلام على إلياسين** ﴾، قال ابن كثير: أي إلياس ، والعرب تلحق النون في أسماء كثيرة ، وتبدلها من غيرها ، كما يقال إسماعيل وإسماعين وإسرائيل وإسرائين ، وإلياس وإلياسين ، وهي لغة بني أسد[٢] ، ويقول صاحب الظلال: ونقف هنا لنلم بالناحية الفنية في الآية : ﴿ **سلام على إلياسين** ﴾، وقد روعيت الفاصلة وإيقاعها الموسيقي في إرجاع اسم إلياس بصيغة «إلياسين» على طريق القرآن في ملاحظة تناسق الإيقاع في التعبير[٣] .

هذا وقد ذهب فريق من علماء السلف إلى أن إلياس هو إدريس عليه السلام ، قال قتادة وابن إسحاق يقال : إلياس هو أدريس ، وكذا قال عكرمة ، وروى ابن أبي حاتم بسنده عن عبد الله بن مسعود قال : إلياس هو إدريس ،

---

(١) سورة الأنعام: آية ٨٥، الصافات : آية ١٢٣ - ١٣٢ .

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية ١/ ٣٣٩، التفسير ٤/ ٣١.

(٣) في ظلال القرمان ٥/ ٢٩٩٨ .

وكذا قال الضحاك، على أن هناك فريقاً آخر، وهو أكثر المفسرين، يذهب إلى أن إلياس إنما هو نبيّ من أنبياءِ بني إسرائيل، وهو إلياس بن ياسين من ولد هارون أخي موسى عليه السلام، وأن الله تعالى بعثه في بني إسرائيل بعد حزقيل، عليهما السلام، وكانوا قد عبدوا صنماً يقال له «بعل» فدعاهم إلى الله تعالى، ونهاهم عن عبادة ما سواه[1].

ولعلنا نستطيع القول، ولكن بحذر[2]، إن إلياس النبي عليه السلام الذي جاء ذكره في القرآن الكريم، إنما هو «إيليا» (وهو صيغة مختصرة من إلياهو بمعنى الله يهوه) الذي جاء ذكره في العهد القديم، معتمدين في ذلك على قصة هذا النبي الكريم، كما جاءت في التوراة والقرآن العظيم، فقصة التوراة تشير إلى عبادة «بعل» في إسرائيل على أيام الملك «أخاب» (٨٦٩ - ٨٥٠ ق. م) وزوجه «إيزابيل» الصورية، ثم معارضة إيليا العنيفة لهذه الوثنية الصورية ودعوته إلى عبادة الله (يهوه) رب إسرائيل[3]، وأما في القرآن الكريم، فقد ذكر إلياس عليه السلام في سورة الأنعام حيث يقول تعالى: **﴿وزكريا ويحي وعيسى وإلياس كل من الصالحين﴾**[4]، وفي سورة الصافات، حيث يقول تعالى: **﴿وإن إلياس لمن المرسلين، إذ قال لقومه ألا تتقون، أتدعون بعلاً وتذرون أحسن الخالقين، الله ربكم ورب آبائكم الأولين، فكذبوه فإنهم لمحضرون إلا عباد الله المخلصين، وتركنا عليه في**

---

(١) تفسير النسفي ٤/ ٢٧، تفسير ابن كثير ٤/ ٣٠، تفسير الطبري ٢٣/ ٩١ - ٩٢، تفسير الفخر الرازي ٢٦/ ١٦١.

(٢) الأرجح، فيما يرى صاحب الظلال (٥/ ٢٩٩٧) أنه النبي المعروف في العهد القديم باسم إيلياء.

(٣) ملوك أول ١٦/ ٢٩ - ٣٣.

(٤) سورة الأنعام: آية ٨٥، وانظر: تفسير المنار ٧/ ٤٨٧ - ٤٩٠، تفسير الطبري ١١/ ٥٠٨ - ٥١٠، تفسير ابن كثير ٢/ ٢٤٧ - ٢٤٨.

الأولين، سلام على إل ياسين، إنا كذلك نجزي المحسنين، إنه من عبادنا المؤمنين﴾[1] .

هذا وقد اختلف المفسرون في قوله تعالى: **﴿سلام على إل ياسين﴾**، فقال بعضهم: هو اسم إلياس، وأنه كان يسمى باسمين: إلياس وإلياسين، مثل إبراهيم وأبراهام، ويستشهد على ذلك أن ذلك كذلك بأن جميع ما في السورة من قوله «سلام»، فإنه سلام على النبي الذي ذكر دون آلة، فكذلك إلياسين إنما هو سلام على إلياس دون آلة، أو كما ذكرنا من قبل أنه إلياس بن ياسين، فكان إلياس آل ياسين، على أن هناك وجهاً آخر للنظر يذهب إلى أن المراد «آل سيدنا محمد ﷺ»، فقد قرأ عامة قراء المدينة «سلام على آل ياسين» بقطع آل من ياسين، فكان بعضهم يتأول ذلك بمعنى سلام على مال محمد ﷺ، بينما ذهب فريق ثالث أن ياسين اسم القرآن، كأنه قيل سلام الله على من آمن بكتاب الله الذي هو ياسين[2] .

هذا ويقدم العهد القديم قصة النبي الكريم في سفر الملوك الأول، فيروي أن «أخاب بن عمري» ملك إسرائيل، قد اقترف كل أنواع الشرور، التي اقترفها أسلافه من قبل، ولعل السبب في ذلك أن أخاب كان قد تزوج من «إيزابيل» بنت «إيثبعل» ملك صور، والتي كانت ذات شخصية قوية، ومن ثم فقد استطاعت أن تسيطر على زوجها تماماً، وقد أثار هذا الزواج

---

(١) سورة الصافات: آية ١٢٣ - ١٣٢، وانظر: تفسير البيضاوي ٢/ ٢٩٩، تفسير النسفي ٤/ ٢٧ - ٢٨، تفسير روح المعاني ٢٣/ ١٣٨ - ١٤٢، تفسير ابن كثير ٤/ ٣٠ - ٣٢، تفسير القرطبي ص ٥٥٥١ - ٥٥٥٤، تفسير الطبري ٢٣/ ٩١ - ٩٦، تفسير الفخر الرازي ٢٦/ ١٦٠ - ١٦٢، تفسير الجلالين ص ٣٩٨، تفسير القاسمي ١٤/ ٥٠٥٩ - ٥٠٦١، تفسير مجمع البيان ٢٣/ ٨٠ - ٨٢، (وانظر: الثعلبي: قصص الأنبياء المسمى عرائس المجالس ص ٢٢٣ - ٢٢٩، أبو الحسن علي الماوردي: أعلام النبوة - القاهرة ١٩٧١ ص ٥٢).

(٢) تفسير الطبري ٢٣/ ٩٥ - ٩٦، تفسير ابن كثير ٤/ ٣١، تفسير الفخر الرازي ٢٦/ ١٦٢.

معارضة قوية في إسرائيل، تزعمهـا النبـي إيليا، ذلك لأن «إيزابيل»[1] الصورية لم تأت في الواقع لإسرائيل بأفكار الحكم المطلق الغريبة عن التصور العبري التقليدي عن الملكية فحسب، وإنما حاولت كذلك أحلال آلهة الفينيقيين الوثنية شيئاً فشيئاً محل عبادة الله في مملكة إسرائيل، وليس هناك من ريب في أن إيزابيل وحاشيتها الصورية كانوا يمارسون ديانتهم

(۱) ليس صحيحاً ما ذهبت إليه بعض المراجع العربية من أن هذه الملكة الصورية إيزابيل (أربيل كما يدعونها) ابنة ملك سبأ، وأنها تزوجت بعد أخاب (لاجب أو آجب كما يدعونه) سبعة من ملوك إسرائيل وقتلهم بالاغتيال، وأنها ولدت سبعين ولدا، وكانت معمرة، وأنها هي التي قتلت يحي عليه السلام (الماوردي: أعلام النبوة ص ٥٢، الثعلبي: قصص الأنبياء ص ٢٢٤)، وربما اختلط الأمر عليهم بين هذه الملكة إيزابيل الصورية، وبين ابنتها «عثليا» التي تزوجت من «يهورام» (٨٤٩-٨٤٢ ق. م) ملك يهوذا، وقد سيطرت على زوجها كأمها، وأدخلت عبادة «البعل» في يهوذا، كما جعلت القتل وسيلة من وسائل سياسة الدولة، وهكذا نتيجة لتأثيرها القوي وغير المحدود على زوجها، فإنه لم يحتضن عبادة «بعل» مدينة صور فحسب، بل إنه عقد العزم كذلك على تثبيتها كديانة رسمية للبلاد، وربما لكي يزيل المعارضة عن هدفه في سياسة عبادة الأوثان، فقد قتل إخوته الستة، كما قتل كثيرا من النبلاء، وإن كان التنافس على العرش ربما لعب دوره في هذه المجزرة المروعة، وعلى أية حال، فلقد خلفه ولده أخزيا من عثليا ابنة إيزابيل وأخاب، ولكنه قتل بعد عام، فانتهزت عثليا الفرصة، وكانت شديدة الرغبة في الحكم، فقتلت أبناء الأسرة المالكة جميعاً (إلا طفلاً خبأه الكاهن الأكبر في المعبد) ثم أعلنت عبادة بعل صور كعبادة رسمية في العاصمة القدس وفي جميع أنحاء البلاد، بل إن هناك من يذهب إلى أنها كانت تخطط لإقامة أسرة ملكية جديدة في القدس من وطنها صور، رغم أنها صورية الأم، إسرائيلية الأب، غير أن حياتها انتهت فجأة، أما بمؤامرة من الجيش أو بتمرد شعبي عام ضد عبادة البعل، الذي سادت عبادته في دويلتي إسرائيل ويهوذا، وإن اعتبرت عبادته في يهوذا عبادة رسمية تعتنقها الدولة نفسها، وأما قتلها ليحي عليه السلام فغير صحيح، لأن عهودها يسبق عهد يحي بما يقرب من ثمانية قرون ونصف القرن، كما أن الذي قتل يحي عليه السلام أنما هو هيرودوس إرضاء لهيروديا وابنتها سالومي، كما سنرى فيما بعد (ملوك ثان ٨/ ٨-٢٢، ١١/ ١، أخبار أيام ثان ٢١/ ١-١٠، ٢٢/ ١٠، إنجيل متي ١٤/ ٣-١٢، مرقس ٦/ ١٦-٣٠، تاريخ يوسفيوس ص ٢١٤، محمد بيومي مهران: إسرائيل ٢/ ٩١٦، ٩٦٠-٦٩٤، وكذا- A. Lods, op - cit, P. 384-385 وكذا C. Roth, op - cit, P. 32. وكذا I. Epstein; op - cit, P. 47.

الصورية الوثنية في معبد أنشيء في «السامرة»[1] نفسها من أجل هذا الغرض[2].

وعلى أي حال، فلم تكن هذه الديانات هي عبادة الدولة الرسمية، فقد ظلت عبادة الله هي العبادة الرسمية، وإن كان الملك نفسه، فيما تروي التوراة، قد عبد «البعل» وسجد له[3]، كما أن وجود هذه الديانة الأجنبية وعبادتها في العاصمة السامرة، قد أثار مقاومة التقاليد القديمة الصارمة للقبائل الإسرائيلية التي كانت تعتبر خدمة «يهوه» هو هدفها النهائي[4]، وقد تزعم النبي «إيليا» الثورة ضد أخاب وزوجه إيزابيل اللذين جهدا لإلغاء عبادة الله، وأحلال عبادة البعل في مكانها، فهدما مذابح رب إسرائيل وقتلا أنبياءه، ومن ثم فقد اندفع إيليا في طول البلاد وعرضها كالإعصار مهدداً متوعداً بأنه لا ظل ولا مطر في هذه السنين، وفي السنة الثالثة يقول الرب لإيليا «إذهب وتراء لأخاب فأعطي مطراً على وجه الأرض»[5].

ومع أن المجاعة كانت شديدة في كل مكان، إلا أنها كانت في السامرة أشد قسوة، وأعنف ضراوة، ويطلب النبي إيليا من أخاب أن يدعو كل

(١) حكم عمري والد أخاب إسرائيل من «ترزة» ولكنه في عام حكمه السادس (حوالي عام ٨٧٠ ق. م) أقام عاصمة إسرائيل الجديدة في «السامرة»، وهي سبسطية الحالية على مبعدة ستة أميال شمال غرب شكيم شرقي نابلس، في موقع استراتيجي هام، وقد سميت السامرة نسبة الى شامر صاحب التل الذي أقيمت فوقه، وإن رأى البعض أن الاسم بمعنى مركز المراقبة أو جبل المراقبة وقد قامت عدة هيئات علمية بحفريات في السامرة، لعل أهمها ما كان في أعوام ١٩٠٨/ ١٩١٠، ١٩٣١/ ١٩٣٣، ١٩٣٥ (أنظر التفصيلات والمراجع: محمد بيومي مهران: إسرائيل ٢/ ٩٠٠-٩٠٢).

(٢) ج. كونتنو: الحضارة الفينيقية ص ٧٤، وانظر تفسير الطبري ٢٣/ ٩٢-٩٣.

(٣) ملوك أول ١٦/ ٣١.

(٤) M. Noth, op - cit, P. 242.

(٥) ملوك أول ١٧/ ١-١٩/ ٢١، إنجيل لوقا ٤/ ٢٥-٢٦، رسالة يعقوب ٥/ ١٧.

إسرائيل إلى جبل الكرمل، حيث يلتقي هناك سدنة البعل، وعددهم ٤٥٠ سادناً، وكذا سدنة السواري[1] الذين يعيشون على مائدة إيزابيل، عددهم ٤٠٠ سادناً، وأصدر أخاب أمره الملكي باستدعاء «جميع بني إسرائيل وجميع الأنبياء إلى الكرمل»، وطلب منهم إيليا أن يدعو بعولهم وأصنامهم أن تنزل عليهم المطر، فإن استجابت، فهم على حق، وإن لم تستجب، فهم على باطل، فدعوا فلم تستجب لهم، ودعا إيليا ربه فاستجاب له، وأرسل الله المطر فأغاثهم، فحييت بلادهم وفرج عنهم ما كانوا فيه من البلاء، ثم أمر إيليا القوم أن «امسكوا أنبياء البعل، ولا يفلت منهم رجل، فأمسكوهم فنزل بهم أيليا إلى نهر «ميشون» (نهر المقطع في وسط سهل مرج ابن عامر) وذبحهم»، وتسمع إيزابيل بما حدث، وفي غضب مرير تنذر قتل إيليا، (انتقاماً منه لقتله كهنة البعل، ولكن إيليا يترك إسرائيل إلى جبل حوريب، بعد أن يعهد إلى حواريه «اليسع» الذي يتولى الدعوة من بعده[2].

هذا وقد اختلفت المصادر العربية في عبادة البعل[3] ومكانها، قال ابن

---

(١) انظر عن السواري وأهميتها الدينية في إسرائيل (محمد بيومي مهران: إسرائيل ٤/ ١٢٣ - ١٢٤).

(٢) ملوك أول ١٨/ ١ - ١٩/ ١٧، وانظر: تاريخ الطبري ١/ ٤٦٢ - ٤٦٤ (بيروت ١٩٨٤).

(٣) البعل: وجمعه بعليم أو بعاليم، وهو اسم سامي بمعنى، «سيد أو رب أو زوج»، وقد جرى بعض الباحثين على اعتبار «بعل» إلهاً وثنياً معيناً، وهذا فيما يرى كونتنو، خلط يحسن أن يزول، فإن اللفظ يطلق على الآلهة الوثنية بوجه عام، فيما عدا إطلاقه في نصوص رأس الشمرا على الإله الوثني الأكبر «بعل»، فيقال، فيما عدا ذلك، بعل هذا الإقليم أو ذاك مثل بعل صور، وبعل لبنان، بمعنى سيد صور وسيد لبنان، وبما أنه كان لأغلب المدن الفينيقية بعولة يقدسونها، فكل بعل يوصف في الغالب باسم المكان الذي يعبد فيه، مثل «بعل روش» (سيد الرأس) وبعل آسافون (سيد الشمال) وبعل شمين (سيد السماوات)، وبعل لبنان (سيد لبنان)، كما كان الاسم من أسمائه يبتدىء غالباً ببعل وينتهي باسم تلك البلاد أو المدينة الموجود فيها أو بشيء ينسب إليه، مثل بعل فعور، وبعل زبوب، وبعلبك، وكان بعل إلهاً وثنياً كنعانياً فينيقياً، وهو، في عقيدة القوم، ابن الإله إيل، وزوج الآلهة بعلة أو عشيرة أو عنات =

عباس ومجاهد وعكرمة وقتادة والسدي: بعلاً يعني رباً، قال عكرمة وقتادة: وهي لغة أهل اليمن، وفي رواية عن قتدة هي لغة أزد شنوءة، وقال عبد الرحمن بن يزيد بن أسلم عن أبيه هو اسم صنم كان يعبده أهل مدينة يقال لها بعلبك غربي دمشق، وقال الضحاك هو اسم صنم كانوا يعبدونه، وفي تفسير النسفي: بعل اسم صنم من الذهب كان موضعه يقال له «بك» فركب وصار «بعلبك» وهي من بلاد الشام، وقال الرازي في التفسير الكبير: في بعل قولان، أحدهما: أنه اسم علم لصنم كان لهم كمناة وهبل، وقيل كان من ذهب، وكان طوله عشرين ذراعاً، وله أربعة أوجه، وفتنوا به وعظموه، حتى عينوا له أربعمائة سادن وجعلوهم أنبياء، وباسم هذا الصنم سميت مدينتهم بعلبك، وثانيهما: أن البعل هو الرب بلغة اليمن، يقال: مَنْ بعل هذه الدار، أي من ربها، وسمي الزوج بعلاً لهذا المعنى، قال تعالى: **﴿وبعولتهن أحق بردهن﴾**، وقال تعالى: **﴿وهذا بعلي شيخا﴾** فعلى هذا التقدير المعنى: أتعبدون بعض البعول وتتركون عبادة الله؟ وقال صاحب الظلال إن إلياس أرسل إلى قوم في سورية كانوا يعبدون صنماً كانوا يسمونه بعلاً، وما تزال آثار مدينة بعلبك تدل على آثار هذه العبادة[1].

= أو عشتارت، وكان إله المزارع ورب الخصب في الحقول والمواشي، كما كان يتولى أمر القمم العالية والعواصف والرعد والمطر، ويصور على هيئة محارب ذي خوذة ممسك بيده صاعقة أمور، مما يجعل هويته نفس هوية الإله الكبير المعروف في سورية العليا ولدى الحيثيين والحوريين أيضاً، وهو على الجملة إله أسيوي، وقد أولع أهل المشرق بعبادة البعل فكان يضحون بالذبائح البشرية على مذابحه، ويقيمون هياكله على الأماكن المرتفعة كالجبال والتلال، وقد صار البعل بعد ذلك عثرة للإسرائيليين الذين كسروا شريعة الله تعالى حين أدخلوا عبادته إلى بلادهم، كما كان للبعل كهنة كثيرون يخدعون الناس بسحرهم وشعوذتهم، كما رأينا في قصة إيليا، كما روتها توراة اليهود (كونتنو: الحضارة الفينيقية ص ١٠٤، ١١٩ - ١٢٠، قاموس الكتاب المقدس ١/ ١٨١ - ١٨٢).

(١) تفسير الفخر الرازي ٢٦/ ١٦١، تفسير النسفي ٤/ ٢٨، تفسير ابن كثير ٤/ ٣١، في ظلال القرآن ٥/ ٢٩٩٧.

وقال ابن إسحاق: سمعت بعض أهل العلم يقول: ما كان بعل إلا امرأة يعبدونها من دون الله، يقول الله لمحمد: ﴿وإن إلياس لمن المرسلين﴾ - إلى قوله: ﴿الله ربكم ورب آبائكم الأولين﴾، فجعل إلياس يدعوهم إلى الله، وجعلوا لا يسمعون منه شيئاً، ألا ما كان من ذلك الملك، والملوك متفرقة بالشام، كل ملك له ناحية منها يأكلها، فقال ذلك الملك الذي كان إلياس معه يقوّم له أمره، ويراه على هدى من بين أصحابه، يوماً يا إلياس: والله ما أرى ما تدعو إليه إلا باطلاً، والله ما أرى فلاناً وفلاناً، يعدّد ملوكاً من ملوك بني إسرائيل قد عبدوا الأوثان من دون الله، إلا على مثل ما نحن عليه، يأكلون ويشربون وينعمون مملكين، ما ينقص دنياهم أمرهم الذي تزعم أنه باطل، وما نرى لنا عليهم من فضل، فيزعمون والله أعلم، أن إلياس استرجع وقام شعر رأسه وجلده، ثم رفضه وخرج عنه، ففعل ذلك الملك فعل أصحابه: عبد الأصنام، وصنع ما يصنعون، فقال إلياس: اللهم إن بني إسرائيل قد أبوا إلا أن يكفروا بك، والعبادة لغيرك فغيّر ما بهم من نعمتك»، قال (أي ابن أسحاق) فذكر لي أنه أوحى إليه: إنا قد جعلنا أمر أرزاقهم بيدك وإليك، حتى تكون أنت الذي تأذن في ذلك، فقال إلياس: اللهم فامسك عليهم المطر، فحبس عنهم ثلاث سنين، حتى هلكت الماشية والهوام والدواب والشجر وجهد الناس جهداً شديداً، وفي رواية عن وهب ابن منبه: أنهم سألوه أن يكشف ذلك عنهم ووعدوه الإيمان، أن هم أصابهم المطر، فدعا الله تعالى لهم فجاءهم الغيث، فاستمروا على أخبث ما كانوا عليه من الكفر فسأل الله أن يقبضه إليه، وكان قد نشأ على يديه «اليسع بن أخطوب» عليهما السلام، فأمر إلياس أن يذهب إلى مكان كذا وكذا، فمهما جاءه فليركبه ولا يهبه، فجاءته فرس من نار، فركب وألبسه الله تعالى النور وكساه الريش، وكان يطير مع الملائكة إنسياً سماوياً أرضياً، وفي تفسير النسفي: قيل في إلياس والخضر إنهما حيان، وقيل إلياس وكل بالفيافي،

كما وكل الخضر بالبحار، والحسن يقول: قد هلك إلياس والخضر، ولا تقول كما يقول الناس: أنهما حيان[1].

وأما متى كان عصر إلياس عليه السلام، فالثابت من نصوص العهد القديم، وبعض المصادر العربية، فضلاً عن المؤرخين المحدثين، أن إلياس إنما أرسل إلى بني إسرائيل على أيام الملك أخاب بن عمري، ملك إسرائيل في الفترة (٨٦٩ - ٨٥٠ ق. م)[2]، أي أن إلياس عليه السلام كان يعيش في القرن التاسع قبل الميلاد، وربما في النصف الأول من هذا القرن التاسع ق. م.

(٢) اليسع عليه السلام: -

أوجز القرآن الكريم عن حياته عليه السلام فلم يذكر عنها شيئاً، واكتفى بذكره بين مجموعة الأنبياء الكرام البررة الذين يجب الإيمان بهم أجمالاً، وذلك في سورتي الأنعام و ص، يقول الله تعالى: **﴿وإسماعيل واليسع ويونس ولوطاً وكلا فضلنا على العالمين﴾**، ويقول تعالى: **﴿واذكر إسماعيل واليسع وذا الكفل وكل من الأخيار﴾**[3].

واليسع، في روايات العهد القديم، هو «اليشع بن شافاط»[4]، وفي

---

(١) تفسير الطبري ٢٣/ ٩٣ - ٩٤، تفسير ابن كثير ٤/ ٣١، تاريخ الطبري ١/ ٤٦٣ - ٤٦٤، تفسير النسفي ١/ ٢٨.

(٢) أنظر عن عهد أخاب (محمد بيومي مهران: إسرائيل ٢/ ٩٠٣ - ٩١٣).

(٣) سورة الأنعام: آية ٨٦، سورة ص: آية ٤٨، وانظر: تفسير الطبري ١١/ ٥١٠ - ٥١٢، ٢٣/ ١٧٢ - ١٧٣، تفسير الفخر الرازي ١٣/ ٦٤ - ٦٥، ٢٦/ ٢١٦ - ٢١٧، تفسير روح المعاني ٧/ ٢١٨ - ٢١٩، ٢٣/ ٢١١ - ٢١٢، تفسير ابن كثير ٢/ ٢٤٧ - ٢٤٨، ٤/ ٦٢، تفسير الكشاف ٢/ ٣٤، تفسير البيضاوي ٢/ ٣١٢، تفسير المنار ٧/ ٤٨٧ - ٤٩١ تفسير القرطبي ص ٢٤٦٧ - ٢٤٦٩، ٥٦٦٢ - ٥٦٦٣، تفسير أبي السعود ٢/ ٢٤٥.

(٤) ملوك أول ١٩/ ١٦.

المصادر العربية ، هو «اليسع بن أخطوب» من سبط أفرايم ، وقيل ابن عم إلياس ، وقال ابن عساكر : اسمه أسباط بن عدي بن شوليم بن أفرايم[1] ، وفي تفسير الطبري : أن إلياس عندما دعا على بني أسرائيل ، فحبس المطر عنهم ثلاث سنين حتى هلكت الماشية والهوام والدواب والشجر وجهد الناس جهداً شديداً ، استخفى إلياس عن الناس شفقة على نفسه منهم ، ثم إنه آوى ليلة إلى امرأة من بني إسرائيل لها ابن يقال له «اليسع بن أخطوب» ، به ضرّ ، فآوته وأخفت أمره ، فدعا إلياس لابنها فعوفي من الضرّ الذي كان به ، واتبع اليسع إلياس ، فآمن به وصدقه ولزمه ، فكان يذهب معه حيثما ذهب[2] .

ويذهب بعض المفسرين إلى أن «اليسع» معرب الإسم العبراني «يوشع» فهو اسم أعجمي دخلت عليه لام التعريف ، على خلاف القياس ، بينما ذهب آخرون إلى أنه اسم عربي منقول من «يسع» مضارع «وسع» ، وأنه من ولد إسماعيل عليه السلام ، ويذهب صاحب تفسير المنار إلى أنه تعريب «اليشع» ، وهو أحد «أنبياء بني إسرائيل وكان خليفة إلياس (إيليا) ومن المعهود في نقل الإسم العبري إلى العربي إبدال الشين المعجمة بالمهملة[3] ، وهذا ما نميل إليه ونرجحه ، روى عن وهبه بن منبه أن الله قبض حزقيل وعظمت في بني إسرائيل الأحداث ، ونسوا ما كان من عهد الله إليهم ، حتى نصبوا الأوثان وعبدوها دون الله ، فبعث الله إليهم إلياس من ولدها هارون نبياً وإنما كانت الأنبياء من بني إسرائيل بعد موسى يبعثون إليهم بتجديد ما نسوا من التوراة ، فكان إلياس مع ملك من ملوك بني إسرائيل يقال

---

(١) تاريخ ابن خلدون ٢/ ١٢٩ - ١٣٠ .

(٢) تفسير الطبري ٢٣/ ٩٣.

(٣) تفسير المنار ٧/ ٤٩٠ - ٤٩١ (القاهرة ١٩٧٤) ، تفسير القرطبي ص ٢٤٦٨ - ٢٤٦٩ (القاهرة ١٩٧٠) .

له «أحاب» كان اسم امرأته «أربل»، وكان يسمع منه ويصدقه، وكان إلياس يقيم له أمره، وكان سائر بني إسرائيل قد اتخذوا صنماً يعبدونه من دون الله يقال له «بعل»[1].

وقد جاءت قصة اليسع (اليشع) مفصلة في سفر الملوك الثاني (٢ - ٩) من العهد القديم، وعاش على أيام ملك إسرائيل «يهورام» (٨٤٩-٨٤٢ ق. م) آخر ملوك أسرة عمري، ونقرأ في سفر الملوك الأول أن الرب أمر إيليا أن «امسح اليشع بن شافاط من آبل محوله، نبياً عوضاً عنك»، فذهب إليا ووجد اليشع «يحرث واثنا عشر فدان بقر قدامه وهو مع الثاني عشر، فمر إيليا وطرح رداءه عليه، فترك البقر وركض وراء إيليا وقال: دعني أقبل أبي وأمي وأسير وراءك، فقال له اذهب راجعاً لأني ماذا فعلت لك، فرجع من ورائه وأخذ فدان بقر وذبحهما وسلق اللحم بأدوات البقر، وأعطى الشعب فأكلوا، ثم قام ومضى وراء إيليا وكان يخدمه»[2]، ثم تولى الدعوة إلى الله تعالى بعد إلياس كما سار على نهجه وشريعته.

(١) تفسير الطبري ٢٣/ ٩٢-٩٣، تاريخ الطبري ١/ ٤٦١.

(٢) ملوك أول ١٩/ ١٦، ١٩ - ٢١.

الفصل الثالث

زكريا ويحيى عليهما السلام

جـاء ذكر زكريا وولـده يحيى عليهما السـلام في عدة سور من القرآن الكريم، منها ما جاء في سورة آل عمران في قوله تعالى: **﴿ هنالك دعا زكريا ربه قال رب هب لي من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء، فنادته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب أن الله يبشرك بيحي مصدقاً بكلمة من الله وسيداً وحصوراً ونبيّاً من الصالحين، قال رب أني يكون لي غلام وقد بلغني الكبر وامرأتي عاقر، قال كذلك الله يفعل ما يشاء، قال رب اجعل لي آية قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزاً واذكر ربك كثيراً وسبح بالعشي والإبكار﴾**[1]، وفي قوله تعالى في سورة مريم: **﴿ ذكر رحمة ربك عبده زكريا، أذ نادى ربه نداء خفيا، قال رب إني وهن العظم مني واشتعل الرأس شيبا ولم أكن بدعائك رب شقيا، وإني خفت الموالي من ورائي وكانت امرأتي عاقراً فهب لي من لدنك وليا، يرثني ويرث من آل يعقوب واجعله رب رضياً، يا زكريا إنا نبشرك بغلام اسمه يحي لم نجعل له من قبل سمياً، قال رب**

(١) سورة آل عمران: آية ٣٧ ـ ٤١، وانظر: تفسير النسفي ١/ ١٥٥ ـ ١٥٧، تفسير روح المعاني ٣/ ١٣٩ ـ ١٥٤، تفسير الطبري ٣/ ٢٤٣ ـ ٢٦٢، في ظلال القرآن ١/ ٣٩٣ ـ ٣٩٦، تفسير الفخر الرازي ٨/ ٢٩ ـ ٤٢، تفسير ابن كثير ١/ ٥٣٩ ـ ٥٤٢، البداية والنهاية ٢/ ٤٧ ـ ٥٥، صفوة التفاسير ١/ ١٩٩ ـ ٢٠١، تفسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ١/ ١٨١ ـ ١٨٢، تفسير القرطبي ص ١٣١٤ ـ ١٣٢٤.

أني يكون لي غلام وكانت امرأتي عاقراً وقد بلغت من الكبر عتياً، قال كذلك قال ربك هو على هيْن وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئاً، قال رب اجعل لي آية قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاث ليال سويا، فخرج على قومه من المحراب فأوحى إليهم أن سبحوا بكرة وعشيا، يا يحي خذ الكتاب بقوة وآتيناه الحكم صبيا، وحناناً من لدنا وزكاة وكان تقياً، وبراً بوالديه ولم يكن جباراً عصياً وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حياً﴾[1] ، كما جاء ذكرهما في سورتي الأنعام (آية ٨٥) والأنبياء (الآيات ٨٩ ـ ٩٠).

ولعل مما تجدر الإشارة إليه أن هناك بين القصة، كما جاءت في سورتي آل عمران ومريم، بعض المقابلات، منها (أولاً) أن الله تعالى بيّن في سورة مريم أن زكريا دعا ربه ولم يبين الوقت، بينما بيّنه في آل عمران بقوله تعالى: **﴿كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقاً قال يا مريم أنّي لك هذا قالت هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب، هنالك دعا زكريا ربه قال رب هب لي من لدنك ذرية طيبة﴾**، والمعنى أن زكريا لما رأى خرق العادة في حق مريم طمع فيه في حق نفسه فدعا، ومنها (ثانياً) أن الله تعالى صرح في آل عمران بأن المنادى هو الملائكة لقوله تعالى: **﴿فنادته الملائكة وهو قائم يصلي في الحراب﴾**، وفي سورة مريم الأظهر أن المنادى بقوله تعالى: **﴿يا زكريا إنا نبشرك﴾** هو الله تعالى، ولا منافاة بين الأمرين، ومنها (ثالثاً) أنه قال في آل عمران: **﴿أني يكون لي غلام وقد بلغني الكبر وامرأتي عاقر﴾**، فذكر أولاً كبر نفسه، ثم عقر المرأة، وفي سورة مريم قال: **﴿أني يكون لي غلام وكانت امرأتي عاقراً وقد بلغت من الكبر عتياً﴾**، وجوابه أن الواو لا تقتضي الترتيب، ومنها (رابعاً) قال

---

(١) سورة مريم: اية ٢ ـ ١٥، تفسير روح المعاني ١٦/ ٥٨ ـ ٧٤، تفسير الطبري ١٦/ ٤٥ ـ ٥٩، في ظلال القرآن ٤/ ٢٣٠١ ـ ٢٣٠٤، تفسير الفخر الرازي ٢١/ ١٧٩ ـ ١٩٤، تفسير النسفي ٣/ ٢٨ ـ ٣٠، تفسير ابن كثير ٣/ ١٧٩ ـ ١٨٥.

تعالى في آل عمران: ﴿ آيتك أن لا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزاً ﴾، وفي مريم: ﴿ ثلاث ليال سويا ﴾، وقد دلت الآيتان أن المراد ثلاثة أيام بلياليهن[1].

هذا وقد كان زكريا قد كفل مريم أم المسيح عليهم السلام، بعد وفاة أبيها عمران، فقد كان زوجها لخالتها، أو أختها، على الأرجح، كما سنرى إن شاء الله فيما بعد عند الحديث عن مريم البتول، واتخذ لها محراباً[2]، وهو المكان الشريف في المسجد، لا يدخله عليها أحد سواه، وقد شاء الله تعالى أن يطلعه على كرامة مريم، وجليل قدرها، فكان كلما دخل عليها المحراب وجد عندها رزقاً: ﴿ قال يا مريم أنى لك هذا قالت هو من عند الله، أن الله يرزق من يشاء بغير حساب ﴾، وكان زكريا عليه السلام قد بلغ من الكبر عتياً، وكانت امرأته عاقراً، قال ابن عباس: كان ابن عشرين ومائة سنة، وكانت امرأته بنت تسع وتسعين[3]، فلما رأى من كرامات الله تعالى

---

(١) تفسير الفخر الرازي ٢١/ ١٩٥.

(٢) المحراب: هو الموضع العالي الشريف، واحتج الأصمعي على أن المحراب هو الغرفة بقوله تعالى: ﴿ إذ تسور والمحراب ﴾، والتسور لا يكون إلا من علو، وقيل المحراب أشرف المجالس وأرفعها، قال أبو عبيدة: سيد المجالس وأشرفها ومقدمها، وكذلك هو من المسجد، بل هو المكان الشريف في المسجد أو موقف الإمام، ويقول الألوسي: إعلم أن الصلاة في المحاريب المشهورة الموجودة الآن في مساجد المسلمين قد كرهها جماعة من الأئمة، وإلى ذلك ذهب سيدنا الإمام علي كرم الله وجهه في الجنة، وإبراهيم رحمه الله، فيما أخرجه عنهما ابن أبي شيبة، وهي من البدع التي لم تكن في العصر الأول، فعن أبي موسى الجهني قال رسول الله ﷺ: «لا يزال أمتي بخير ما لم يتخذوا في مساجدهم مذابح كمذابح النصارى»، وعن عبد الله بن أبي الجعد قال: «كان أصحاب محمد ﷺ يقولون: إن من أشراط الساعة أن تتخذ المذابح في المساجد»، وعن ابن عمر قال رسول الله ﷺ: «اتقوا هذه المذابح»، يعني المحاريب، والروايات في ذلك كثيرة، وللإمام السيوطي رسالة مستقلة فيها (تفسير روح المعاني ٣/ ١٤٦، تفسير الفخر الرازي ٨/ ٣٠، تفسير البحر المحيط ٢/ ٤٣٣).

(٣) تذهب رواية أخرى إلى أن سن زكريا كان مائة، وسن زوجته تسعاً وتسعين، وقيل كان له من

لمريم، البنية الصالحة المرزوقة، طمع في فضل الله ورحمته، يقول الفخر الرازي: والجمهور الأعظم من المحققين والمفسرين أن زكريا عليه السلام رأى عند مريم من فاكهة الصيف في الشتاء، ومن فاكهة الشتاء في الصيف، فلما رأى خوارق العادات عندها طمع في أن يخرقها الله تعالى في حقه أيضاً، فيرزق الولد من الزوجة الشيخة العاقر[1]، ومن ثم فقد أخذت تحرك في نفسه، وهو الشيخ الذي لم يوهن ذرية، تلك الرغبة الفطرية القوية في النفس البشرية، الرغبة في الذرية، وفي الامتداد وفي الخلف، وتلك الرغبة التي لا تموت في نفوس العبّاد الزهاد الذين وهبوا أنفسهم للعبادة ونذروها للهيكل، إنها الفطرة التي فطر الله الناس عليها، لحكمة عليا في امتداد الحياة وارتقائها[2]، ومن ثم فإنه يتوجه إلى ربه يناجيه، ويطلب منه أن يهب له من لدنه غلاماً تقياً يرثه النبوة وهداية بني إسرائيل، ويجعله من عباده الصالحين: **﴿قال رب إني وهن العظم مني واشتعل الرأس شيباً، ولم أكن بدعائك رب شقياً، وإني خفت الموالي من ورائي وكانت امرأتي عاقراً فهب لي من لدنك ولياً، يرثني ويرث من آل يعقوب[3] واجعله رب رضيا﴾**[4].

وهكذا تشير الآيات الكريمة إلى أن زكريا يشكو إلى ربه وهن العظم،

= العمر تسع وتسعون، وقيل اثنتان وتسعون، وقيل خمس وثمانون، وقيل خمس وسبعون، وقيل سبعون، وقيل ستون (تفسير الفخر الرازي ٨/ ٣٩، ٢٢/ ٢١٧، تفسير روح المعاني ٣/ ١٤٩).

(١) تفسير الفخر الرازي ٨/ ٣٢ - ٣٣.

(٢) في ظلال القرآن ١/ ٣٩٣.

(٣) اتفق أكثر المفسرين على أن «يعقوب» هنا، هو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام، فإن زكريا من ولد هارون من نسل لاوى بن يعقوب، وكان متزوجاً من أخت مريم بنت عمران، وهي من ولد سليمان بن داود من نسل يهوذا بن يعقوب، وإن ذهب آخرون (الكلبي ومقاتل) أن يعقوب هنا، هو يعقوب بن ماثان أخو عمران والد مريم البتول، بيما ذهب فريق ثالث إلى أنه أخو زكريا نفسه (روح المعاني ١٦/ ٦٢).

(٤) سورة مريم: آية ٤ - ٦، وانظر: آل عمران: آية ٣٨ - ٤١.

وحين يهن العظم يكون الجسم كله وهن ، فالعظم هو أصلب ما فيه وهو قوامه الذي يقوم به ويجتمع عليه ، ويشكو إليه اشتعال الرأس شيباً ، والتعبير المصور يجعل الشيب كأنه نار تشتعل ، ويجعل الرأس كله كأنما تشمله هذه النار المشتعلة ، فلا يبقى في الرأس المشتعل سواد ، ووهن العظم واشتعال الرأس شيباً كلاهما كناية عن الشيخوخة وضعفها الذي يعانيه زكريا ويشكوه ألى ربه ، وهو يعرض عليه حاله ورجائه ، ثم يعقب عليه بقوله : **﴿ ولم أكن بدعائك رب شقياً﴾** معترفاً بأن الله قد عوّده أن يستجيب إليه أذا دعاه ، فلم يشق مع دعائه لربه ، وهو في فتوته وقوته ، فما أحوجه الآن في هرمه وكبرته أن يستجيب الله له ويتم نعمته عليه ، وهذا وقد جاء في بعض الآثار أن العبد إذا قال في دعائه : يا رب ، قال الله سبحانه وتعالى له : لبيك عبدي ، وروى أن موسى عليه السلام قال يوماً في دعائه : يا رب ، فقال سبحانه وتعالى له : لبيك يا موسى ، فقال موسى : أهذا لي خاصة ، فقال الله تبارك وتعالى : لا ، ولكن لكل من يدعوني بالربوبية ، وقيل إذا أراد العبد أن يستجاب له دعاؤه ، فليدع الله تعالى بما يناسبه من أسمائه وصفاته عز وجل[1] .

هذا وقد اختلف العلماء في قوله تعالى : **﴿ وإني خفت الموالي من ورائي وكانت امرأتي عاقراً فهب لي من لدنك ولياً، يرثني ويرث من آل يعقوب واجعله رب رضياً﴾[2]، فأما «الموالي»، فيما يروي عن ابن عباس ومجاهد، عصبة الرجل، وعن ابن عباس أيضاً والحسن البصري : ورثته، وعن أبي صالح : الكلالة[3]، وعن الأصم ينو العم، وهم الذين يلونه في النسب،**

(١) في ظلال القرآن ٤/ ٢٣٠٢ ، روح المعاني ١٦/ ٥٩ ـ ٦١.

(٢) سورة مريم : آية ٥ ـ ٦.

(٣) الكلالة : المراد هنا من يرثه من حواشيه ، لا أصوله ولا فروعه ، كما روى الشعبي عن أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه ، أنه سئل عن الكلالة ، فقال أقول فيها برأي ، فإن يكن صواباً فمن الله ، وإن يكن خطأ فمني ومن الشيطان ، والله ورسوله بريئان منه ، الكلالة : من لا ولد =

وعن أبي مسلم المولي يراد به الناصر، وابن العم والمالك والصاحب، وهو هنا من يقوم بميراثه مقام الولد، والمختار أن المراد من الموالي الذين يخلفون بعده، إما في السياسة أو في المال الذي كان له في القيام بأمر الدين، فقد كانت العادة جارية أن كل من كان إلى صاحب الشرع أقرب، فإنه كان متعيناً في الحياة، وعلى أي حال، فهم على سائر الأقوال شرار بني إسرائيل فخاف عليه السلام أن لا يحسنوا خلافته في أمته، وكان زكريا يخشاهم ألا يقوموا على تراثه بما يرضاه، وتراثه هو دعوته التي يقوم عليها، وهو أحد أنبياء بني إسرائيل البارزين، وأهله الذين يرعاهم، ومنهم مريم البتول التي كان قيّماً عليها وهي تخدم المحراب الذي يتولاه، وماله الذي يحسن تدبيره وإنفاقه في وجهه، وهو يخشى الموالي من ورائه على هذا التراث كله، ويخشى ألا يسيروا فيه سيرته، لأنه يعهدهم غير صالحين للقيام على ذلك التراث[1]، على أن هناك من يرى احتمال أن يكون الله تعالى قد أعلمه أنه لم يبق من أنبياء بني إسرائيل نبيّ له أب إلا واحد، فخاف أن يكون ذلك من بني عمه، إذ لم يكن له ولد، فسأل الله تعالى أن يهب له ولداً يكون هو ذلك النبي، وذلك يقتضي أن يكون خائفاً من أمر يهتم بمثله الأنبياء، وإن لم يدل على تفصيل ذلك، ولا يمتنع أن زكريا كان إليه، مع النبوة، السياسة من جهة الملك وما يتصل بالإمامة، فخاف منهم بعده على أحدهما أو عليهما، ومن أجل ذلك

= له، ولا والد، فلما ولي عمر رضي الله تعالى عنه، قال إني لأستحي أن أخالف أبا بكر في رأيه، وروى ابن أبي حاتم في تفسيره عن طاوس قال: سمعت ابن عباس يقول: كنت آخر الناس بعمر فسمعته يقول: الكلالة من لا ولد له ولا والد، وهكذا قال الإمام علي وابن مسعود، وبه يقول الشعبي والنخعي والحسن البصري وقتادة وجابر بن زيد والحكم، وبه يقول أهل المدينة والكوفة والبصرة، وهو قول الفقهاء السبعة والأئمة الأربعة وجمع السلف والخلف، وقد حكي الإجماع عليه غير واحد، وإن روى عن ابن عباس أيضاً أنه من لا ولد له، والصحيح الأول (تفسير ابن كثير ١/ ٦٩٣، تفسير الطبري ٤/ ٢٨٣ - ٢٨٩).

(١) تفسير الفخر الرازي ٢١/ ١٨٢، في ظلال القرآن ٤/ ٢٣٠٢.

دعا زكريا أن يهبه من لدنه ولياً، أي ولداً من صلبه، ويؤيده (أولاً) قوله تعالى في آل عمران حكاية عنه: ﴿قال رب هب لي من لدنك ذرية طيبة﴾، و (ثانياً) قوله تعالى في سورة مريم: ﴿هب لي من لدنك ولياً يرثني ويرث من آل يعقوب﴾، و (ثالثاً) قوله تعالى في الأنبياء: ﴿رب لا تذرني فرداً﴾، وهذا يدل على أنه سأل الولد، لأنه قد أخبر في سورة مريم أن له موالي، وأنه غير منفرد عن الورثة، وهذا، وإن أمكن حمله على وارث يصلح أن يقوم مقامه، لكن حمله على الولد أظهر[1].

وأما قوله تعالى: ﴿يرثني ويرث من آل يعقوب﴾، فقد اختلف العلماء في المراد بالميراث هنا على وجوه، أحدهما: أن المراد بالميراث في الموضوعين هو وراثة لمال، وهذا قول ابن عباس والحسن والضحاك، وثانيهما: المراد في الموضعين وراثة النبوة، وهو قول أبي صالح، وثالثها: يرثني المال[2]، ويرث من آل يعقوب النبوة، وهو قول السُّدى ومجاهد والشعبي، وروى أيضاً عن ابن عباس والحسن البصري والضحاك، وعن أبي صالح قال: يرث مالي من آل يعقوب النبوة، وفي تفسير الطبري: يرثني من بعد وفاتي مالي، ويرث من آل يعقوب النبوة، وذلك أن زكريا كان من ولد يعقوب، ورابعها: يرثني العلم ويرث من آل يعقوب النبوة، وهذا مروى عن مجاهد، وقال البيضاوي: المراد وراثة الشرع والعلم، فإن الأنبياء لا يورثون مالاً، وقال النسفي: أي هب لي ولداً وارثاً مني العلم ومن آل يعقوب النبوة، ومعنى وراثة النبوة أنه يصلح لأن يوحى إليه، ولم يرد أن نفس النبوة تّورث، كما أشرنا من قبل إلى ذلك مراراً، ويقول الفخر الرازي: أن هذه

---

(١) تفسير الفخر الرازي ٢١/ ١٨٣.

(٢) جاء في تفسير ابن كثير (١/ ١٧٩ - ١٨٠): وفي صحيح البخاري أنه كان نجاراً يأكل من عمل يده في التجارة، ومن ثم فلم يذكر أنه كان ذا مال، بل كان نجاراً يأكل من كسب يده، ومثل هذا لا يجمع مالاً، ولاسيما الأنبياء فإنهم كانوا أزهد شيء في الدنيا.

الروايات ترجع إلى أحد أمور خمسة وهي المال ومنصب الحبورة والعلم والنبوة والسيرة الحسنة، ولفظ الإرث مستعمل في كلها، أما في المال، فلقوله تعالى: ﴿أورثكم أرضهم وديارهم﴾، وأما في العلم فلقوله تعالى: ﴿ولقد آتينا موسى الهدى وأورثنا بني إسرائيل الكتاب﴾، وقال ﷺ: العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً وإنما ورثوا العلم»، وثبت في الصحيحين من غير وجه أن رسول الله ﷺ قال: «لا نورث ما تركنا صدقة»، وفي رواية عن الترمذي بإسناد صحيح: «نحن معشر الأنبياء لا نورث»، وقال تعالى: ﴿وورث سليمان داود﴾، وهذا يحتمل وراثة الملك والنبوة، وعلى أي حال، فلقد ثبت أن اللفظ محتمل لكل تلك الوجوه[1].

هذا وقد احتج من حمل اللفظ على وراثة المال بالخبر والمعقول، فأما الخبر فلقد أخرج ابن جرير في التفسير بسنده عن الحسن قال رسول الله ﷺ: رحم الله أخي زكريا، ما كان عليه من ورثة ماله حين يقول فهب لي من لدنك ولياً، يرثني ويرث من آل يعقوب»، وعن قتادة: ذكر لنا أن نبي الله ﷺ كان إذا قرأ هذه الآية، وأتى على «يرثني ويرث من آل يعقوب»، قال: رحم الله زكريا ما كان عليه من ورثته»[2]، وظاهر ذلك يدل على أن المراد إرث المال، وثانيهما: أنه قال «واجعله رب رضياً»، ولو كان المراد من الإرث إرث النبوة، لكان سأل جَعْل النبي رضياً، وهو غير جائز، لأن النبي لا يكون إلا رضياً معصوماً، وأما قوله ﷺ: «إنا معشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة»، فهذا لا يمنع أن يكون خاصاً به، وأما من حمله على العلم أو المنصب والنبوة، فقد احتج بما عُلم من حال الأنبياء أن اهتمامهم لا يشتد

(١) تفسير البيضاوي ٢/ ١٤، تفسير الفخر الرازي ٢١/ ١٨٤، تفسير النسفي ٣/ ٢٩، تفسير ابن كثير ٣/ ١٨٠.

(٢) تفسير الطبري ١٦/ ٤٨ (بيروت ١٩٨٤).

بأمر المال، كما يشتد بأمر الدين، وقيل لعله أوتي من الـدنيا ما كان عظيم النفع في الدين، فلهذا كان مهتماً به[1].

هذا وقد استدل الشيعة بالآية (يرثني ويرث من آل يعقوب) على أن الأنبياء عليهم السلام تورّث عنهم أموالهم، لأن الوراثة حقيقة في وراثة المال، ولا داعي إلى الصرف عن الحقيقة، وقد ذكر الجلال السيوطي في الدر المنثور عن ابن عباس ومجاهد وعكرمة وأبي صالح أنهم قالوا في الآية: يرثني مالي، وأخرج عبد الرازق وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن الحسن أنه ﷺ قال في الآية: «**يرحم الله تعالى أخي زكريا ما كان عليه من ورثة**»، وفي رواية: ما كان عليه ممن يرث ماله»، وقال بعضهم: إن الوراثة ظاهرة في ذلك ولا يجوز ههنا حملها على وراثة النبوة لئلا يلغوا قوله: ﴿**واجعله رب رضياً**﴾، ولا على وراثة العلم لأنه كسبي، والموروث حاصل بلا كسب، ومذهب أهل السنة أن الأنبياء عليهم السلام لا يرثون مالاً، ولا يورثون، لما صح عندهم من الأخبار[2].

وعلى أي حال، فإن زكريا، النبي الصالح، إنما يختم دعاءه: ﴿**واجعله رب رضياً**﴾، وهكذا يصور أمله في ذلك الوريث الذي يرجوه في كبرته بأن يجعله الله تعالى رضياً، لا جباراً ولا غليظاً، ولا متبطراً ولا طموعاً، ولفظة «رضى» إنما تلقي هذه الظلال، فالرضى هو الذي يَرضى ويُرضى، وينشر ظلال الرضى فيما حوله ومن حوله، يقول الطبري: واجعل يا رب الولي الذي تهبه لي مرضياً ترضاه أنت ويرضاه عبادك، ديناً وخُلقاً وخَلْقاً[3].

ويتقبل الله، سبحانه تعالى، دعاء عبده زكريا، وتحدث الاستجابة

---

(1) تفسير الفخر الرازي ٢١/ ١٨٤.

(2) تفسير روح المعاني ١٦/ ٦٤ (بيروت ١٩٧٨).

(3) في ظلال القرآن ٤/ ٢٣٠٢، تفسير الطبري ١٦/ ٤٩.

التي لا تتقيد بسن، ولا تتقيد بمألوف الناس، لأنها تنطلق من المشيئة المطلقة التي تفعل ما تريد: **﴿فنادته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب أن الله يبشرك بيحي مصدقاً بكلمة من الله وسيداً وحصوراً ونبياً من الصالحين﴾**[1]، وهكذا بشرت الملائكة زكريا عليه السلام بمولود ذكر، اسمه معروف قبل مولده (يحي)، وفي آية أخرى: **﴿يا زكريا إنا نبشرك بغلام اسمه يحي لم نجعل له من قبل سمياً﴾**[2]، وفي تعيين اسمه عليه السلام تأكيد لوعد الله تعالى لزكريا عليه السلام، وتشريف ليحي عليه السلام حيث تولى الله تعالى تسميته، ومن المعروف عادة أن كل الناس إنما يسميهم آباؤهم وأمهاتهم بعد مولدهم، وأما يحي عليه السلام فإن الله تعالى هو الذي سمّاه قبل دخوله في الوجود، فكان ذلك من خواصه، فلم يكن له مثل وشبيه في هذه الخاصية[3]، وأما قوله تعالى: **﴿لم نجعل له من قبل سمياً﴾**، فقد اختلف المفسرون فيه على وجوه، أحدهما: وهو قول ابن عباس والحسن البصري وسعيد بن جبير وعكرمة وقتادة أنه لم يسم أحد قبله بهذا الإسم، وثانيها: أن المراد بالسمى النظير، كما في قوله تعالى: **﴿هل تعلم له سمياً﴾**، أي شريكاً في الإسم، وفي تفرده بهذا الإسم ضرب من التعظيم، ومزيد تشريف وتفخيم له عليه السلام وهذا، كما قال الزمخشري، شاهد على أن الأسماء النادرة التي لا يكاد الناس يستعملونها جديرة بالإثرة، وإياها كانت العرب تنحي في التسمية، لكونها أنبه وأنوه وأنزه عن النبر، وثالثها: ما رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس، من أن العواقر لم تلد قبله مثله، وكما يقول ابن كثير

(١) سورة آل عمران: آية ٣٩.

(٢) سورة مريم: آية ٧.

(٣) تفسير الفخر الرازي ٢١/ ١٨٦، غير أننا نلاحظ أن هناك شبهاً لهذا، ذلك أن إسحاق ويعقوب والمسيح عليهم السلام، قد بُشر بهم، وسمعوا بأسمائهم قبل مولدهم (سورة آل عمران: آية ٤٥، هود: آية ٧١، الصافات: آية ١١٢)، بل إن التوراة تشير إلى أن إسماعيل قد بُشر به وأعطى اسمه قبل أن يولد (تكوين ١٦/ ١١).

وفي هذا دليل على أن زكريا عليه السلام كان لا يولد له، وكذلك امرأته كانت عاقراً من أول عمرها، بخلاف إبراهيم وسارة عليهما السلام، فإنهما إنما تعجبا من البشارة بإسحاق لكبرهما، لا لعقرهما[1] ولهذا قال: **﴿أبشرتموني على أن مسني الكبر فبم تبشرون﴾**، مع أنه كان قد ولد له من قبله إسماعيل بثلاث عشرة سنة وقالت امرأته: **﴿يا ويلتي أألد وأنا عجوز وهذا بعلي شيخاً إن هذا لشيء عجيب، قالوا أتعجبين من أمر الله، رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد﴾**[2]

وأخرج الإمام أحمد في الزهد، وابن المنذر وغيرهما عن مجاهد أن «سميا» بمعنى شبيهاً، وروى عن عطاء وابن حبير مثله أي لم نجعل له شبيهاً، حيث أنه لم يعصي ولم يهم بمعصية، فقد أخرج الإمام أحمد والترمذي في نوادر الأصول والحاكم وابن مردوية عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال: ما من أحد من ولد آدم، إلا وقد أخطأ أو همّ بخطأ، إلا يحي بن زكريا عليهما السلام، لم يهم بخطيئة ولم يعملها»، وعن ابن المسيب قال رسول الله ﷺ: «ما من أحد يلقي الله يوم القيامة إلا أذنب، إلا يحي بن زكريا»، وقال قتادة: ما أذنب، ولا همّ بامرأة، والأخبار في ذلك قنطافرة، وقيل لم يكن له شبيه لذلك[3].

هذا وقد وصف الله تعالى نبيّه يحي عليه السلام في سورة آل عمران بأربع صفات، قال تعالى: **﴿إن الله يبشرك بيحي[3] مصدقاً بكلمة من الله**

---

(١) هذا صحيح بالنسبة لسيدنا إبراهيم عليه السلام، أما السيدة سارة فقد كانت عجوز عقيم، كما أخبرنا القرآن الكريم في سورة الذاريات: آية ٢٩.

(٢) سورة هود: آية ٧٢ - ٧٣، تفسير ابن كثير ٣/ ١٨١ - ١٨٢.

(٣) روى أنه سمي «يحي» لأن الله تعالى أحيا به عقر أمه أو لأن الله تعالى أحيا قلبهالإيمان والطاعة، والله تعالى سمي المطيع حياً والعاصي ميتاً بقوله تعالى: **﴿أو من كان ميتاً فأحييناه﴾** وقال تعالى: **﴿إذا دعاكم لما يحييكم﴾**، أو لأنه يحيا بإرشاد الخلق وهدايتهم أو =

وسيداً وحصوراً ونبيّاً من الصالحين﴾[1] ، **فأما الصفة الأولى، فقد وصفه الله تعالى بأنه كان «مصدقاً بكلمة من الله»** ، والمراد بالكلمة هنا عيسى بن مريم ، أي مصدقاً بعيسى مؤمناً به ، فهو أول من آمن به ، وسمي عيسى كلمه الله لأن تكونه بكن بلا أب[2] ، ورغم أن صاحب الظلال[3] يرى أنه ليس هنـاك ما يحتم هذا الفهم (أي التصديق بعيسى) ، فإن المفسـرين يروون عن ابـن عباس أنه قال : إن يحي كان أكبر سناً من عيسى بستة أشهر ، وكان يحي أول من آمن وصدق بأنه كلمة الله وروحه ، ثم قتل يحي قبل رفع عيسى ، وأخرج الإمام أحمد عن مجاهد قال : قالت امرأة زكريا لمريم ، إني أجد الذي في بطني يتحرك للذي في بطنك ، وأخرج ابن جرير من طريق ابن جريج عن ابن عباس قال : كان يحي وعيسى ابنى خالة ، وكانت أم يحي تقول لمريم إني أجد الذي في بطني يسجد للذي في بطنك» ، فذلك تصديقه له ، وكان أكبر من عيسى بستة أشهر ، وقيل بثلاث سنين[4] ، وفي تفسير ابن كثير[5] : روى العوفي وغيره عن ابن عباس ، كما قال الحسن وقتادة وعكرمة ومجاهد وأبو الشعثاء والسدي والربيع بن أنس والضحاك وغيره في هذه الآية : **﴿مصدقاً بكلمة من الله﴾** أي بعيسى بن مريم ، وقال الربيع هو أول من صدق بعيسى بن مريم ، وقال قتادة : وعلى سنته ومنهاجه ، غير أن هناك رواية أخرى تنسب إلى عبيدة ، وتذهب إلى أن معنى «بكلمة من الله» ، بكتاب منه ، والمراد به

= لأن الله تعالى أحياه بالطاعة حتى لم يعصي أو يعم بمعصية أو لأنه استشهد ، والشهداء أحياء عند ربهم لقوله تعالى : **﴿بل أحياء عند ربهم﴾** ، وقيل غير ذلك (تفسير الفخر الرازي ٢١/ ١٨٦) .

(١) سورة آل عمران : آية ٣٩ .

(٢) تفسير النسفي ١/ ١٥٦ .

(٣) في ظلال القرآن ١/ ٣٩٤ .

(٤) تفسير روح المعاني ٣/ ١٤٧ ، تفسير الطبري ٣/ ٢٥٣ .

(٥) تفسير ابن كثير ١/ ٤٥٠ .

الإنجيل، وإطلاق الكلمة عليه كإطلاقها على العصيدة، غير أن الإمام الطبري إنما يعتبر ذلك جهلاً بتأويل الكلمة، واجتراء على ترجمة القرآن[1].

وأما (ثانياً) فكان سيداً: وقد فسره ابن عباس بالحليم وبالكريم وبالتقي، وقال الجبائي: إنه كان سيداً للمؤمنين، رئيساً لهم في الدين، أعني في العلم والحلم والعبادة والورع، وقال مجاهد: الكريم على الله، وقال ابن المسيب: الفقيه العالم، وقال عكرمة: الذي لا يغلبه الغضب، وقال الضحاك: الحليم التقي؛ وقال ابن زيد السيد هو الشريف، وفي تفسير النسفي: السيد هو الذي يسود قومه، أي يفوقهم في الشرف، وكان يحي فائقاً على قومه لأنه لم يرتكب سيئة قط، ويا لها من سيادة، وقال الجنيد: هو الذي جاد بالكونين عوضاً عن المكون، وقال القاضي: السيد هو المتقدم المرجوع إليه، فلما كان سيداً في الدين وقدوة فيه، فتدخل فيه جميع الصفات المذكورة من العلم والحلم والكرم والعفة والزهد والورع[2].

وأما (ثالثاً) فكان حصوراً: والحصر في اللغة الحبس، يقال حصره حصراً، وحصر الرجل: أي اعتقل بطنه، والحصور الذي يكتم السر ويحبسه، والحصور الضيق البخيل، وأما المفسرون فلهم قولان، أحدهما: أنه كان عاجزاً عن إتيان النساء، فقد روى عن ابن مسعود وابن عباس سعيد بن جبير وأبي الشعثاء وعطية العوفي أنهم قالوا: الذي لا يأتي النساء، وعن أبي العالية والربيع بن أنس: هو الذي لا يولد ولا ماء له، ثم منهم من قال كان ذلك لصغر الآلة، ومنهم من قال كان ذلك لتعذر الإنزال، ومنهم من قال كان ذلك لعدم القدرة، وقد روى الحفاظ عن سيدنا رسول الله ﷺ أن ما معه عليه السلام كان كالأنملة، وفي بعض الروايات كالقذاة، وفي

---

(١) تفسير الطبري ٣/ ٢٥٣ - ٢٥٤، تفسير روح المعاني ٣/ ١٤٧.

(٢) تفسير النسفي ١/ ١٥٦، تفسير الفخر الرازي ٨/ ٣٦.

أخرى كالنواة، وفي بعض كهدبة الثوب، وتذهب جمهرة العلماء إلى أن هذا الرأي غير مقبول أصلاً، لأن هذه من صفات النقصان، وذكر صفة النقصان، في معرض المدح لا يجوز، ولأنه على هذا التقدير لا يستحق به ثواباً ولا تعظيماً، وأما القول الثاني، وهو اختيار المحققين أنه الذي لا يأتي النساء، من لا للعجز، بل للعفة والزهد، وذلك لأن الحصور هو الذي يكثر منه حصر النفس ومنعها، والمنع إنما يحصل أن لو كان المقتضى قائماً، فلولا أن القدرة والداعية كانتا موجودتين، وإلا لما كان حاصراً لنفسه، فضلاً عن أن يكون يكون حصوراً، لأن الحاجة إلى تكثير الحصر والدفع إنما تحصل عند قوة الرغبة والداعية والقدرة، وعلى هذا الحصور بمعنى الحاصر، فعول بمعنى فاعل[1].

وقال القاضي عياض في الشفا[2]: إعلم أن ثناء الله تعالى على يحي أنه كان «حصوراً»، ليس كما قال بعضهم إنه كان هيوباً ولا ذكر له، بل قد أنكر ذلك حذاق المفسرين ونقاد العلماء وقالوا: هذه نقيصة وعيب ولا يليق بالأنبياء عليهم السلام، وإنما معناه أنه معصوم من الذنوب، أي لا يأتيها كأنه حصور عنها، وقيل مانعاً نفسه من الشهوات، وقيل ليست له شهوة في النساء، وقد بان ذلك من هذا أن عدم القدرة على النكاح نقص، وإنما الفضل في كونها موجودة ثم يمنعها، إما بمجاهدة كعيسى أو بكفاية من الله عز وجل كيحي عليه السلام، ثم هي في حق من قدر عليها، وقام بالواجب فيها، ولم تشغله عن ربه، درجة عليا، وهي درجة نبياً ﷺ الذي لم تشغله كثرتهن عن عبادته ربه، بل زاده ذلك عبادة بتحصينهن وقيامه عليهن وإكسابه

---

(١) تفسير روح المعاني ٣/ ١٤٨، تفسير الفخر الرازي ٨/ ٣٦ - ٣٧، تفسير الطبري ٣/ ٢٥٥ - ٢٥٦.

(٢) القاضي عياض اليحصبي: الشفا بتعريف حقوق المصطفى ١/ ٨٨ - ٨٩ (بيروت ١٩٧٩)، شرح الشفا للملا على القاري ١/ ٢٠٩ - ٢١٠ (دار الكتب العلمية - بيروت).

لهن وهدايته إياهن ، بل وقد صرح أنها ليست من حظوظ دنياه هو ، وإن كانت من حظوظ دنيا غيره ، فقال : «حبب إلي من دنياكم» ، والمقصود أنه مدح ليحي بأنه حصور ، ليس أنه لا يأتي النساء ، بل معناه كما قاله هو وغيره : أنه معصوم من الفواحش والقاذورات ، ولا يمنع ذلك من تزويجه بالنساء الحلال وغشيانهن وإيلادهن ، بل قد يفهم وجود النسل له من دعاء زكريا المتقدم ، حيث قال : ﴿هب لي من لدنك ذرية طيبة﴾ كأنه قال : ولداً له ذرية ونسل وعقب[1] ، وأما ما أخرجه الحفاظ ، على تقدير صحته ، يمكن أن يقال إنه من باب التمثيل والإشارة إلى عدم انتفاعه عليه السلام بما عنده لعدم ميله للنكاح لما أنه في شغل شاغل عن ذلك .

ومن هنا قيل : إن التبتل لنوافل العبادات أفضل من الاشتغال بالنكاح ، استدلا لا بحال يحي عليه السلام ، ومن ذهب إلى خلافه احتج بما أخرجه الطبراني عن أبي أمامة قال قال رسول الله ﷺ : «أربعة لعنوا في الدنيا والآخرة وأمنت الملائكة ، رجل جعله الله تعالى ذكراً فأنث نفسه وتشبه بالنساء ، وامرأة جعلها الله تعالى أنثى فتذكرت وتشبهت بالرجال ، والذي يضل الأعمى ، ورجل حصور ، ولم يجعل الله تعالى حصوراً ، إلا يحي بن زكريا» ، وفي رواية «لعن الله تعالى والملائكة رجلاً تحصر بعد يحي بن زكريا» ، ويجوز أن يراد بالحصور المبالغ في حصر النفس وحبسها عن الشهوات مع المقدرة ، وقد كان حاله عليه السلام كذلك ، وأخرج عبد الرازق عن قتادة موقوفاً ، وابن عساكر عن معاذ بن جبل مرفوعاً ، أنه عليه السلام مرّ في صبيان يلعبون فدعوه إلى اللعب فقال : «ما للعب خلقت»[2] .

وأما (رابعاً) فكان نبياً من الصالحين: وهذه بشارة ثانية بنبوة يحيى عليه

---

(١) تفسير ابن كثير ١/ ٥٤١ - ٥٤٢ .

(٢) تفسير روح المعاني ٣/ ١٤٨ .

السلام بعد البشارة بولادته، وهي أعلى من الأولى، كقوله تعالى لأم موسى: **﴿إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين﴾**[1]، وأما الصلاح فالمراد به هنا ما فوق الصلاح الذي لابد منه في منصب النبوة البتة من أقاصي مراتبه، وعليه مبنى دعاء سليمان عليه السلام: **﴿وادخلني برحمتك في عبادك الصالحين﴾**[2]، وذلك لأن للأنبياء قدراً من الصلاح لو انتقص لانتفت النبوة، فذلك القدر بالنسبة إليهم يجري مجرى حفظ الواجبات بالنسبة إلينا، ثم بعد اشتراكهم في ذلك القدر تتفاوت درجاتهم في الزيادة على ذلك القدر، وكل من كان أكثر نصيباً منه كان أعلى قدراً[3].

وعوداً على بدء، إلى زكريا عليه السلام، ذلك أن النبي الكريم قد عجب من أن يكون له غلام، على كبر سنه، وعقم زوجه، فقيل له كذلك يفعل الله ما يشاء، وطلب آية من ربه تدل على حمل امرأته، فقيل له آيتك أن لا تكلم الناس ثلاث ليال سوياً، مع أنك سوى صحيح، والغرض أن يأتيه مانع سماوي يمنعه من الكلام بغير ذكر الله، وإلى هذا يشير القرآن الكريم في قوله تعالى: **﴿قال رب أني يكون لي غلام وكانت امرأتي عاقراً، وقد بلغت من الكبر عتياً، قال كذلك قال ربك هو علي هين، وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئاً، قال رب اجعل لي آية، قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاث ليال سوياً﴾**[4]، وقد ذكر المفسرون في تفسير الآية الأخيرة (مريم: آية ١٠)[5] وجوهاً، أحدها: أنه تعالى حبس لسانه ثلاثة أيام، فلم يقدر أن يكلم الناس إلا رمزاً، والرمز: الإشارة باليد أو بالرأس أو بغيرهما، قال الطبري: الإيماء

(١) سورة القصص: آية ٧.

(٢) سورة النمل: آية ١٩.

(٣) تفسير الفخر الرازي ٨/ ٣٧.

(٤) سورة مريم: آية ٨ - ١٠، وانظر: سورة آل عمران: آية ٤٠ - ٤١.

(٥) وكذا: آية آل عمران ٤١ **﴿ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزاً﴾**.

بالشفتين، وقد يستعمل في الحاجبين والعينين أحياناً، وفيه فائدتان، إحداهما: أن يكون ذلك آية على علوق الولد، والثانية: أنه تعالى حبس لسانه عن أمور الدنيا، وأقدره على الذكر والتسبيح والتهليل، ليكون في تلك المدة مشتغلاً بذكر الله تعالى، والشكر على تلك النعمة الجليلة، وعلى هذا التقدير يصير الشيء الواحد علامة على المقصود، وآداء لشكر تلك النعمة فيكون جامعاً لكل المقاصد، هذا فضلاً عن أن تلك الواقعة إنما كانت مشتملة على المعجز من وجوه، أحدهما: أن قدرته على التكلم بالتسبيح والذكر، وعجزه عن الكلام بأمور الدنيا، من أعظم المعجزات، وثانيهما: أن حصول ذلك المعجزة في تلك الأيام المقدورة، مع سلامة البنية، واعتدال المزاج، من جملة المعجزات، وثالثها: أن إخباره بأنه متى حصلت هذه الحالة فقد حصل الولد، ثم إن الأمر خرج على وفق هذا الخبر يكون أيضاً من المعجزات[1].

وولد يحي عليه السلام، فشب على الطهر والاستقامة، وكان آية في ورعه وزهده وطاعته لربه، وبره بوالديه وآتاه الله العلم والحكمة ومَنّ عليه بالرسالة، وقد روى أنه لم يهم بمعصية قط، ولم ينشغل في طفولته بما ينشغل به الأطفال، وكان يقول: ما للعب خلقت، وكان يحي عليه السلام هو الآية الثانية لبني إسرائيل، وكانت الأولى ولادة مريم، وكانت أمها «حمنة» عقيماً لا تلد، وأما الثالثة فكانت ولادة عيسى عليه السلام من غير أب[2]، وقد قدم الله تعالى قصة يحي، وكذا مريم، على قصة عيسى، عليهم السلام، ذلك لأن خلق الولد من شيخين فانيين أقرب إلى مناهج العادات من تخليق الولد من غير أب، وأحسن الطرق في التعليم الأخذ من الأقرب فالأقرب مترقياً إلى الأصعب فالأصعب.

---

(١) تفسير الطبري ٣/ ٢٦٠، تفسير الفخر الرازي ٨/ ٤٠.

(٢) محمد خليل هراس: المرجع السابق ص ١٨٣.

هذا وقد أثنى الله تعالى على يحي عليه السلام بالثناء العاطر، ووصفه بالبر والتقوى والصلاح والاستقامة قال تعالى: ﴿**يا يحي خذ الكتاب بقوة وآتيناه الحكم صبيّاً، وحناناً من لدنا وزكاة وكان تقياً، وبراً بوالديه ولم يكن جباراً عصياً، وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حياً**﴾[1].

ويقول المفسرون أن الله تعالى وصف يحي عليه السلام في هذه الآيات بصفات تسع، **منها (أولاً) أن الله تعالى أعطاه الكتاب**، والكتاب هو التوراة، كتاب بني إسرائيل من بعد موسى عليه السلام، وعليه كان يقوم أنبياؤهم يعلمون به ويحكمون وهو نعمة الله على بني إسرائيل، قال تعالى: ﴿**ولقد آتينا بني إسرائيل الكتاب والحكم والنبوة**﴾[2]، ويقول ابن عطية: أن الإجماع هو التوراة، على أن «أل» للعهد، ولا معهود إذ ذاك سواها، فإن الإنجيل لم يكن موجوداً حينئذ، كما خص كثير من الأنبياء عليهم السلام بمثل ذلك، وقيل المراد بالكتاب صحف إبراهيم عليه السلام، وقيل المراد الجنس، أي كتاب الله تعالى، وعلى أي حال، فإن يحي قد ورث أباه زكريا، ونودي ليحمل العبء وينهض بالأمانة في قوة وعزم، لا يضعف ولا يتهاون ولا يتراجع عن تكاليف الوراثة[3].

ومنها (ثانياً) آتاه الله الحكم صبياً: وهكذا كان يحي عليه السلام، فذاً في زاده لينهض بالتبعة الكبرى، كما كان فذاً في اسمه وفي ميلاده، فالحكمة تأتي متأخرة، ولكن يحي قد زوّد بها صبياً[4]، أخرج أبو نعيم وابن مردوية والديلمي عن ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال في ذلك: أعطى الفهم وهو ابن سبع سنين، وجاء في رواية أخرى عنه مرفوعاً أيضاً، قال الغلمان ليحي

---

(١) سورة مريم: آية ١٢ - ١٥.

(٢) سورة الجاثية: آية ١٦.

(٣) تفسير روح المعاني ١٦/ ٧٢، في ظلال القرآن ٤/ ٢٣٠٤.

(٤) في ظلال القرآن ٤/ ٢٣٠٤.

بن زكريا عليهما السلام: إذهب بنا نلعب، فقال: أللعب خلقنا، إذهبوا نصلي، فهو قوله تعالى: **﴿وآتيناه الحكم صبياً﴾**، وقد اختلف العلماء في معنى «الحكم» هنا، فمن قائل أنها بمعنى الحكمة، وهي الفهم في التوراة والفقه في الدين، قال الطبري: المعنى أعطيناه الفهم لكتاب في حال صباه قبل بلوغه أسنان الرجال، ومن قائل إنها بمعنى العقل والفراسة الصادقة، ومن قائل إنها النبوة وعليه كثير، قالوا: أوتيها وهو ابن ثلاثين، وقبل وهو ابن سبع سنين أو ابن اثنتين، ولم يتنبأ أكثر الأنبياء عليهم السلام قبل الأربعين، وإن رأى البعض أن الحكم هنا ليس بمعنى النبوة، فهي على سن الأربعين، وإنما المراد الفهم والفقه في الدين، وهو غير الحكمة المفسرة بالنبوة، كما في الآية (٢٥١) من سورة البقرة، والتي جاءت في حق داود عليه السلام[١].

هذا ويرجح الفخر الرازي في التفسير الكبير أنها النبوة، ذلك لأن الله تعالى قد أحكم عقله في صباه وأوحى إليه، وذلك لأن الله تعالى بعث يحي وعيسى عليهما السلام، وهما صبيان، لا كما بعث موسى ومحمد عليهما السلام، وقد بلغا الأشد، والأقرب حمل الحكم على النبوة لوجهين، الأول: أن الله تعالى ذكر في هذه الآية صفات شرفه ومنقبته، ومعلوم أن النبوة أشرف صفات الإنسان، فذكرها في معرض المدح أولى من ذكر غيرها، فوجب أن تكون نبوته مذكورة في هذه الآية، ولا لفظ يصلح للدلالة على النبوة إلا هذه اللفظة فوجب حملها عليها، والثاني: أن الحكم هو ما يصلح لأن يحكم به على غيره ولغيره على الإطلاق، وذلك لا يكون إلا بالنبوة، فإن قيل كيف يعقل حصول العقل والفطنة والنبوة حال الصبا؟ قلنا هذا السائل، إما أن يمنع من خرق العادة أو لا يمنع، فإن منع منه فقد سدّ

(١) تفسير الطبري ١٦/ ٥٤ ـ ٥٥، تفسير النسفي ٣/ ٣٠، تفسير ابن كثير ٣/ ١٨٣، تفسير روح المعاني ١٦/ ٧٢، صفوة التفاسير ٢/ ٢١٣، تفسير الكشاف ٢/ ٥٠٤.

باب النبوات لأن الأنبياء بناء الأمر فيها على المعجزات، ولا معنى لها إلا خرق العادات، وإن لم يمنع فقد زال هذا الاستبعاد، فإنه ليس استبعاد صيرورة الصبي عاقلاً، أشد من استبعاد انشقاق القمر، وانفلاق البحر[1].

ومنها (ثالثاً) وحناناً من لدنا: أي أن الله آتاه الحنان هبة لدنية لا يتكلفه ولا يتعلمه، وإنما هو مطبوع عليه، ومطبوع به، والحنان صفة ضرورية للنبي المكلف رعاية القلوب والنفوس، وتألفها واجتذابها إلى الخير في رفق، وعن زيد أن الحنان هنا المحبة، وهو رواية عكرمة، أي وآتيناه محبة من لدنا، والمراد جعلناه محبباً عند الناس، فكل من رآه أحبه، نظير قوله تعالى: ﴿**وألقيت عليك محبة مني**﴾، وعن عطاء بن رباح أي آتيناه الحكم صبياً تعظيماً، إذ جعلناه نبياً وهو صبي، ولا تعظيم أكثر من هذا، والدليل عليه ما روى أنه مرّ وورقة بن نوفل على بلال وهو يعذب قد ألصق ظهره برمضاء البطحاء، ويقول: أحد أحد، فقال: والذي نفسي بيده لئن قتلتموه لاتخذته حناناً أي معظماً[2]

ومنها (رابعاً) وزكاة: والزكاة: الطهارة من الدنس والآثام والذنوب، وقال قتادة: الزكاة العمل الصالح، وقال الضحاك وابن جريح: العمل الصالح الزكي، وقال العوفي عن ابن عباس: وزكاة، قال بركة، والمعنى آتاه الله الطهارة والعفة ونظافة القلب والطبع يواجه بها أدران القلوب ودنس النفوس، فيطهرها ويزكيها[3]، ويقول الرازي[4]: قوله تعالى: ﴿**وزكاة**﴾ فيه وجوه، أحدهما: المراد وآتيناه زكاة، أي عملاً صالحاً زكياً، كما روى عن ابن عباس وقتادة والضحاك وابن جريح، وثانيها: عن الحسن البصري:

---

(١) تفسير الفخر الرازي ٢١/ ١٩١ - ١٩٢.

(٢) تفسير روح المعاني ١٦/ ٧٣، تفسير الفخر الرازي ٢١/ ١٩٢ - ١٩٣.

(٣) تفسير ابن كثير ٣/ ١٨٤، في ظلال القرآن ٤/ ٢٣٠٤.

(٤) تفسير الفخر الرازي ٢١/ ١٩٣.

زكاة لمن قبل منه حتى يكونوا أزكياء، وثالثها: زكيناه بحسن الثناء، كما تزكي الشهود الإنسان، ورابعها: عن الكلبي: صدقة تصدق الله تعالى بها على أبويه، وخامسها: بركة ونماء، وهو الذي قاله عيسى عليه السلام **﴿وجعلني مباركاً أينما كنت﴾**.

ومنها (خامساً): وكان تقياً: أي كان موصولاً بالله، متحرجاً معه، مراقباً له يخشاه ويستشعر رقابته عليه في سره ونجواه وأولى الناس بهذا الوصف من لم يعص الله ولا يهم بمعصيته، وكان يحي عليه السلام كذلك، وقد سبق أن أشرنا إلى عدة أحاديث تدل على ذلك، ومنها قوله ﷺ: «ما من أحد يلقي الله يوم القيامة إلا أذنب، إلا يحي بن زكريا»، وأخرج الأئمة مالك وأحمد في الزهد وعبد الله بن المبارك وأبو نعيم عن مجاهد قال: كان طعام يحي بن زكريا عليهما السلام العشب وإنه كان ليبكي من خشية الله حتى لو كان القار على عينيه لخرقه، وقد كانت الدموع اتخذت مجرى في وجهه»[1].

ومنها (سادساً): وبراً بوالديه: كان يحي براً بوالديه مسارعاً في طاعتهما ومحبتهما، غير عاق بهما، وذلك لأنه لا عبادة بعد تعظيم الله تعالى مثل تعظيم الوالدين، ولهذا السبب قال تعالى: **﴿وقضى ربك أن لا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا﴾**[2].

---

(١) تفسير الطبري ١٦/ ٥٨، تفسير روح المعاني ١٦/ ٧٣.

(٢) سورة الإسراء: آية ٢٣، هذا وقد جاء في بر الوالدين كثير من الأحاديث الشريفة، منها ما روي الإمام أحمد بسنده عن أنس وغيره أن النبي ﷺ صعد المنبر ثم قال: آمين آمين آمين، قيل يا رسول الله علام ما أمنت، قال أتاني جبريل فقال يا محمد، رغم أنف رجل ذكرت عنده فلم يصل عليك، قل آمين، فقلت آمين، ثم قال رغم أنف رجل دخل عليه شهر رمضان ثم خرج فلم يغفر له، قل آمين، فقلت آمين، ثم قال رغم أنف رجل أدرك والديه أو أحدهما فلم يدخلاه الجنة، قل آمين فقلت آمين» (مسند الإمام أحمد ٤/ ٣٤٤)، وروى الإمام أحمد في =

= مسنده (٤/ ٣٤٤) بسنده عن مالك بن عمرو القشيري قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من أعتق رقبة مسلم فهي فداؤه من النار، فإن كل عظم من عظامه محررة بعظم من عظامه، ومن أدرك أحد والديه ثم لم يغفر له فأبعده الله عز وجل، ومن ضم يتيماً من أبوين مسلمين إلى طعامه وشرابه حتى يغنيه الله وجبت له الجنة»، وروى الإمام أحمد في مسنده (٥/ ٢٩) عن أبي مالك القشيري قال قال النبي ﷺ: «من أدرك والديه أو أحدهما ثم دخل النار من بعد ذلك، فابعده الله وأسحقه» (ورواه أبو داود الطيالسي عن شعبه)، وروى الإمام أحمد في مسنده (٢/ ٣٤٦) عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: رغم أنف، ثم رغم أنف، ثم رغم أنف رجل أدرك أبويه أو كلاهما عند الكبر، ولم يدخل الجنة» (ورواه الإمام مسلم في صحيحه ٨/ ٥ من حديث أبي عوانة وجرير وسليمان بن بلال عن سهيل)، وروى الإمام أحمد في مسنده (٢/ ٢٥٤) عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «رغم أنف رجل ذكرت عنده فلم يصل عليّ، ورغم أنف رجل دخل عليهم شهر رمضان فانسلخ فلم يغفر له، ورغم أنف رجل أدرك عنده أبواه الكبر، فلم يدخلاه الجنة»، قال ربعي: لا أعلمه إلا قال: «أو أحدهما»، وروى الإمام أحمد في مسنده (٣/ ٤٩٧) عن مالك بن ربيعة الساعدي قال: بينما أنا جالس عند رسول الله ﷺ إذ جاءه رجل من الأنصار، فقال يا رسول الله: هل بقي عليّ من برّ أبوي شيء بعد موتها أبرهما به، قال نعم خصال أربع: الصلاة عليهما، والإستغفار لهما، وإنفاذ عهدهما، وإكرام صديقهما، وصلة الرحم التي لا رحم لك إلا من قبلها، فهو الذي بقي عليك من برهما بعد موتهما» (ورواه أبو داود وابن ماجه من حديث عبد الرحمن بن سليمان، وهو ابن الغسيل (سنن ابن ماجه ٢/ ١٢٠٨، سنن أبي داود ٢/ ٦٢٩) وروى الإمام أحمد في مسنده (٣/ ٤٢٩) بسنده عن معاوية بن جاهمة السلمي، أن جاهمه جاء إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، أردت الغزو، وجئتك أستشيرك، فقال: «فهل لك من أم» قال: نعم، قال: «فالزمها فإن الجنة عند رجليها»، ثم الثانية ثم الثالثة في مقاعد شتى كمثل هذا القول (ورواه النسائي وابن ماجه من حديث ابن جريج)، وروى الإمام أحمد في مسنده (٤/ ١٣٢) بسنده عن المقدام بن معد يكرب عن النبي ﷺ قال: «إن الله يوصيكم بآبائكم، إن الله يوصيكم بأمهاتكم، إن الله يوصيكم بأمهاتكم، إن الله يوصيكم بأمهاتكم، إن الله يوصيكم بالأقرب فالأقرب» (وأخرجه ابن ماجه من حديث عبد الله بن عياش، سنن ابن ماجه ٢/ ١٢٠٧)، وروى الإمام أحمد في مسنده (٤/ ٦٤) بسنده عن رجل من بني يربوع قال: «أتيت النبي ﷺ فسمعته وهو يكلم الناس، يقول: «يد المعطي العليا، أمك وأباك، وأختك وأخاك، ثم أدناك أدناك»، وقال الحافظ أبو بكر البزار في مسنده بسنده عن سليمان بن بريدة عن أبيه أن رجلاً كان في الطواف حاملاً أمه يطوف بها، فسأل النبي ﷺ: هل أديت حقها؟ قال: لا، ولا بزفرة واحدة» أو كما قال: (وانظر: تفسير ابن كثير ٣/ ٥٧ - ٦٠ - بيروت ١٩٨٦).

ومنها (سابعاً) : ولم يكن جباراً : لم يكن متكبراً متعالياً عن قبول الحق والإذعان له أو متطاولاً ولا على الخلق ، وقيل الجبار : هو الذي لا يرى لأحد عليه حقاً ، وعن ابن عباس أنه هو الذي يقتل ويضرب على الغضب[1] ، والمراد وصفه بالتواضع ولين الجانب ، وذلك من صفات المؤمنين ، وقد وصف الله تعالى نبيّه سيدنا محمد ﷺ بقوله تعالى : ﴿ **فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك** ﴾[2] ، قال الحسن البصري : هذا خلق محمد ﷺ بعثه الله به ، هذا ولأن رأس العبادات معرفة الإنسان نفسه بالذل ، ومعرفة ربه بالعظمة والكمال ، ومن عرف نفسه بالذل ، وعرف ربه بالكمال ، كيف يليق به الترفع والتكبر ، ولذا فإن إبليس لما تجبر وتمرد صار مبعداً عن رحمة الله وعن الدين[3] .

ومنها (ثامناً) ولم يكن عصياً : والعصي أبلغ من العاصي ، كما أن العليم أبلغ من العالم ، والمراد المبالغة في النفي ، لا نفي المبالغة ، وقيل : عصياً : مخالفاً أمر مولاه عز وجل ، وقيل : عاقاً لأبويه ، ويقول الطبري : ولم يكن جباراً عصياً ، أي لم يكن مستكبراً عن طاعة الله وطاعة والديه ، ولكنه كان لله ولوالديه ، متواضعاً متذللاً ، يأتمر لما أمر به ، وينتهي عما نُهي عنه ، لا يعصي ربه ولا والديه[4] .

ومنها (تاسعاً) «وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويم يبعث حياً : وفيه أقوال ، أحدهما : قال الطبري : وأمان من الله يوم ولد من أن يناله الشيطان

---

(١) تفسير روح المعاني ١٦/ ٧٣ .

(٢) سورة آل عمران : آية ١٥٩ ، وانظر : تفسير الطبري ٤/ ١٥٠ ـ ١٥٣ ، تفسير ابن كثير ١/ ٦٢٨ ـ ٦٣٠ تفسير روح المعاني ٤/ ١٠٥ ـ ١٠٦ ، في ظلال القرآن ١/ ٥٠٠ ـ ٥٠١ ، تفسير النسفي ١/ ١٩١ .

(٣) تفسير الفخر الرازي ٢١/ ١٩٣ .

(٤) تفسير الطبري ١٦/ ٥٨ .

من السوء بما ينال به بني آدم، وثانيها: قال سفيان بن عيينة: أوحش ما يكون الخلق في ثلاثة مواطن، يوم يولد فيرى نفسه خارجاً مما كان فيه، ويوم يموت فيرى قوماً ما شاهدهم قط، ويوم يبعث فيرى نفسه في محشر عظيم، فأكرم الله يحي عليه الصلاة والسلام، فخصه بالسلام عليه في هذه المواطن الثلاثة، وثالثها: قال عبد الله بن نفطوية: «وسلام عليه يوم ولد»، أي أول ما يرى الدنيا، و «يوم يموت» أي أول يوم يرى فيه أول أمر الآخرة، و «يوم يبعث حياً» أي أول يوم يرى فيه الجنة والنار، وهو يوم القيامة، وإنما قال «حياً» تنبيهاً على كونه من الشهداء لقوله تعالى: **﴿بل أحياء عند ربهم يرزقون﴾**، وقال ابن عطية: الأظهر أن المراد بالسلام: التحية المتعارفة والتشريف بها، لكونها من الله تعالى في المواطن التي فيها العبد في غاية الضعف والحاجة وقلة الحيلة والفقر إلى الله عز وجل، وروى ابن جرير في التفسير بسنده عن قتادة أن الحسن البصري قال: «إن يحي وعيسى التقيا، فقال له عيسى: استغفر لي، أنت خير مني، فقال الآخر: استغفر لي، أنت خير مني، فقال له عيسى: أنت خير مني، سلمت على نفسي، وسلم الله عليك، فعرف والله فضلها (ورواه الإمام أحمد في الزهد عن الحسن أيضاً، كما ذكره الألوسي في روح المعاني)[1].

إستشهاد يحي عليه السلام: -

ترجع المصادر النصرانية قتل يحي عليه السلام، وهو يوحنا المعمدان عندهم، إلى أن «هيرودوس أنتباس» (٦ - ٣٩ م) حاكم اليهودية من قبل الرومان، أراد أن يتزوج من «هيروديا» امرأة أخيه «فيلبس»، إلا أن يوحنا المعمدان (يحي عليه السلام) أفتى بعدم الزواج لأنها لا تحل له، ومن ثم فقد قرر هيرودوس التخلص منه، إلا أنه خشي غضب القوم الذين كانوا

(١) تفسير الطبري ١٦/ ٥٨ - ٥٩، تفسير روح المعاني ١٦/ ٧٤، تفسير الفخر الرازي ٢١/ ١٩٣ - ١٩٤، تفسير النسفي ٣/ ٣٠.

يعتقدون في نبوة يحي عليه السلام، ولهذا فقد اكتفى بإلقائه في غياهب السجن، وتنتهز «هيروديا» فرصة الاحتفال بعيد ميلاد هيرودوس، وتتفق مع ابنتها «سالومي» على أن ترقص شبه عارية لعمها الملك، وحين تنتهي من رقصتها، ويفتتن الملك بها، تطلب منه رأس يحي على طبق، وتفعل سالومي ما أشارت به أمها، ويضطر هيرودوس إلى تنفيذ رغبة ابنة أخيه، بناء على وعد منه أن يعطيها ما تريد، أياً كان الذي تريد، ومن ثم يأمر بقتل يحي فوراً بالسيف وأن يؤتي برأسه على طبق ليكون هذا ختام الاحتفال، ثم يقدم الرأس الشريف إلى الداعرة سالومي التي قدمته بدورها إلى أمها، وعندئذ يسرع تلاميذ يحي فيرفعوا الجسد ويدفنوه، ثم يخبرو السيد المسيح بالمأساة المروعة[1].

والأمر بهذه الصورة يحتاج، فيما أرى إلى وقفة، (فأولاً) ليس هناك من ريب في أن سيدنا يحيى عليه السلام، وهو الذي يسميه النصارى يوحنا المعمدان، نبيّ من أنبياء الله المصطفين الأخيار، كما جاء في ذلك في القرآن الكريم، وكما رأينا من

(١) أنظر: إنجيل متي ١٤/ ٣-١٢، إنجيل مرقس ٦/ ١٦-٣٠، تاريخ يوسفيوس ص ٢١٤، قاموس الكتاب المقدس ٢/ ١٠١١، فيلب حتي: المرجع السابق ص ٤٢٠-٤٢٢، عبد الرازق نوفل: يوحنا المعمدان - القاهرة ١٩٧٧ م ص ٦١-٦٨، وكذا M. F. Unger, Unger's Bible Dictionary, 1970, P. 472 - ثم قارن: ابن الأثير: الكامل في التاريخ ١/ ٣٠١-٣٠٢، تاريخ الطبري ١/ ٥٨٥-٥٩٣، تاريخ ابن خلدون ٢/ ١٧٢، مروج الذهب للمسعودي ١/ ٧٥-٧٦، غير أن المراجع العربية مضطربة في تأريخها لهذه الفترة، حتى أنها تذهب إلى أن الله تعالى قد سلط على اليهود «بختنصر» (نبوخذ نصر ٦٠٥-٥٦٢ ق. م) جزاء وفاقاً لما ارتكبوه في حق النبي الكريم يحي عليه السلام، وأنه قتل منهم سبعين ألف رجل وامرأته، هذا مع العلم بأن تاريخ «نبوخذ نصر» أصبح الآن من الحقائق التاريخية المسلم بها، وهو أنه كان يعيش في أواخر القرن السابع، وحتى عام ٥٦٢ من القرن السادس قبل الميلاد، وأن سيدنا يحي كان يعيش بعد ذلك بأكثر من خمسة قرون ونصف القرن، حيث أنه عاصر المسيح عليه السلام.

قبل ، وليس كما يقول إنجيل متي «لأنه كان عندهم مثل نبي»[١] أو أنه «رجل بار وقديس » كما يقول إنجيل مرقس[٢] ، (وثانياً) لماذا يمنع يوحنا المعمدان[٣] هذا الزواج ، ومبلغ علمي أن التوراة ، والتي كان على شريعتها كل من هيرودوس وهيروديا ، لا تمنع ذلك الزواج ، بل تفرضه على المؤمنين بها ، بل إنها إنما تفرض كذلك أن ينسب الأبناء من هذا الزواج الجديد إلى الأخ المتوفي[٤] وإذا كان ذلك صحيحاً فإن التفسير الآنف الذكر للحدث الخطير المحزن إنما هو تفسير أناجيل النصارى ، وما كان هيرودوس نصرانياً ، إنما كان ملكاً يهودياً آدومياً على مملكة آدومية يهودية ، فالتاريخ حتى تلك اللحظة ما كان يتعامل مع ملوك أو حتى شعوب نصرانية ، كما أن يحي عليه السلام لم يكن نصرانياً حتى يفتى بشريعة النصارى ، بل إن السيد المسيح نفسه لم يكن حتى ذلك الوقت قد بعث رسولاً نبياً ، وبالتالي لم يكن يحكم بشريعة الإنجيل ، ومن ثم فلا بد أن يكون هناك سبب آخر يمنع هذا الزواج ، وهنا نجد رواية تذهب إلى أن هيرودوس إنما كان قد ألقى بأخيه فيلبس ، زوج هيروديا ، في غياهب السجون ، ثم أمر به فقتل ، ثم أراد أن يتزوج من امرأته ، ولعل هذا هو السبب في ثورة النبي الكريم على هذا الزواج ومعارضته بشدة[٥] .

على أن المراجع العربية إنما تقدم روايات تختلف عن الرواية السابقة ، فتذهب في أسباب قتل يحي عليه السلام إلى أن ملك دمشق وقت

---

(١) متي ١٤/ ٥.

(٢) مرقس ٦/ ٢٠.

(٣) يسمى النصارى يحي عليه السلام «يوحنا المعمدان» ، فأما يوحنا فهو اسمه ، وأما المعمدان ، فلأنه ، طبقاً لما جاء في الأناجيل ، إنما كان يعمّد القوم ، أي يغسلهم في نهر الأردن للتوبة من الخطايا ، وقد عمّد يحي السيد المسيح نفسه (متي ٣/ ١ - ١٦) .

(٤) سفر التكوين ٣٨/ ٦ - ١١ .

(٥) محمد بيومي مهران : إسرائيل ٢/ ١١٤٧ - ١١٤٩ .

ذاك أراد أن يتزوج ببعض محارمه أو من لا يحل له أن يتزوجها، فنهاه يحي عن ذلك، فتبقى في نفسها منه، فلما كان بينها وبين الملك ما يحب منها استوهبت منه دم يحي فوهبه لها، فبعثت إليه من قتله، وجاء برأسه ودمه في طشت إلى عندها، فيقال إنها هلكت من فورها وساعتها، وقيل بل أحبته امرأة ذلك الملك وراسلته فأبى عليها، فلما يئست منه تحيلت في أن استوهبته من الملك فتمنع عليها الملك ثم أجابها إلى ذلك فبعث من قتله وأحضر إليها رأسه ودمه في طشت.

وأما مكان قتله، فذهب فريق إلى أنه قتل على الصخرة التي ببيت المقدس، وذهب فريق آخر إلى أنه قتل في دمشق، وتذهب رواية لابن عساكر عن قاسم مولى معاوية إلى أن «هداد بن هداد» ملك دمشق كان قد زوج ابنه بابنة أخيه «أريل» ملك صيدا، فحلف بطلاقها ثلاثاً ثم أراد مراجعتها فاستفتى يحي بن زكريا فقال له: لا تحل لك حتى تنكح زوجاً غيرك، فحقدت عليه وسألت الملك رأس يحي، وذلك بإشارة من أمها، فأبى عليها ثم أجابها إلى ذلك، وبعث إليه وهو قائم يصلي في مسجد حبرون من أتاه برأسه في صينية، فجعل الرأس يقول: لا تحل له حتى تنكح زوجاً غيره، فأخذت المرأة الطبق فحملته إلى أمها، وهو يقول كذلك، فلما تمثلت بين يدي أمها خسفت بها الأرض إلى قدميها، ثم إلى حقويها ثم إلى منكبيها، فأمرت أمها بقطع رأسها لتتسلى برأسها، فلفظت الأرض جثتها، ولم يزل دم يحي يفور حتى قدم «بخت نصر» (نبوخذ نصر) فقتل عليه خمسة وسبعين ألفاً، ثم مازال الدم يفور حتى وقف عنده إرمياً النبي، فقال: أيها الدم أفنيت بني إسرائيل فاسكن بإذن الله، فسكن فرفع السيف، وهرب نبو هرب من أهل دمشق إلى بيت المقدس، فتبعهم نبوخذ نصر إليها فقتل منهم خلقاً كثيراً لا يحصون كثرة، وسبا منهم ثم رجع عنهم[1].

(١) ابن كثير: البداية والنهاية ٢/ ٥٣ - ٥٥، قصص الأنبياء ٢/ ٣٦٢ - ٣٦٦.

وهذه الروايات ، وإن كان فيها بعض الشبه من رواية الأناجيل ، ففيها كذلك بعض نقاط ضعف ، منها (أولاً) أن يحي عليه السلام إنما كان من أنبياء بني إسرائيل ، ولم يكن أبداً من أنبياء الأراميين سكان دمشق ، وبنو إسرائيل لم يكونوا في دمشق ، وإنما كانوا في فلسطين ، وبالتالي فإن حادث مقتل النبي الكريم إنما كان في بيت المقدس ولم يكن في دمشق ، ومنها (ثانياً) أن دمشق كانت على أيام يحي عليه السلام ، بل وبالتحديد منذ عام ٦٤ قبل مولد المسيح ، مستعمرة رومانية ، وبالتالي فلم يكن بها ملك ، وإنما كان بها وال روماني[1] ، ومنها (ثالثاً) أن «هدد» (بنحدد) إنما كان ملك الأراميين في دمشق ، وذلك في القرن التاسع قبل الميلاد ، وقد اشترك في موقعه «قرقر» عام ٨٥٣ق . م ضد الملك الأشوري «شلمنصر الثالث (٨٥٩ - ٨٢٤ق . م) ، إلى جانب «أخاب» ملك إسرائيل وغيره من حكام ولايات سورية وفلسطين ، ومن ثم فهو قد عاش قبل عهد يحي عليه السلام بأكثر من ثمانية قرون ، ومنها (رابعاً) أن حاكم دمشق ، أياً كان اسمه ، لم يكن أبداً أخاً لملك صيدا ، فالأولى ولاية أرامية ، والثانية فينيقية ، ومنها (خامساً) ما أشرنا إليه من قبل من أن عهد يحي عليه السلام إنما كان بعد عهد «بخت نصر» (نبوخذ نصر

(١) افتتح القائد الروماني «بومبي» (Pompey) مدينة دمشق عام ٦٤ ق . م ، وفي عام ٦٣ ق . م ، وفي يوم سبت احتل مدينة القدس ودمر حصونها وقتل رجالها ، وبذا أصبحت كل من دمشق والقدس ولاية رومانية ثم سرعان ما بدأ «بومبي» تنظيماته الجديدة ، فأدخل سورية الجغرافية والتقليدية كلها تحت اسم واحد هو «ولاية سورية» (Provincia Syria) وحلت ولاية سورية محل مملكة سورية القديمة وأصبحت عاصمتها «أنطاكية» ، بينما جعلت «قليقيا» ولاية قائمة بذاتها ، وأبقيت اليهودية ولاية خاضعة ضمن إطار ولاية سورية ، وبعد فترة منحت المدن ذات الدساتير اليونانية حرية داخلية في ظل حكام الولايات الرومان ، وشكلت عشرة من هذه المدن اتحاداً عرف باسم «الديكابوليس» ثم انضمت إليها مدن أخرى فيما بعد ، وعلى أية حال فلقد ظلت سورية وفلسطين ، طوال عصر مجد الامبراطورية الرومانية مجرد ولايات رومانية (أنظر: التفصيلات والمراجع : محمد بيومي مهران : إسرائيل ٢/ ١١٣٦ - ١١٣٩) .

٦٠٥ ـ ٥٦٢ ق . م) بأكثر من خمسة قرون ونصف القرن ، ومن ثم فلا علاقة بين الحادثين .

ومنها (سادساً) أن فتوى يحي عليه السلام بشأن المرأة التي طلقها زوجها ثلاثاً ، بأنها لا تحل له حتى تنكح زوجاً غيره ، إنما هي فتوى إسلامية على شريعة محمد ﷺ ، وليس الأمر كذلك في شريعة موسى ، كما جاءت في التوراة المتداولة اليوم ، وليس لدينا غيرها عن شريعة موسى (إلا بنص من الكتاب أو السنة يبطل هذا الحكم) وقد كان يحي يفتي بشريعة التوراة ، والتي اشترطت في الطلاق أن يعطي الرجل امرأته المطلقة وثيقة تسريح ، ثم لها بعد ذلك أن تتزوج من غيره ولكنها لا تعود إلى زوجها الأول ، إذا ما طلقت من زوجها الثاني أو حتى في حالة وفاة هذا الزوج الثاني[1] ، تقول التوراة في سفر التثنية «إذا أخذ الرجل امرأة وتزوج بها ، فإن لم تحد نعمة في عينيه لأنه وجد فيها عيب شيء ، وكتب لها كتاب طلاق ودفعه إلى يدها وأطلقها من بيته أو مات الرجل الآخر الذي اتخذها له زوجة ، لا يقدر زوجها الأول الذي طلقها أن يعود يأخذها لتصير له زوجة بعد أن تنجست»[2] .

بقيت الإشارة إلى أن سيدنا يحي عليه السلام ، وقد عاصر المسيح عليه السلام ، فإنه من ثم يكون قد عاش على أيام القيصر «أوغسطس» (٢٧ ق . م ـ ١٤ م) والقيصر «تبيريوس» (١٤ ـ ٣٧ م) ، كما عاصر من حكام القدس من قبل الرومان «هيرودوس الكبير» (٣٧ ـ ٤ ق . م) وولده «أرخيلاس» (٤ ق . م ـ ٦ م) ثم ولده الثاني «هيرودوس أنتيباس» (٦ ـ ٣٩ م) ، ومن الحكام العرب من الأنباط «الحارث الرابع» (٩ ق . م ـ ٤٠ م) .

---

(١) أنظر عن الزواج والطلاق في التوراة (محمد بيومي مهران : إسرائيل ٤/ ٢٣٩ ـ ٢٨٦) .

(٢) تثنية ٢٤/ ١ ـ ٤ .

الكِتَابُ السَّادِس

المسيح عيسى ابن مريم رسول الله

الفصل الأول

مريم أم المسيح عليهما السلام

تذهب الروايات إلى أن «حنة» امرأة عمران، وأم مريم البتول كانت قد أمسك عنها الولد حتى أسنت، وكانوا أهل بيت من الله، جل ثناؤه، بمكان، فبينا هي في ظل شجرة نظرت إلى طائر يطعم فرخاً له، فتحركت نفسها للولد، فدعت الله أن يهب لها ولداً، فحملت مريم، وهلك عمران أثناء الحمل، فلما عرفت أن في بطنها جنيناً، جعلته لله نذيرة، والنذيرة أن تعبّده لله فتجعله حبْساً في الكنيسة، لا ينتفع به بشيء من أمور الدنيا[1]، وإلى هذا يشير القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ **إذ قالت امرأة عمران رب إني نذرت لك ما في بطني محرراً فتقبل مني إنك أنت السميع العليم** ﴾[2]، وكانت حنى تظن أن ما في بطنها ذكراً، ذلك لأن الذكر[3] أقوى على الخدمة

---

(١) تفسير الطبري ٣/ ٢٣٥، وانظر: تفسير أبي السعود ١/ ٢٣٠، تفسير النسفي ١/ ١٥٥، روح المعاني ٣/ ١٣٣.

(٢) سورة آل عمران: آية ٣٥.

(٣) كانت المرأة اليهودية المقلات تنذر لربها، إن رزقت أطفالاً وعاشوا، فإنها تهب أكبرهم للإله (يهوه)، ومن ثم يصبح هذا الطفل خادماً للكهنة وحارساً للمعبد، وربما يصبح كاهناً، كما يمكن افتداء الطفل بدفع مبلغ من المال للمعبد (لاويون ٢٧/ ١ - ٨)، وطبقاً لرواية التوراة في سفري الخروج وصموئيل أول، فقد جندت بعض النساء للخدمة، عند باب خيمة الاجتماع؛ غير أن هذين النصين إنما هما تعديل لاحق، كما أنهما ليسا واضحين، وإن كانت روايتهما عن خدم المعبد والأشخاص المتدينين الذين يعيشون بداخله، أو النساء المتدينات =

وأقوم بها، وأن الأنثى لا تصلح في بعض الأحوال لدخول القدس والقيام بخدمة الكنيسة لما يعترضها من الحيض والنفاس[1]، ومن ثم فإن النذر للمعابد لم يكن معروفاً إلا للصبيان ليخدموا الهيكل، وينقطعوا للعبادة والتبتل، ولكن «حنة» رزقت بأنثى، ومن ثم فهي تتوجه إلى ربها في نغمة أسيفة: **﴿رب إني وضعتها أنثى، والله أعلم بما وضعت، وليس الذكر كالأنثى وإني سميتها مريم، وإني أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم﴾**[2]، وهكذا تودع الأم هديتها بين يدي ربها وتدعها لحمايته ورعايته، وتعيذها به وذريتها من الشيطان الرجيم، وهذه كلمة القلب الخالص، ورغبة القلب الخالص، فما تود لوليدتها أمراً خيراً من أن تكون في حياطة الله من الشيطان الرجيم[3].

واستجاب الله لها فأعاذها الله وذريتها من الشيطان الرجيم، فلم يجعل له عليها سبيلاً، أخرج الشيخان، البخاري ومسلم عن أبي هريرة أنه قال قال رسول الله ﷺ: «ما من مولد يولد إلا والشيطان يمسه حين يولد، فيستهل من مسه صارخاً، إلا مريم وابنها»، وفي رواية: «ما من ولد يولد إلا يمسه الشيطان فيستهل صارخاً من مسّة الشيطان، إلا مريم وابنها»، ثم يقول أبو هريرة: إقرأوا إن شئتم: «وإني أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم»[4]، وهكذا قبل الله تعالى نذر حنة، قال تعالى: **﴿فتقبلها ربها بقبول حسن وأنبتها نباتاً**

= المشتركات في الأعياد (أنظر: A. Bertholet, Histoire de la Civilisation d' Israel, Paris, 1929, P. 356 وكذا A. Lods, op - cit, P. 448 - 449.)

(١) تفسير الطبري ٣/ ٢٣٧.

(٢) سورة آل عمران: آية ٣٦.

(٣) في ظلال القرآن ١/ ٣٩٢ - ٢٩٣ (بيروت ١٩٨٢).

(٤) صحيح البخاري ٦/ ٤٢، صحيح مسلم ٧/ ٩٦ - ٩٧، وانظر روايات أخرى للحديث الشريف في: تفسير الطبري ٣/ ٢٣٨ - ٢٤٠، تفسير روح المعاني ٣/ ١٣٧، تفسير ابن كثير ١/ ٥٣٨ - ٥٣٩، تاريخ ابن خلدون ٢/ ١٦٨ - ١٦٩.

حسناً﴾[1] جزاء هذا الإخلاص الذي يعمر قلب الأم، وهذا التجرد الكامل في النذر، وإعداد لها أن تستقبل نفخة الروح وكلمة الله، وأن تلد عيسى عليه السلام، على غير مثال من ولادة البشر[2].

هذا وقد روى عن ابن عباس، حبر الأمة وترجمان القرآن، أن حنة لما وضعت مريم خشيت أن لا تقبل الأنثى محررة، فلفتها في خرقة ووضعتها في بيت المقدس عند القراء، فتساهم القراء عليها لأنها كانت ابنة إمامهم، أيهم يأخذها[3]، فقال زكريا، وهو رأس الأحبار: أنا آخذها وأنا أحقهم بها لأن خالتها عندي، فقالت القراء: ولكننا نتساهم عليها فمن خرج سهمه فهو أحق بها، فدعوا بأقلامهم التي يكتبون بها الوحي وجمعوها في موضع ثم غطوها، وقال زكريا لبعض من الغلمان الذين لم يبلغوا الحلم ممن في بيت المقدس: أدخل يدك فأخرج، فأدخل يده فأخرج قلم زكريا، فقالوا: لا نرضى ولكن نلقي الأقلام في الماء فمن خرج قلمه جرية الماء ثم ارتفع فهو يكفلها، فألقوا أقلامهم في نهر الأردن فارتفع قلم زكريا في جرى الماء، فقالوا: نقترع الثالثة: فمن جرى قلمه مع الماء فهو يكفلها، فألقوا أقلامهم فجرى قلم زكريا مع الماء وارتفعت أقلامهم في جرية الماء، وقبضها عند ذلك زكريا[4]، ويقول الفخر الرازي أن المراد بالأقلام التي يكتبون بها التوراة وسائر كتب الله تعالى، وكان القراع على أن كل من جرى قلمه عكس الماء، فالحق معه، فلما فعلوا ذلك

---

(1) سورة آل عمران: آية ٣٧.

(2) في ظلال القرآن ١/ ٣٩٣.

(3) يقول الفخر الرازي في التفسير الكبير ٨/ ٤٦): اختلفوا في السبب الذي لأجله رغبوا في كفالتها حتى أدتهم تلك الرغبة إلى المنازعة، فقيل لأن عمران أباها كان رئيساً لهم ومقدماً عليهم، فلأجل حق أبيها رغبوا في كفالتها، وقيل لأن أمها حررتها لعبادة الله وخدمة بيته، وقيل لأن في الكتب الإلهية كان بيان أمرها وأمر عيسى عليه السلام حاصلاً فتقربوا لهذا السبب حتى اختصموا.

(4) تفسير روح المعاني ٣/ ١٣٨.

صار قلم زكريا كذلك، فسلموا الأمر له، وهذا قول الأكثرين[1]، وإلى هذا يشير القرآن الكريم في قوله تعالى: **﴿ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم وما كنت لديهم إذ يختصمون﴾**[2]، والنص القرآني يشير إلى حادث لم يذكره العهد القديم، ولا العهد الجديد، المتداولان، ولكن لا بد أنه كان معروفاً عند الأحبار والرهبان، حادث إلقاء أقلام سدنة الهيكل، لمعرفة من تكون مريم من نصيبه، والنص القرآني لا يفصل الحادث ربما اعتماداً على أنه كان معروفاً لسامعيه، أو لأنه لا يزيد شيئاً في أصل الحقيقة التي يريد عرضها على الأجيال القادمة[3].

وهكذا كفل زكريا مريم أم المسيح عليهم السلام، بعد وفاة أبيها عمران، فقد كان زوجاً لخالتها، أو أختها، كما ورد في الصحيح: «فإذا يحي وعيسى وهما أبنا الخالة»، وقد يطلق على ما ذكره ابن إسحاق وابن جرير من أنه كان زوجاً لخالتها، فعلى هذا كانت في حضانة خالتها، وقد ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قضى في عمارة بنت حمزة أن تكون في حضانة خالتها، امرأة جعفر بن أبي طالب، وقال ﷺ: «الخالة بمنزلة الأم»[4]، وعلى أية حال، فلقد اتخذ زكريا لمريم محراباً، والمحراب مقدم كل مسجد ومصلي، وهو سيد المجالس وأشرفها وأكرمها، وكذلك هو من المساجد، أو هو المكان الشريف من المسجد، لا يدخله عليها أحد سواه، وقد شاء الله أن يطلعه على كرامة مريم وجليل قدرها، فكان كلما دخل عليها المحراب وجد عندها رزقاً، وإلى هذا يشير القرآن في قوله تعالى: **﴿وكفلها**

---

(١) تفسير الفخر الرازي ٨/ ٤٥.

(٢) سورة آل عمران: آية ٤٤.

(٣) في ظلال القرآن ١/ ٣٩٦.

(٤) تفسير ابن كثير ١/ ٥٣٩ (بيروت ١٩٨٦).

زكريا كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقاً قال يا مريم أني لك هذا قالت هو من عند الله، إن الله يرزق من يشاء بغير حساب﴾[1] ، روى الطبري عن السُّدى قال: جعلها زكريا معه في بيت ، وهو المحراب ، فكان يدخل عليها في الشتاء ، فيجد عندها فاكهة الصيف ، ويدخل في الصيف فيجد عندها فاكهة الشتاء ، وعن ابن عباس قال: وجد عندها ثمار الجنة ، فاكهة الصيف في الشتاء ، وفاكهة الشتاء في الصيف[2] .

وروى الحافظ أبو يعلي عن جابر أن رسول الله ﷺ أقام أياماً لم يطعم طعاماً حتى شق ذلك عليه ، فطاف في منازل أزواجه فلم يجد عند واحدة منهن شيئاً ، فأتى فاطمة فقال: يا بنية هل عندك شيء آكله فإني جائع ، فقالت: لا ، بابي أنت وأمي ، فلما خرج من عندها ، بعثت إليها جارة لها برغيفين وقطعة لحم ، فأخذته منها فوضعته في جفنة لها ، وقالت: والله لأوثرن بهذا رسول الله ﷺ على نفسي ومن عندي ، وكانوا جميعاً محتاجين إلى شعبة طعام، فبعثت حسناً أو حسيناً إلى رسول الله ﷺ فرجع إليها ، فقالت: بأبي أنت وأمي ، قد أتى الله بشيء فخبأته لك ، قال: هلمي يا بنية ، قالت فأتيته بالجفنة ، فكشفت عنها ، فإذا هي مملوءة خبزاً ولحماً ، فلما نظرت إليها بهت وعرفت أنها بركة من الله ، فحمدت الله وصليت على نبيه ، وقدمته إلى رسول الله ﷺ ، فلما رآه حمد الله وقال: من أين لك هذا يا بنية ، قالت يا أبت: «هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب» ، فحمد الله وقال: الحمد الله الذي جعلك يا بنية شبيهة بسيدة نساء بني إسرائيل ، فإنها كانت إذا رزقها الله شيئاً وسئلت عنه قالت: هو من عند الله ، إن الله يرزق من يشاء بغير حساب ، فبعث رسول الله ﷺ إلى عليّ ، ثم أكل رسول

---

(١) سورة آل عمران: آية ٣٧.

(٢) تفسير الطبري ٣/ ٢٤٥ - ٢٤٦ (بيروت ١٩٨٤).

الله ﷺ وأكل علي وفاطمة وحسن وحسين وجميع أزواج النبي ﷺ وأهل بيته حتى شبعوا جميعاً، قالت: وبقيت الجفنة كما هي، فأوسعت ببقيتها على جميع الجيران، وجعل الله فيها بركة وخيراً كثيراً[1].

وهكذا نشأت مريم البتول على الطهارة والعبادة والبعد عن الدنس ورذائل الأمور، قال تعالى: **﴿وإذا قالت الملائكة يا مريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين، يا مريم اقنتي لربك واسجدي واركعي مع الراكعين﴾**[2]، ويقول الفخر الرازي:[3] اعلم أن المذكور في هذه الآية: أولاً هو الاصطفاء، وثانياً التطهير، وثالثاً الاصطفاء على نساء العالمين، ولا يجوز أن يكون الاصطفاء الأول من الاصطفاء الثاني، لما أن التصريح بالتكرير غير لائق، فلا بد من صرف الاصطفاء الأول إلى ما اتفق لها من الأمور الحسنة في أول عمرها، والاصطفاء الثاني إلى ما اتفق لها في آخر عمرها، ومن النوع الأول من الاصطفاء أمور: أنه تعالى قبل تحريرها، مع أنها كانت أنثى، ولم يحصل مثل هذا المعنى لغيرها من الإناث، وثانيها: قال الحسن البصري: إن أمها لما وضعتها ما غذتها طرفة عين، بل ألقتها إلى زكريا، وكان رزقها يأتيها من الجنة، وثالثها: أنه تعالى فرغها لعبادته وخصها في هذا المعنى بأنواع اللطف والعناية والصحة، ورابعاً: أنه كفاها أمر معيشتها، فكان رزقها يأتيها من عند الله تعالى على ما قال الله تعالى: **﴿أنى لك هذا قالت هو من عند الله﴾**، وخامسها: أنه تعالى أسمعها كلام الملائكة شفاها، ولم يتفق ذلك لأنثى غيرها، فهذا هو المراد من الاصطفاء الأول، وأما التطهير ففيه وجوه، أحدها: أنه تعالى طهرها من الكفر والمعصية، وثانيها: أنه طهرها عن مسيس الرجال، وثالثها: طهرها من الحيض، قالوا كانت

---

(١) تفسير ابن كثير ١/ ٥٣٩ - ٥٤٠، تفسير روح المعاني ٣/ ١٤١.

(٢) سورة آل عمران: آية ٤٢ - ٤٣.

(٣) تفسير الفخر الرازي ٨/ ٤٣.

مريم لا تحيض، ورابعها: طهرها من الأفعال الذميمة والعادات القبيحة، وخامسها: طهرها من مقالة اليهود وتهمتهم وكذبهم، وأما الاصطفاء الثاني: فالمراد أنه تعالى وهب لها عيسى عليه السلام من غير أب، وأنطق عيسى حال انفصاله منها حتى شهد بما يدل على براءتها عن التهمة، وجعلها وابنها آية للعالمين، فهذا هو المراد من هذه الألفاظ الثلاثة.

هذا وقد ناقش العلامة الألوسي في تفسيره: «روح المعاني» قضية اصطفاء مريم على نساء العالمين[1]، وقيل على جميع النساء في سائر الأعصر، واستدل به على أفضليتها على السيدة فاطمة الزهراء، وأمها السيدة خديجة، والسيدة عائشة رضي الله تعالى عنهن، وأن ذلك بما أخرجه ابن عساكر في أحد الطرق عن ابن عباس أنه قال قال رسول الله ﷺ: سيدة نساء أهل الجنة: مريم بنت عمران ثم فاطمة ثم خديجة ثم آسية امرأة فرعون»، وبما أخرجه ابن جرير عن فاطمة، صلى الله تعالى على أبيها وعليها وسلم، أنها قالت: قال لي رسول الله ﷺ: أنت سيدة نساء أهل الجنة إلا مريم البتول».

وأما القول الثاني: فالمراد عالمها، فلا يلزم منه أفضليتها على فاطمة رضي الله تعالى عنها[2]، ويقول ابن كثير: يحتمل أن يكون عالمي زمانها، كقوله تعالى لموسى: ﴿**إني اصطفيتك على الناس**﴾، وكقوله عن بني إسرائيل: ﴿**ولقد اخترناهم على علم على العالمين**﴾، ومعلوم أن إبراهيم عليه السلام أفضل من موسى وأن محمداً ﷺ أفضل منهما، وكذلك هذه الأمة أفضل من سائر الأمم قبلها وأكثر عدداً وأفضل علماً وأزكى عملاً من بني إسرائيل وغيرهم[3].

---

(1) روى الطبري وابن كثير عدة أحاديث شريفة في فضل السيدة مريم (تفسير الطبري ١/ ٢٦٣ - ٢٦٤، تفسير ابن كثير ١/ ٥٤٢ - ٥٤٤، البداية والنهاية ٢/ ٥٩ - ٦٣).

(2) تفسير روح المعاني ٣/ ١٥٥.

(3) ابن كثير: البداية والنهاية ٢/ ٥٩.

ويؤيد الألوسي قوله بأن اصطفاء مريم على نساء عالمها، ولا يلزم منه أفضليتها على الزهراء، بضعة رسول الله ﷺ، بما أخرجه ابن عساكر عن ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال: أربع نسوة سادات عالمهن: مريم بنت عمران، وآسية بنت مزاحم وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد ﷺ وأفضلهن عالماً فاطمة»، وما رواه الحرث بن أسامة في مسنده بسند صحيح، لكنه مرسل «مريم خير نساء عالمها»، وإلى هذا ذهب أبو جعفر رضي الله تعالى عنه (أي الإمام محمد الباقر)، وهو المشهور عن أئمة أهل البيت، والذي أميل إليه (أي العلامة الألوسي): أن فاطمة البتول أفضل النساء المتقدمات والمتأخرات من حيث أنها بضعة رسول الله ﷺ، بل ومن حيثيات أخرى أيضاً، ولا يعكر على ذلك الأخبار السابقة لجواز أن يراد بها أفضلية غيرها عليها من بعض الجهات وبحيثية من الحيثيات، وبه يجمع بين الآثار، وهذا شائع على القول بنبوة مريم أيضاً، إذ البضعية من روح الوجود وسيد كل موجود ﷺ لا أرها تقابل بشيء، وأين الثريا من يد المتناول، ومن هنا يعلم أفضليتها على عائشة، رضي الله تعالى عنها، الذاهب إلى خلافها الكثير، محتجين بقوله ﷺ: «خذوا ثلثي دينكم عن الحميراء» وقوله ﷺ: «فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على الطعام»، وبأن عائشة يوم القيامة في الجنة مع زوجها رسول الله ﷺ، وفاطمة يومئذ فيها مع زوجها علي، كرم الله تعالى وجهه في الجنة، وفرق عظيم بين مقام النبي ﷺ ومقام علي كرم الله وجهه.

وأنت تعلم ما في هذا الاستدلال، وأنه ليس بنص على أفضلية الحميراء على الزهراء، أما (أولاً) فلأن قصارى ما في الحديث الأول، على تقدير ثبوته، إثبات أنها عالمة إلى حيث يؤخذ منها ثلثا الدين، وهذا لا يدل على نفي العلم المماثل لعلمها عن بضعته الزهراء ﷺ، ولعلمه ﷺ أنها لا تبقى بعده زمناً معتداً به يمكن أخذ الدين منها فيه لم يقل فيها ذلك، ولو علم لربما

قال: خذوا كل دينكم عن الزهراء، وعدم هذا القول في حق من دل العقل والنقل على علمه، لا يدل على مفضوليته، وإلا لكانت عائشة أفضل من أبيها، رضي الله تعالى عنه، لأنه لم يرو عنه في الدين إلا قليل، لقلة لبثه وكثرة غائلته بعد رسول الله ﷺ، على أن قوله ﷺ: «إني تركت فيكم الثقلين، كتاب الله تعالى وعترتي، لا يفترقان حتى يردا على الحوض»، يقام مقام ذلك الخبر وزيادة، كما لا يخفي، كيف لا، وفاطمة، رضي الله تعالى عنها، سيدة تلك العترة؟.

وأما (ثانياً) فلأن الحديث الثاني معارض بما يدل على أفضلية غيرها، رضي الله تعالى عليها، فقد أخرج ابن جرير عن عمار بن سعد أنه قال، قال لي رسول الله ﷺ: «فضلت خديجة على نساء أمتي، كما فضلت مريم على نساء العالمين» بل هذا الحديث أظهر في الأفضلية وأكمل في المدح، عند من انجاب عن عين بصيرته عين التعصب والتعسف، لأن ذلك الخبر، وإن كان ظاهراً في الأفضلية، لكنه قيل، ولو على بعد، إن «أل» في النساء فيه للعهد، والمراد بها الأزواج الطاهرات الموجودات حين الإخبار، ولم يقل مثل ذلك في هذا الحديث، وأما (ثالثاً) فلأن الدليل الثالث يستدعى أن يكون سائر زوجات النبي ﷺ أفضل من سائر الأنبياء والمرسلين، عليهم الصلاة والسلام، لأن مقامهم بلا ريب، ليس كمقام المحمود ﷺ فلو كانت الشركة في المنزل مستدعية للأفضلية، لزم ذلك قطعاً، ولا قائل به.

وبعد هذا كله، الذي يدور في خلدي: أن أفضل النساء قاطبة: فاطمة ثم أمها (خديجة) ثم عائشة، بل لو قال قائل إن سائر بنات النبي ﷺ أفضل من عائشة، لا أرى عليه بأساً، وعندي بين مريم وفاطمة توقف نظراً للأفضلية المطلقة، وأما بالنظر إلى الحيثية، فقد علمت ما أميل إليه، وقد سئل الإمام السبكي، عن هذه المسألة فقال: الذي نختاره وندين الله تعالى به، أن فاطمة بنت محمد ﷺ أفضل، ثم أمها ثم عائشة، ووافقه في ذلك البلقيني،

وقد صحح ابن العماد أن خديجة أيضاً أفضل من عائشة ، لما ثبت أنه ﷺ قال لعائشة ، حين قالت : قد رزقك الله خيراً منها ، فقال لها : لا والله ما رزقني الله تعالى خيراً منها ، آمنت بي حين كذبني الناس ، وأعطتني مالها حين حرمني الناس ، وأيد هذا بأن عائشة أقرأها السلام النبي ﷺ من جبريل ، وخديجة أقرأها السلام جبريل من ربها ، وبعضهم لما رأى تعارض الأدلة في هذه المسألة توقف فيها ، وإلى التوقف مال القاضي أبو جعفر الأستر وشنى منا ، وذهب ابن جماعة إلى أنه المذهب الأسلم ، وأشكل ما في هذا الباب حديث الثريد ، ولعل كثرة الأخبار الناطقة بخلافه تهون تأويله ، وتأويل واحد لكثير أهون من تأويل كثير لواحد ، والله تعالى هو الهادي إلى سواء السبيل[1] .

(١) تفسير روح المعاني ٣/ ١٥٥ ـ ١٥٦ (دار الفكر ـ بيروت ١٩٧٨) .

الفصل الثاني

مولد المسيح عليه السلام

السيد المسيح عيسى بن مريم : إسمه عيسى ، ولقبه المسيح ، ويكنى ابن مريم ، نسبة إلى أمه مريم بنت عمران ، وأما سبب تقديم اللقب على الاسم ، فذلك ، فيما يرى الفخر الرازي ، لأن المسيح كاللقب الذي يفيد كونه شريفاً رفيع الدرجة مثل الصديق والفاروق ، فذكره الله تعالى أولاً بلقبه ليفيد علو درجته ، ثم ذكره باسمه الخاص ، وأما نسبه لأمه ، فلأن الأنبياء إنما ينسبون إلى الآباء ، لا إلى الأمهات ، فلما نسبه الله تعالى إلى الأم ، دون الأب ، كان ذلك إعلاماً لها بأنه محدث بغير الأب ، فكان ذلك سبباً لزيادة فضله وعلو درجته[1] .

وكلمة المسيح عند أهل الكتاب تعني المخلص المنتظر الذي يتم على يديه خلاص الشعب المختار ، ومن ثم فقد أطلق على أتباع المسيح لفظ « المسيحيين » تمييزاً لهم عن اليهود[2] ، وربما تعني كلمة المسيح ، الممسوح بزيت البركة ، كما كان اليهود يفعلون عند تنصيب ملك جديد[3] ، وأما كلمة «يسوع» التي استعملت في الأناجيل فهي الصيغة الهيلينية لكلمة «يشوع» ،

---

(١) تفسير الفخر الرازي ٨/ ٥٠ .

(٢) جواد علي : المرجع السابق ٦/ ٥٨٥ .

(٣) صموئيل أول ١٠/ ١ .

وهو بالعبرية تعني «يهوه هو الخلاص»[1] ، على أنه من الجدير بالملاحظة أن هذه اللفظة اليونانية لم تستعمل في القرآن الكريم ، وكذا المؤلفات العربية القديمة ، فضلاً عن الشعر الجاهلي ، فالكلمة على ما يبدو من الكلمات المتأخرة[2] ، وإن ذهب بعض علماء المسلمين إلى أن عيسى معرب يشوع ومعناه «السيد»[3] .

وأما كلمة المسيح عند المسلمين فهي : لقب من الألقاب المشرفة كالصديق والفاروق ، وأصله مشيحاً بالعبرية ومعناه المبارك ، وقيل بمعنى مسحه الله فطهره من الذنوب ، وقيل لأنه مسح بالبركة ، وعن إبراهيم النخعي بمعنى الصديق ، وعن أبي عمرو بن العلاء بمعنى الملك ، وعن كثير من السلف أن المسيح مشتق من المسح ، واختلفوا في وجه إطلاقه على عيسى عليه السلام، فقيل لأنه مسح بالبركة واليمن ، وقد روى ذلك عن الحسن البصري وسعيد بن جبير، وعن ابن عباس لأنه كان لا يمسح ذا عاهة بيدة إلا برىء ، وعن الكلبي لأنه كان يمسح عين الأكمة فيبصر، وعن الجبائي لأنه كان يمسح بدهن زيت بورك فيه ، وكانت الأنبياء تتمسح به ، ولا يمسح به غيرهم ، وأن هذا الدهن يجوز أن يكون الله تعالى جعله علامة حتى تعرف الملائكة أن كل من مسح به وقت الولادة فإنه يكون نبيّاً ، وقيل لأن جبريل مسحه بجناحيه وقت الولادة ليكون عوزه من الشيطان الرجيم ، وقيل لأنه حين مسح الله تعالى ظهر آدم عليه السلام ، فاستخرج منه ذرات ذريته لم يرده (أي المسيح) إلى مقامه كما فعل بباقي الذرات بل حفظه عنده حتى ألقاه إلى مريم قد بقي عليه اسم المسيح أي الممسوح ، وقيل لأنه كان مسيح القدمين لا أخمص لهما ، وقيل لكثرة سياحته ، فقد كان يمسح الأرض بالسياحة لا

---

(١) فيلب حتي : المرجع السابق ص ٣٦٣ .

(٢) Hughes, Dictionary of Islam, P. 431.

(٣) تفسير روح المعاني ٣/ ١٦١ .

يستوطن مكاناً، أو لأنه كان يمسح رأس اليتامى لله تعالى، أو لأنه خرج من بطن أمه ممسوحاً بالدهن[1].

وأما أتباع المسيح فيسمون «النصارى»، والنصارى جمع واحدهم «نصراني»، بإسقاط الياء فيما يرى «سيبويه»، والأنثى «نصرانية» وهي نكرة يعرف بالألف واللام، وذهب الخليل إلى أن واحد النصارى «نصري» هذا وقد سمع في جمعهم أنصار، والكلمة ليست عربية أصلية، وإنما معربة عن السريانية من كلمة «نصريو أو نصراياً» على رأي[2]، ومن التسمية العبرية «الناصريين» أو «النذيريين» حيث أطلقها اليهود على أتباع السيد المسيح، على رأي آخر[3]، على أن البعض إنما يرى أن للكلمة صلة بالناصرة، بلد المسيح عليه السلام، فعن ابن عباس: إنما سميت النصارى نصارى، لأن قرية عيسى بن مريم كانت تسمى «الناصرة»، وكان أصحابها يسمون «الناصريين» وكان يقال لعيسى «الناصري»، أو نسبة إلى الناصريين إحدى الفرق اليهودية القديمة المنتصرة، أو أنهم سموا النصارى لتناصرهم فيما بينهم، وقد يقال لهم أنصار أيضاً، كما قال عيسى عليه السلام: «من أنصاري إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله»[4]، وقد بقي اليهود يطلقون كلمة النصارى على من اتبع دين المسيح، وبهذا المعنى وردت الكلمة في

---

(١) تفسير الطبري ٣/ ٢٧٠ تفسير ابن كثير ١/ ٥٤٥، تفسير روح المعاني ٣/ ١٦١، تفسير الكشاف ١/ ٢٧٨، صفوة التفاسير ١/ ٢٠١، لسان العرب ٢/ ٥٩٤، تفسير النسفي ١/ ١٥٨، تفسير الفخر الرازي ٨/ ٤٩ ـ ٥٠، تفسير المنار ٣/ ٢٥١ ـ ٢٥٢.

(٢) لسان العرب ٧/ ٦٨، تفسير الطبري ١/ ٣١٨، تفسير القرطبي ص ٣٦٩، تفسير ابن كثير ١/ ١٥٦، تفسير البحر المحيط ١/ ٢٣٨، معاني القرآن للفراء ١/ ٤٤، أمالي ابن الشجري ١/ ٧٩، ٣٧١، غرائب اللغة ص ٢٠٧، وكذا EI, III, P. 848.

(٣) أعمال الرسل ٢٤/ ٥، وكذا J. Hastings, ERE, 3, P. 574.

(٤) تفسير الطبري ١/ ٣١٨، تفسير ابن كثير ١/ ١٥٦.

القرآن الكريم، ومن ثم فقد أصبحت النصراينة علماً على ديانة المسيح عند المسلمين[1].

وأما النصارى أنفسهم فقد كان القدامى منهم ينظرون إلى السيد المسيح نظرتهم إلى «المعلم»، ومن ثم فقد كانوا يسمون أنفسهم «التلاميذ» و «تلاميذ المسيح»[2]، والأمر كذلك بالنسبة إلى نظرتهم إلى «الحواريين» (وهي لفظة أرامية على رأي، وعربية على رأي آخر، وحبشية على رأي ثالث)[3]، كما دعوا أنفسهم «الأخوة» و «الأخوة في الله»، على أساس أن العقيدة الدينية قد آخت بينهم[4]، ثم سرعان ما أصبحت الكلمة مقصورة على رجال الدين الذين دعوا أنفسهم «القديسيين» و «الأخوة المؤمنين في المسيح» و «المقدسين في المسيح يسوع المدعوين قديسيين»[5]، هذا وقد عرف النصارى كذلك «بالمسيحيين»، ونقرأ في أعمال الرسل أن «برنابا» قد خرج إلى طرطوس، وهناك التقى بشاؤل حيث جاء به إلى أنطاكية وبقيا هناك عاماً يعلمان جمعاً غفيراً من الكنيسة ودعي التلاميذ «مسيحيين» في أنطاكية أولاً[6]، كما نقرأ أيضاً «فقال أغريباس لبولس بقليل تقنعني أن أصير مسيحياً»[7]، وربما كانت الكلمة نسبة إلى السيد المسيح، هذا وقد أطلق

---

(١) سورة البقرة: آية ٦٢، المائدة: آية ١٨، ٥١، ٦٩، ٨٢، التوبة: آية ٣٠، الحج: آية ١٧، وانظر: محمد بيومي مهران: الديانة العربية القديمة الإسكندرية ١٩٧٨ ص ٥٩ - ٧٠، ١٠٣ - ١٠٧.

(٢) J. Hastings, Dictionary of the Bible, 1936, P. 192.

(٣) الأب لويس شيخو: النصرانية وآدابها بين عرب الجاهلية - بيروت ١٩٣٣ ص ١٨٩، المشرق - السنة السابقة ١٩٠٤ م ص ٦٢٠.

(٤) J. Hastings, op - cit, P. 104.

(٥) أعمال الرسل ١/ ١٥ - ١٦، رسالة بولس الرسول الأولى إلى أهل كورنثوس ١/ ٢، ١٠.

(٦) أعمال الرسل ١١/ ٢٥ - ٢٦.

(٧) أعمال الرسل ١١/ ٢٦، ٢٦/ ٢٨، رسالة بولس الرسول الأولى إلى أهل كورنثوس ٤/ ١٦، وكذا J. Hastings, op - cit, P. 127.

القرآن الكريم على النصارى «أهل الإنجيل» في قوله تعالى: **﴿وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه، ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون﴾**[١] .

وعلى أي حال، فالمسيح عيسى بن مريم هو عبد الله ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم البتول العذراء، الطاهرة العفيفة التي أحصنت فرجها وصدقت بكلمات ربها وكتبه، وكانت من القانتين، ويمثل المسيح عليه السلام آخر طور من أطوار الديانة الإسرائيلية، فهو آخر أنبياء بني إسرائيل، وقد جعله الله عز وجل، هو وأمه، آية في ولادتهما ونشأتهما، قال تعالى: **﴿والتي أحصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا وجعلناها وابنها آية للعالمين﴾**[٢]، يقول الرازي: وأما مريم فآياتها كثيرة، أحدها: ظهور الحبل فيها، لا من ذكر، فصار ذلك آية ومعجزة خارقة عن العادة، وثانيها: أن رزقها كان يأتيها به الملائكة من الجنة، وهو قوله تعالى: **﴿أنى لك هذا، قالت هو من عند الله﴾**، وثالثها ورابعها: قال الحسن البصري: إنها لم تلتقم ثدياً يوماً قط، وتكلمت هي أيضاً في صباها، كما تكلم عيسى عليه السلام[٣]، وأما آيات عيسى عليه السلام، فسوف نتحدث عنها بالتفصيل في مكانها من هذه الدراسة، ويقول تعالى: **﴿وجعلنا ابن مريم وأمه آية، وآويناهما إلى ربوة ذات قرار ومعين﴾**[٤]، أما الآية فهي آية غير مسبوقة ولا ملحوقة (أعني ولادة مريم للمسيح من غير مسيس)، آية فذة واحدة في تاريخ البشرية جميعاً، ذلك أن المثل الواحد من هذا النوع يكفي لتتأمله البشرية في أجيالها

---

(١) سورة المائدة: آية ٤٧.

(٢) سورة الأنبياء: آية ٩١.

(٣) تفسير الفخر الرازي ٢٢/ ٢١٨.

(٤) سورة المؤمنون: آية ٥٠.

جميعاً، وتدرك يد القدرة الطليقة التي تخلق النواميس، ولكنها لا تحتبس داخل النواميس[1] .

وأما الربوة المشار إليها في الآية الكريمة، فقد اختلفت الروايات في تحديدها، بين مصر ودمشق وبيت المقدس[2]، ورغم أنه ليس المهم تحديد موضعها، وإنما المقصود هو الإشارة إلى إيواء لمريم وابنها في مكان طيب، ينضر فيه النبت، ويسيل فيه الماء، ويجدان فيه الرعاية والإيواء[3]، وعلى آية حال، فلقد ذهبت رواية الإنجيل إلى أنها مصر[4]، وإلى هذا ذهب الطبري في التاريخ[5]، وكذا ابن خلدون الذي يرى أنهما أقاما بمصر اثنى عشر سنة[6]، وكذا ابن كثير الذي يروي عن وهب بن منبه أن عيسى لما بلغ ثلاث عشرة سنة أمره الله أن يرجع من بلاد مصر إلى بيت إيليا (بيت المقدس) فقدم عليه يوسف ابن خال أمه، فحملها على حمار حتى جاء بهما إلى إيليا، وأقام بها حتى أحدث الله له الإنجيل وعلمه التوراة وأعطاه إحياء الموتى وإبراء الأسقام والعلم بالغيوب مما يدخرون في بيوتهم، وتحدث الناس بقدومه وفزعوا لما كان يأتي من العجائب فجعلوا يعجبون منه، فدعاهم إلى الله ففشا فيهم أمره[7]، وكذا ذهب اليعقوبي وابن الأثير في تاريخها، والألوسي في تفسيره، إلى أنها مصر[8] .

---

(١) في ظلال القرآن ٤/ ٢٣٩٥ .

(٢) أنظر: تفسير الطبري ١٨/ ٢٦ - ٢٨، تفسير روح المعاني ١٨/ ٣٧ - ٣٩، تفسير ابن كثير ٣/ ٣٩٤ - ٣٩٥، تفسير النسفي ٣/ ١٢١، تفسير الفخر الرازي ٢٣/ ١٠٢ - ١٠٣ .

(٣) في ظلال القرآن ٤/ ٢٤٦٩ .

(٤) إنجيل متي ٢/ ١٣ - ١٥ .

(٥) تاريخ الطبري ١/ ٥٩٧ .

(٦) تاريخ ابن خلدون ٢/ ١٧٢ .

(٧) ابن كثير: البداية والنهاية ٢/ ٧٧ .

(٨) تاريخ اليعقوبي ١/ ٦٩، الكامل لابن الأثير ١/ ١٧٨، تفسير روح المعاني ١٨/ ٣٨ - ٣٩ .

وأيا كان مكان هذه الربوة، فما يهمنا الآن الإشارة إلى أن الشعب الإسرائيلي في ذلك الوقت إنما كان قد فقد الروح الديني الصحيح، وجمد على الطقوس والمراسيم وأشكال العبادة، وارتكب الجرائم المروعة التي أشار القرآن الكريم إلى بعضها[1]، فأراد الله أن يهز في هذا الشعب ما جمد من عواطفه، ويحرك فيه المعاني الروحية التي نسيها، فأجرى له ثلاث آيات كبار، جاءت متتابعة متقاربة، الأولى في ولادة مريم، والثانية في ولادة يحي، وأما الثالثة فكانت في ولادة المسيح، وذلك أن مريم البتول ما أن بلغت مبلغ النساء، حتى أراد الله أن يجعل لها من الكرامة ما لم يتيسر لغيرها من نساء العالمين، فهيأ لها الحمل دون تتوافر لها أسبابه، وذلك بأن جاءها جبريل، في أرجح الآراء، في صورة فتى غض الشباب فتملكها الرعب والخوف، وظنت أنه يريد بها السوء، ومن ثم فهي تنتفض منه انتفاضة العذراء يفجؤها رجل في خلوتها، فتلجأ إلى الله تستعيذ به وتستنجد وتستثير مشاعر التقوى في نفس الرجل، والخوف من الله والتحرج من رقابته في هذا المكان الخالي «قالت إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقياً»، فالتقى ينتفض وجدانه عند ذكر الرحمن، ويرجع عن دفعة الشهوة ونزغ الشيطان[2].

وروى عن ابن عباس: جاءها في صورة شاب أبيض الوجه جعْد الشعر مستوى الخلقة[3]، قال المفسرون: إنما تمثل لها في صورة الإنسان لتستأنس بكلامه ولا تنفر عنه، ولو بدا لها في الصورة الملكية لنفرت ولم تقدر على السماع لكلامه، ودل على عفافها وورعها أنها تعوذت بالله من تلك الصورة الجملية الفائقة في الحسن[4]، ويقول الفخر الرازي إن في

---

(١) أنظر: سورة آل عمران: آية ٣٦، النساء: آية ١٦٠ - ١٦١.

(٢) في ظلال القرآن ٤/ ٢٣٠٥.

(٣) زاد المسير ٥/ ٢١٧.

(٤) تفسير البحر المحيط ٦/ ١٨٠، تفسير النسفي ٣/ ٣١.

قوله تعالى: ﴿**قالت إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقياً**﴾ وجوه، أحدها: أرادت إن كان يرجى منك أن تتقي الله ويحصل ذلك بالإستعاذة بالله، فإني عائذة به منك، وهذا في نهاية الحسن لأنها علمت أنه لا تؤثر الإستعاذة إلا في التقي، وهو كقوله: ﴿**وذروا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين**﴾، أي أن شرط الإيمان يوجب هذا، لا أن الله يخشى في حال دون حال، وثانيها: أن معناه ما كنت تقياً حين استحللت النظر إلي وخلوت بي، وثالثها: أنه كان في ذلك الزمان إنسان فاجر اسمه «تقي» يتبع النساء فظنت مريم أن ذلك الشخص المشاهد هو ذلك التقي، والأول هو الوجه[1]، ومن ثم ذهب الألوسي إلى أن من قال إن «تقياً» إسم رجل صالح أو حتى طالح، ليس بسديد[2].

وعلى أية حال، فلقد أخبرها جبريل عليه السلام أن الله تعالى أرسله إليها ليهب لها غلاماً زكياً، يكون له شأن عجيب، ويهبه الله النبوة والحكمة وحينئذٍ تملكها العجب، وأدركتها شجاعة الأنثى المهددة في عرضها، فتسأل في صراحة ﴿**أني يكون لي غلام ولم يمسسني بشر ولم أك بغيا**﴾، ويبدو من سؤالها أنها لم تكن تتصور حتى اللحظة وسيلة أخرى لأن يهبها غلاماً، إلا الوسيلة المعهودة بين الذكر والأنثى، وهذا هو الطبيعي بحكم التصور البشري، ﴿**قال كذلك قال ربك هو على هين ولنجعله آية للناس ورحمة منا**﴾[3]. وفي سورة آل عمران تفصيل أكثر عن الغلام المبشر به ﴿**قالت الملائكة يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى بن مريم وجيهاً في الدنيا والآخرة ومن المقربين، ويكلم الناس في المهد وكهلاً ومن الصالحين**﴾[4]، وهكذا بشرت الملائكة مريم بكلمة من الله اسمه المسيح

---

(١) تفسير الفحر الرازي ٢١/ ١٩٧ - ١٩٨.

(٢) تفسير روح المعاني ١٦/ ٧٧.

(٣) سورة مريم: آية ٢٠ - ٢١، في ظلال القرآن ٤/ ٢٣٠٦.

(٤) سورة آل عمران: آية ٤٥ - ٤٦، وانظر: تفسير الطبري ٣/ ٢٦٩ - ٢٧٣، تفسير ابن كثير ١/ =

عيسى ابن مريم، فتضمنت البشارة نوعه، وتضمنت اسمه ونسبه، وظهر من هذا النسب أن مرجعه لأمه، ثم تضمنت البشارة كذلك صفته ومكانه من ربه **﴿وجيهاً في الدنيا والآخرة ومن المقربين﴾**، كما تضمنت ظاهرة معجزة تصاحب مولده **﴿ويكلم الناس في المهد﴾**، ولمحة من مستقبله «وكهلاً»، وسمته والموكب الذي ينتسب إليه «ومن الصالحين»، فأما مريم الفتاة الطاهرة العذراء المقيدة بما لوف البشر في الحياة، فقد تلقت البشارة كما يمكن أن تتلقاها فتاة، واتجهت إلى ربها تناجيه وتتطلع إلى كشف هذا اللغز الذي يحيّر عقل الإنسان: **﴿إني يكون لي ولد ولم يمسسني بشر، قال كذلك الله يخلق ما يشاء إذا قضي أمراً فإنما يقول له كن فيكون﴾**، وحين يرد الأمر إلى هذه الحقيقة الأولية يذهب العجب وتزول الحيرة ويطمئن القلب، وهكذا كان القرآن يجلو الشبهات التي تعقدها الفلسفات المعقدة، ويقر الأمر في القلوب وفي العقول سواء[1].

وعلى أية حال، فليس هناك من ريب في أن ولادة المسيح عيسى بن مريم، على هذا الوضع العجيب آية بالغة على كمال قدرة الله على أنواع الخلق، فإنه تعالى خلق آدم من غير ذكر ولا أنثى، وخلق عيسى من أنثى بلا ذكر، وخلق حواء من ذكر بلا أنثى، وخلق بقية الخلق من ذكر وأنثى، يقول ابن كثير: فتمت القسمة الرباعية الدالة على كمال قدرته وعظيم سلطانه، فلا إله غيره ولا رب سواه[2]، وعلى هذا المنوال الأخير من الخلق (أي من ذكر وأنثى) جرت سنة الله التي وضعها لامتداد الحياة بالتناسل من ذكر وأنثى في

= ٥٤٥، تفسير النسفي ١/ ١٥٨، تفسير روح المعاني ٣/ ١٥٩ - ١٦٤، تفسير الفخر الرازي ٨/ ٤٦ - ٥٢، تفسير الكشاف ١/ ٢٧٧ - ٢٧٨، تفسير القرطبي ص ١٣٣٠ - ١٣٣١، تفسير المنار ٣/ ٢٤٩ - ٢٥٥، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ١/ ١٨٢ - ١٨٣.

(١) في ظلال القرآن ١/ ٣٩٨.

(٢) تفسير ابن كثير ٣/ ١٨٧.

جميع الفصائل والأنواع بلا استثناء ، حتى المخلوقات التي لا يوجد فيها ذكر وأنثى متميزان ، تتجمع في الفرد الواحد منها خلايا التذكير والتأنيث ، جرت هذه السنة أحقاباً طويلة حتى استقر في تصور البشر أن هذه هي الطريقة الوحيدة ، ونسوا الحادث الأول ، حادث وجود الإنسان لأنه خارج عن القياس ، فأراد الله أن يضرب لهم مثل عيسى بن مريم عليه السلام ، ليذكرهم بحرية القدرة وطلاقة الإرادة ، وأنها لا تحتبس داخل النواميس التي تختارها ، ولم يتكرر حادث عيسى ، لأن الأصل هو أن تجري السنة التي وضعها الله ، وأن ينفذ الناموس الذي اختاره ، وهذه الحادثة الواحدة تكفي لتبقى أمام أنظار البشرية معلماً بارزاً على حرية المشيئة ، وعدم احتباسها داخل حدود النواميس ﴿ولنجعله آية للناس﴾ ، ونظراً لغرابة الحادث وضخامته ، فقد عزّ على فرق من الناس أن تتصوره على طبيعته وأن تدرك الحكمة في إبرازه ، فجعلت تضفي على عيسى بن مريم عليه السلام ، صفات الألوهية ، وتصوغ حول مولده الخرافات والأساطير ، وتعكس الحكمة من خلقه على هذا النحو العجيب ، وهي إثبات القدرة الإلهية التي لا تتقيد ، تعكسها فتشوه عقيدة التوحيد[1] ، بينما تدنت آراء أخرى إلى الحضيض ، فاتهمت الطاهرة البتول بما هي منه براء .

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أنه من البشارات التي جاءت في الإنجيل عن سيدنا محمد رسول الله ﷺ قول المسيح عليه السلام: «ذاك يمجدني»[2] ، والقرآن الكريم ، كما رأينا من قبل ، حافل بآيات الدفاع عن السيد المسيح وأمه الطاهرة البتول ، ودفع الشبهات عنه بالحجة البالغة ، والاعتراف به عبداً لله تعالى ، ورسولاً إلى بني إسرائيل ، وقد أيده الله تعالى بالإنجيل والروح القدس ، ومن البدهي أنه ليس هناك من تمجيد ، أرفع ، ولا

---

(١) في ظلال القرآن ٤/ ٢٣٠٤ ـ ٢٣٠٥ .

(٢) إنجيل يوحنا ١٦/ ١٤ .

دفاع أقوى وأشرف، مما جاء في كتاب الله الكريم ـ القرآن الكريم[1] ـ من ثناء وتقدير وتكريم للسيد المسيح عليه السلام، وتبرئه لعرضه، وعرض أمه مريم الطاهرة البتول العذراء مما اتهمها به اليهود[2]، من ذلك قوله تعالى: ﴿وإذ قالت الملائكة يا مريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء

---

(١) أنظر مثلاً: سورة آل عمران: آية ٣٥ ـ ٣٧، ٤٢ ـ ٥١، سورة مريم: آية ١٦ ـ ٣٥.

(٢) يروى التلمود أن يسوع الناصري (وحاشاه أن يكون كما وصفه اليهود كذباً وافتراء) ارتد عن ديانة اليهود وعبد الأوثان، وكل مسيحي لم يتهود فهو وثني عدو لليهود، كما يسمى التلمود السيد المسيح «ابن البخار» (ربما يقصد اليهود يوسف البخار خطيب السيدة مريم الذي لم يدخل بها كما تذكر الأناجيل) على نحو ما كان اليهود يطلقون عليه أثناء حياته، ويصفه بأنه كان ساحراً ووثنياً ومجنوناً وكافراً لا يعرف الله، ومن ثم فإن المسيحيين إنما هم كفرة مثله، وأن الطقوس الدينية المسيحية نوع من عبادة الأصنام، وأن أمه مريم قد أتت به من العسكري الروماني «باندارا» بمباشرة الزنا.

ويشير اليهود إلى «يوسف باندارا» الذي عاش في الجليل، وعرف بالفسق والفجور، إلى جانب شكله الحسن، ثم أقدم على التغرير بالفتاة «ميريام» (مريم) ابنة الأرملة، وهناك كتاب يهودي يحكي القصة بأكملها، ويرجع تاريخه إلى القرن الثاني أو الثالث الميلادي، استخدمه اليهود في الهجوم على المسيحية وتحقيرها ويسمى «سفر حياة يشوع» (Sepher Toldot: Book of the Generation of Jesus, The Jewish Life of Christ) ويبدو أن الكتاب قد وقع في أيدي الكنيسة في أواسط القرن الثالث عشر الميلادي، وقد نشر الراهب الدومينيكي «ريموند مارتن» (١٢٢٥ ـ ١٢٨٤ م) بعض من مقتطفات من «سفر حياة يسوع» دون ذكر اسمه في مقدمة كتابه «خنجر الإيمان أو سيف الدين» (Raymund Martin, Pugio Fidei Adversus Mauros et Judaeos, 1278) الذي نشره للدفاع عن الدين المسيحي ضد تحديات اليهود وأكاذيبهم المفتراة، ثم قام «مارتن لوثر» (١٤٨٣ ـ ١٥٤٦ م) زعيم الإصلاح البروتستاني، بترجمة «سفر حياة يسوع» إلى الألمانية، كما نشره المستشرق الألماني «يوحنا كريستوني فاجنزايل»، فوضع النص اللاتيني مقابل النص العبري في مجموعته الشهيرة التي ضمت العديد من النصوص والكتابات اليهودية التي تضمر العداء للمسيحية، ثم عكف على دحض كل ما فيها من تهجمات وافتراءات (Johsnn Christoph Wegenseil, Tela Ignea Satanae, Altdorf, 1681) وانظر: محمد بيومي مهران: إسرائيل ـ الكتاب الثالث ـ التوراة والتلمود ـ الاسكندرية ١٩٧٩ ص ٤٤٥ ـ ٤٥١.

العالمين﴾[1] ، وهنا يجب أن نلاحظ أمرين : أحدهما : أن القرآن الكريم لم يذكر اسم أية امرأة ، إلا مريم بنت عمران ، أم المسيح عليهما السلام ، والهدف واضح هو ألا يكون في براءتها وطهرها أية ريبة لمستريب ، وثانيهما : أن القرآن الكريم قد أطلق اسمها على سورة من سوره ، الأمر الذي لم يحدث لغيرها من النساء ، وفي حاشية الصاوي على الجلالين : قال بعض العلماء : إن الحكمة في أن الله لم يذكر في القرآن امرأة باسمها ، إلا «مريم» هي الإشارة من طرف خفي إلى رد ما قاله النصارى من أنها زوجته ، فإن العظيم يأنف من ذكر اسم زوجته بين الناس ولينسب إليها عيسى باعتبار عدم وجود أب له ، ولهذا قال تعالى : **﴿اسمه المسيح عيسى بن مريم﴾**[2] .

ويستمر السياق القرآني فيذكر مشهداً جديداً من القصة ، يقول تعالى : **﴿فحملته فانتبذت به مكاناً قصياً، فأجاها المخاض إلى جذع النخلة قالت يا ليتني مت قبل هذا وكنت نسياً منسياً﴾**[3] ، ولا يذكر السياق القرآني كيف حملت مريم وليدها المبارك ، ولا كم حملته ، وهل كان حملاً عادياً كما تحمل النساء ، وتكون النفخة قد بعثت الحياة والنشاط في البويضة فإذا هي علقة فمضغة فعظام ثم تكسى باللحم ويستكمل الجنين أيامه المعهودة؟ إن هذا جائز ، فبويضة المرأة تبدأ بعد التلقيح في النشاط والنمو حتى تستكمل تسعة أشهر قمرية ، والنفخة تكون قد أدت دور التلقيح فصارت البويضة سيرتها الطبيعية ، كما أنه من الجائز في مثل هذه الحالة الخاصة ألا تسير البويضة بعد النفخة سيرة عادية ، فتنحصر المراحل اختصاراً ، ويعقبها تكوين

---

(1) سورة آل عمران : آية ٤٢ ، وانظر : تفسير الفخر الرازي ٨/ ٤٢ - ٤٤ ، تفسير الطبري ٣/ ٢٦٢ - ٢٦٤ ، تفسير ابن كثير ١/ ٥٤٢ - ٥٤٤ ، تفسير النسفي ١/ ١٥٧ - ١٥٨ ، تفسير روح المعاني ٣/ ١٥٤ - ١٥٦ ، تفسير القرطبي ص ١٣٢٤ - ١٣٢٦ ، تيسير الكريم الرحمن ١/ ١٨٢ ، تفسير المنار ٣/ ٢٤٦ - ٢٤٧ .

(2) صفوة التفاسير ١/ ٢٠٤ .

(3) سورة مريم : آية ٢٢ - ٢٣ .

الجنين ونموه واكتماله في فترة وجيزة ، ليس في النص ما يدل على إحدى الحالتين[1] ، ومن ثم فقد اختلف العلماء في مدة حمل مريم بعيسى على وجوه ، الأول : قول ابن عباس أنها كانت تسعة أشهر ، كما في سائر النساء بدليل أن الله تعالى ذكر مدائحها في هذا الموضع ، فلو كانت عادتها في مدة حملها بخلاف عادات النساء لكان ذلك أولى بالذكر ، والثاني : أنها كانت ثمانية أشهر ، ولم يعش مولود وضع لثمانية ، إلا عيسى بن مريم عليه السلام ، والثالث : قول عطاء وأبي العالية والضحاك سبعة أشهر ، والرابع : أنها كانت ستة أشهر ، والخامس : ثلاث ساعات ، حملته في ساعة ، وصور في ساعة ، ووضعته في ساعة ، والسادس : قول آخر لابن عباس كانت مدة الحمل ساعة واحدة ، ما هي إلا أن حملت فوضعت ، واستدل عليه من وجهين ، أولهما : قوله تعالى : **﴿فحملته فانتبذت به فأجاءها المخاض فناداها من تحتها﴾** ، والفاء للتعقيب فدلت هذه الفاءات على أن كل واحدة من هذه الأحوال حصل عقيب الآخر من غير فصل ، وذلك يوجب كون مدة الحمل ساعة واحدة ، لا يقال انتباذها مكاناً قصياً كيف يحصل في ساعة واحدة ، لأن السُّدى فسرها بأنها ذهبت إلى أقصى موضع في جانب محرابها ، وثانيهما : أن الله تعالى قال في وصف عيسى : **﴿إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون﴾** ، فثبت أن عيسى كما قاله الله تعالى : **﴿كن فيكون﴾** ، وهذا مما لا يتصور فيه مدة الحمل ، وإنما تعقل المدة في حق من يتولد من النطفة[2] ، وأخيراً فإن «إليان» وأشياعه من النصارى إنما يذهبون إلى أن مريم لم تحبل بعيسى تسعة أشهر ، وإنما مرّ في بطنها كما يمر الماء في الميزاب ، لأن الكلمة دخلت في أذنها ، وخرجت من حيث يخرج الولد من

(١) في ظلال القرآن ٤/ ٢٣٠٦ .

(٢) تفسير الفخر الرازي ٢١/ ٢٠٢ ، تفسير روح المعاني ١٦/ ٧٩ - ٨٠ وانظر : تفسير الطبري ١٦/ ٦٥ ، تفسير النسفي ٣/ ٣٢ ، تفسير ابن كثير ٣/ ١٨٨ - ١٨٩ ، البداية والنهاية ٢/ ٦٥ - ٦٦ ، الكامل لابن الأثير ١/ ١٧٦ .

ساعتها[1]، هذا واختلفوا كذلك في سن مريم يوم حملت بالسيد المسيح، بين أن تكون بنت عشر سنين أو خمس عشرة أو سبع عشرة أو عشرين، وقيل أنها كانت حاضت حيضتين قبل أن تحمل، وليس في القرآن ما يدل على شيء من هذه الأحوال[2].

وأيا ما كان الأمر، فلقد حملت مريم الطاهرة البتول بالمسيح، كلمة الله وروحه، ثم انتبذت به مكاناً قصياً، وقد اختلف المفسرون في المكان الذي انتبذت مريم بعيسى لوضعه، وأجاءها إليه المخاض، فقال بعضهم: كان ذلك في أدنى أرض مصر، وآخر أرض الشام، وذلك أنها هربت من قومها لما حملت، فتوجهت نحو مصر هاربة منهم[3]، على أن هناك رواية أخرى، وهي الأرجح، أنها ولدته في «بيت لحم»[4]، ويؤكده أن أحاديث الإسراء من رواية النسائي عن أنس، والبيهقي عن شداد بن أنس، أن ذلك كان في بيت لحم، وهو المشهور، ولا يشك النصارى أن المسيح ولد في بيت لحم[5]، وفي مروج الذهب يقول المسعودي أن مولد المسيح كان في يوم الأربعاء (الثلاثاء عند اليعقوبي) لأربع وعشرين ليلة خلت من كانون الأول (ديسمبر)[6]، وقال ابن العميد، مؤرخ النصارى، فيما يروي عنه ابن

(١) في ظلال القرآن ٢/ ٨٦٤.

(٢) تفسير الفخر الرازي ٢١/ ٢٠١، تفسير النسفي ٣/ ٣٢ مروج الذهب للمسعودي ١/ ٧٦، الكامل لابن الأثير ١/ ١٧٥.

(٣) تفسير الطبري ١٦/ ٦٤ (بيروت ١٩٨٤).

(٤) بيت لحم: مدينة على مبعدة خمسة أميال جنوب القدس، وقد بنت الامبراطور «هيلانة» حوالي عام ٣٣٠ م كنيسة هناك فوق المغارة التي يظن النصارى أن المسيح ولد فيها، وهي أقدم كنيسة مسيحية في العالم (قاموس الكتاب المقدس ١/ ٢٠٥ - ٢٠٦ وكذا M. F. Unger, op - cit, P. 140) ولكن القرآن الكريم يذكر أنه ولد عند جذع نخلة (مريم آية ٢٣) ومن ثم فالصحيح أنه ولد عند جذع نخلة أو عند بيت لحم، وليس في مغارة.

(٥) تفسير ابن كثير ٣/ ١٨٩، تاريخ ابن خلدون ٢/ ١٧١، وانظر: إنجيل متي ٢/ ١ - ٦، لوقا ٢/ ٤ - ٦.

(٦) مروج الذهب للمسعودي ١/ ٧٦، تاريخ اليعقوبي ١/ ٦٨.

خلدون، ولد المسيح لثلاثة أشهر من ولادة يحي بن زكريا، عليهم السلام، ولإحدى وثلاثين من دولة هيرودوس الأكبر، ولاثنتين وأربعين من ملك أوغسطس قيصر[1].

على أن المؤرخين المحدثين إنما يختلفون في تاريخ مولد السيد المسيح، وإن كان الخلاف محصوراً في سنوات قلائل، فلقد كان مولد المسيح على أيام أول قياصرة روما «أوغسطس» (٢٧ ق. م - ١٤ م)، وعلى أيام «هيرودوس الكبير» (٣٧ - ٤ ق. م) حاكم اليهودية من قبل الحاكم الروماني «بيلاطس النبطي»، وعلى أيام «الحارث الرابع» (٩ ق. م - ٤٠ م) ملك الأنباط، هذا ويذهب البعض إلى أن السيد المسيح إنما قد ولد فيما بين عامي ٦، ٢ قبل الميلاد، بينما يذهب فريق ثان إلى أنه ولد عام ٥ قبل الميلاد أو أوائل عام ٤ قبل الميلاد، أما الاحتفال بمولده في ٢٥ ديسمبر، فقد بدأ في القرن الرابع الميلادي، ومن ثم فربما كان مولده في ٢٥ ديسمبر عام ٥ ق. م، وهذا يجعله سابقاً للتاريخ الذي وضعه «ديونيسيوس» في ٢٥ ديسمبر عام ١ م، بخمس سنوات، على أن هناك فريقاً رابعاً يرى أن مولد المسيح كان في عام ٤ م، وأنه رفع إلى السماء في عام ٢٧ م، وربما في ٢٣ مارس عام ٢٩ م، وهذا يجعله وكأنه عاش ٢٣ سنة أو ٢٥ سنة، مع أن المشهور أنه عاش ثلاثاً وثلاثين سنة، وأخيراً فهناك من يرى أن المسيح عليه السلام إنما بدأ دعوته، وقد ناهز الثلاثين من عمره في عهد الامبراطور «تيبريوس» (١٤ - ٣٧ م)، وكان حاكم اليهودية من قبل الرومان «هيرودوس أنتيباس» (٦ - ٣٩ م) الابن الثاني لهيرودوس الكبير[2]

---

(١) تاريخ ابن خلدون ٢/ ١٧١.

(٢) هـ. ج. ويلز: تاريخ العالم - القاهرة ١٩٦٧ ص ١٧٢ - ٤١٦ (مترجم)، فيلب حتي: المرجع السابق ١/ ٣١١ - ٣١٢، ٢٦٣، محمد بيومي مهران: إسرائيل ١/ ٣٥٩، ٢/ ١١٤٥، وكذا Josephus, Antiquities, XIV, 8, 3, 5, XV, 6, 4, The Jewish War, I, XIII, 8.

هذا وقد يحدثنا العهد الجديد أن هيرودوس علم أن مجوساً من المشرق قد جاءوا إلى أورشليم يسألون عن المولود ملك اليهود، ومن ثم فقد جمع رؤساء الكهنة وسألهم أين يولد المسيح، فأخبروه أنه يولد في بيت لحم، ومن ثم فقد أسرع الطاغية فأمر بقتل جميع الأطفال في بيت لحم وفي كل تخومها، من ابن سنتين فمادونها، وهنا رأي يوسف النجار، فيما يرى النائم، من يأمره بأن يأخذ الصبي وأمه (المسيح ومريم البتول) وأن يلجأ بهم إلى أرض الكنانة، حيث بقوا هناك إلى مات هيرودوس، ثم عادوا من مصر إلى اليهودية، ولكنهم لم يقيموا في بيت لحم وإنما أقاموا في الناصرة بأرض الجليل، خوفاً على السيد المسيح من «أرخيلاوس» ابن هيرودوس وخليفته[1].

وأما مكان الولادة فكان، كما جاء في القرآن الكريم، عند جذع نخلة، قال تعالى: **﴿فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة﴾**[2]، وقال الزمخشري في الكشاف: كان جذع نخلة يابسة في الصحراء، ليس لها رأس ولا ثمر ولا خضرة، وكان الوقت شتاء، والتعريف إما أن يكون من تعريف الأسماء الغالبة كتعريف النجم والصعق، كأن تلك الصحراء كان فيها جذع نخلة مشهور عند الناس، فإذا قيل جذع النخلة فهم منه ذلك دون سائره، وإما أن يكون تعريف الجنس، أي إلى جذع هذه الشجرة خاصة، كان الله قد أرشدها إلى النخلة ليطعمها منها الرطب الذي هو أشد الأشياء موافقة للنفساء، ولأن النخلة أقل الأشياء صبراً على البرد، ولا تثمر إلا عند اللقاح، وإذا قطعت رأسها تثمر، فكأنه تعالى قال: كما أن الأنثى لا تلد إلا مع الذكر، فكذا النخلة لا تثمر إلا مع اللقاح، ثم إني أظهر الرطب من غير لقاح، ليدل ذلك

---

(١) متي ٢/ ١ - ٢٣ وكذا C. Roth, op - cit, P. 109 وكذا M. Unger, op - cit, P. 471.

(٢) سورة مريم: آية ٢٣.

على ظهور الولد من غير ذكر[1].

وعلى أية حال، فبينما كانت البتول الطاهرة تستند إلى جذع النخلة إبان الوضع: ﴿ **قالت يا ليتني مت قبل هذا وكنت نسياً منسياً** ﴾[2]، مع أنها كانت تعلم أن الله تعالى بعث جبريل إليها، وخلق ولدها من نفخ جبريل عليه السلام، ووعدها بأن يجعلها وابنها آية للعالمين[3]، وإنما قالت ذلك استحياء من الناس وخوفاً من لائمتهم، أو حذراً من وقوع الناس في المعصية بما يتكلمون فيها، قال ابن كثير: في الآية دليل على جواز تمني الموت عند الفتنة، فإنها عرفت أنها ستبتلي وتمتحن بهذا المولود الذي لا يحمل الناس أمرها فيه على السداد، ولا يصدقونها في خبرها، وبعد ما كانت عندهم عابدة ناسكة تصبح عندهم فيما يظنون عاهرة زانية، ومن ثم قالت وهي تطلق من الحبل استحياء من الناس، فيما يروي عن ابن عباس والسدى، يا ليتني مت قبل هذا الكرب الذي أنا فيه، والحزن بولادتي المولود من غير بعل، وهكذا تمنت الموت، وتمني الموت لنحو ذلك مما لا كراهة فيه، نعم يكره تمنيه لضرر نزل بالإنسان من مرض أو فاقة أو محنة من عدو أو نحو ذلك من مشاق الدنيا، ففي صحيح مسلم وغيره، قال ﷺ: لا يتمنين أحدكم الموت لضرر نزل، فإن كان لابد متمنياً فليقل: اللهم أحيني ما كانت الحياة خيراً لي، وتوفني إذا كانت الوفاة خيراً لي»، ومن ظن أن تمنيها ذلك كان لشدة الوجع، فقد أساء الظن، والعياذ بالله[4].

وفي حدة الألم وغمرة الهول، تقع المفاجأة الكبرى ﴿ **فناداها من تحتها ألا تحزني قد جعل ربك تحتك سرياً، وهزي إليك بجذع النخلة تساقط**

---

(١) تفسير الفخر الرازي ٢١/ ٢٠٣.

(٢) سورة مريم: آية ٢٣.

(٣) تفسير الفخر الرازي ٢١/ ٢٠٣.

(٤) تفسير ابن كثير ٣/ ١٨٩، تفسير روح المعاني ١٦/ ٨١-٨٢.

عليك رطباً جنياً، فكلي واشربي وقري عيناً، فإما ترين من البشر أحداً فقولي إني نذرت للرحمن صوماً فلن أكلم اليوم إنسياً﴾[1] ، وقد اختلف في المنادى على قولين ، الأول أنه عيسى عليه السلام ، وهو قول الحسن البصري وسعيد بن جبير ، واستظهر أبو حيان كون المنادى عيسى ، والضمير لمريم ، والفاء فصيحة ، أي فولدت غلاماً فأنطقه الله تعالى حين الولادة ، فناداها المولود من تحتها ، وروى ذلك أيضاً عن مجاهد ووهب وابن جرير وابن زيد ، والثاني أنه جبريل ، ونقل في البحر عن الحسن أنه قال : ناداها جبريل وكان في بقعة من الأرض أخفض من البقعة التي كانت عليها ، ولعله إنما كان موقفه هناك إجلالاً لها ، وتحاشياً من حضوره بين يديها في تلك الحال ، والقول بأنه عليه السلام كان تحتها يقبل الولد مما لا ينبغي أن يقال لما فيه من نسبة ما لا يليق بشأن أمين وحي الملك المتعال ، ويعضد الفخر الرازي القول الأول بأدلة منها : الأول أن قوله : **﴿فناداها من تحتها﴾** بفتح الميم ، إنما يستعمل إذا كان قد علم قبل ذلك أن تحتها أحداً ، والذي علم كونه حاصلاً تحتها هو عيسى عليه السلام فوجب حمل اللفظ عليه ، وأما القراءة بكسر الميم فهي لا تقتضي كون المنادى جبريل عليه السلام ، والثاني : أن ذلك الموضع موضع اللوث والنظر إلى العورة ، وذلك لا يليق بالملائكة ، والثالث : أن قوله فناداها فعل ، ولابد أن يكون فاعله قد تقدم ذكره ، ولقد تقدم قبل هذه الآية ذكر جبريل وعيسى عليهما السلام ، إلا أن ذكر عيسى أقرب لقوله تعالى : **﴿فحملته فانتبذت به﴾** والضمير هنا عائد إلى المسيح فحمله عليه أولى ، والرابع : هو دليل الإمام الحسن بن علي عليه السلام ، أن عيسى لو لم يكن كلمها لما علمت أنه ينطق ، فما كانت تشير إلى عيسى عليه السلام بالكلام ، فأما من قال إن المنادى هو عيسى عليه السلام ، فالمعنى أنه تعالى أنطقه لها حين وضعته تطيباً لقلبها وإزالة للوحشة عنها ، حتى تشاهد في أول الأمر ما

---

(١) سورة مريم : آية ٢٤ ـ ٢٦ .

بشرها به جبريل عليه السلام من علو شأن ذلك الولد، ومن قال إن المنادى جبريل قال إنه أرسل إليها ليناديها بهذه الكلمات كما أرسل إليها في أول الأمر ليكون ذلك تذكيراً لها بما تقدم من أصناف البشارات، وأولى القولين عند جمهرة المفسرين أن المنادى هو عيسى عليه السلام[1].

وأما السرى، فقد اتفق المفسرون، إلا الحسن البصري وعبد الرحمن بن زيد، أنه النهر والجدول، سمي لأن الماء يسرى فيه، قال ذلك البراء بن عازب وابن عباس وعمرو بن ميمون وقتدة وإبراهيم النخعي وابن منبه، واختاره الطبري، وروى عن ابن عباس أنه جدول من الأردن أجراه الله تعالى منه لما أصابها العطش، وروى أن جبريل عليه السلام ضرب برجله الأرض فظهرت عين ماء عذب فجرى جدولاً، وقيل فعل ذلك عيسى عليه السلام، وهو المروي عن أبي جعفر الباقر، رضي الله تعالى عنه، وقيل كان ذلك موجوداً من قبل، إلا أن الله تعالى نبهها عليه، والأرجح، عند صاحب الظلال، أنه جرى للحظته من ينبوع أو تدفق من مسيل ماء في الجبل، وعن الحسن وابن زيد والجبائي أن المراد بالسرى عيسى عليه السلام، وهو من السرو بمعنى الرفعة، كما قال الراغب، أي جعل ربك تحتك غلاماً رفيع الشأن سامي القدر، وروى أن الحسن البصري رجع عنه، فقد تلا هذه الآية، وبجنبه حميد بن عبد الرحمن الحميري: **﴿قد جعل ربك تحتك سرياً﴾**، فقال إن كان لسرياً، وإن كان لكريماً، فقال له حميد: يا أبا سعيد إنما هو الجدول، فقال له الحسن: من ثم تعجبنا مجالستك، وروى أن خالد بن صفوان قال له: إن العرب تسمي الجدول سرياً، فقال له الحسن: صدقت ورجع إلى قوله، واحتج من قال إنه النهر بوجهين، أحدهما: أن النبي ﷺ سئل عن السري، فقال هو الجدول، وثانيهما: أن قوله تعالى:

---

(١) تفسير الفخر الرازي ٢١/ ٢٠٤، تفسير روح المعاني ١٦/ ٨٢، تفسير الطبري ١٦/ ٦٨ - ٦٩، تفسير ابن كثير ٣/ ١٩٠، تفسير النسفي ٣/ ٣٢، الكامل لابن الأثير ١/ ١٧٧.

﴿ فكلي واشربي ﴾ يدل على أنه نهر حتى ينضاف الماء إلى الرطب، فتأكل وتشرب[1].

وعلى أي حال، فإن الله تعالى أمرها أن تهز النخلة فتساقط عليها رطباً جنياً فتأكل منه، قال المفسرون: أمرها بهز الجذع اليابس لترى آية أخرى في إحياء موات الجذع، بعد رؤيتها عين الماء العذب الذي جرى جدولاً، وذلك ليسكن ألمها وتعلم أن ذلك كرامة من الله، **﴿ فكلي واشربي ﴾** أي كلي من هذا الرطب الشهي، واشربي من هذا الماء العذب السلسبيل[2]، وهكذا أعطاها الله تعالى طعاماً وشراباً، والطعام الحلو مناسب للنفساء، والرطب والتمر من أجود طعام النفساء، ونحسبها قد دهشت طويلاً، قبل أن تمد يدها إلى جذع النخلة تهزه ليساقط عليها رطباً جنياً، ثم أفاقت فاطمأنت إلى أن الله لا يتركها، وإلى أن حجتها معها، هذا الطفل الذي ينطق في المهد، فيكشف عن الخارقة التي جاءت به إليها[3].

وأتت الطاهرة البتول بوليدها المبارك تحمله: **﴿ قالوا يا مريم لقد جئت شيئاً فرياً، يا أخت هارون ما كان أبوك إمرأ سوء وما كانت أمك بغياً ﴾**[4]، وهكذا بدأت ألسنة القوم بالتقريع والتأنيب، ثم سرعان ما تحولت إلى تهكم مرير، قائلين: يا شبيهة هارون في الصلاح والعبادة، ما كان أبوك رجلاً فاجراً، وما كانت أمك زانية، فكيف صدر هذا منك، وأنت من بيت طاهر معروف بالصلاح والعبادة، قال قتادة: كان هارون رجلاً صالحاً في بني إسرائيل مشهوراً بالصلاح فشبهوها به، وليس بهارون أخي موسى،

---

(١) تفسير روح المعاني ١٦/ ٨٣، تفسير ابن كثير ٣/ ١٩٠، تفسير الفخر الرازي ٢١/ ٢٠٥، تفسير الطبري ١٦/ ٦٩ - ٧١، تفسير النسفي ٣/ ٣٢، في ظلال القرآن ٤/ ٢٣٠٧.

(٢) صفوة التفاسير ٢/ ٢١٤ - ٢١٥.

(٣) في ظلال القرآن ٤/ ٢٣٠٧.

(٤) سورة مريم: آية ٢٧ - ٢٨.

عليهما السلام، لأن بينهما ما يزيد على ألف عام، وقال السهيلي: هارون رجل من عباد بني إسرائيل المجتهدين كانت مريم تشبه به في اجتهادها، وليس بهارون بن عمران النبي، فإن بينهما دهراً طويلاً، ومن ثم فقد أخطأ كثيراً جداً من قال أنها أخت هارون النبي لأبيه وأمه، كما أنها أخت موسى عليه السلام، التي قصت أثره، وقد ثبت في صحيح البخاري عن أبي هريرة أن سيدنا رسول الله ﷺ قال: «أنا أولى الناس بابن مريم لأنه ليس بيني وبينه نبي»، وأخرج الإمام أحمد بسنده عن المغيرة بن شعبة قال: بعثني رسول الله ﷺ إلى نجران فقالوا: أرأيت ما تقرأون «يا أخت هارون» وموسى قبل عيسى بكذا وكذا، قال فرجعت فذكرت ذلك رسول الله ﷺ فقال: ألا أخبرتهم أنهم كانوا يسمون بالأنبياء والصالحين قبلهم»[1]، وعن محمد بن سيرين قال: نبئت أن كعباً قال: إن قوله: «يا أخت هارون»، ليس بهارون أخي موسى، قال، فقالت له عائشة: كذبت، قال يا أم المؤمنين: إن كان النبي ﷺ قاله فهو أعلم وأخبر، وإلا فإني أجد بينهما ست مئة سنة، قال: «فسكتت» قال ابن كثير: وفي هذا التاريخ نظر[2]، وهذا صحيح لأن ما بين موسى وعيسى عليهما السلام قرابة اثنين وعشرين قرناً.

واشتد القوم على الطاهرة البتول: ﴿**فأشارت إليه قالوا كيف نكلم من كان في المهد صبياً**﴾[3]، قال السُّدى: لما أشارت غضبوا وقالوا: لسخريتها بنا حتى تأمرنا أن نكلم هذا الصبي أشد علينا من زناها، ﴿**قالوا كيف نكلم من كان في المهد صبيا**﴾، أي من هو موجود في مهده في حالة صباه وصغره، كيف يتكلم؟ قال الرازي في التفسير الكبير: روى أنه كان يرضع فلما سمع

---

(١) تفسير روح المعاني ١٦/ ٨٨، تفسير ابن كثير ٣/ ١٩٣، تفسير الطبري ١٦/ ٧٧-٧٨، مسند الإمام أحمد ٤/ ٢٥٢، صحيح مسلم ٦/ ١٧١، تحفة الأحوذي ٥/ ٦٠١.

(٢) تفسير الطبري ١٦/ ٧٧، تفسير ابن كثير ٣/ ١٩٣.

(٣) سورة مريم: آية ٢٩.

ذلك ترك الرضاع وأقبل عليهم بوجهه واتكأ على يساره وأشار بسبابته ، وقيل كلمهم بذلك ثم لم يتكلم حتى بلغ مبلغاً يتكلم فيه الصبيان ، وقيل إن زكريا عليه السلام أتاها عند مناظرة اليهود إياها ، فقال لعيسى عليه السلام: إنطق بحجتك إن كنت أمرت بها ، فقال عيسى عند ذلك»[1] ، **﴿إني عبدالله آتاني الكتاب وجعلني نبياً، وجعلني مباركاً أينما كنت وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حياً، وبراً بوالدتي ولم يجعلني جباراً شقياً والسلام علي يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حياً﴾**[2] .

وهكذا يعلن عيسى عليه السلام عبوديته لله ، فليس هو ابنه كما تدعى فرقة ، وليس هو إلهاً كما تدعي فرقة ، وليس هو ثالث ثلاثة ، هم إله واحد ، وهم ثلاثة ، كما تدعي فرقة ، ويعلن أن الله جعله نبياً ، لا ولداً ولا شريكاً ، وبارك فيه ، وأوصاه بالصلاة والزكاة مدة حياته ، والبر بوالدته والتواضع مع عشيرته ، فله إذن حياة محدودة ذات أمد ، وهو يموت ويبعث ، وقد قدّر الله له السلام والأمان والطمأنينة يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حياً ، والنص صريح هنا في موت عيسى وبعثه ، وهو لا يحتمل تأويلاً في هذه الحقيقة ولا جدالاً[3] .

---

(١) تفسير ابن كثير ٣/ ١٩٣ ، تفسير الفخر الرازي ٢١/ ٢٠٨ ، تفسير روح المعاني ١٦/ ٨٩.

(٢) سورة مريم : آية ٣٠ - ٣٣.

(٣) في ظلال القرآن ٤/ ٢٣٠٨ .

الفصل الثالث

نبوة المسيح ومعجزاته

(١) نبوة المسيح : -

لم يذكر القرآن الكريم متى بدأت نبوة المسيح عليه السلام، ولا كيف كان ذلك، ولكن عبارات الإنجيل اتفقت على أن نبوته كانت على رأس ثلاثين من عمره، وعلى ذلك جرى المؤرخون وكثير من المفسرين، يقول الألوسي في تفسير روح المعاني: واختلف في زمن رسالته عليه السلام، فقيل في الصبا وهو ابن ثلاث سنين، وفي البحر: أن الوحي أتاه بعد البلوغ وهو ابن ثلاثين سنة، فكانت نبوته ثلاث سنين، قيل وثلاثة أشهر وثلاثة أيام، ثم رفع إلى السماء، وهو القول المشهور[١]، وفي تفسير الطبري عن وهب بن منبه: لما صار عيسى ابن اثنتي عشرة سنة أوحى الله إلى أمه، وهي بأرض مصر، وكانت هربت من قومها حين ولدته إلى أرض مصر، أن اطلعي به إلى الشام، ففعلت الذي أمرت به، فلم تزل بالشام حتى كان ابن ثلاثين سنة، وكانت نبوته بثلاث سنين، ثم رفعه الله إليه[٢]، ويقول ابن الأثير في الكامل: أتت المسيح النبوة والرسالة وعمره ثلاثون سنة، وظل رسولاً سنتين، إذ رفع إلى السماء، وهو ابن اثنتين وثلاثين سنة وأياماً، ويقول

---

(١) تفسير روح المعاني ٣/ ١٦٧ .

(٢) تفسير الطبري ٣/ ٢٧٨ .

علماء التوحيد إن النبوة تكون على رأس الأربعين من العمر، أما عيسى عليه السلام فقد نبيء على رأس الثلاثين، وهذه خصوصية له عليه السلام، لأنه قد رفع إلى السماء قبل أن يبلغ سن الأربعين[1]، ويذهب الدكتور الطيب النجار إلى أنه لابأس من ذلك، أي أن نبوة المسيح كانت على رأس الثلاثين، فإن سن الأربعين ليست شرطاً لتحديد بدء نبوة الأنبياء، فلقد أوتي يحيى عليه السلام العلم والحكمة وهو صبي وبدأت نبوته قبل أن يبلغ الثلاثين[2].

على أن الدكتور الشريف إنما يحدد ابتداء نبوة المسيح من منطوق الآيات (٢٩ - ٣٣ من سورة مريم) يقول تعالى: ﴿ **فأشارت إليه قالوا كيف نكلم من كان في المهد صبياً، قال إني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبياً، وجعلني مباركاً أين ما كنت وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حياً، وبراً بوالدتي ولم يجعلني جباراً شقياً، والسلام عليّ يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حياً**﴾[3]، وظاهر الآيات الكريمة إنما يفيد أن المسيح نبيء وهو في المهد، ولا غرابة في ذلك، فالقرآن يقول في شأن يحي بن زكريا عليهما السلام: ﴿ **وآتيناه الحكم صبيا**﴾، هذا فضلاً عن اعتراف المسيح في الآية (٣٠ مريم) وهو ما يزال في المهد، بأن الله جعله نبياً وآتاه الكتاب، والتعبير بصيغة الماضي في ﴿ **آتاني وجعلني**﴾، كل ذلك يرجح أنه بعث في المهد وهو صبي صغير، ولا حاجة بنا بعدئذ لأن نجاري البعض الذين قالوا إن المسيح نبيء على رأس الثلاثين، ولا برهان لهم على هذا، إلا من تكلف من

---

(١) محمد علي الصابوني: المرجع السابق، ص ١٩٨، محمد بن الشريف: الأديان في القرآن، جده ١٩٧٩، ص ١٥٧، ابن الأثير ١/ ١٧٩.

(٢) محمد الطيب النجار: المرجع السابق، ص ٢٧٨.

(٣) سورة مريم: آية ٢٩ - ٣٣، وانظر تفسير الطبري ١٦/ ٧٨ - ٨٢، تفسير ابن كثير ٣/ ١٩١ - ١٩٤، تفسير الفخر الرازي ٢١/ ٢٠٧ - ٢١٦، تفسير روح المعاني ١٦/ ٨٨ - ٩١) تفسير النسفي ٣/ ٣٤ - ٣٥، في ظلال القرآن ٤/ ٢٣٠٨، تفسير القرطبي ص ٤١٤٠ - ٤١٤٤.

تمحلات لغوية، ولا أن نقول كما قال بعض علماء التوحيد إن الرسالة لا تكون إلا بعد الأربعين، ولا غرو فنحن أمام شخصية جعلها الإعداد الإلهي، والإعجاز الإلٓهي لا تسير على سنن العادة، فعيسى مخلوق غير عادي في مولده وفي مبعثه وفي مماته[1]، عليه صلوات الله وسلامه.

وجاء في تفسير النسفي: روى عن الحسن أنه كان في المهد نبيّاً وكلامه معجزته، وقيل إن معناه أن ذلك سبق في قضائه أو جعل الآتي لا محالة كأنه وجد[2]، ويقول الفخر الرازي: إن قوله: ﴿**وجعلني نبياً**﴾ يدل على أن ذلك قد حصل من قبل، إما ملاصقاً لذلك الكلام أو متقدماً عليه بأزمان، والظاهر أنه من قبل أن كلمهم آتاه الله الكتاب وجعله نبيّاً، بالصلاة والزكاة وأن يدعو إلي الله تعالى وإلى دينه وإلى ما خص به من الشريعة، فقيل هذا الوحي نزل عليه وهو في بطن أمه، وقيل لما انفصل من الأم آتاه الله الكتاب والنبوة، وأنه تكلم مع أمه وأخبرها بحاله وأخبرها بأنه يكلمهم بما يدل على براءة حالها، فلهذا أشارت إليه بالكلام، ثم يرد الإمام الرازي على من قال إنه نبي، ولكنه ما كان رسولاً، لأنه في ذلك الوقت ما جاء بالشريعة، ومعنى كونه نبيّاً أنه رفيع القدر على الدرجة، فيقول إن هذا ضعيف، لأن النبي في عرف الشرع هو الذي خصّه الله بالنبوة وبالرسالة، خصوصاً إذا قرن إليه ذكر الشرع، وهو قوله وأوصاني بالصلاة والزكاة[3].

وأما دليل نبوة المسيح في القرآن الكريم، فقوله تعالى: ﴿**ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل، ورسولاً إلى بني إسرائيل**﴾[4].وقوله

---

(1) محمود بن الشريف: الأديان في القرآن ص ١٥٧ - ١٥٨.

(2) تفسير النسقي ٣/ ٣٤.

(3) تفسير الفخر الرازي ٢١/ ٢١٤.

(4) سورة آل عمران: آية ٤٨ - ٤٩، وانظر: تفسير الطبري ٣/ ٢٧٣ - ٢٧٥، تفسير الفخر الرازي ٨/ ٥٣ - ٥٤، تفسير النسفي ١/ ١٥٨، تفسير ابن كثير ١/ ٥٤٥ - ٥٤٦، تفسير روح المعاني =

تعالـى: ﴿وإذا قال عيسى بن مريـم يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكـم مصدقاً لما بين يدي من التوراة، ومبشراً برسول يأتي من بعـدي اسمه أحمد﴾[1] .

هذا ومن المعروف أن دعوة المسيح عليه السلام، شأنها في ذلك شأن دعوات كل الرسل الكرام قبل بعثة سيدنا محمد رسول الله ﷺ ، إنما هي دعوة خاصة إلى بني إسرائيل، كما جاء في القرآن الكريـم[2] ، وكما يقول الإنجيل على لسـان المسيح «لـم أرسـل إلا إلى خراف بيت إسرائيل الضالة»[3] ، ومن ثم فقد اتجه السيد المسيح عليه السلام بدعوته إلى بني إسرائيل يبغي من ورائها هداية خراف بيت إسرائيل الضالة، وأما الذي عمم الدعوة فهم تلاميذ المسيح، أو بالأحرى، فقد عممها «بولس» الذي زعم أن المسيح تراءى له، وجعله تلميذاً له، مع أنه لم يره، وذلك بعـد تكرارهـا علـى بني إسرائيل، ولجاجتهم في الإعراض عنها، ومن ثم فقد وجهت إلى كل مستمع لها، مقبل عليها، وقال لهم: إن العـاملين بالخيـر هم ذريـة إبراهيـم الخليل، أقرب وأوفى ممن يدعون النسبة إليه بالسلالة، لأنهم أبناؤه بالروح[4] ، ومع ذلك تبقى دعوة المسيح في صميمها، دعوة خاصة، وأما الدعوة العامة فهي دعوة سيـدنا ومولانا محمد رسول الله ﷺ الـذي أرسل إلـى الناس كافة بشيـراً ونذيراً، وصدق الله العظيم حيث يقول: ﴿وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً

= ٣/ ١٦٦ - ١٦٧، تفسير الظلال ١/ ٣٩٩ - ٤٠٠، تفسير المنار ٣/ ٢٤٩ - ٢٥٦، تفسير القرطبي ص ١٣٣٥ - ١٣٣٧.

(١) سورة الصف: آية ٦.

(٢) سورة آل عمران: آية ٤٨ - ٤٩، الصف: آية ٦.

(٣) متي ١٥/ ٢٤.

(٤) متي ١٥/ ٢٣ - ٢٨، عباس العقاد: مطلع النور ص ٩٦، محمد بيومي مهران: الديانة العربية القديمة ص ٦١ - ٦٢.

ونذيراً﴾[1] ، ويقول: ﴿وأرسلناك للناس رسولاً وكفى بالله شهيداً﴾[2] ، ويقول: ﴿قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً﴾[3] هذا فضلاً عن أن المسيح عيسى بن مريم إنما هو واحد من أولى العزم الخمسة، خيار ولد آدم قاطبة، وهم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، وقد ذكروا في القرآن الكريم تخصيصاً من بين الأنبياء جميعاً في آيتين، الأولى قال تعالى: ﴿وإذا أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى بن مريم وأخذنا منهم ميثاقاً غليظاً﴾[4] ، والثانية: ﴿شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه﴾[5] .

(٢) معجزات المسيح: -

لا ريب في أن مولد المسيح معجزة، وحياته معجزة، ووفاته معجزة، فعيسى عليه السلام، كما قلنا، غير عادي في مولده وفي مبعثه وفي مماته، فأما مولده، فلقد شاء الله، بعد نشأة آدم نشأة ذاتية مباشرة، أن يجعل لإعادة النشأة الإنسانية طريقاً معيناً، طريق التقاء ذكر وأنثى، واجتماع بويضة وخلية تذكير، فيتم الإخصاب، ويتم الإنسال، والبويضة حية غير ميتة، والخلية حية كذلك متحركة، ومضى مألوف الناس على هذه القاعدة، حتى

(١) سورة سبأ: آية ٢٨.

(٢) سورة النساء: آية ٧٩.

(٣) سورة الأعراف: آية ١٥٨ وانظر: سورة إبراهيم: آية ١، ٥٢، الحج: آية ٤٩، الفرقان آية ١، الأحزاب: ماية ٤٠، ص؛ آية ٨٧.

(٤) سورة الأحزاب: آية ٧.

(٥) سورة الشورى: آية ١٣، وانظر تفسير الطبري ٢٥/ ١٤ - ١٦، تفسير القرطبي ١٦/ ٩ - ١٢ (الغالب ١٩٦٧)، تفسير البيضاوي ٢/ ٣٥٤ - ٣٥٥، تفسير روح المعاني ٢٥/ ٢١ - ٢٢، تفسير الفخر الرازي ٢٧/ ١٥٤، تفسير الكشاف ٣/ ٤٦٣ - ٤٦٤، تفسير الرحمن في تفسير كلام المنان ٧/ ٩٦ - ٩٧ (مكة المكرمة ١٣٩٨ هـ).

شاء الله تعالى أن يخرق هذه القاعدة المختارة في فرد من بني الإنسان، فينشئه نشأة قريبة وشبيهة بالنشأة الأولى، وإن لم تكن مثلها تماماً، أنثى فقط تتلقى النفخة التي تنشيء الحياة ابتداء، فتنشأ فيها الحياة[1]، وهكذا جاء عيسى بن مريم إلى هذه الدنيا بطريقة أشبه بتلك التي جاء بها آدم عليه السلام، وصدق الله العظيم حيث يقول: ﴿ **إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون** ﴾[2].

صحيح أن ولادة عيسى عجيبة حقاً بالقياس إلى مألوف الناس، ولكنه صحيح كذلك أنه لا غرابة فيها حين تقاس إلى خلق آدم أبي البشر، وأهل الكتاب الذين يناظرون ويجادلون حول عيسى بسبب مولده، ويصوغون حوله الأوهام والأساطير بسبب أنه نشأ من غير أب، أهل الكتاب هؤلاء كانوا يقرون بنشأة آدم من التراب، وأن النفخة من روح الله هي التي جعلت منه هذا الكائن الإنساني، دون أن يصوغوا حول آدم الأساطير التي صاغوها حول عيسى، ودون أن يقولوا عن آدم: إن له طبيعة لاهوتية، على حين أن العنصر الذي صار به آدم إنساناً هو ذاته العنصر الذي ولد به عيسى من غير أب، عنصر النفخة الإلهية في هذا وذاك، وإن هي إلا الكلمة «كن» تنشيء ما تراد له النشأة «فيكون» وهكذا تتجلى بساطة هذه الحقيقة، حقيقة عيسى وحقيقة آدم وحقيقة الخلق كله، وتدخل إلى النفس في يسر، وفي وضوح، حتى ليعجب الإنسان، كيف ثار الجدل حول هذا الحادث، وهو جار وفق السنة الكبرى، سنة الخلق والنشأة جميعاً[3].

---

(١) في ظلال القرآن ١/ ٣٩٨.

(٢) سورة آل عمران: آية ٥٩، وانظر: تفسير الفخر الرازي ٨/ ٧٤ - ٧٦، تفسير الطبري ٣/ ٢٩٥ - ٢٩٧، تفسير ابن كثير ١/ ٥٥٠ - ٥٥٢، تفسير النسفي ١/ ١٦٠ - ١٦١، تفسير روح المعاني ٣/ ١٨٦ - ١٨٧.

(٣) في ظلال القرآن ١/ ٤٠٤ - ٤٠٥.

وأما معجزات المسيح عليه السلام، فقد جاءت في عدة آيات من آي الذكر الحكيم[1]، نذكر **منها (أولاً) أن الله تعالى يعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل**، فأما «الكتاب» فقد يراد به الكتابة، وكان عليه السلام أحسن الناس خطا في زمانه[2]، وقد يكون هو التوراة والإنجيل، وأما «الحكمة» فهي حالة في النفس يتأتى معها وضع الأمور في مواضعها وإدراك الصواب واتباعه، وهي خير كثير[3]، أو هي السنة التي يوحيها الله إليه في غير كتاب، وأما «التوراة»، فهو الكتاب الذي أنزله الله على موسى عليه السلام، وأما «الإنجيل» فهو الكتاب الذي أنزله الله على عيسى عليه السلام، وقد كان عيسى يحفظ هذا وذاك[4].

ولعل مما تجدر الإشارة إليه أن التوراة إنما كانت كتاب عيسى كالإنجيل، فهي أساس الدين الذي جاء به، والإنجيل تكملة وإحياء لروح التوراة، ولروح الدين التي طمست في قلوب بني إسرائيل، وهذا ما يخطىء الكثيرون من المتحدثين عن المسيحية فيه فيغفلون التوراة، وهي قاعدة دين المسيح عليه السلام، وفيها الشريعة التي يقوم عليها نظام المجتمع، ولم يعدل فيها الإنجيل إلا القليل[5]، ومن ثم فإن الله تعالى يقول على لسان المسيح: **﴿ومصدقاً لما بين يدي من التوراة ولأحل لكم بعض الذي حرم عليكم وجئتكم بآية من ربكم فاتقوا الله وأطيعون﴾**[6]، يقول ابن كثير: وفيه دلالة على أن عيسى عليه السلام نسخ بعض شريعة التوراة، وهو الصحيح،

---

(1) أنظر: سورة آل عمران: آية ٤٧ ـ ٥٠، المائدة: آية ١١٠ ـ ١١٥، مريم: آية ٢٩ ـ ٣٣.
(2) تفسير النسفي ١/ ١٥٨.
(3) تفسير الظلال ١/ ٣٩٩.
(4) تفسير ابن كثير ١/ ٥٤٦.
(5) في ظلال القرآن ١/ ٣٩٩.
(6) سورة آل عمران: آية ٥٠.

وقد قال بعض العلماء: لم ينسخ منها شيئاً، وإنما أحل لهم بعض ما كان يتنازعون فيه خطأ وانكشف لهم عن الغطاء في ذلك، كما قال في الآية الأخرى: ﴿ولأبيّن لكم بعض الذي تختلفون فيه﴾[1]، ويقول الطبري: إن عيسى كان مؤمناً بالتوراة مقرابها، وأنها من عند الله[2]، وكذلك الأنبياء كلهم يصدقون بكل ما كان قبلهم من كتب الله ورسله، وإن اختلفت بعض شرائع أحكامهم لمخالفة الله بينهم في ذلك، مع أن عيسى كان، فيما بلغنا، عاملاً بالتوراة لم يخالف شيئاً من أحكامها، إلا ما خفف الله عن أهلها في الإنجيل، مما كان مشدداً عليهم فيها[3]، وجاء في التفسير الكبير عن وهب بن منبه: أن عيسى عليه السلام كان على شريعة موسى عليه السلام، كان يقرر السبت ويستقبل بيت المقدس، ثم إنه فسر قوله: ﴿ولأحل لكم بعض الذي حرم عليكم﴾ بأمرين، أحدهما: أن الأحبار كانوا قد وضعوا من عند

(1) تفسير ابن كثير ١/ ٥٤٦.

(2) نرى لزاماً علينا أن نبيّن هنا: أن التوراة التي كان عيسى عليه السلام مؤمناً بها مقراً بما فيها، إنما هي التوراة التي أنزلها الله على موسى عليه السلام، فيها هدى ونور، فهي تقرر وحدانية الله تعالى وتنزيهه عن كل مظاهر النقص، والتي ترتكز على الاعتراف باليوم الآخر، والإيمان بما فيه من ثواب وعقاب وجنة ونار، والتي تضمنت عظات وأفكار وشريعة لبني إسرائيل يحكم بها أبناؤهم، والتي تقرر عصمة هؤلاء الأنبياء، غير أن هذه التوراة الأصلية ببنودها ونصوصها وتعاليمها، لا وجود لها بهذه الصورة الإلهية في التوراة المتداولة اليوم، فلقد امتدت إليها يد أثيمة من أحبار يهود فحرفت وبدلت، ثم كتبت سواها بما يتلاءم مع يهود، ويتواءم مع مخططاتهم، ثم زعموا بعد كل هذا، أنها التوراة التي أنزلها الله تعالى على موسى عليه السلام: ﴿كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذباً﴾، هذا فضلاً عن أن توراة موسى شيء، والعهد القديم شيء آخر، فالتوراة لا تعدو خمسة أسفار من أسفار العهد القديم، البالغ عددها ٣٩ سفراً، عند البروتستانت، وأكثر من ذلك بسبعة أسفار، عند الكاثوليك، فضلاً عن أسفار الأبوكريفا، والأسفار المفقودة أو الخفية (قدم المؤلف دراسة مفصلة عن التوراة: أنظر: محمد بيومي مهران: إسرائيل ٣/ ١ - ٣٧٩ - الاسكندرية ١٩٧٩).

(3) تفسير الطبري ٣/ ٢٨١.

أنفسهم شرائع باطلة ونسبوها إلى موسى، فجاء عيسى ورفعها وأبطلها، وأعاد الأمر إلى ما كان في زمن موسى عليه السلام، وثانيهما: أن الله تعالى كان قد حرم بعض الأشياء على اليهود عقوبة لهم على بعض ما صدر عنهم من الجنايات، كما قال تعالى: **﴿فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم﴾**، ثم بقي هذا التحريم حتى جاء عيسى عليه السلام، ورفع تلك التشديدات عنهم، وقال آخرون: إن عيسى رفع كثيراً من أحكام التوراة، ولم يكن ذلك قادحاً في كونه مصدقاً بالتوراة على ما بيناه، ورفع السبت ووضع الأحد قائماً مقامه، وكان محقاً في كل ما عمل لأن الناسخ والمنسوخ كلاهما حق وصدق[1].

ومن ثم فإن قوله تعالى: **﴿ومصدقاً لما بين يدي من التوراة ولأحل لكم بعض الذي حرم عليكم﴾**، إنما يكشف عن طبيعة المسيحية الحقة، فالتوراة التي تنزلت على موسى، وهي تتضمن التشريع المنظم لحياة الجماعة وفق حاجة ذلك الزمان، وملابسات حياة بني إسرائيل (بما أنها ديانة خاصة لمجموعة من البشر في فترة من الزمان) هذه التوراة معتمدة في رسالة المسيح عليه السلام وجاءت رسالته مصدقة لها، مع تعديلات تتعلق بإحلال بعض ما حرم الله عليهم، وكان تحريمه في صورة عقوبات حلت بهم على معاص وانحرافات، أدبهم الله عليها بتحريم بعض ما كان حلالاً لهم، ثم شاءت إرادته أن يرحمهم بالمسيح عليه السلام فيحل لهم بعض الذي حرم عليهم[2]، أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن الربيع أنه قال: كان الذي جاء به عيسى ألين مما جاء به موسى عليهما السلام، وكان فيما حرم عليهم فيما جاء به موسى، لحوم الإبل والثروب فأحلها لهم على لسان عيسى،

---

(١) تفسير الفخر الرازي ٨/ ٥٩.

(٢) في ظلال القرآن ١/ ٤٠٠.

وحرمت عليهم شحوم الإبل فأحلت لهم فيما جاء به عيسى، وفي أشياء من السمك وفي أشياء من الطير، مما لا صيصة له، وفي أشياء أخرى حرمها عليهم وشدد عليهم فيها، فجاء عيسى بالتخفيف منه في الإنجيل، وهذا يدل على أن الإنجيل مشتمل على أحكام تغاير ما في التوراة، وأن شريعة عيسى نسخت بعض شريعة موسى، ولا يخل ذلك بكونه مصدقاً للتوراة، فإن النسخ بيان لانتهاء زمان الحكم الأول، لا رفع وإبطال[1].

هذا وقد جاء في إنجيل متي، على لسان السيد المسيح، «لا تظنوا أني جئت لأنقض الناموس والأنبياء، ما جئت لأنقض بل لأكمل، فإن الحق أقول لكم إلى أن تزول السماء والأرض لا يزول حرف أو نقطة واحدة من الناموس حتى يكون الكل»[2] وليس هناك من شك في أن التصديق بالكتب السابقة يعني أن الكتب المتأخرة إنما هي تجديد للمتقدمة وتذكير بها، فلا تبدل معنى ولا تغير حكماً، وإنما الواقع غير ذلك، فقد جاء الإنجيل بتغيير بعض أحكام التوراة، كما جاء القرآن بتبديل بعض أحكام الإنجيل، ولكن يجب أن يفهم أن هذا وذاك لم يكن من المتأخرة نقصاً للمتقدم، ولا إنكاراً لحكمة أحكامه في إبانها، وإنما كان وقوفاً عند وقتها المناسب، وأجلها المقدر[3]، ومن هنا كان قول سيدنا رسول الله ﷺ: إنما جئت لأتمم مكارم الأخلاق»[4].

وهكذا يمكن القول أن الإنجيل إنما كان نفحة إحياء وتجديد لروح الدين، وتهذيب لضمير الإنسان، بوصلة مباشرة بالله من وراء النصوص،

(١) تفسير روح المعاني ٣/ ١٧١، تفسير الطبري ١/ ٢٨٢.

(٢) إنجيل ٥/ ١٧ ـ ١٨.

(٣) محمد عبد الله دزار: الدين بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان ـ القاهرة ١٩٦٩ ص ١٨٥ ـ ١٨٦.

(٤) عبد الحليم محمود: دلائل النبوة ومعجزات الرسول ـ القاهرة ١٩٧٤ ص ٤٦٢.

هذا الإحياء وهذا التهذيب ، هما اللذان جاء بهما المسيح وجاهد لهما حتى مكرت يهود به عليه السلام[1] .

ومنها (ثانياً) **أن الله تعالى جعله يكلم الناس في المهد وكهلاً** : فأما المهد فهو حجر الأم أو مضجع الصبي وقت الرضاع ، والمراد أن المسيح عليه السلام يكلم الناس في الحالة التي يحتاج الصبي فيها إلى المهد ، ولا يختلف هذا المقصود سواء كان في حجر أمه أو كان في المهد ، وأما الكهل في اللغة فهو ما اجتمع قوته وكمل شبابه ، وهو مأخوذ من قول العرب : اكتهل النبات إذا قوي[2] ، والمراد أن المسيح يكلم الناس في هاتين الحالتين كلام الأنبياء من غير تفاوت بين حالة الطفولة وحالة الكهولة التي يستحكم فيها العقل ، ويستنبأ فيها الأنبياء ، وأما كلامه في المهد[3] ، فدلالة على براءة أمه مما قذفه بها المفترون ، وحجة على نبوته ، قال ابن عباس : كان كلامه في

---

(١) في ظلال القرآن ١/ ٣٩٩ .

(٢) نقل أن عمر عيسى عليه السلام إلى أن رفع كان ثلاثاً وثلاثين وستة أشهر ، وعلى هذا فهو ما بلغ الكهولة ، والجواب من وجهين ، الأول : أن الكهل في أصل اللغة هو الكامل التام ، وأكمل أحوال الإنسان إذا كان بين الثلاثين والأربعين ، فصح وصفه بكونه كهلاً في هذا الوقت ، والثاني هو قول الحسين بن الفضل البجلي : أن المراد بقوله : «كهلاً» أن يكون كهلاً بعد أن ينزل من السماء في آخر الزمان ، ويكلم الناس ويقتل الدجال ، قال الحسين بن الفضل : وفي هذه الآية نص في أنه عليه الصلاة والسلام سينزل إلى الأرض ، ومن ثم فقد ذهب سعيد بن المسيب وزيد بن أسلم وغيرهما أنه عليه السلام رفع إلى السماء ، وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة ، وأنه سينزل إلى الأرض ويبقى حيّاً فيها أربعاً وعشرين سنة ، كما رواه ابن جرير بسند صحيح عن كعب الأحبار ، ويؤيده ما أخرجه ابن جرير عن ابن زيد في الآية قال : قد كلمهم عيسى في المهد ، وسيكلمهم إذا قتل الدجال وهو يومئذ كهل (تفسير الفخر الرازي ٨/ ٥٢ ، تفسير روح المعاني ٣/ ١٦٤ ، تفسير الطبري ٣/ ٢٧٢ - ٢٧٣ ، تفسير القرطبي ص ١٣٣٢ - ١٣٣٤ ، تفسير المنار ٣/ ٢٥٢ - ٢٥٥) .

(٣) روى ابن إسحاق عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ : ما تكلم أحد في صغره إلا عيسى وصاحب جريج» ، وفي رواية أخرى قال ﷺ : لم يتكلم في المهد إلا ثلاث : عيسى وصبي كان في زمن جريج وصبي آخر» (تفسير ابن كثير ١/ ٥٤٥) .

المهد ساعة واحدة بما قصى الله تعالى لنا، ثم لم يتكلم حتى بلغ أوان الكلام، على أن ابن الأخشيد إنما يذهب إلى أنه كان يتكلم دائماً، وكان كلامه فيه تأسيساً لنبوته، وإرهاصاً لها، وعليه يكون قوله: ﴿وجعلني نبيّاً﴾ إخباراً عما يؤول إليه، وقال الجبائي: إنه سبحانه أكمل عقله عليه السلام إذ ذاك وأوحى إليه بما تكلم به مقروناً بالنبوة وجوّز أن يكون ذلك كرامة لمريم دالة على طهارتها وبراءة ساحتها مما نسبه أهل الإفك إليها، وأما كلامه في الكهولة فقد ذكر، رغم أنه غير معجز، لأسباب منها بيان كونه متقلباً في الأحوال من الصبا إلى الكهولة، والتغيير على الله تعالى محال، والمراد منه الرد على وفد نجران في قولهم: إن عيسى كان إلهاً، ومنها أن يكلم الناس في المهد مرة واحدة لإظهار براءة أمه ثم عند الكهولة يتكلم بالوحي والنبوة، ومنها أنه يكلم الناس حال كونه في المهد وكهلاً على حد واحد، وصفة واحدة، وذلك لا شك أنه في غاية المعجز، ومنها أن المراد أنه سيبلغ الكهولة[1].

بقيت الإشارة إلى أن النصارى أنكرت كلام المسيح في المهد، محتجين بأن كلامه في المهد من أعجب الأمور وأغربها، وبأنه لو حدث لشهده الجمع العظيم الذي يحصل القطع واليقين بقولهم، لأن تخصيص مثل هذا المعجز بالواحد والإثنين لا يجوز، ومتى حدثت الواقعة العجيبة جداً عند حضور الجمع العظيم فلا بد وأن تتوافر الدواعي على النقل فيصير ذلك بالغاً حد التواتر، وإخفاء ما يكون بالغاً إلى حد التواتر ممتنع، كما أن الإخفاء ممتنع لأن النصارى بالغوا في إفراط محبته إلى حيث قالوا إنه كان إلهاً، ومن كان كذلك يمتنع أن يسعى في إخفاء مناقبه وفضائله، بل ربما

---

(١) تفسير الفخر الرازي ٨/ ٥١ - ٥٢، تفسير الطبري ٣/ ٢٧١ - ٢٧٣، تفسير ابن كثير ١/ ٥٤٥، تفسير النسفي ١/ ١٥٨، تفسير الكشاف ١/ ٢٧٨، تفسير روح المعاني ٣/ ١٦٢ - ١٦٤.

يجعل الواحد ألفاً، فثبت أن لو كانت هذه الواقعة موجودة لكـان النصارى أولى الناس بمعرفتها، ولما أطبقوا على إنكارهـا، علمنا أنه ما كان موجود البتة .

ورد المتكلمون عليهم بأن كلام عيسى عليه السلام في المهد إنما كان للدلالة على براءة مريم عليها السلام من الفاحشة، وكان الحاضرون جمعـاً قليلين، فالسامعون لذلك الكلام كان جمعاً قليلاً، ولا يبعد في مثله التواطؤ على الإخفاء، وبتقدير أن يذكروا ذلك، إلا أن اليهود كانوا يكذبونهـم في ذلك وينسبـونهم إلى البهت، فهم أيضاً سكتوا لهذه العلـة، فلأجـل هذه الأسباب بقي الأمر مكتوماً إلـى أن أخبر الله تعالـى نبيّـه محمد ﷺ بذلك، وأيضاً فليس كل النصارى ينكرون ذلك، فإنه نقل عن جعفر بن أبي طالب، رضي الله تعالى عنه: لما قرأ علي النجاشي سورة مريم، قال النجاشي: لا تفاوت بين واقعة عيسى، وبين المذكور في هذا الكلام، بذرة[1] .

ومنها (ثالثاً) شفاء المرضى وإبراء الأكمة وإحياء الموتى والإخبار عن بعض المغيبات، قال تعالى، على لسان المسيح: ﴿**أني قد جئتكم بآية من ربكم، أني أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله، وأبرىء الأكمه والأبـرص وأحي الموتى بإذن الله وأنبئكـم بما تأكلـون وما تدخرون في بيوتكم إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين**﴾[2]، ولعـل من الأهمية بمكان، وقبل الحديث عن هذه الخوارق المعجزة، الإشارة إلى أنه في هذه الآية (آل عمران ٤٩) وفي آيـة المائدة (١١٠) أن النص القـرآني الكريم يذكر، علـى لسان المسيـح، أن كل خارقة من هذه الخوارق التي جاءهم بها، إنما جاءهم بها من غند الله تعالى، كما حرص النص على ذكر

---

(١) تفسير الفخر الرازي ٨/ ٥٢ ـ ٥٣، تفسير روح المعاني ٣/ ١٦٣.

(٢) سورة آل عمران: آية ٤٩.

الله بكل واحدة منها تفصيلاً وتحديداً ، ولم يدع القول يتم حتى يذكر في نهايته إذن الله زيادة في الاحتياط، وهذه المعجزات في عمومها تتعلق بإنشاء الحياة أوردها ، أورد العافية وهي فرع عن الحياة ، ورؤية غيب بعيد عن مدى الرؤية ، وهي في صميمها تتسق مع مولد عيسى ومنهج الوجود والحياة على غير مثال ، إلا مثال آدم عليه السلام ، وإذا كان الله قادراً على أن يجري هذه المعجزات على يد واحد من خلقه ، فهو قادر على خلق ذلك الواحد من غير مثال ، ولا حاجة إذن لكل الشبهات والأساطير التي نشأت عن هذا المولد الخاص ، متى رد الأمر إلى مشيئة الله الطليقة ، ولم يقيد الإنسان الله ، سبحانه وتعالى ، بمألوف الإنسان[1] .

وأما هذه المعجزات التي جاءت في هذه الآية وفي غيرها فهي : -

أولاً : كان المسيح يخلق من الطين كهيئة الطير فينفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله تعالى : -

والمراد بالخلق هنا ، فيما يرى صاحب روح المعاني ، التصوير والإبراز على مقدار معين ، لا الإيجاد من العدم ، والمعنى أنني أقدر ، لأجل تحصيل إيمانكم ودفع تكذيبكم إياي ، أن اجعل من الطين شيئاً مثل الطير المهيأ أو هيئة كائنة كهيئته ، فأنفخ فيه فيكون طيراً حياً طياراً كسائر الطيور ، وفي تفسير النسفي أي أقدر لكم شيئاً مثل صورة الطير ، أي في ذلك الشيء المماثل لهيئة الطير ، فيصير طيراً كسائر الطيور ، وفي التفسير الكبير : أي أقدر وأصور ، فالخلق هو التقدير والتصوير ، وذلك لأن العبد لا يكون خالقاً بمعنى التكوين والإبداع ، فوجب تفسير كونه خالقاً بالتقدير والتسوية ، وهكذا كان المسيح عليه السلام يصور من الطين شكل ، طير ، ثم ينفخ فيه فيطير عياناً بإذن الله عز وجل ، الذي جعل هذا معجزة له ، تدل على أنه تعالى

(١) في ظلال القرآن ١/ ٣٩٩.

أرسله ، ومن ثم فقد جوّز بعض المفسرين أن يقال : إنه تعالى أودع في نفس عيسى عليه السلام خاصية بحيث متى نفخ في شيء ، كان نفخه فيه موجباً لصيرورة ذلك الشيء حياً ، أو يقال ليس الأمر كذلك ، بل الله تعالى كان يخلق الحياة في ذلك الجسم بقدرته عند نفخه عيسى عليه السلام فيه على سبيل إظهار المعجزات ، وهذا القول الثاني هو الحق لقوله تعالى : ﴿ **الذي خلق الموت والحياة** ﴾ ، وحكى عن إبراهيم عليه السلام إنه قال في مناظرته مع الملك ﴿ **ربي الذي يحي ويميت** ﴾ ، فلو حصل لغيره هذه الصفة ، لبطل ذلك الإستدلال .

وأظهر المعجزات أنهم أخذوا يتعنتون عليه وطالبوه بخلق خفاش ، فأخذ طيناً وصوره ، ثم نفخ فيه ، فإذا هو يطير بين السماء والأرض ، قال وهب : كان يطير مادام الناس ينظرون إليه ، فإذا غاب عن أعينهم سقط ميتاً ، ثم اختلف الناس فقال قوم لم يخلق غير الخفاش ، وقال آخرون : إنه خلق أنواعاً من الطير[1] .

ثانياً : إبراء الأكمة والأبرص بإذن الله تعالى : -

وقد اختلف العلماء في معنى الأكمة ، فمن قائل إنه الذي ولد أعمى ، وكما روى عن ابن عباس وقتادة : كنا نتحدث أن الأكمة الذي ولد وهو أعمى مضموم العينين ، وقال الخليل وغيره : هو الذي عمى بعد أن كان بصيراً ، وأخرج ابن أبي حاتم من طريق عطاء عن ابن عباس : أنه الممسوح العين الذي لم يشق بصره ، ولم يخلق له حدقة ، قيل : ولم يكن في صدر هذه الأمة أكمه بهذا المعنى ، غير قتادة بن دعامة السدوسي صاحب التفسير ، وعن

(١) تفسير الفخر الرازي ٨/ ٥٦ ، تفسير روح المعاني ٣/ ١٦٨ ، تفسير النسفي ١/ ١٥٩ ، تفسير ابن كثير ١/ ٥٤٦ ، تفسير الطبري ٣/ ٢٧٥ ، الكامل لابن الأثير ١/ ١٧٩ ، تفسير القرطبي ص ١٣٣٥ - ١٣٣٦ ، تفسير المنار ٣/ ٢٥٥ - ٢٥٧ .

مجاهد: الأكمة هو الذي يبصر بالنهار ولا يبصر بالليل، فهو يتكمه، وعن عكرمة أنه الأعمش، وأما الأبرص فهو الذي به الوضع المعروف، يقول الإمام الطبري: وإنما أخبر الله تعالى عن عيسى عليه السلام أنه يقول ذلك لبني إسرائيل، احتجاجاً منه بهذه العبر والآيات عليهم في نبوته، وذلك أن الأكمة والأبرص لا علاج لهما، فيقدر على إبرائه ذو طب بعلاج، فكان ذلك من أدلته على صدق قيله إنه لله رسول لأنه من المعجزات مع سائر الآيات التي أعطاه الله إياها دلالة على نبوته، وأما ما قاله عكرمة من أن الكمه هو العمش، وما قاله مجاهد من أنه سوء البصر بالليل، فلا معنى لهما، لأن الله لا يحتج على خلقه بحجة تكون لهم السبيل إلى معارضته فيها، ولو كان ما احتج به عيسى على بني إسرائيل في نبوته أنه يبرىء الأعمش أو الذي يبصر بالنهار ولا يبصر بالليل لقدروا على معارضته بحجة أن فيهم خلقاً يعالجون ذلك، وليسوا لله أنبياء ورسلاً، هذا وزعم وهب أنه ربما اجتمع على عيسى من المرضى في الجماعة الواحدة خمسون ألفاً، من أطاق منهم أن يبلغه بلغه، ومن لم يطق منهم ذلك أتاه عيسى يمشي إليه، وإنما كان يداويهم بالدعاء إلى الله[1].

ثالثاً: إحياء الموتى بإذن الله: -

قيد الله الإحياء بالإذن، كما فعل في المعجزات السابقة، لأنه خارق عظيم يكاد يتوهّم منه ألوهية فاعلة، لأنه ليس من جنس أفعال البشر، وكان إحياء عيسى الموتى بدعاء الله، يدعو لهم فتستجاب له، قال الكلبي: كان عيسى عليه السلام يحي الأموات، بياحي يا قيوم، وأحيا عازر وكان صديقاً له، ودعا سام بن نوح من قبره فخرج حياً، ومرّ على ابن ميت لعجوز فدعا الله فنزل عن سريره حياً، ورجع إلى أهله وولد له[2].

(١) تفسير الفخر الرازي ٨/ ٥٧، تفسير روح المعاني ٣/ ١٦٩، تفسير الطبري ٣/ ٢٧٧ - ٢٧٨.
(٢) تفسير روح المعاني ٣/ ١٦٩، تفسير الفخر الرازي ٨/ ٥٧.

ثالثاً : إخبار القوم بما يأكلون وما يدخرون في بيوتهم : -

وقد اختلف العلماء في وقت هذا الإخبار على قولين ، أحدهما : أنه عليه السلام كان يخبر عن الغيوب من أول أمره ، أخرج ابن عساكر عن عبد الله بن عمر وبن العاصي ، وكذا روى عن السدي : أنه كان يلعب مع الصبيان ، ثم يخبرهم بأفعال آبائهم وأمهاتهم ، وكان يخبر الصبي بأن أمك خبأت لك كذا فيرجع الصبي إلى أهله ويبكي إلى أن يأخذ ذلك الشيء ، ثم قالوا لصبيانهم لا تلعبوا مع هذا الساحر ، وجمعوهم في بيت ، فجاء عيسى عليه السلام يطلبهم فقالوا له : ليسوا في البيت ، فقال فمن في البيت ، قالوا خنازير ، قال عيسى كذلك يكونون ، فإذا هم خنازير ، وأما القول الثاني : فإن الإخبار عن الغيوب إنما ظهر وقت نزول المائدة ، وذلك لأن القوم نهوا عن الإخبار ، فكانوا يحزنون ويدخرون ، فكان عيسى عليه السلام يخبرهم ، وقد أيد ذلك ما أخرجه عبد الرازق وغيره عن عمار بن ياسر في الآية أنه قال : ﴿ **وأنبئكم بما تأكلون** ﴾ من المائدة وما تدخرون منها ، وكان أخذ عليهم في المائدة حين نزلت أن يأكلوا ولا يدخروا ، فادخروا وخانوا ، فجعلوا قردة وخنازير[1] .

وبدهي أن الإخبار عن الغيوب على هذا الوجه معجزة ، ذلك لأن المنجمين الذين يدعون استخراج الخبر لا يمكنهم ذلك ، إلا عن سؤال تتقدم ثم يستعينون عند ذلك بآله ويتوصلون بها إلى معرفة أحوال الكواكب ، ثم يعترفون بأنهم يغلطون كثيراً ، فأما الإخبار عن الغيب من غير استعانة بآلة ولا تقدم مسألة لا يكون إلا بالوحي من الله تعالى ، وهذا هو الفصل بين علم الأنبياء بالغيوب وإخبارهم عنها ، وبين علم سائر المتكذبة على الله أو المدعية علم ذلك ، ثم إنه عليه السلام ختم كلامه بقوله : ﴿ **إن في ذلك لآية**

(١) تفسير روح المعاني ٣/ ١٧٠ ، تفسير الفخر الرازي ٨/ ٥٧ .

لكم إن كنتم مؤمنين﴾ ، يعني بذلك السيد المسيح : إن في خلقي من الطين الطير بإذن الله ، وفي إبرائي الأكمه والأبرص ، وإحيائي الموتى ، وإنبائي إياكم بما تأكلون وما تدخرون في بيوتكم ، ابتداء من غير حساب ولا تنجيم ، ولا كهانة ولا عرافة ، لعبرة لكم ، ومتفكراً تتفكرون في ذلك ، فتعتبرون به أني محق في قولي لكم : إني رسول من ربكم إليكم ، وتعلمون به أني فيما أدعوكم إليه من أمر الله ونهيه ، صادق ، إن كنتم مؤمنين ، يعني إن كنتم مصدقين حجج الله وآياته مقرنين بتوحيده ونبيه موسى ، والتوراة التي جاءكم بها[1] .

(١) تفسير الطبري ٣/ ٢٨١ ، تفسير الفخر للرازي ٨/ ٥٨ ، تفسير القرطبي ص ١٣٣٧ .

الفصل الرابع

دعوى تأليه المسيح وصلبه

ليس هناك من ريب في أن الخلاف الأساسي والأصيل بين المسلمين والمسيحيين حول السيد المسيح عليه السلام، إنما يدور حول دعوى النصارى بألوهية المسيح وصلبه.

(١) دعوى التأليه : -

يعرض القرآن الكريم أكثر من مرة لعبودية المسيح لله تعالى، وأنه عبد الله ورسوله، وكفاه فخراً بهذه العبودية لله تعالى، كما اعتبر القرآن من ألهوا المسيح كفاراً، ومن ثم فإنه يؤكد كثيراً أن عيسى بن مريم بشر، وأنه رسول من الله، مؤيد بكتاب إلهي، وبوحي سماوي، وأنه نادى بعقيدة التوحيد، فدعا إلى عبادة الله الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد، ويذهب صاحب الظلال[١] إلى أن عقيدة التوحيد عاشت بعد المسيح عليه السلام في تلامذته وفي أتباعهم، وأحد الأناجيل الكثيرة التي كتبت، وهو إنجيل «برنابا» يتحدث عن عيسى عليه السلام بوصفه رسولاً من عند الله، ثم وقعت بينهم الاختلافات، فمن قائل: إن المسيح رسول من عند الله كسائر الرسل، ومن قائل: إنه رسول نعم، ولكن له بالله صلة خاصة، ومن قائل: إنه ابن الله لأنه خلق من غير أب، ولكنه على هذا

(١) في ظلال القرآن ٢/ ٨٦٤ - ٨٦٥.

مخلوق لله ، ومن قائل : إنه ابـن الله ، وليس مخلوقـاً ، بل له صفـة القـدم كالأب .

ولتصفية هذه الخلافات عقد «مجمع نيقية» عام ٣٢٥ م الذي اجتمع فيه ثمانية وأربعون ألفاً من البطارقة والأساقفة ، وقد اختار المجمع مقالـة من كانوا يقولون بألوهية المسيح ، وهي مقالة «بولس الرسول» ومقالة الثلاثمائة وثمانية عشر أسقفاً ، وقد اختار الإمبراطور الرومانـي «قسطنـطين» (٣٠٦ - ٣٣٧ م)[١] هذا الرأي وسلط أصحابه على مخالفيهم وشـرد أصحـاب سائـر المذاهب ، خاصة القائلين بألوهية الأب وحده ، وناسوتية المسيح ، وقد ذكر صاحب كتاب تاريخ الأمة القبطية عن هذا القـرار : إن الجامعـة المقدسـة والكنيسة الرسولية تحرم كل قائل بوجود زمن لم يكن ابن الله موجوداً فيه ، وأنه لم يوجد قبل أن يولد ، وأنه وجد من لا شيء ، أو من يقول : إن الابن وجد من مادة أو جوهر غير جوهر الله الأب ، وكل من يؤمن أنه مخلوق أو من يقول إنه قابل للتغيير ويعتريه ظل دوران » ، ولكن هذا المجمع بقرارته لم يقض على نحلة الموحدين أتباع «آريوس» وقـد غلبـت علـى القسطنـطينية وأنطاكية وبابل والاسكندرية ومصر .

ثم سار خلاف جديد حول «روح القدس» فقال بعضهم هو «إله» وقال آخرون ليس بإلـه ، فاجتمـع مجمـع القسطنـطينية الأول عام ٣٨١ م ، وفيه تقررت ألوهية روح القدس ، كما تقررت ألوهية المسيح في مجمع نيقية عام

---

(١) يذهب البعض إلى أن قسطنطين لم يعترف بالمسيحية كديانة رسمية فحسب ، بل إنه هو نفسه اعتنق المسيحية في عام ٣١٢ م ، بينما يذهب آخرون إلى أنه بقي وثنياً طوال حياته ، ولم يتقبل النصرانية إلا على فراش المرض ، وقد بنت أمه «هيلانة» كنيسة القيامة في القدس عام ٣٢٦ م نتيجـة اعتقـاد خـاطىء أن جثمان المسيح دفن في مكان هذه الكنيسة ثم رفع إلى السماء (عمر كمال توفيق : تاريخ الامبراطورية البيزنطية ص ٢٩ ، فيلب حتي : المرجع السابق ص ٣٨٧ ثم قارن Euselius, BK, IX, Ch. 9, 2 وكـذا Sozomenus, BK, I, Ch. 4.

٣٢٥ م، وتم الثالوث من الأب والابن والروح القدس.

ثم ثار خلاف آخر حول طبيعة المسيح الإلهية وطبيعته الإنسانية، أو اللاهوت والناسوت كما يقولون، فقد رأى «نسطور» بطريرك القسطنطينية أن هناك أقنوماً وطبيعة، فأقنوم الألوهية من الأب وتنسب إليه، وطبيعة الإنسان وقد ولدت من مريم، فمريم أم الإنسان في المسيح، وليست أم الإله، ويقول في المسيح الذي ظهر بين الناس وخاطبهم، كما نقله عنه ابن البطريرق، ثم يقول: «إن نسطور ذهب إلى أن ربنا يسوع المسيح لم يكن إلهاً في حد ذاته، بل هو إنسان مملوء من البركة والنعمة، أو هو ملهم من الله، فلم يرتكب خطئة وما أتى أمراً إدّاً»، وخالفه في هذا الرأي أسقف روما وبطريرك الاسكندرية وأساقفة أنطاكية فاتفقوا على عقد مجمع رابع، وانعقد مجمع «أفسس» عام ٤٣١ م، وقرر: «أن مريم العذراء والدة الله، وأنّ المسيح إله حق وإنسان، معروف بطبيعتين، متوحد في الأقنوم»، ولعنوا نسطور.

ثم خرجت كنيسة الاسكندرية برأي جديد، انعقد له «مجمع أفسس الثاني» الذي قرر «أن المسيح طبيعة واحدة، اجتمع فيها اللاهوت والناسوت»، ولكن هذا الرأي لم يسلم، واستمرت الخلافات الحادة، فاجتمع مجمع «خلقدونية» عام ٤٥١ م، وقرر: «أن المسيح له طبيعتان لا طبيعة واحدة، وأن اللاهوت طبيعة وحدها، والناسوت طبيعة وحدها، التقتا في المسيح»، ولعنوا مجمع أفسس الثاني، ولم يعترف المصريون بقرار هذا المجمع، ووقعت بين المذهب المصري «المنوفيسية» والمذهب «الملوكاني» الذي تبنته الدولة البيزنطية ما وقع من الخلافات الدامية[1].

---

(١) في ظلال القرآن ٢/ ٨٦٤ - ٨٦٦، محمد أبو زهرة: محاضرات في النصرانية ص ١٢٧ - ١٤٩ (القاهرة ١٩٦٦).

وظل الأمر كذلك حتى بعث الله تعالى خاتم النبيين وسيد المرسلين سيدنا محمد ﷺ بالرسالة العامة، ونزل القرآن الكريم ليبيّن للناس أن النصارى على فرق ثلاثة في عقيدتهم في المسيح، عبد الله ورسوله إلى بني إسرائيل ففرقه تزعم أنه الله، وأخرى تؤمن بعقيدة التثليث، وثالثة تزعم أنه ابن الله.

١ - **تزعم الفرقة الأولى أنه الله**، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً، وأن الله تعالى تجسم وتجسد في صورة يسوع المسيح ونزل إلى الأرض ليخلص الناس من آثامهم، وإلى هذا الفريق يشير القرآن الكريم في قوله تعالى: **﴿لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح بن مريم، وقال المسيح يا بني إسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار﴾**[1]، ويقول تعالى: **﴿ما المسيح بن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام﴾**[2]، ويقول تعالى: **﴿لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح بن مريم، قل ممن يملك من الله شيئا إن أراد أن يهلك المسيح بن مريم وأمه ومن في الأرض جميعاً﴾**[3]، ويقول تعالى: **﴿لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله، ولا الملائكة المقربون، ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعاً﴾**[4].

وهكذا يفرق القرآن الكريم بين ذات الله تعالى وطبيعته ومشيئته وسلطانه، وبين ذات عيسى، عليه السلام، وكذا ذات أمه، وكل ذات أخرى، في نصاعة قاطعة حاسمة، فذات الله، سبحانه وتعالى، واحدة،

(١) سورة المائدة: آية ٧٢.
(٢) سورة المائدة: آية ٧٥.
(٣) سورة المائدة: آية ١٧.
(٤) سورة النساء: آية ١٧٢.

ومشيئته مطلقة، وسلطانه متفرد، ولا يملك أحد شيئاً في رد مشيئته أو دفع سلطانه، إن أراد أن يهلك المسيح وأمه ومن في الأرض جميعاً، وهو سبحانه وتعالى، مالك كل شيء، وخالق كل شيء، والخالق غير المخلوق، وكل شيء مخلوق: ﴿ **ولله ملك السموات والأرض وما بينهما يخلق ما يشاء، والله على كل شيء قدير** ﴾، وكذلك تتجلى نصاعة العقيدة الإسلامية، ووضوحها وبساطتها، وتزيد جلاء أمام ذلك الركام من الانحرافات والتصورات والأساطير والوثنيات والمتلبسة بعقائد فريق من أهل الكتاب، وتبرز الخاصية الأولى للعقيدة الإسلامية في تقرير حقيقة الألوهية، وحقيقة العبودية، والفصل التام الحاسم بين الحقيقتين، بلا غبش ولا شبهة ولا غموض[1].

٢ - **يزعم الفريق الثاني أن الله ثالث ثلاثة**: وهذا الفريق هو الذي يعتقد بعقيدة التثليث، وهي عقيدة تزخر بمزاعم وأضاليل وأباطيل، فهي تزعم أن الله، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً، ثالث ثلاثة[2]، وأنه ثلاثة أصول (أقانيم) متساوية: الله الأب والله الابن، والله الروح القدس، فالمسيح عيسى ابن مريم إله، وهو ابن إله، وفي الوقت نفسه هو بشر وإله، هو لاهوت وناسوت، هو الله وابن الله، وأصل من الأصول الثلاثة المكونة لله، ويصدر القرآن الكريم حكمه في هذه العقيدة، فيحكم بكفر من اعتنقها واعتقد

---

(١) في ظلال القرآن ٢/ ٨٦٦.

(٢) يحكي المتكلمون عن النصارى أنهم يقولون: جوهر واحد، ثلاثة أقانيم، أب وابن وروح القدس، وهذه الثلاثة إله واحد، كما أن الشمس اسم يتناول القرص والشعاع والحرارة، وعنوا بالأب الذات، وبالابن الكلمة، وبالروح الحياة، وأثبتوا الذات والكلمة والحياة، وقالوا: إن الكلمة التي هي كلام الله اختلطت بجسد عيسى اختلاط الماء بالخمر، واختلاط الماء باللبن، وزعموا أن الأب إله، والابن إله، والروح إله، والكل واحد، واعلم إن هذا معلوم البطلان ببديهة العقل فإن الثلاثة لا تكون واحداً، والواحد لا يكون ثلاثة (تفسير الفخر الرازي ١٢/ ٦٠).

فيها[1] ، يقول تعالى: : **﴿لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة، وما من إله إلا إله واحد، وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم﴾**[2] ، ويقول تعالى: **﴿يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم، ولا تقولوا على الله إلا الحق، إنما المسيح عيسى بن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، فآمنوا بالله ورسله، ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيراً لكم، إنما الله إله واحد سبحانه أن يكون له ولد، له ما في السموات وما في الأرض وكفى بالله وكيلاً﴾**[3] .

وقال الزجاج: لا تقولوا آلهتنا ثلاثة، وذلك لأن القرآن يدل على أن النصارى يقولون: إن الله والمسيح ومريم ثلاثة آلهة، والدليل عليه قوله تعالى: **﴿أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله﴾**[4] ، وقال الفراء: ولا تقولوا هم ثلاثة كقوله: **﴿سيقولون ثلاثة﴾** ، وذلك لأن ذكر عيسى ومريم مع الله تعالى بهذه العبارة يُوهم كونهما إلهين، وبالجملة فلا نرى مذهباً في الدنيا أشد ركاكة وبعْداً عن العقل من مذهب النصارى، ثم قال الله تعالى: **﴿انتهوا خيراً لكم﴾** ، ثم أكد التوحيد بقوله: **﴿إنما الله إله واحد﴾** ، ثم نزه الله تعالى نفسه عن الولد بقوله: **﴿سبحانه أن يكون له ولد﴾**[5] .

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أن القرآن الكريم إنما يقرن لفظ المسيح أو عيسى بكلمة: **﴿ابن مريم﴾** ليقرع آذان النصارى بأنه «ابن مريم» ، وليس «ابن الله» ، كما ينبه القرآن الكريم المسيحيين إلى أن

(١) محمد بن الشريف: المرجع السابق ص ١٩٠ .

(٢) سورة المائدة: آية ٧٣.

(٣) سورة النساء: آية ١٧١ .

(٤) سورة المائدة: آية ١١٦ .

(٥) تفسير الفخر الرازي ١١/ ١١٥ - ١١٦.

المسيح وأمه كانا يأكلان الطعام، يقول تعالى: **﴿ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام﴾**[1]، ومن البيّن أن الذي يأكل الطعام فيتحول في جسمه دماً ولحماً وعظماً، وينضح عرقاً، ويخرج فضلة لو بقيت في الجسم لأضرته، من الواضح أن كائناً من هذا النمط لا يمكن إلا أن يكون بشراً خاضعاً لكل قوانين البشر التي لا تؤدي إلى نقص في مرتبته كرسول[2]، ويقول الفخر الرازي إعلم أن المقصود من قوله تعالى: **﴿كانا يأكلان الطعام﴾** الاستدلال على فساد قول النصارى، وبيانه من وجوه، الأول: أن كل من كان له أم فقد حدث بعد أن لم يكن، وكل من كان كذلك كان مخلوقاً، لا إلهاً، والثاني: أنهما كانا محتاجين، لأنهما كانا محتاجين إلى الطعام أشد الحاجة، والإله هو الذي يكون غنياً عن جميع الأشياء، فكيف يعقل أن يكون (المحتاج) إلهاً، والثالث أن الأكل عبارة عن الحاجة إلى الطعام، وهذه الحاجة من أقوى الدلائل على أنه ليس بإله، والرابع: أن الإله هو القادر على الخلق والإيجاد، فلو كان إلهاً لقدر على دفع ألم الجوع عن نفسه بغير الطعام والشراب، فلما لم يقدر على دفع الضرر عن نفسه، كيف يعقل أن يكون إلهاً للعالمين، وبالجملة ففساد قول النصارى أظهر من أن يحتاج فيه إلى دليل[3].

وأما قوله تعالى: **﴿قل أتعبدون من دون الله ما لا يملك لكم ضراً ولا نفعاً﴾**[4]، فهذا، كما يقول الفخر الرازي، دليل آخر على فساد قول النصارى، وهو يحتمل أنواعاً من الحجة، الأول: أن اليهود كانوا يعادونه ويقصدونه بالسوء، فما قدر على الإضرار بهم، وكان أنصاره وصحابته

---

(١) سورة المائدة: آية ٧٥.

(٢) عبد الحليم محمود: التفكير الفلسفي في الإسلام - القاهرة ١٩٦٤ ص ٧٤.

(٣) تفسير الفخر الرازي ١٢/ ٦١.

(٤) سورة المائدة: آية ٧٦.

يحبونه، فما قدر على إيصال نفع من منافع الدنيا إليهم، والعاجز عن الإضرار والنفع، كيف يعقل أن يكون إلهاً، والثاني أن مذهب النصارى أن اليهود صلبوه ومزقوا أضلاعه، ولما عطش وطلب الماء منهم، صبوا الخل في منخريه، ومن كان في الضعف هكذا، كيف يعقل أن يكون إلهاً، والثالث: أن إله العالم يجب أن يكون غنياً عن كل ما سواه، ويكون كل ما سواه محتاجاً إليه، فلو كان عيسى كذلك لامتنع كونه مشغولاً بعبادة الله تعالى، لأن الإله لا يعبد شيئاً، إنما العبد هو الذي يعبد الإله، ولما عرف بالتواتر كونه كان مواظباً على الطاعات والعبادات، علمنا أنه إنما كان يفعلها لكونه محتاجاً في تحصيل المنافع ودفع المضار إلى غيره، ومن كان كذلك، كيف يقدر على إيصال المنافع إلى العباد ودفع المضار عنهم، وإذا كان كذلك كان عبداً كسائر العبيد، وهذا هو عين الدليل الذي حكاه الله تعالى عن إبراهيم عليه السلام، حيث قال لأبيه: **﴿لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئاً﴾**[1].

ثم إن الإله موجود، واجب الوجود لذاته، ويجب ألا يكون جسماً ولا متحيزاً ولا عرضاً، وعيسى عليه السلام عبارة عن هذا الشخص البشري الجسماني الذي وجد بعد أن كان معدوماً، وقتل بعد أن كان حياً على قول النصارى، وكان طفلاً أولاً ثم صار مترعراً ثم صار شاباً، وكان يأكل ويشرب ويحدث وينام ويستيقظ، وقد تقرر في بداهة العقول أن المحدث لا يكون قديماً، والمحتاج لا يكون غنياً، والممكن لا يكون دائماً، كما أن النصارى يقولون بأن اليهود أخذوه وصلبوه وتركوه حياً على الخشبة، وقد مزقوا ضلعه، وأنه كان يحتال في الهرب منهم، وفي الاختفاء عنهم، وحين عاملوه بتلك المعاملات أظهر الجزع الشديد[2]، فإذا كان إلهاً أو أن الإله كان حالاً فيه،

---

(١) تفسير الفخر الرازي ١٢/ ٦٢.

(٢) جاء في إنجيل متي (٢٧/ ٤٦ ـ ٥٠) «وصرخ يسوع بصوت عظيم قائلاً: إيلي إيلي لما =

أو كان جزءًا من الإله حال فيه فلم لم يدفعهم عن نفسه؟ ولم لم يهلكهم بالكلية؟ وأي حاجة به إلى إظهار الجزع منهم، والاحتيال في الفرار منهم؟ كما يظهر بطلان القول بألوهية المسيح مما ثبت بالتواتر من أن عيسى عليه السلام كان عظيم الرغبة في العبادة والطاعة لله تعالى، ولو كان إلهاً لاستحال ذلك، لأن الإله لا يعبد نفسه، ثم لو كان المسيح حقاً إلهاً، وقد قتله اليهود وصلبوه، فهذا يعني أن اليهود قتلوا إله العالم، فكيف بقي العالم بعد ذلك من غير إله، ثم إن اليهود إنما هم أشد الناس ذلاً ودناءة، ومن ثم فإن الإله الذي تقتله اليهود إنما هو إله في غاية العجز[1].

هذا ويسجل القرآن الكريم أن دعوة المسيح عيسى بن مريم رسول الله، إنما كانت إلى التوحيد الكامل يقول تعالى: ﴿**وقال المسيح يا بني إسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار**﴾[2] وقال تعالى: ﴿**وإذ قال الله يا عيسى بن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله قال سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق، إن كنت قلته فقد علمته تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك إنك أنت علام الغيوب ما قلت لهم إلا ما أمرتني به أن اعبدوا الله ربي وربكم وكنت عليهم شهيدا ما دمت فيهم، فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شيء شهيد**﴾[3].

= شبقتني، أي إلهي إلهي لماذا تركتني، فقوم من الواقفين هناك لما سمعوا قالوا إنه ينادي إيليا، وللوقت ركض واحد منهم وأخذ اسفنجة وملأها خلاً، وجعلها على قصبة وسقاه، وأما الباقون فقالوا: اترك لنرى هل يأتي إيليا يخلصه، فصرخ يسوع أيضاً بصوت عظيم وأسلم الروح».

(١) تفسير الفخر الرازي / ٧٨ ـ ٧٩.

(٢) سورة المائدة: آية ٧٢.

(٣) سورة المائدة: آية ١١٦ ـ ١١٧، وانظر: تفسير روح المعاني ٧/ ٦٤ ـ ٧٠، تفسير ابن كثير ٢/ ١٩٢ ـ ١٩٥، تفسير الفخر الرازي ١٢/ ١٣٣ ـ ١٣٧، تفسير النسفي ١/ ٣١٠ ـ ٣١١، تفسير البحر المحيط ٤/ ٥٨ ـ ٥٩.

ويقول الألوسي[1] : أستشكلت الآية بأنه لا يعلم أن أحداً من النصارى اتخذ مريم عليها السلام إلهاً، وأجيب عنه بأجوبة، الأول: أنهم لما جعلوا عيسى عليه الصلاة والسلام إلهاً، ألزمهم أن يجعلوا والدته أيضاً كذلك لأن الولد من جنس من يلده فذكر «إلهين» على طريق الإلزام لهم، والثاني: أنهم لما عظموها تعظم الإله أطلق عليها اسم الإله[2]، كما أطلق اسم الرب على الأحبار والرهبان في قوله تعالى: **﴿اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله﴾**، كما أنهم عظموهم تعظيم الرب، والثالث: أنه يحتمل أن يكون فيهم من قال بذلك[3].

وأياً ما كان الأمر، فإن النصوص القرآنية ستظل أبد الدهر، بما تحمل من قول المسيح، أو اعترافه، إن جاز هذا التعبير، بأنه بشر يتبرأ من دعوى الألوهية، وينفي ما لصقه به المنحرفون والمخرفون من أتباعه وأشياعه، وبأن علمه محدود، وأجله محدود، وأنه عبد الله ورسوله، لا يبلغ إلا ما أمر الله مولاه أن يبلغه، وكذا بما تحمل من دلائل على جوهر المسيحية، الحقة، ونقائها، ستظل مسجلة على أهل التثليث غلومهم وكفرهم، ولعلهم، إن كانوا أتباع المسيح حقاً، أن يثوبوا إلى عقيدته الحقة[4]، وأن يؤمنوا بما بشر به، سيدنا محمد رسول الله ﷺ وما أنزل عليه، فقد جاء في الحديث الشريف قوله ﷺ : «والذي نفسي بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة، يهودي أو نصراني، ولا يؤمن بي إلا دخل النار»[5].

ومن عجب أن أناجيل النصارى إنما تشير إلى غير ما يزعمون، فهناك

---

(١) تفسير روح المعاني ٧/ ٦٥.
(٢) انظر: تفسير الفخر الرازي ١٢/ ١٣٤.
(٣) أنظر: ديتلف نلسن وآخرون: التاريخ العربي القديم ص ٢٤٢ - ٢٤٣.
(٤) محمود بن الشريف: المرجع السابق ص ١٩٢.
(٥) صحيح مسلم ١/ ٣٦٧ (القاهرة ١٩٧١).

نصوص تشير إلى عبودية المسيح[1] لله تعالى وإلى رسالته[2] وإلى وحدانية الله[3] ، وإلى إنسانية المسيح وأمه ، وإلى أنه ابن الإنسان (تعني ابن مريم) وليس ابن الله كما يزعمون[4] .

ولعل سائلاً يتساءل : من أين جاءت عقيدة التثليث هذه لديانة المسيح التوحيدية؟ والجواب أن ذلك إنما كان من تأثير الديانات الوثنية التي كانت شائعة وقت ذاك في الشرق الأدنى القديم ، وربما المصرية بصفة خاصة ، والتي شاعت فيها عقائد التثليث ، حتى كان لكل مدينة ثالوثها الخاص بها ، والمكون من الإله الأب ، والإله الأم ، والإله الابن ، فمثلاً ثالوث طيبة (الأقصر الحالية) يتكون من الإله آمون (الأب) والإلهة موت (الأم) والإله خونسو (الابن) ، وفي مدينة منف (ميت رهينة بمركز البدرشين بمحافظة الجيزة) يتكون الثالوث من الإله «بتاح» (الأب) والإلهة سمخت (الأم) والإله نفرتوم (الابن) ، وفي اليفانتين (جزيرة أسوان) يتكون الثالوث من الإله خنوم وعنقت وساتت ، هذا فضلاً عن ثالوث أوزير المشهور ، حيث يمثل أوزير الإله الأب ، وتمثل إيزة الإلهة الأم ، ويمثل حور الإله الابن[5] .

---

(١) يوحنا ٢٠/ ١٧ .

(٢) يوحنا ١٤/ ٢٤ .

(٣) متي ٢٣/ ٩ ، ٢٢ ، مرقس ١٢/ ٢٨ - ٣٣ ، حيث يقول : «فجاءواحد من الكتبة وسمعهم يتحاورون ، فلما رأى أنه أجابهم حسناً سأله أية وصية هي أول الكل ، فأجابه يسوع : إن أول كل الوصايا هي اسمع يا إسرائيل : الرب إلهنا رب واحد ، وتحب الرب إلهك من كل قلبك ومن كل نفسك ومن كل فكرك ومن كل قدرتك ، هذه هي الوصية الأولى ، وثانية مثلها : هي تحب قريبك كنفسك ، ليس وصية أخرى أعظم من هاتين ، فقال له الكاتب جيداً يا معلم ، بالحق قلت لأنه الله واحد ، وليس آخر سواه ، ومحبته من كل القلب ومن كل الفهم ومن كل النفس ، ومن كل القدرة ، ومحبة القريب كالنفس هي أفضل من جميع المحرقات والذبائح» .

(٤) متي ١/ ١ - ١٧ ، ٨/ ٢٠ ، ١٣/ ٣٧ ، ٢٦/ ٦٤ ، يوحنا ١/ ٥١ ، ١٧/ ٣ .

(٥) أنظر : محمد بيومي مهران : الحضارة المصرية القديمة - الاسكندرية ١٩٨٤ ص ٢٤٣ - ٣٦١ .

والأمر كذلك بالنسبة إلى بلاد الرافدين (العراق القديم) وسورية وفينيقيا، فضلاً عن بلاد العرب، حيث نرى اللات والعزى ومناة الثالثة في الشمال، وحيث سادت في الجنوب عبادة ثالوث من الكواكب هي القمر والشمس والزهرة، ويمثل القمر في هذا الثالوث دور الأب، وتمثل الشمس دور الأم، بينما كانت الزهرة تمثل دور الابن، ولم يكن بنو إسرائيل بعيدين عن عقيدة التثليث هذه، فقد وجد عندهم ثالوث (يهوه وبعل وعشتارت)، وقد كان هذا الثالوث يقدس عند العبرانيين في عصر الملوك بين جميع أفراد الشعب[1]، وإن كانت عبادة «بعل» على أيام الملك الإسرائيلي «أخاب» (٨٦٩ - ٨٥٠ ق. م) معاصر النبي «إيليا»، وهو إلياس عليه السلام فيما نرجح[2]، أوضح من غيرها[3]، وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك في سورة الصافات[4]، ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أننا نجد عند بني إسرائيل تلك الظاهرة العربية، أعني أن الشمس كان ينظر إليها كإلهة أم ومؤنثة، كما في زواج «يهوه» رب يهود الشمس، وفي جميع الحالات ترد الشمس كإلهة مؤنثة، بينما ترد الزهرة (عشتر) مذكرة[5]، وكان العربانيون يعظمون بعلاً كثيراً، حتى حمل كثير منهم اسم «بعل» كجزء من أسمائهم مثل «إيشبعل» و «مريبعل» و «يربعل» و «بعلزكار» و «بعلاة»[6]، كما تقبلوا «كيموش» كإله للقوم، وكذا «بلزيوب» إله عقرون، وملكوم إله عمون وغيرهم[7]، ورغم

---

(١) ديتلف نالسن: المرجع السابق ص ٢٣٦.

(٢) أنظر: محمد بيومي مهران: إسرائيل ٢/ ٩١٠ - ٩١٦.

(٣) ملوك أول ١٦/ ٣٠ - ٣٤.

(٤) سورة الصافات: آية ١٢٢ - ١٢٨.

(٥) ديتلف نلسن: المرجع السابق ص ٢٣٦، محمد بيومي مهران: إسرائيل ٤/ ٢١ - ٢٢.

(٦) أخبار أيام أول ٨/ ٣٣ - ٣٤، ٩/ ٣٩ - ٤٠، أخبار أيام ثان ١٤/ ٧، ٢٧/ ٢٨، قضاة ٦/ ٣٢، ٧/ ١، ٨/ ٩، ٩/ ١، محمد بيومي مهران: إسرائيل ٤/ ٢٤ - ٢٥، ٣٢ - ٣٣، وكذا D. G. Lyon, HTR, 1911, P. 136 - 143.

(٧) قضاة ١١/ ٢٤، محمد بيومي مهران: إسرائيل ٤/ ٢٥.

أن البعض حاول أن يفسر ذلك على أنه نوع من النزعة الإنفصالية التي كانت تتملك نفوس القوم من الناحيتين السياسية والاقتصادية والتي أدت إلى ما يمكن أن يسمى استقلالاً دينياً[1] ، إلا أن ذلك لن يغير من الحقيقة شيئاً ، وهو أنه شرك محض ، وانطلاقاً من هذا ، وكما يقول أنجنل ، فإن الوحدانية التي كان يدركها الإسرائيليون في ذلك الزمن إنما كانت وحدانية تغليب لرب من الأرباب على سائر الأرباب[2] .

وهكذا لم يمض القرن الأول الميلادي حتى كانت ديانة المسيح ، وهي ديانة توحيدية في أصلها وجوهرها ، لا تختلف كثيراً عن ديانات الشرق القديم الوثنية ، بل إنها لم تعد ديانة توحيدية ، وإنما غدت ديانة متعددة الآلهة ، فالمسيح وأمه كانا يقدسان فيها ككائنين إلهيين ، ونافست الديانات المنتشرة وقت ذاك في عقيدة التثليث[3] .

٣ ـ يزعم الفريق الثالث من النصارى أن المسيح إنما هو ابن الله، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً ، وإلى هذا يشير القرآن الكريم في قوله تعالى : ﴿ **وقالت اليهود عزير ابن الله، وقالت النصارى المسيح ابن الله، ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل، قاتلهم الله أنى يؤفكون**﴾[4]، ويقول تعالى : ﴿ **إنما الله إلـه واحد سبحانه أن يكون له ولد، له ما في السموات وما في الأرض وكفى بالله وكيلاً**﴾[5] ، وإذا كان النصارى يعجبون من أمر عيسى لأنه ولد بدون أب ، فأمر آدم عليه السلام أعجب ، لأنه خلق بدون أب وبدون أم ، فالذي خلق آدم من تراب وقال له كن فيكون ، هو

---

(١) ول ديورانت : قصة الحضارة ـ الجزء الثاني من المجلد الأول ـ ترجمة محمد بدران ـ القاهرة ١٩٦١ ص ٢٤٣ .

(٢) عباس محمود العقاد : إبراهيم أبو الأنبياء دار الهلال ـ ص ١٢٢ .

(٣) ديتلف نلسن : المرجع السابق ص ٢٤٢ ـ ٢٤٣ .

(٤) سورة التوبة : آية ٣٠ .

(٥) سورة النساء : آية ١٧١ .

الذي خلق عيسى من غير أب ، وإلى هذا يشير القرآن الكريم في قوله تعالى : ﴿ **إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون. الحق من ربك فلا تكن من الممترين. فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم ثم نبتهل فنجعل لعنت الله على الكاذبين** ﴾[1] ، وقد أجمع المفسرون أن آية آل عمران (٥٩) نزلت عند حضور وفد نجران على سيدنا رسول الله ﷺ ، وكان من جملة شبههم أن قالوا : يا محمد، لما سلمت أنه (أي عيسى) لا أب له من البشر، وجب أن يكون أبوه هو الله تعالى ، فقال ﷺ : إن آدم ما كان له أب ولا أم، ولم يلزم أن يكون ابناً لله تعالى ، فكذا القول في عيسى عليه السلام، وأيضاً إذا جاز أن يخلق الله تعالى آدم من التراب ، فلم لا يجوز أن يخلق عيسى من دم مريم ، بل هذا أقرب إلى العقل ، فإن تولد الحيوان من الدم الذي يجتمع في رحم الأم، أقرب من تولده من التراب اليابس[2] .

وأخرج في الدلائل بسنده عن ابن عباس : أن وفد نجران من النصارى قدموا على رسول الله ﷺ وهم أربعة عشر رجلاً من أشرافهم ، منهم السيد، وهو الكبير، والعاقب ، وهو الذي يكون بعده وصاحب رأيهم ، فقال رسول الله ﷺ أسلما ، قالا أسلمنا قال ما أسلمتما ، قالا بلى قد أسلمنا قبلك ، قال كذبتما ، يمنعكما من الإسلام ثلاث فيكما : عبادتكما الصليب ، وأكلكما الخنزير، وزعمكما أن لله ولداً ، ونزل «إن مثل عيسى» الآية ، فلما قرأها عليهم قالوا : ما نعرف ما تقول ، ونزل «فمن حاجك» الآية ، فقال لهم رسول الله ﷺ إن الله تعالى قد أمرني ، إن لم تقبلوا هذا ، أن أباهلكم ، فقالوا يا أبا

---

(١) سورة آل عمران : آية ٥٩ ـ ٦١ ، وانظر : تفسير الفخر الرازي ٨/ ٧٤ ، تفسير النسفي ١/ ١٦٠ ـ ١٦٢ ، تفسير روح المعاني ٣/ ١٨٦ ـ ١٩٣ ، تفسير الطبري ٣/ ٢٩٥ ـ ٢٩٨ ، تفسير ابن كثير ١/ ٥٥٠ ـ ٥٥٥ ، في ظلال القرآن ١/ ٤٠٤ ـ ٤٠٦ ، تفسير المنار .

(٢) صفوة التفاسير ١/ ٢٠٦ ـ ٢٠٧ .

القاسم بل نرجع فننظر في أمرنا ثم نأتيك ، فخلا بعضهم ببعض وتصادقوا فيما بينهم ، قال السيد للعاقب : قد والله علمتم أن الرجل نبي مرسل ، ولئن لاعنتموه أنه لاستئصالكم ، وما لاعن قوم نبيّاً قط، فبقي كبيرهم ولا نبت صغيرهم ، فإن أنتم لم تتبعوه وأبيتم ، إلا إلف دينكم ، فوادعوه وارجعوا إلى بلادكم ، وقد كان رسول الله ﷺ خرج ومعه علي والحسن والحسين وفاطمة ، فقال رسول الله ﷺ إن أنا دعوت فأمنوا أنتم ، فأبوا أن يلاعنوه وصالحوه على الجزية» ، وروي أن أسقف نجران لما رأى رسول الله ﷺ مقبلاً ، ومعه علي والحسنان وفاطمة ، رضي الله عنهم ، قال : يا معشر النصارى ، إني لأرى وجوهاً ، لو سألوا الله تعالى أن يزيل جبلاً من مكانه لأزاله ، فلا تباهلوا وتهلكوا» ، وفي التفسير الكبير أن سيدنا رسول الله ﷺ خرج وعليه مرط من شعر أسود ، وكان قد احتضن الحسين ، وأخذ بيد الحسن ، وفاطمة تمشي خلفه ، وعلي رضي الله عنه ، خلفها ، وهو يقول : «إذا دعوت فأمنوا ، قال أسقف نجران : يا معشر النصارى : إني لأرى وجوهاً لو سألوا الله أن يزيل جبلاً من مكانه لأزاله بها ، فلا تباهلوا فتهلكوا ، ولا يبقى على وجه الأرض نصراني إلى يوم القيامة»[1] .

ولا ريب أن هذه القصة أوضح دليل على نبوته ﷺ ، قال أبو حيان في البحر : وفي ترك النصارى الملاعنة لعلمهم بصدقه شاهد عظيم على صحة نبوته ﷺ[2] ، كما أن في دلالتها على فضل آل الله ورسوله ﷺ ، أي أهل البيت ، مما لا يمتري فيها مؤمن[3] ، كما تدل على أن الحسن والحسين عليهما السلام كانا ابني رسول الله ﷺ ، وعد أن يدعو أبناءه ، فدعا الحسن والحسين ، فوجب أن يكونوا أبنية ، ومما يؤكد هذا قوله تعالى في سورة

---

(١) تفسير الفخر الرازي ٨/ ٨٠، تفسير روح المعاني ٣/ ١٨٨ - ١٨٩ .

(٢) تفسير البحر المحيط ٢/ ٤٨٠ .

(٣) تفسير روح المعاني ٣/ ١٨٩ .

الأنعام: ﴿ **ومن ذريته داود وسليمان . . . إلى قوله وزكريا ويحي وعيسى** ﴾ ، ومعلوم أن عيسى عليه السلام إنما انتسب إلى إبراهيم عليه السلام بالأم، لا بالأب ، فثبت أن ابن البنت قد يسمى ولداً ، وكذا ما روى أنه ﷺ لما خرج في المرط الأسود ، فجاء الحسن رضي الله عنه ، فأدخله ، ثم جاء الحسين رضي الله عنه ، فأدخله ، ثم فاطمة ثم علي رضي الله عنهما ، ثم قال: «إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً» ، واعلم أن هذه الرواية كالمتفق على صحتها بين أهل التفسير والحديث[1] .

هذا وقد استدل الشيعة بقصة المباهلة هذه على أولوية الإمام علي كرم الله وجهه بالخلافة ، بعد رسول الله ﷺ بناء على رواية مجيء علي كرم الله تعالى وجهه ، مع رسول الله ﷺ ، ووجه أن المراد حينئذ بأبنائنا الحسن والحسين وبنسائنا فاطمة ، وبأنفسنا الأمير ، وإذا صار نفس الرسول ، وظاهران المعنى الحقيقي مستحيل ، تعني أن يكون المراد المساواة ، ومن كان مساوياً للنبي ﷺ فهو أفضل وأولى بالتصرف من غيره ، ولا معنى للخلافة إلا ذلك[2] ، وهكذا كان سائر الشيعة قديماً وحديثاً يستدلون بهذه الآية (آل عمران آية ٦١) على أن علياً رضي الله عنه ، مثل نفس محمد ﷺ ، إلا فيما خصه الله بالنبوة ، وكان نفس محمد ﷺ أفضل من الصحابة رضوان الله عليهم ، فوجب أن يكون نفس علي أفضل أيضاً من سائر الصحابة[3] .

(٢) دعوى الصلب : -

تمثل عقيدة الصلب عند النصارى[4] موضوع الخلاف الثاني بينهم

(١) تفسير الفخر الرازي ٨/ ٨٠.
(٢) تفسير روح المعاني ٣/ ١٨٩.
(٣) تفسير الفخر الرازي ٨/ ٨١.
(٤) أنظر القصة بالتفصيل (إنجيل متي ٢٦/ ١ ـ ٢٨/ ٢٠، إنجيل مرقس ١٤/ ١ ـ ١٦/ ٢٠، إنجيل لوقا ٢٢/ ١ ـ ٢٤/ ٥٣، إنجيل يوحنا ١٨/ ١ ـ ٢١/ ٢٥).

وبين المسلمين بشأن المسيح عليه السلام، فالقرآن الكريم إنما ينفي قصة صلب المسيح وقتله تماماً، قال تعالى: ﴿ **وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وما قتلوه وما صلبوه، ولكن شبه لهم، وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه ما لهم به من علم، إلا اتباع الظن، وما قتلوه يقيناً بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزاً حكيماً** ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿ **إذ قال الله يا عيسى إني متوفيك ورافعك إلي ومطهرك من الذين كفروا، وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة، ثم إلى مرجعكم فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون** ﴾[2]، هذا وقد كشف إنجيل برنابا هذه الأسطورة، فجاء فيه، على لسان المسيح، «فلما كان الناس دعوني الله وابن الله، على أني كنت بريئاً في العالم، أراد الله أن يهزأ الناس بي في هذا العالم بموت يهوذا، معتقدين أنني أنا الذي مت على الصليب لكيلا تهزأ الشياطين بي في يوم الدينونة، وسيبقى هذا إلى أن يأتي محمد رسول الله، الذي متى جاء كشف هذا الخداع للذين يؤمنون بشريعة الله».

وهذا النص يشير إلى أمرين، الواحد: أن الذي صلب إنما هو «يهوذا الإسخريوطي»، الذي خان السيد المسيح ودل عليه أعداءه حين قبله، ولذا نطق المسيح بمثله المشهور «يا يهوذا أبقبلة تسلم ابن الإنسان»[3]، وأن المسيح عليه السلام لم يحاكم ولم يصلب ولم يرقد في قبر، ولم يقم من بين

---

(١) سورة النساء: آية ١٥٧ - ١٥٨، وانظر: تفسير الطبري ٦/ ١٢ - ١٨، صفوة التفاسير ١/ ٣١٦، تفسير البيضاوي ١/ ١٤١ - ١٤٢، تفسير ابن كثير ١/ ٨٧٢ - ٨٨٩، التسهيل لعلوم التنزيل ١/ ١٦٣، في ظلال القرآن ٢/ ٨٠١ - ٨٠٣، تفسير روح المعاني ٦/ ١٠ - ١٣، تفسير النسفي ١/ ٢٦١ - ٢٦٣.

(٢) سورة آل عمران: آية ٥٥، وانظر: تفسير الفخر الرازي ٨/ ٦٧ - ٧٠، تفسير ابن كثير ١/ ٥٤٨، في ظلال القرآن ١/ ٤٠٣ - ٤٠٤، تفسير الطبري ٣/ ٢٨٩ - ٢٩٣، تفسير روح المعاني ٣/ ١٧٩ - ١٨٤، تفسير النسفي ١/ ١٦٠.

(٣) أنظر: إنجيل لوقا ٢٢/ ١ - ٧١.

الأموات، كما يدعي النصارى، وإنما كانت الواقعة تدور في فلك يهوذا الأسخريوطي، أحد تلاميذ المسيح الإثنى عشر، الذي أراد الله له تنكيلاً جزاء خيانته، ورفع نبيه المسيح إليه، ومن ثم فالذي صلب، كما حققه برنابا، أحد الحواريين، إنما هو يهوذا، شبيه المسيح، وليس المسيح ذاته[1]، وأما الأمر الثاني، فهو نبوءة المسيح بالنبي الخاتم، سيدنا محمد ﷺ وأنه هو الذي سيكشف خدعة الصلب للمؤمنين بشريعة الله وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك في سورتي آل عمران (٥٥) والنساء (١٥٧ - ١٥٨)[2].

وأما الإسلام فيقرر في وضوح وتأكيد، كما أشرنا آنفاً، أن المسيح لم يقتل ولم يصلب، وإنما رفعه الله إليه، قال تعالى: **﴿إذا قال الله يا عيسى إني متوفيك ورافعك إلي ومطهرك من الذين كفروا﴾**، وقد اختلف علماء المسلمين في معنى الوفاة والرفع والتطهير، وقد ساق الأستاذ عبد الوهاب النجار في كتابه «قصص الأنبياء» عدة آراء لعديد من المفسرين بلغت تسعاً[3]، ثم اختار منها أوجهها إليه، وهو أن المراد في قوله تعالى: **﴿يا عيسى إني متوفيك ورافعك إلي ومطهرك من الذين كفروا﴾** هو أني مستوف أجلك ومميتك حتف أنفك، لا أسلط عليك من يقتلك، وأن الآية كناية عن عصمته من الأعداء، ثم تساءل: أين مكان عيسى، وما الذي آل إليه أمره؟ وأجاب عن ذلك: أن الله تعالى أبهم أمره علينا ولم يقصه، فنحن نفوض العلم بذلك إلى الله تعالى، فليكن أنه أماته في الأرض، أو أنامه كما أنام أهل الكهف، أو أصعده إلى السماء، لا نقطع بشيء من هذه الأشياء بعينه،

---

(١) انظر: بعض الروايات العربية عن الموضوع (تفسير ابن كثير ١/ ٨٧٣ - ٨٧٦).

(٢) إبراهيم خليل أحمد: محمد ﷺ في التوراة والإنجيل والقرآن - الطبعة الخامسة - القاهرة ١٩٨٣ ص ٢١٨ - ٢٢٠.

(٣) هذه الأوجه هي: (١) المعنى رافعك إلي ومتوفيك وأن الكلام فيه تقديم وتأخير. (٢) المراد أني =

بل نبهمه كما أبهمه الله تعالى، ومن أراد أن يقطع فعليه دليل ما قطع به، وتفويض العلم إلى الله تعالى أسلم في العاقبة، وأكثر احتياطاً للدين، فليس بهين أن يشهد المرء على الله بأمر لم يشهد به على نفسه، وليس عنده عليه سلطان مبين[1].

ويقول صاحب الظلال: لقد أراد اليهود صلب عيسى عليه السلام وقتله، وأراد الله أن يتوفاه، وأن يرفعه إليه، وأن يطهره من مخالفة الذين كفروا والبقاء بينهم، وهم رجس ودنس، ﴿**إذ قال الله يا عيسى إني متوفيك ورافعك إليّ ومطهرك من الذين كفروا**﴾، فأما كيف كانت وفاته، وكيف كان رفعه، فهي أمور غيبية تدخل في المتشابهات التي لا يعلم تأويلها إلا الله، ولا طائل وراء البحث فيها، لا في عقيدة ولا في شريعة، والذين يجرون وراءها، ويجعلونها مادة للجدل ينتهي بهم الحال إلى المراء وإلى التخليط وإلى التعقيد، دونما جزم بحقيقة، ودون ما راحة بال في أمر موكول إلى علم الله[2].

وعلى أي حال، وكما يقول الأستاذ الإمام محمد عبده في تفسير

= مستوفيك أجلك ومميتك حتف أنفك لا أسلط عليك من يقتلك، فالكلام كتابة عن عصمته من الأعداء، وما هم بصدده من الفتك به عليه السلام، لأنه يلزم من استيفاء الله أجله موته حتف أنفه. (٣) المراد قابضك ومستوف شخصك من الأرض ومن توفي المال بمعنى استوفاه وقبضه. (٤) المراد بالوفاة هنا النوم، لأن النوم والوفاة، يطلق على كل منهما على الآخر، وقد روي عن الربيع أن الله تعالى رفع عيسى عليه السلام وهو نائم رفقاً. (٥) أجلك كالمتوفي لأنه بالرفع أشبه. (٦) المراد آخذك وافياً بروحك وبدنك فيكون ﴿**ورافعك إلي**﴾ كالمفسر لما قبله. (٧) المراد بالوفاة موت القوى الشهوانية العائقة عن اتصاله بالملكوت. (٨) أن المراد مستقبل عملك! قال الألوسي: لا يخلو أكثر هذه الأوجه من بعد، ولا سيما الأخير. (٩) أخرج ابن جرير عن وهب أنه قال: توفى الله عيسى ابن مريم ثلاث ساعات من النهار حتى رفعه إليه، وفي رواية للحاكم عنه: أنه توفاه سبع ساعات ثم أحياه (عبد الوهاب النجار: قصص الأنبياء ص ٤٢٣).

(١) عبد الوهاب النجار: قصص الأنبياء ص ٤٢٣.

(٢) في ظلال القرآن ١/ ٤٠٣.

المنار، فإن للعلماء هنا طريقتين، إحداهما، وهي المشهورة، أنه رفع بجسمه حيّاً، وأنه سينزل في آخر الزمان، فيحكم بين الناس بشريعة محمد ﷺ ثم يتوفاه الله تعالى[1]، ويقول الفخر الرازي: معنى قوله: ﴿**إني متوفيك**﴾ أي متمم عمرك، فحينئذ أتوفاك، فلا أتركهم حتى يقتلوك، بل أنا رافعك إلى سمائي، ومقربك بملائكتي، وأصونك عن أن يتمكنوا من قتلك، وهذا تأويل حسن، وهناك وجه آخر في تأويل الآية هو: أن الواو في قوله: ﴿**متوفيك ورافعك إلي**﴾ تفيد الترتيب، فالآية تدل على أنه تعالى يفعل به هذه الأفعال، فأما كيف يفعل، ومتى يفعل، فالأمر فيه موقوف على الدليل، وقد ثبت الدليل أنه حي، وورد الخبر عن النبي ﷺ: «أنه سينزل ويقتل الدجال» ثم إنه تعالى يتوفاه بعد ذلك[2].

وأما الطريقة الثانية، فيما يرى الأستاذ الإمام، فهي أن الآية على ظاهرها، وأن التوفي على معناه الظاهر المتبادر منه وهو «الإماتة العادية» وأن الرفع يكون بعده، وهو رفع الروح[3]، يقول الفخر الرازي: إني «متوفيك» أي مميتك، وهو مروي عن ابن العباس ومحمد بن إسحاق، قالوا: والمقصود أن لا يصل أعداؤه من اليهود إلى قتلة، ثم أنه بعد ذلك أكرمه بأن رفعه إلى السماء، ثم اختلفوا على ثلاثة أوجه، أحدها: قال وهب توفي ثلاث ساعات، ثم رفع، وأخرج الحاكم عنه أن الله تعالى توفي عيسى سبع ساعات ثم أحياه، وأن مريم حملت به ولها ثلاث عشرة سنة وأنه رفع وهو ابن ثلاث وثلاثين، وأن أمه بقيت بعد رفعه ست سنين، وثانيها: قال محمد بن إسحاق توفي سبع ساعات (وهو قول لوهب كما رأينا) ثم أحياه الله ورفعه، وثالثها، قال الربيع بن أنس: أنه تعالى توفاه حين رفعه إلى السماء، قال

---

(١) تفسير المنار ٣/ ٢٦٠.

(٢) تفسير الفخر الرازي ٨/ ٦٧.

(٣) تفسير المنار ٣/ ٢٦٠.

تعالى: ﴿**الله يتوفى في الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها**﴾[1]، وروى عن الربيع أيضاً وعن الحسن أن الله تعالى رفع عيسى عليه السلام إلى السماء، وهو نائم، رفقاً به[2].

وهكذا وجد عندنا رأيان، الأول، وهو رأي الجمهور، ويذهب إلى أن المسيح عليه السلام رفع إلى السماء حياً، بجسده وروحه، وأنه الآن ما يزال حياً يرزق عند ربه، وفي رفعه إلى أي سماء خلاف، والذي اختاره الكثير من العارفين أنه رفع إلى السماء الرابعة، وعن ابن عباس، رضي الله تعالى عنهما، أنه رفع إلى السماء الدنيا، فهو فيها يسبح مع الملائكة ثم يهبطه الله تعالى عند ظهور الدجال على صخرة بيت المقدس[3]، ويستدل الذي ينادون بأن المسيح رفع حياً إلى السماء بآيتي سورة النساء (١٥٧ - ١٥٨) الآنفتي الذكر، وكذا بقوله تعالى: ﴿**وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً**﴾[4]، فهي تفيد أن عيسى سينزل آخر الزمان، وإذا نزل آمن به كل من كان موجوداً حينئذ من أهل الكتاب لأنه سينزل ليحكم بشريعة محمد رسول الله ﷺ، ويقول الإمام القرطبي في تفسيره: إن الضمير يعود على عيسى عليه السلام، أي قبل موت عيسى، ثم يذكر رواية عن يزيد بن زريع عن الحسن البصري يقول فيها: «والله إنه لحي الآن عند الله، ولكن إذا نزل آمن به أجمعون»[5]، وروى ابن أبي

---

(١) تفسير الفخر الرازي ٨/ ٦٧، تفسير روح المعاني ٣/ ١٧٩.

(٢) تفسير روح المعاني ٣/ ١٧٩.

(٣) تفسير روح المعاني ٣/ ١٨٢.

(٤) سورة النساء: آية ١٥٩، وانظر: تفسير الطبري ٦/ ١٨ - ٢٣، تفسير ابن كثير ١/ ٨٧٦ - ٨٧٨، تفسير النسفي ١/ ١٦٢ - ١٦٣، تفسير روح المعاني ٦/ ١٢ - ١٣، في ظلال القرآن ٢/ ٨٠٢ - ٨٠٣.

(٥) تفسير القرطبي ص ٢٠٠٧ - ٢٠٠٨.

حاتم عن جويرية بن بشير، قال: سمعت رجلاً قال للحسن يا أبا سعيد، قول الله تعالى: ﴿وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته﴾، قال: قبل موت عيسى، إن الله رفع إليه عيسى، وهو باعثه قبل يوم القيامة مقاماً يؤمن به البر والفاجر، وكذا قال قتادة، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وغير واحد[1].

ويقول الإمام الطبري في التفسير: أن أولى الأقوال بالصحة قول من قال إنه لا يبقى أحد من أهل الكتاب بعد نزول عيسى عليه السلام، إلا آمن به (أي عيسى) قبل موت عيسى عليه السلام، ولا شك أن الذي قاله ابن جرير، فيما يرى ابن كثير، هو الصحيح، لأن المقصود من سياق الآية في تقرير بطلان ما ادعته اليهود من قتل عيسى وصلبه، وتسليم من سلم لهم من النصارى الجهلة ذلك، فأخبر الله تعالى أنه لم يكن الأمر كذلك، وإنما شبّه لهم، فقتلوا الشبه وهم لا يتبينون ذلك، ثم إنه رفعه إليه، وإنه باق حي، وإنه سينزل قبل يوم القيامة، كما دلت عليه الأحاديث المتواترة، فيقتل مسيح الظلالة ويكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، يعني لا يقبلها من أحد من أهل الأديان، بل لا يقبل إلا الإسلام أو السيف، فأخبرت هذه الآية الكريمة أنه يؤمن به جميع أهل الكتاب حينئذ، ولا يتخلف عن التصديق به واحد منهم، ولهذا قال تعالى: ﴿وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته﴾ أي قبل موت عيسى عليه السلام، الذي زعم اليهود ومن وافقهم من النصارى أنه قتل وصلب[2].

وأما الأحاديث الشريفة المتواترة[3] بذلك، فمنها ما أخرجه البخاري في صحيحه عن ابن شهاب عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكماً عدلاً،

---

(١) تفسير ابن كثير ١/ ٨٧٧.

(٢) تفسير الطبري ٦/ ٢١، تفسير ابن كثير ١/ ٨٧٨.

(٣) أنظر: تفسير ابن كثير ١/ ٨٧٩ - ٨٨٩ (بيروت ١٩٨٦).

فيكسر الصليب ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، ويفيض المال حتى لا يقبله أحد، وحتى تكون السجدة خير له من الدنيا وما فيها»، ثم يقول أبو هريرة إقرأوا إن شئتم: **﴿وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته، ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً﴾**[1].

وكذا رواه مسلم عن الحسن الحلواني وعبد بن حميد[2]، كلاهما عن يعقوب به، وأخرجه البخاري ومسلم أيضاً من حديث سفيان بن عيينة عن الزهري به، وأخرجاه من طريق الليث عن الزهري به[3]، وروى الإمام أحمد عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «ليهلن عيسى بن مريم بفج الروحاء بالحج أو العمرة أو ليثنينهما جميعاً»[4]، وكذا رواه مسلم منفرداً به من حديث سفيان بن عيية والليث بن سعد ويونس بن يزيد، ثلاثتهم عن الزهري به[5]، وروى الإمام أحمد عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «ينزل عيسى بن مريم، فيقتل الخنزير ويمحو الصليب، وتجمع له الصلاة، ويعطى المال حتى لا يقبل، ويضع الخراج، وينزل الروحاء فيحج منها أو يعتمر أو يجمعها»، قال وتلا أبو هريرة: **﴿وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته﴾** الآية[6]، وأخرج البخاري عن ابن شهاب عن نافع مولي أبي قادة الأنصاري أن أبا هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «كيف بكم إذا نزل فيكم المسيح ابن مريم وإمامكم منكم»[7]، وروى عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال: «وينزل عيسى بن مريم فيقول أميرهم المهدي: تعال صل بنا،

---

(١) صحيح البخاري ٤/ ٢٠٥.

(٢) صحيح مسلم ١/ ٩٣، صحيح البخاري ٣/ ١٧٨.

(٣) صحيح البخاري ٣/ ١٠٧، صحيح مسلم ١/ ٩٣.

(٤) مسند الإمام أحمد ٢/ ٥١٣.

(٥) صحيح مسلم ٤/ ٦٠.

(٦) مسند الإمام أحمد ٢/ ٢٦٠.

(٧) صحيح البخاري ٤/ ٢٥٠، ورواة أيضاً الإمام أحمد ومسلم.

فيقول لا ، إن بعضهم أمير بعض تكرمة الله لهذه الأمة»[1] .

هذا ويستدل القائلون بنزول عيسى قبل يوم القيامة أيضاً بآية الزخرف : ﴿وإنه لعلم للساعة﴾[2] ، وفيها قراءتان الأولى : «وإنه لَعِلْم للساعة» بمعنى أنه يُعلم بقرب مجيئها ، والقراءة الثانية : «وإنه لَعَلَم للساعة» بمعنى أمارة وعلامة ، وكلاهما قريب من قريب[3] ، وهذه القراءة الأخيرة (بفتح العين واللام) قرأ بها ابن عباس وقتادة الأعمش ، والمعنى أمارة وعلامة على اقتراب الساعة ، قال ابن عباس في قوله : «وإنه لَعلَم للساعة» هو خروج عيسى بن مريم قبل يوم القيامة» ، رواه الإمام أحمد وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن أبي حاتم والطبراني والحاكم وصححه هو والذهبي ، وقد رواه ابن حبان في صحيحه ، وقال مجاهد : «وإنه لعلم للساعة» ، أي آية للساعة خروج عيسى بن مريم عليه السلام قبل يوم القيامة ، وهكذا روى عن أبي هريرة وابن عباس وأبي العالية وأبي مالك وعكرمة والحسن البصري وقتادة والضحاك وغيرهم[4] .

وهكذا تستدل جمهرة العلماء من آيات القرآن ومن الأحاديث الثابتة عن النبي ﷺ في نزول عيسى عليه السلام في آخر الزمان[5] ، وما قاله ابن عباس وأبو هريرة وغيرهما من السلف في تفسير آيتي النساء (١٥٩) والزخرف

---

(١) حمود بن عبد العزيز التجري : إقامة البرهان في الرد على من أنكر خروج المهدي والدجال ونزول المسيح في آخر الزمان ـ مجلة البحوث الإسلامية ـ العدد ١٣ ـ شوال ١٤٠٥ ص ١٠٩ .

(٢) سورة الزخرف : آية ٦١ .

(٣) في ظلال القرآن ٥/ ٣١٩٨ .

(٤) تفسير ابن كثير ٤/ ٢٠١ ، حمود التويجري : المرجع السابق ص ١٠٥ .

(٥) جاء في نزول عيسى عليه السلام أكثر من خمسين حديثاً مرفوعاً أكثرها من الصحاح ، والباقي غالبه من الحسان ، فمن زعم أنها كلها مزيفة ، فلا شك أنه فاسد العقل والدين (حمود التويجري : المرجع السابق ص ١٠٥ ـ ١٠٦) .

(٦١) من أن نزول عيسى عليه السلام حق، وقال إمام أهل السنة، أحمد بن حنبل في عقيدة أهل السنة والجماعة التي رواها عنه «عبدوس بن مالك العطار»، «والإيمان أن المسيح الدجال خارج مكتوب بين عينيه كافر، والأحاديث التي جاءت فيه، والإيمان بأن ذلك كله كائن، وأن عيسى بن مريم ينزل فيقتله بباب لدّ، وفي الحديث: «يقتل ابن مريم الدجال بباب لدّ»، وفي رواية «إلى جانب لدّ»[1] ، وقال أبو محمد البربهاري في شرح السنة: والإيمان بنزول عيسى بن مريم عليه السلام، ينزل فيقتل الدجال ويتزوج، ويصلي خلف القائم من آل محمد ﷺ ويموت ويدفنه المسلمون»، والقائم من آل محمد ﷺ هو المهدي، كما جاء في حديث جابر، الآنف الذكر، وفيه أن رسول الله ﷺ ، قال: «وينزل عيسى بن مريم فيقول أميرهم المهدي تعال صل بنا، فيقول لا، إن بعضهم أمير بعض تكرمة الله لهذه الأمة»، رواه الحارث بن أبي أسامة في مسنده بإسناد جيد، وقد ذكره ابن القيم في كتاب «المنار المنيف» وقال إسناده جيد، وقال الطحاوي في العقيدة المشهورة «ونؤمن بأشراط الساعة[2] من خروج الدجال ونزول عيسى بن مريم عليه السلام من السماء».

وقال الإمام ابن تيمية أن عيسى بن مريم عليه السلام حي رفعه الله تعالى إليه بروحه وبدنه، وقوله تعالى: ﴿ **إني متوفيك** ﴾، أي قابضك،

(١) مسند الإمام أحمد ٣/ ٤٢٠، تحفة الأحوذي ٦/ ٥١٣.

(٢) روى الإمام أحمد بسنده عن حذيفة بن أسيد الغفاري قال: أشرف علينا رسول الله ﷺ من عرفة، ونحن نتذاكر الساعة، فقال: «لا تقوم الساعة حتى تروا عشر آيات: طلوع الشمس من مغربها، والدخان، والدابة، وخروج يأجوج ومأجوج، ونزول عيسى ابن مريم والدجال، وثلاثة خسوف: خسف بالمشرق وخسف بالمغرب وخسف بجزيرة العرب، ونار تخرج من قعر عدن تسوق أو تحشر الناس، تبيت معهم حيث باتوا، وتقيل معهم حيث قالوا»، وهكذا رواه مسلم وأهل السنن من حديث فرات القزاربة (مسند الإمام أحمد ٤/ ٧، صحيح مسلم ٨/ ١٧٨، تفسير ابن كثير ١/ ٨٨٧).

وكذلك ثبت أنه ينزل على المنارة البيضاء شرقي دمشق، فيقتل الدجال ويكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية حكماً عدلاً مقسطاً، ويراد بالتوفي الاستيفاء، ويراد به الموت ويراد به النوم، ويدل على كل واحد القرينة التي معه، وقال القاضي عياض في شرح مسلم: نزول عيسى وقتله الدجال حق وصحيح عند أهل السنة للأحاديث الصحيحة في ذلك، وليس في العقل ولا في الشرع ما يبطله، وأنكر ذلك بعض المعتزلة والجهمية ومن يوافقهم، وزعموا أن هذه الأحاديث مردودة بقوله تعالى: **﴿وخاتم النبيين﴾**، وبقوله ﷺ: «لا نبي بعدي»، وبإجماع المسلمين أنه لا نبي بعد نبينا ﷺ، وأن شريعته مؤبدة إلى يوم القيامة لا تنسخ، وهذا استدلال فاسد لأنه ليس المراد بنزول عيسى عليه السلام أن ينزل نبيّاً ينسخ شرعنا، ولا في الأحاديث شيء من هذا، بل صحت الأحاديث أنه ينزل حكماً مقسطاً يحكم بشرعنا، ويحي من أمور شرعنا ما هجره الناس، وقد نقله النواوي في شرح مسلم وأقره، وقال المناوي في شرح الجامع الصغير: أجمعوا على نزول عيسى عليه السلام نبيّاً، لكنه بشريعة نبينا ﷺ، وقال «السفاريني» في شرح عقيدته: نزول المسيح عيسى بن مريم ثابت بالكتاب والسنة وأجماع الأمة، ولم يخالف فيه أحد من أهل الشريعة، وإنما أنكر ذلك الفلاسفة والملاحدة ممن لا يعتد بخلافه، وقد انعقد الإجماع على أنه ينزل ويحكم بهذه الشريعة المحمدية[1].

وأما الرأي الثاني، ويقول به بعض علماء المسلمين، ويذهب إلى أن المسيح عليه السلام قد توفي فعلاً، بعد أن نجاه الله من مؤامرة اليهود، ولم يمكنهم من قتله وصلبه، ومن ثم فإن معنى قوله تعالى: ﴿ بل رفعه الله إليه ﴾[2]

---

(١) حمود التويجري: المرجع السابق ص ١٠١ - ١١٣.

(٢) سورة النساء: ماية ١٥٨.

وقوله تعالى: ﴿ورافعك إلي﴾[1]، إنما يراد به: رفع التعظيم والتكريم، ويستدلون على ذلك بأن الله عز وجل قد قدم كلمة: ﴿إني متوفيك﴾ على كلمة ﴿ورافعك إلي﴾، كما يستدلون بقوله تعالى:[2] ﴿ما قلت لهم إلا ما أمرتني به أن اعبدوا الله ربي وربكم وكنت عليهم شهيداً ما دمت فيهم، فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم، وأنت على كل شيء شهيد﴾[3]، بأن المقصود بها بأنه ليس من أحد من أهل الكتاب، اليهود أو النصاري، إلا ويؤمن بعيسى عليه السلام، إذ عاين ملك الموت، ولكنه إيمان لا ينفع، لأنه إيمان عند اليأس، وحين التلبس بحالة الموت، فاليهودي في ذلك الوقت يقر بأنه رسول الله، والنصراني يقر بأنه كان رسول الله[4].

(١) سورة آل عمران: آية ٥٥.

(٢) سورة المائدة: آية ١١٧.

(٣) يذهب الأستاذ سيد قطب، طيب الله ثراه، في تفسير هذه الآية إلى أن ظاهر النصوص القرآنية يفيد أن الله سبحانه وتعالى قد توفي عيسى بن مريم ثم رفعه إليه، وبعض الآثار تفيد أنه حيّ عند الله، وليس هناك، فيما يرى، أي تعارض يثير أي استشكال بين أن يكون الله قد توفاه من حياة الأرض، وأن يكون حياً عنده، فالشهداء كذلك يموتون في الأرض، وهم أحياء عند الله، أما صور حياتهم عنده، فنحن لا ندري لها كيفاً، وكذلك صورة حياة عيسى عليه السلام، وهو هنا يقول لربه: **إنني لا أدري ماذا كان منهم بعد وفاتي** (في ظلال القرآن ٢/ ١٠٠١)، ويقول في تفسير قوله تعالى: **﴿والسلام علي يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حياً﴾** (مريم آية ٣٣) بأن المسيح إذن حياة محدودة ذات أمد، وهو يموت ويبعث، وقد قدّر الله له السلام والطمأنينة يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حياً، والنص صريح هنا في موت عيسى وبعثه، وهو لا يحتمل تأويلاً في هذه الحقيقة، ولا جدالاً (في ظلال القرآن ٤/ ٢٣٠٨)، ويقول في تفسير قوله تعالى: **﴿يا عيسى إني متوفيك ورافعك إلي ومطهرك من الذين كفروا﴾** (آل عمران: آية ٥٥) بأنهم أرادوا صلب عيسى عليه السلام وقتله، وأراد الله أن يتوفاه ويرفعه إليه، وأن يطره من مخالطة الذين كفروا والبقاء بينهم، وهم رجس ودنس، وأما كيف كانت وفاته، وكيف كان رفعه، فهي أمور غيبية تدخل في التشابهات التي لا يعلم تأويلها إلا الله، ولا طائل وراء البحث فيها، لا في عقيدة ولا شريعة (في ظلال القرآن ١/ ٤٠٣

(٤) محمد الطيب النجار: تاريخ الأنبياء في ضوء القرآن والسنّة النبوية - الرياض ١٩٨٣) ص ٢٨٢ - ٢٨٣.

ويقرر الأستاذ الإمام محمود شلتوت في الفتاوي أن معنى قوله تعالى: **﴿يا عيسى إني متوفيك﴾** أي مميتك إماتة عادية، إذ المعنى اللغوي الوضعي والمعنى القرآني لكملة «متوفيك» إنما هو مميتك إماتة عادية[1]، ومن قال إن عيسى حيّ في السماء، فذلك ادعاء وزعم منه، كما قرر أن معنى الرفع في «ورافعك إلي»، رفع مكانة، لا رفع جسد، بدليل التعقيب الذي جاء بجانب الرفع، وهو قوله تعالى: **﴿ومطهرك من الذين كفروا﴾**، مما يدل على أن الأمر أمر تشريف وتكريم، ويؤيد ذلك أن الرفع جاء في القرآن كثيراً بهذا المعنى (في بيوت أذن الله أن ترفع ـ نرفع درجات من نشاء ـ ورفعنا لك ذكرك ـ ورفعناه مكاناً ـ يرفع الله الذين آمنوا . . . إلخ)، ومن ثم فقد حكم بأن التعبير بقوله تعالى: **﴿ورافعك إلي﴾**، «بل رفعه الله إليه»، كالتعبير في قولهم: «لحق فلان بالرفيق الأعلى» وفي «أن الله معنا» وفي «عند مليك مقتدر»، وكلها لا يفهم منها سوى معنى الرعاية والحفظ، والدخول في الكنف المقدس، فمن يؤخذ كلمة «السماء» من كلمة «إليه»، اللهم إن هذا الظلم للتعبير القرآني الواضح، خضوعاً لقصص وروايات لم يقم على الظن بها، فضلاً عن اليقين، برهان ولا شبه برهان.

ثم يذهب الأستاذ شلتوت بعد ذلك إلى أنه ليس في القرآن ولا في السنة المطهرة[2]، مستند يصلح لتكوين عقيدة يطمئن إليها القلب بأن عيسى رفع بجسمه إلى السماء، وأنه حيّ إلى الآن فيها، وأنه سينزل منها آخر الزمان، وأن كل ما تفيده الآيات الواردة في هذا الشأن هو وعد الله عيسى أنه متوفيه أجله ورافعه إليه، وعاصمه من الذين كفروا، وأن هذا الوعد قد تحقق فلم يقتله أعداؤه ولم يصلبوه، ولكن وفاه الله أجله ورفعه إليه، وأن من أنكر أن عيسى قد رفع بجسمه إلى السماء وأنه حيّ إلى الآن، وأنه سينزل آخر

(١) روى عن الجبائي: أن عيسى مات ثم رفع إلى السماء بعد ذلك (روح المعاني ٧/ ٦٩).

(٢) أنظر: ما سبق أن ذكرناه من الأحاديث النبوة الشريفة.

الزمان، فإنه لا يكون بذلك منكر لما ثبت بدليل قطعي، فلا يخرج عن إسلامه وإيمانه.

ثم أورد بعد ذلك رأي الأستاذ الإمام محمد عبده، وتلميذه الأستاذ محمد رشيد رضا (في الجزء العاشر من المجلد ٢٨ من مجلة المنار) والذي قال فيه: وجملة القول أنه ليس في القرآن نص صريح في أن عيسى رفع بروحه وجسده إلى السماء حياً، حياة دنيوية بهما، بحيث يحتاج بحسب سنن الله تعالى إلى غذاء، وليس فيه نص صريح بأنه ينزل من السماء، وإنما هي عقيدة أكثر النصارى، وقد حاولوا في كل زمان، منذ ظهور الإسلام، بثها في المسلمين[١].

هذا ويذهب الأستاذ الإمام المراغي إلى أنه ليس في القرآن نص صريح قاطع على أن عيسى عليه السلام، رفع بجسمه وروحه، وعلى أنه حيّ بجسمه وروحه، وقوله تعالى: **﴿إذ قال الله يا عيسى إني متوفيك ورافعك إلي ومطهرك من الذين كفروا﴾**، الظاهر منه أنه توفاه وأماته ثم رفعه، والظاهر من الرفع بعد الوفاة أنه رفعه درجات عند الله، كما قال في إدريس عليه السلام: «ورفعناه مكاناً عالياً»، وهذا الظاهر ذهب إليه بعض علماء المسلمين، فهو عند هؤلاء العلماء توفاه الله وفاة عادية، ثم رفع الله درجاته عنده، فهو حيّ حياة روحية، كحياة الشهداء، وحياة غيره من الأنبياء، لكن جمهور العلماء على أنه رفع بجسمه وروحه، فهو حيّ الآن بجسده وروحه، وفسروا الآية بهذا بناء على أحاديث وردت كان لها عندهم المقام الذي يسوّغ تفسير القرآن بها، لكن هذه الأحاديث لم تبلغ درجة الأحاديث المتواترة التي توجب على المسلم عقيدة، والعقيدة لا تجب إلا

(١) محمود شلتوت: الفتاوي ص ٥٢ ـ ٥٧، محمود بن الشريف: المرجع السابق ص ٢٠٧ - ٢٠٩.

بنص من القرآن أو بحديث متواتر، وعلى ذلك فلا يجب على المسلم أن يعتقد أن عيسى عليه السلام حيّ بروحه وجسده، والذي يخالف في ذلك لا يعد كافراً في نظر الشريعة الإسلامية[1]، والأئمة المجتهدون الذي اتجهوا هذا الاتجاه كلهم قد استقوا من معين واحد، واستمدوا رأيهم من رأي الإمام الرازي الذي قال: واعلم أن هذه الآية تدل على أن رفعه في قوله: ﴿ورافعك إليّ﴾ هو الرفعة بالدرجة والمنقبة، لا بالمكان والجهة، كما أن الفوقية في هذه ليست بالمكان، بل بالدرجة والرفعة[2].

وأما النصارى، فقد جعلوا خاتمة المسيح عليه السلام، كما يقول الأستاذ رشيد رضا، خاتمة شنيعة، ومأساة مروعة، وجعلوا الاعتقاد بحصولها على الوجه الذي صوروه أصلاً من أصول دينهم، ودعامة من دعائم عقيدتهم، لا يقبل من مؤمن إيمانه إلا بها، وهي الاعتقاد بصلب المسيح، وقد تلمسوا لتلك العقيدة أصلاً في العهد القديم، وأسسوا عليه صلب المسيح، فقالوا: إن آدم، وهو أول كل البشر، قد عصي الله تعالى بالأكل من الشجرة التي نهاه عن الأكل منها، فصار خاطئاً، وصار جميع ذريته خطاه مستحقين للعقاب في الآخرة بالهلاك الأبدي، وقد جاء جميع أبناء آدم خطاة مذنبين، فهم يحملون وزر ذنوبهم، ووزر ذنب أبيهم، ولما كان الله من صفاته العدل والرحمة، فمن عدله ألا يترك الجريمة دون عقاب، وإلا لم يكن عادلاً، ولهذا شاء الله أن يحمل ابنه، الذي هو بنفسه (الله) في رحم امرأة من ذرية آدم، ويتجسد حنيناً في رحمها ويولد منها، فيكون ولدها «إنساناً» كاملاً من حيث أنه ابن لتلك المرأة، و «إلهاً» كاملاً، من حيث أنه ابن الله، ويكون معصوماً من جميع المعاصي، ثم بعد أن يعيش كما يعيش

---

(١) نفس المرجع السابق ص ٢٠٩ ـ ٢١٠.

(٢) تفسير الفخر الرازي ٨/ ٦٩.

الناس، ويأكل كما يأكلون، ويشرب مما يشربون، ويتلذذ ويتألم، كما يتلذذون ويتألمون يأتي أعداء الله، وأعداء شريعته، ويقتلونه شر قتلة وأفظعها، وهي أن يصلبوه ويسمروا يديه ورجليه في الخشب، ثم يقتلوه بعد أن يلطموه على وجهه ويسخروا منه، ويضفروا له إكليلاً من الشوك ويبصقوا في وجهه، كل ذلك ليفدي البشر من جريمة لم يقترفها هو، ولا هم[1].

(١) تفسير المنار ٦/ ٢٥، وانظر التفصيلات عن قصة الصلب هذه: إنجيل متي ٢٦/ ١ - ٢٨/ ٢٠، مرقس ١٤/ ١ - ١٦/ ٢٠، لوقا ٢٢/ ١ - ٢٤/ ٥٣، يوحنا ١٨/ ١ - ٢١/ ٢٥.

فهرست

الباب الثاني
سيرة سليمان عليه السلام

الكتاب الخامس
الأنبياء: من أيوب إلى يحيى عليهم السلام

الكتاب السادس
المسيح عيسى بن مريم رسول الله